النثر الفني

في القرن الرابع

تأليف

زكي مبارك

دكتور في الآداب من الجامعة المصرية ومن جامعة باريس
وحائز دبلوم الدراسات العليا في الآداب من مدرسة اللغات الشرقية في باريس

[قدم هذا الكتاب بالفرنسية الى جامعة باريس ونوقش أمام الجمهور في ٢٥ أبريل سنة ١٩٣١
ونال به المؤلف إجازة الدكتوراه بدرجة مشرف جداً]

الجزء الثاني

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد علي بمصر لصاحبها : مصطفى محمد

[الطبعة الأولى]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٥٢ هـ — ١٩٣٤ م

النثر الفني

في القرن الرابع

تأليف

زكي مبارك

دكتور فى الآداب من الجامعة المصرية ومن جامعة باريس

وحائز دبلوم الدراسات العليا فى الآداب من مدرسة اللغات الشرقية فى باريس

[قدم هذا الكتاب بالفرنسية الى جامعة باريس ونوقش أمام الجمهور فى ٢٥ أبريل سنة ١٩٣١

ونال به المؤلف إجازة الدكتوراه بدرجة مشرف جدا]

الجزء الثاني

[الطبعة الأولى]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٥٢ هـ = ١٩٣٤ م

تحت الطبـــع :

١ – سرائر الروح الحزين .

٢ – أكواب الشهد والعلقم .

٣ – أسمـار وأحاديث .

فهـــــرس (١)

الباب الرابع

كتاب النقـد الأدبى

الباب الخامس

كتاب الآراء والمذاهب

الباب السادس

كتاب الرسائل والعهـود

(١) انظر (الفهرس المفصل) فى آخر الجزء

مكتبة لسان العرب

الباب الرابع

كتاب النقد الأدبي

١ – أبو الحسن الجرجانى

١ — إن للرجل الذى نتحدّث عنه فى هذا الفصل فضلا على علوم اللغة العربية يجب أن يعرفه طلاب الأدب والبيان .

ويكفى فى تقدير فضله أن نشير الى أنه أستاذ عبد القاهر الجرجانى صاحب "أسرار البلاغة" و"دلائل الاعجاز"(١) . وسيرى القارئ فى درس هذه الشخصية ما لم يكن ينتظره من درس شخصيات الفقهاء .

فأبو الحسن هذا قاض من كبار القضاة عند الشافعية، ولكنه بالرغم مما يحيط بوظيفة القضاء من قيود الرزانة وأغلال الوقار : رجلٌ طليق العقل، حىّ الإحساس، حر الوجدان يلق الى فطرته القياد فيما يعمل وما يقول . وأى خسارة كانت تُرزَء بها الآداب العربية لو توقر هذا الرجل وترهب وألقى بنفسه فى تيار الجمود ! وأى خطر كان يحدق بالقضاء لو أصمّ هذا القاضى مشاعره، وأمات ذوقه، ودفن إحساسه، وأغمض عينيه عما فى هذا العالم من فنون السحر، وضروب الفتون !

أفتحسب القضاة بنجوة عما تعرض له النفس الانسانية من ظلمات الفتن وعواصف الأهواء ؟ إن أوّل صفات القاضى فيما أعتقد أن يكون "إنسانا" له فى حياته ما يخضع له من مطامع العقل، وأمانىّ النفس، وحاجات الفؤاد . وإلا فكيف يحكم بين الناس وهو لا يحس بما تدين له النفس الانسانية من نزوات المشاعر، وهفوات العقول ؟

٢ — ولد أبو الحسن على بن عبد العزيز فى مدينة جرجان سنة ٢٩٠ للهجرة . وجرجان هذه مدينة مشهورة بين طبرستان وخراسان، كما ذكر ياقوت . وقد خرج منها عدد من الأدباء

---

(١) هكذا يقول ياقوت فى معجم الأدباء ص ٢٤٩ ج ٥، ولكنه يقول فى ص ٣ ج ٧ : إن عبد القاهر ليس له أستاذ سوى محمد بن الحسين ابن أخت أبي علي الفارسي، وكذلك قال السيوطى فى بغية الوعاة ص ٣١٠

والعلماء والفقهاء والمحدّثين . وكانت لعهد من عُرفت بهم من كبار الباحثين مشهورةً بالصناعة المتينة، والفواكه الكثيرة : فكان فيها الإبريسم الجيد الذى لا يستحيل صِبغه ، والذى كان يحمل الى جميع الآفاق ، وكان بها كثير من النخل والزيتون، والجوز والرمان، وكان بها ما شاء القناص من الأجادل والزرازير، والظباء واليعافير . وكانت فوق هذا كله مشهورة بالخمر، وفيها يقول ابن خريم، أو الأقيشر اليربوعى — تردّد فى ذلك صاحب معجم البلدان — :

وصهباء جرجانيــة لم يطف بهـا ... حنيف ولم يتغر بهـا ساعةً قِــدرُ
ولم يشهـــد القَس المهينم نارها ... طروقا ولم يحضر على طبخها حَـبر
أتانى بهـا يحيي وقـــد نمت نومة ... وقد لاحت الشعرى وقد جَنَح النسر
فقلت آصطبحها أو لغيرىَ فآسقها ... فمـا أنا بعد الشيب ويحك والخمر
تعففت عنها فى العصور التى مضت ... فكيف التصابى بعد ما كلأ (١) العمر
إذا المرء وفّى الأربعين ولم يكن ... له دون ما يأتى حياءٌ ولا ســتر
فدعه ولا تنفس عليـــه الذى أتى ... وإن جرّ أسـباب الحياة له الدهر

قال ياقوت : وكان أهل الكوفة يقولون : من لم يرو هذه الأبيات فانه ناقص المروءة (٢) .

ونرى أن لوفرة ما كان بجرجان من الفواكه ولشهرتها بالخمر تأثيرا فيما كان لأهلها من رقة الحس ، ودقة الذوق . وفى ظلال هـذه المدينـة المفتنّة فى تنسيق المزارع والمصـانع نشأ أبو الحسن الذى برع من تقدّمه من الكاتبين فى أساليب البيان .

٣ — ولقد ظلت جرجان أثيرة لديه طول حياته وكان الصاحب بن عباد فيما قال يقسم له بها من إقباله وإكرامه أكثر ممـا يتلقاه به فى سائر البلاد .

قال : وقد آستعفيته يوما من فرط تحفّيه بى وتواضعه لى فأنشدنى :

أكرم أخاك بأرض مولده ... وأمدّه من فعلك الحســن

(١) كلأ العمر : انتهى إلى آخره وأقصاه .

(٢) ورد حديث هذه الأبيات قبل ياقوت فى الأمالى . انظر ص ٧٥ ج ١ طبع بولاق .

فالعـــز مطلوب وملتَمَسٌ وأعزه ما نِيل فى الوطنِ

ثم قال : قد فرغت من هذا المعنى فى العينية ، يريد قوله :

وشيدت مجدى بين قومى فلم أقل ألا ليت قومى يعلمون صنيعى

قال : والأصـل فيه قوله تعـالى : ﴿ يا ليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين ﴾ . ورغبة الرجل فى أن يكرم فى وطنه وبين أهله من الأمانى الانسانية التى تحدث بها الشعراء فى مختلف الأجيال .

قال الثعالبى : "وكان فى صباه خلَف الخضر فى قطع عرض الأرض وتدويخ بلاد العراق والشـام وغيرها واقتبس من أنواع العلوم والآداب ما صار به فى العلوم عَلَما ، وفى الكمال عالَمـا . ثم عرَّج على حضرة الصاحب وألقى بها عصا المسافر فاشـتد اختصاصه به ، وحل منه محلا بعيـدا فى رفعته ... وتقـلد قضاء جرجان من يده . ثم تصرفت به أحوال فى حياة الصاحب وبعد وفاته بين الولاية والعطلة . وأفضى محله الى قضاء القضاة بالرى فلم يعزله عنه إلا موته رحمه الله"[٢]. وكانت وفاته بالرى يوم الثلاثاء لست بقين من ذى الحجة سنة ٣٩٢ ـ وحمل تابوته الى جرجان فدفن بها . وحضر جنازته الوزير القاسم بن على وأبو الفضل العارض راجلين . فيما ذكر ياقوت[٣] .

٤ — ألف أبو الحسن الجرجانى فى الفقه والأدب والتاريخ . أما تآليفه فى الفقه فلم يصلنا منه شىء . وقد جاء فى طبقات الشافعية أنه صنف كتابا فى الوكالة فيه أربعة آلاف مسألة . ولو وصل إلينا هذا الكتاب لعرفنا كيف استطاع هذا القاضى الأديب أن يخدم التشريع . وأما تآليفه فى التاريخ فلم يُعرف منه إلا كتاب تهذيب التاريخ وهو كتاب وصفه الثعالبى بأنه (تاريخ فى بلاغة الألفاظ وصحة الروايات وحسن التصرف فى الانتقادات)[٤] وقد ضاع هذا الكتاب ولكن الثعالبى حفظ لنا منه فصلين اثنين يمكن أن نعرف منهما منحى هذا الرجل فى دراسة التاريخ :

(١) ص ٢٥٢ ج ٥ معجم الأدباء . (٢) ص ٢٣٨ ج ٣ يتيمة (٣) ص ٢٤٩ ج ٥
(٤) ص ٢٤٢ ج ٣ يتيمة .

فهو يبين فى الفصل الأول أن من غرضه أن يكشف عن مغازى رسول الله وحروبه ، وعن سراياه وبعوثه ، ومتى قارَب ولايَن ، وفى أى وقت جاهَر وكاشف — ويبين فى الفصل الثانى أنه يرمى بكتابه الى غرض دينى وغرض دنيوى : فيبين من الوجهة الدينية كيف طمس الله معالم الشرك ، وأوضح معارف الحق . و يترك من الوجهة الدنيوية أثرا يذكر به عند الصاحب ابن عباد ... وهـذا الاتجاه يدل على أن هـذا الرجل كان يستخدم التاريخ فى نشر الدعوة الاسلامية . وآستخدام التاريخ فى الأغراض الدينية والسياسية يحمل المؤرخ على مكاره كثيرة يحجو منها من يحاول أن يجعل التاريخ صورة صادقة للأمم والشعوب . وقد يكون للصاحب بن عباد مثلا ميلٌ خاص الى بعض الأحزاب الاسلامية . ولهذا أثره المحتوم فى كتاب يوضع بنيته وإرشاده . وتلك خطة قد تكون نبيلة باعتبار ما ترمى اليه : فطالما آعتزت الأمم بما قد يصوّر به ماضيها من شتى التهاويل . ولكنها خطة خطرة على التاريخ .

أما تاليفه فى الأدب فقد بقى لنا منه "كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه" وسنعود اليه . وأما آثاره الأدبية فلم يبق منها إلا طائفة من الشعر المختار هى عدّتنا فى تصوير نفس ذلك القاضى الأديب .

٥ — كانت نفس القاضى على بن عبد العزيز الجرجانى نفسا غالية : فلقد ترك لنا فى شعره صورة لنفسه الأبية العزيزة ، التى حرمت عليه طيبات الحياة : إيثارا للعزة والأنفة والكرامة ، وصونا للعرض من الدنس ، وإبعادا للمروءة عن مواطن الآبتذال . وسيرى القارئ حين نقدّم له صورة تلك النفس الغالية ، الغالية . ولو شئت لكررتها ثلاثا . سيرى فيها عزاءً له إن كان من الذين وقفت نفوسهم الأبية فى سبيل ما يشتهون من بسطة الرزق ، وصولة الجاه . ومن ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فينقل ما نكتب عن هذه النفس الى من خلعوا نفوسهم عند أبواب المطامع ، وأقبلوا على مصارع الفضل مهطعين؟ لقد عزّت نفس قاضى القضاة وأسرفت فى التصوّن ، إن كان فى التصوّن إسراف ، وما زالت به تصدّه عن مواطن الشبهات ومظان الرِّيب والظنون حتى زينت له العـزلة والآنفراد . وشعره فى هـذا المعنى مثـال من

الأمثلة العليا التى يعتز بها كاتبها كبار النفوس . فليسمع أهل العلم كيف يصف نفسه ذلك العزيز الأنوف :

يقولون لى فيك انقباضٌ وانما ... رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما
أرى الناس من داناهمو هان عندهم ... ومن أكرمته عزة النفس أُكرِما
وما زلت منحازا بعرضىَ جانبا ... من الذم أعتدّ الصيانة مغنما
اذا قيل هذا مشرب قلت قد أرى ... ولكنّ نفس الحرّ تحتمل الظما
وما كل برق لاح لى يستفزنى ... ولا كل أهل الأرض أرضاه منعما
ولم أقض حق العلم ان كان كلما ... بدا طمع صيرته لىَ سُلما
ولم أبتذل فى خدمة العلم مهجتى ... لأخدم من لاقيت لكن لأُخدَما
أأشقى به غرسا وأجنيه ذلة ... إذن فاتّباع الجهل قد كان أحزما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ... ولو عظموه فى النفوس لعُظّما
ولكن أهانوه فهانوا ودنّسوا ... مُحَيّاه بالأطماع حتى تجهما

وفى هذا المعنى يقول من كلمة ثانية :

على مهجتى تجنى الحوادث والدهرُ ... فاما اصطبارى فهو ممتنعٌ وعرُ
كأنى ألاقى كل يوم ينوبنى ... بذنب وما ذنبى سوى أننى حر
فان لم يكن عند الزمان سوى الذى ... أضيق به ذرعا فعندى له الصبر
وقالوا توصل بالخضوع الى الغنى ... وما علموا أن الخضوع هو الفقر
وبينى وبين المال بابان حرّما ... علىّ الغنى : نفسى الأبية والدهر
إذا قيل هذا اليسر عاينت دونه ... مواقف خيرٌ من وقوفى بها العسر
إذا قدّموا بالخير قدمت دونهم ... بنفس فقير كل أخلاقه وفر

فى هاتين الكلمتين صورة لتلك النفس المعذبة التى قضى عليها الفضل بالشقوة والحرمان. وأشرف ما وصف به ذلك القاضى حظه من العزة تصويره للطيبات تُعرَض عليه عرضا فيأباها إيثاره للصون وحرصه على الجلال . يتمثل هذا فى قوله :

إذا قيل هذا مشرب قلت قد أرى ولكن نفس الحر تحتمل الظمأ

وقوله :

إذا قيل هذا اليسر عاينت دونه مواقف خيرٌ من وقوفى بها العسر

وقوله :

وبينى وبين المال بابان حرّما علىّ الغنى : نفسى الأبية والدهر

ويرحم الله من يعانى ثورة النفس، وقسوة الزمان !

٦ — وما أحب أن أترك هذه الناحية من أبى الحسن الجرجانى قبل أن أقف القارئ على لون آخر من ألوان تلك النفس ، فقد رأى كيف يثور على زينة الحياة الدنيا سخطا على ما يصحبها من مواقف الهوان . فلينظر كيف يعتذر من انقباضه عن أخويه، وكيف يلمح برفق ولطف الى ما طوى عنه إباؤه من أسباب النعيم ، وكيف أنس بالوحدة والوحشة هربا من مواقع الظنون ، وكيف جعل نفوره من العالم سجية فطر عليها منذ قضى الله أن يلق به فى ظلمات هذا الوجود، وذلك حيث يقول :

أيا معهد الأحباب ذكّرهم عهدى ودم لى وإن دام البعاد على الودّ
ولى خلُقٌ لا أستطيع فراقه يفوّتنى حظى ويمنعنى رشدى
نفور عن الإخوان من غير ريبة يعدّ جفاءً والوفاء لهم وكدى
غذيت به طفلا فان رمت هجره تأبّى وأغرتنى به ألفة المهد
كما ألفتْ كفاكما البذل والندى فأعياكما أن تمنعا كف مستجدى
على أننى أقضى الحقوق بنيتى وأبلغ أقصى غاية القرب فى بعدى
ويخدمهم قلبى وودّى ومنطق وأبلغ فى رعىِ الذمام لهم جهدى
فإن أنتما لم تقبلا لىَ عذرة وألزمتمانى فيه أكثر من وجدى
فقولا لطبعى أن يزول فانه يرى لكما حق الموالى على العبد

٧ — كان القاضى أبو الحسن الجرجانى من المغرمين بالتغريد على أفنان الجمال . وشعره فى وصف الملاحة ذو أفانين وشجون . فقد نراه يترنم بمظاهر الحسن ، ويتغنى بما فضح الشباب من أسرار الصباحة . كقوله — فى الخدّ المورّد والطرف الكحيل — :

أُنثر على خدّىَ من وردك أو دع فمى يقطفه من خدّك
ارحم قضيب البان وارفق به قد خفت أن ينقدّ من قدّك
وقل لعينيك بنفسى هما يخففان السقم عن عبدك

وقوله — فى مغازلة النديم — :

أفدى الذى قال وفى كفه مثلُ الذى أشرب من فيه
الورد قد أينع فى وجنتى قلت فمى باللثم يجنيه

وقوله — فى فتنة الألحاظ — :

من ذا الغزال الفاتن الطرفِ الكامل البهجة والظرفِ
ما بال عينيه وألحاظه دائبة تعمل فى حتفى
واهًا لذاك الورد فى خدّه لو لم يكن ممتنع القطف
أشكو الى قلبك يا سيدى ما يشتكى قلبىَ من طرفى

وقوله — فى اختلاس التقبيل — :

وغنج عينيك وما أودعت أجفانها قلب شجٍ وامقِ
ما خلق الرحمن تفاحتىّ خديك إلا لفم العاشق
لكننى أُمنَع منها فما حظىَ إلا خلسة السارق

وقوله — فى القسم بجنود الجمال — :

لا وجفون يغضها العذَلُ عن وجنات تذيبها القُبَلُ
ومهجة للهوى معرضة تعبث فيها القدود والمقل
ما غاب من غاب عن ذراك وان أخر ميقات يومه الأجل

وهذه القطع التى آخترناها من شعره فى الأوصاف الحسية تمثله شره الحواس . وله فى هذه المعانى أشعار طريفة يقضى العُرف الاجتماعى بأن لا تنشر فى مثل هذا الكتاب فلنطوها عن القارئ طاعة للتقاليد . وإحساس هذا القاضى بالجمال جعله يختلق الأسباب ليفصح عما يعنِّى نفسه من أغلال الوجد الدفين . ولننظر كيف يتحدّث عن سحر العيون وهو يشكو الزمان إذ يقول :

مَن عاذرى من زمن ظالم ليس بمستحيٍ ولا راحم
تفعل بالأحرار أحداثه فعل الهوى بالدنف الهائم
كأنما أصبح يرميهمو عن جفن مولاى أبى القاسم

وفى تصيُّد أسباب الغزل وموجبات التشبيب يقول فى تفدية حبيب نال من دمه مبضع الطبيب :

يا ليت عينى تحملت ألمك بل ليت نفسى تقسمت سَقَمك
وليت كف الطبيب إذ فصدت عرقك أجرت من ناظرىَّ دمك
أعرتَه صِبغ وجنتيك كما تعيره إن لثمت من لثمك
طرفك أمضى من حدّ مِبضعه فالحظ به العرق وآرتجز ألمك

٨ — وقد يلهو هذا القاضى الأديب عما فى الجمال من نعيم الحواس ، ويعود الى بكاء ما ذهب من أنسه فى أيامه السوالف ، ولياليه الخوالى . فيذكرنا بلوعة الشريف الرضى الذى كاد ينفرد برقة الحنين . ولننظر كيف يذوب روحه وهو يناجى النسيم :

يا نسيم الجنوب بالله بلِّغ ما يقول المتيم المستهامُ
قل لأحبابه فِداكم فؤاد ليس يسلو ومقلة لا تنام

وكيف يقول فى خطاب الديار، ديار الأنس المفقود :

يا ديار السرور لا زال يبكى بك فى مَضحك الرياض غمامُ
ربّ عيش صحبته فيك غض وجفون الخطوب عنا نيام

فى ليال كأنهن أمانٍ من زمان كأنه أحلام
وكأن الأوقات فيها كؤوس دائرات وأنسهن مدام
زمن مسعدٌ وإلفٌ وَصولٌ ومنًى تستلذها الأوهام
كل أنس ولذة وسرور قبل لقياكمو علىّ حرام

وقد أطلق الشاعر خياله فى هذه الأبيات فأضحت معانيه كأنها خيال فى خيال . أليس يذكر أن عيشه الغض كان :

فى ليال كأنهن أمانٍ من زمان كأنه أحلامُ

ولكن من ذا الذى ينكر جمال هذا الخيال؟ أو من ذا الذى لا يروقه نوم جفون الخطوب ؟

ومن جيد الشعر قوله فى الحنين الى ليالى بغداد :

أراجعةٌ تلك الليالى كعهدها الى الوصل أم لا يُرتجى لى رجوعها
وصحبة أقوام لبست لفقدهم ثياب حداد يستجدّ خليعها
إذا لاح لى من نحو بغداد بارق تجافت جنوبى وآستُطير هجوعها
وإن أخلفتها الغاديات رعودها تكلف تصديق الغمام دموعها
سقى جانبىْ بغداد كل غمامة يحاكى دموع المستهام هموعها
معاهد من غزلان إنس تحالفت لواحظها أن لا يُداوَى صريعها
بها تسكن النفس النّفور ويغتدى بآنس من قلب المقيم نزيعها
يحن إليها كل قلب كأنما تشاد بحبات القلوب ربوعها
فكل ليالى عيشها زمن الصبا وكل فصول الدهر فيها ربيعها
وما زلت طوع الحادثات تقودنى على حكمها مستكرها فأطيعها

راجع هذا الشعر أيها القارئ وقلّب النظر فى ثنايا ذلك الروح الحزين . فسترى تلك اللوعة الدفينة وذلك الوجد الدخيل يرجعان الى الكلف بمظاهر الحسن ، والظمأ الى معاهد

تلك الظباء التى تحالفت لحاظها أن لا يداوَى لها صريع ، أو يبرأ منها جريح ، أو يُبكَى فى ظلالها قتيل . وما أضيع الدمع المسفوح فوق أفنان الجمال ! .

وما أحب أن يغفل القارئ عن رقة الشوق فى هذين البيتين يصف بهما الشاعر معاهد تلك الظبـاء :

بهـا تسكن النفس النفور و يغتدى بآنس من قلب المقـيم نزيعها
يحن اليهـا كل قلب كأنمـا تشاد بحبـات القلوب ربوعها (١)

والعجيب فى هـذا الشعر أن تُصـوِّر نفس المحب فى غربتـه ونواه وهى تأنس بديار الأحباب فوق ما يأنس المقيم ! أهذا حق؟ أهذا ممـا يشهد به الوجدان ؟ قد يكون ذلك . وغيرى عنده الخبر اليقين ! .

ولكن أين أنس الظـاعن من نعيم المقيم ؟ وأين روح الذكرى من نشـوة الاصـطباح بوجوه الملاح ؟ ومن يدرى لعل من أنس بهم هـذا الغريب أعانتهم غربة النوى على نسيان العهـــود !

رويدكمُ لا تسبقوا بقطيعـــتى صروف الليالى إن فى الدهر كافيا
أفى الحق أنى قـد قضيت ديونكم وأن ديـــونى باقياتٌ كما هيا
فوا أســـفى حتـام أرعى مضيّعا وآمن خـــوّانا وأذكر ناســيا
وما زال أحبـابى يسيئون عشرتى ويجفـوننى حـتى عذرت الأعاديا

(١) ما نقلناه من شعر الجرجانى يجده القارئ فى أخباره باليتيمة — ج ٣ — ومعجم الأدباء — ج ٥ —

٢ - كتاب الوساطة

١ - «الوساطة بين المتنبي وخصومه» كما سماه صاحب وفيات الأعيان، أو «الوساطة بين المتنبي وخصومه ونقد الشعر» كما سماه صاحب كشف الظنون : هو كتاب فى النقد لأبي الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى . يقع فى ٣٦١ صفحة بالقطع الكبير طبعه وصححه وشرح بعض ألفاظه حضرة أحمد عارف الزين من أدباء صيدا فى سنة ١٣٣١ هجرية . نقلا عن نسختين مخطوطتين إحداهما بمصر وأخراهما بالعراق . ولم تسلم هذه الطبعة مع ما بذل فيها من الجهد من مظاهر النقص والتحريف . أحسن الله لناشرها الجزاء .

٢ - ذكر الثعالبي أنه لما عمل الصاحب بن عباد رسالته المعروفة فى إظهار مساوى المتنبي عمل القاضى أبو الحسن كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه[(١)] .

أما المؤلف فيذكر أنه رأى أهل الأدب فى المتنبي فئتين : فئة تطنب فى تقريظه وتتناول من ينقصه بالاحتقار والتجهيل، وفئة تجتهد فى إخفاء فضائله وإظهار معايبه . وكلا الفريقين إما ظالم له أو للأدب فيه، وأنه رأى من البر بالآداب - وهى أرحام لأبنائها - أن يقول كلمة الحق فى الفصل بين المتنبي وخصومه المسرفين . ويقول فى الحرص على الأواصر الأدبية : « وما مَن حفظ دمه أن يسفك بأولى ممن رعى حريمه أن يهتك . ولا حرمة أولى بالعناية وأحق بالحماية وأجدر أن يبذل الكريم دونها عرضه ويمتهن فى إعزازها ماله ونفسه من حرمة العلم الذى هو رونق وجهه ، ووقاية قدره ، ومنار اسمه ، ومطية ذكره . وبحسب عِظم مزيته ، وعلو مرتبته ، يعظم حق التشارك فيه . وكما تجب حياطته تجب حياطة المتصل به وبسببه . وما عقوق الوالد البرّ، وقطيعة الأخ المشفق ، بأشنع ذكرا، ولا أقبح وسمًا من عقوق من ناسبك الى أكرم آبائك، وشاركك فى أفخر أنسابك ، وقاسمك فى أزين أوصافك ، ومتَّ اليك بما هو حظك من الشرف وذريعتك الى الفخر[(٢)] » .

---

(١) ص ٢٣٩ ج ٣ يتيمة .   (٢) الوساطة ص ١٠

وهذا الحرص على بنوّة العلم وأخوّة الأدب لا يحمل القاضى الجرجانى على التعصب المطلق . وإنما يزين له أن يحوطه بالعدل والانصاف فيقول فى ذلك :

”وكما ليس من شرط صلة رحمك أن تحيف لها على الحق أو تميل فى نصرها عن القصد فكذلك ليس من حكم مراعاة الأدب أن تعدل لأجله عن الإنصاف، أو تخرج فى بابه الى الإسراف . بل تتصرف على حكم العدل كيف صرفك، وتقف على رسمه كيف وقفك . فتنتصف تارة وتعتذر أخرى، وتجعل الإقرار بالحق عليك شاهدا لك اذا أنكرت . وتقيم الاستسلام للحجة اذا قامت محتجا عنك اذا خالفت . فانه لا حال أشدّ آستعطافا للقلوب المنحرفة، وأكثر استمالة للنفوس المشمئزة، من توقفك عند الشبهة اذا عرضت، واسترسالك للحجة اذا قهرت[1]“ .

وأخوّة الأدب هذه عُرفتْ قبل هذا القاضى الأديب فى شعر أبى تمام وديك الجن وعلىّ ابن الجهم والبحترى وعلى بن محمد الكوفى . وللقارئ أن يرجع الى ما قيل فيها من جيد الشعر فى الجزء الثالث من زهر الآداب[2] ليرى كيف تأثر هذا الكاتب المبدع بما أطال النظر فيه من دقائق الشعر البليغ .

٣ — وضع القاضى الجرجانى لكتاب الوساطة مقدّمة طويلة تكلم فيها عن أغلاط الشعراء فى الجاهلية وعن تأثير الطباع والأمكنة فى رقة الشعر وجفائه . وانتقل الى الكلام عن أبى تمام والبحترى وجرير وأبى نواس فذكر ما لهم من المحاسن والعيوب .

وساقه هذا الى بحث الاستعارة والجناس والتصحيف والتقسيم . ثم أخذ فى الحديث عن المتنبي فذكر السخيف والمعقد من شعره وتكلم عن تخلصه ومطالعه واعتذاره وفلسفته وسرقاته الشعرية وما أنكر العلماء عليه وما قيل فى الاعتذار عنه . وقد جرّته هذه الأبحاث الى الكلام عن التشبيه واختلاف الناس فى التشبيهات، وتفاوت الشعراء فى صوغ اللفظ والمعنى واختلافهم فى أخذ الألفاظ والمعانى الى غير ذلك مما كان يوجبه الأنس بالاستطراد عند المتقدّمين .

(١) الوساطة ص ١٠ (٢) ص ١٧٠ — ١٧٣ (ط) أولى .

ونريد فى هـذا الفصل أن ندرس مع القـارئ بعض النظريات الأساسـية لصاحب الوساطة وأن نتبين معـه ما فيها من القوة أو الضعف وأن نكشف عنها ما قد يلابسها أحيانا من الغموض . راجين أن يكون فى هذه المراجعة فائدة لمن تعنيهم دراسة الآداب .

٤ — انفرد الجرجانى، أو كاد، بالشك فى سلامة الشعر الجاهلى من الضعف واللحن . فقد كانت جمهرة الباحثين ترى أن شعراء الجاهلية أعز من أن تؤخذ عليهم هفوة أو تحسب عليهم سقطة . وكان من النحاة من يعنِّى نفسه بتصويب الجاهليين والمخضرمين والأمويين حين يجد الناقد فى شعرهم ما يذهب بقيمته من شنيع الأخطاء، وقبيح الأغلاط . ولكن الجرجانى يرى أن الدواوين الجاهلية لاتسلم فيها قصيدة من بيت أو أكثر يمكن القدح فيه : إما فى لفظه ونظمه، أو ترتيبه وتقسيمه، أو معناه وإعرابه ويقول .

« ولولا أن أهل الجاهليـة جدوا بالتقدم واعتقد الناس فيهم أنهم القدوة والأعلام والحجة لوجدت كثيرا من أشعارهم معيبة ومسترذلة ومردودة منفية . لكن هذا الظن الجميل والاعتقاد الحسن سـتر عليهم ونفى الظِّنة عنهم . فذهبت الخواطر فى الذّبّ عنهم كل مذهب وقامت فى الاحتجاج لهم كل مقام » (١) .

وهو يستنكر تسكين الفعل من غير موجب فى قول امرئ القيس :

فاليوم أشربْ غير مستحقب (٢) إثمـا من الله ولا واغـــل (٣)

وإسقاط النون لغير إضافة ظاهرة فى قوله :

لهـا متنتان خظاتا (٤) كما أكب على ساعديه النمـــر

وتسكين الفعل بغير عامل فى قول لبيد :

تراك أمكنة إذا لم أرضهـا أو يرتبطْ بعض النفوس حمامها

---

(١) الوساطة ص ١٢ — ١٥ (٢) يقال احتقب الإثم اذا اكتسبه كأنه شىء محسوس حمله (مصباح) .

(٣) الواغل المستتر — وغل فى الشجر وغولا توارى فيه، ودخل على القوم وأغلا، وقصده هنا غير مستتر .

(٤) الخظاة : المكتنزة من كل شىء .

وقول الأسدى :

كنا نرقّعها وقد مزقت   واتسع الخرق على الراقع

وقول الآخر :

تأبى قضاعة أن تعرفْ لكم نسبا   وابنا نزار فأنتم بيضة البلدِ

وحذف النون فى قول طرفة :   قد رفع الفخ فماذا تحذرى

ورفع ما يجب نصبه فى قول الفرزدق :

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع   من المال إلا مسحتا أو مجلَّفُ

وخفض ما يجب رفعه فى قول امرئ القيس :

كأن ثبيرا من عرانين(١) وبله   كبير أناس فى بجاد(٢) مزمل(٣)

وقد أطال الجرجانى فى سرد الأمثلة وفيما ذكرناه كفاية . ثم أشار الى أنه تصفح ما تكلفه النحويون لشعراء الجاهلية من الاحتجاج اذا أمكن تارة بطلب التخفيف عند توالى الحركات ومرة بالإتباع والمجاورة وتغيير الرواية اذا ضاقت الحجة، وتثبيت ما راموه فى ذلك من المرامى البعيدة وارتكبوا لأجله من المراكب الصعبة التى يشهد القلب بان الباعث عليها شدّة إعظام المتقدّم والكلف بنصرة ما سبق اليه الاعتقاد وألفته النفس .

٥ — ونحن لا نحب أن نكتفى بما أشار اليه الجرجانى من تعسف المنافحين عن شعراء الجاهلية ومَن قاربهم من المخضرمين والأمويين فقد لا تغنى هذه الاشارة . وانما نذكر ما قالوه فى توجيه قول الفرزدق :

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع   من المال إلا مسحتا أو مجلَّف

فانهم يذكرون أنه رفع "مجلف" بعد نصب "مسحتا" تبعا للمعنى لأن المراد أنه لم يبق من المال إلا مسحت أو مجلف — ومثله قول الهذلى — وهو من شواهد المفصل — :

(١) جمع عرنين وهو الأنف . وعرانين الوبل : أول المطر .   (٢) البجاد : كساء مخطط تلبسه العرب .
(٣) مزمل : أى ملتف فى ثوبه . وكان يجب رفعه .

على أطرقا باليـات الخيـام إلا الثمـام وإلا العصىّ

نصب الثمام لأنه استثناء من موجب ورفع العصى حملا على المعنى.(١) وكذلك قول الآخر:

غداة أحلت لابن أصرم طعنـة حصينٍ عبيطات السدائف والخمر

برفع الخمر على توهم رفع العبيطات لأنه اذا أحلتها الطعنة فقد حلت هى، الى آخر مايتأول النحاة!!

تأمل هذا أيها القارئ وسل نفسك: أكان هؤلاء الشعراء يفكرون حقا فى أنهم نصبوا الاسم الأول على الاستثناء ورفعوا الثانى وَفقا للمعنى؟ أكان الهذلى والفرزدق يحسبان حساب النحاة فى مثل ذلك التأويل؟ لا شيء من ذلك وإنما أتعب النحاة أنفسهم كَلَفا بنصرة ماسبق إليه الاعتقاد وألفته النفس، كما يقول أبو الحسن الجرجانى. أو هو لحن صريح: فاننا نرتاب فى سلامة الأعراب من اللحن والغلط ونرى أنهم قد يلحنون كما يلحن المولّدون وأن من الخطأ إهمال القياس اتباعا لمـا يؤثر عنهـم من الشذوذ(٢)... وهذا المذهب فى استقراء أغلاط القدماء خير من التورط فى النفح عنهم بمـا لا يغنى ولا يفيـد. فقد كان الفرّاء يذكر أن من العرب من يقول فى "أنظر" أنظور — وينشد لبعض الأعراب:

الله يعـلم أنا فى تلفتنـا يوم الفـراق الى جيراننـا صـور
وأننى حيث ما يثنى الهوى بصرى من حيث ما سلكوا أرنو فانظور(٣)

وهذا لحن لا ينبغى أن يتمحل له الصواب. فان ديباجة هذا الشعر تبعد أن يكون قائله من قبيلة مهجورة تسيغ هذا التعبير.

٦ — وقد تكلم الجرجانى عن تأثير المكان والطبع فى رقة الشعر وجفائه وهو يرى أن للبادية أثرا فى خشونة الشعر وقوّة أسره وصلابة مَعجمه. وأن للحاضرة فضلا على رقة الشعر

(١) راجع المفصل ص ٨ (٢) ويجب أن نذكر أن الشعر الجاهلى والأموى كان يجرى على قواعد من النحو لم تأخذ صبغة نهائية فى التحديد والترتيب، كما اتفق ذلك فى العصر العباسى، فأغلاط الجاهليين والأمويين ليست أغلاطا بالقياس إلى لغتهم هم، وإنما هى أغلاط بالاضافة إلى اللغة التى حدّد قواعدها النحويون.

(٣) أنظر الصاحبى ص ١٢

وعذوبته وسلامتـه من الوعورة والجفاء! ومن هنا كان شـعر عدىّ وهو جاهلى أسلس من شعر الفرزدق ورجز رؤبة وهما آهلان : لملازمة عدىّ الحاضرة و بعده عن جلافة البـدو وخشونة الأعراب(١). وقد يكون من البر بالأدب أن نذكر فى تأييد هذه النظرية قطعة من رائية المنخَّل اليشكرى وهو جاهلى صقلته الحضارة ودمَّثه الترف فى قصور الملوك، ولننظر كيف يقول فى أخذ الفتى بأعطاف الفتاة، وقد ختلتها هدأة الخدر وغفوة الرقيب :

ولقـد دخلت على الفتا ... ة الخدر فى اليوم المطيرِ
الكاعب الحسـناء تر ... فل فى الدمقس وفى الحرير
فدفعتها فتـدافعت ... مشى القطاة الى الغـدير
ولثمـتها فتنفسـت ... كتنفس الظـبى الغـرير
فـدنت وقالت مامنـ ... خل ما بجسمك من حرور
ما شف جسمى غير حبـ ... ـك فاهدئى عنى وسيرى
وأحـبها وتحبـنى ... ويحب ناقتها بعـيرى

٧ — وأظرف ماتنبه اليه الجرجانى إشارته إلى أن للطبع وللخلقة أثرا فى رقة الشعر فان وجفائه سلاسة اللفظ تتبع سلاسة الطبع ودماثة الكلام بقدر دماثة الخلقة . ويقول :

” وأنت تجـد ذلك فى أهـل عصرك ، وأبنـاء زمانك ، وترى الجافى الجلف منهـم كزّ الألفـاظ معقد الكلام وعر الخطاب حتى أنك ربمـا وجدت ألفاظه فى صورته ونغمته وفى جرَسه ولهجته، ومن شأن البداوة أن تحدث بعض ذلك “(٢) .

ولك أيها القـارئ أن تبحث عن ذلك أيضا فى أهـل عصرك وأبناء زمانك : فقد تجد تعقيد بعض المعانى أثرا لالتواء بعض الوجوه والنفوس ! !

أما أنا فأشهد بصحة هذه النظرية حين أوازن بين مقامات الحريرى ومقامات بديع الزمان أو شعر أبى تمـام وشعر أبى نواس . وقد يكون الفرق بين شـعر الشباب وشـعر الكهول

(١) ص ٢١ (٢) ص ٢١ وساطة .

راجعا الى هذه الناحية الخلقية : فطالما يأتى الشاعر وهو فتى بما لم يستطعه وهو كهل . وما أقوى سلطان الجسم والروح فى حياة العقول ! وهنا وجه آخر لدماثة الشعر ورقته : هو نفس الشاعر حين يتيمه الحب ويأسره العشق . ولم يذكر الجرجانى أمثلة لذلك اكتفاء بوضوح الفكرة، ولو شاء لتمثل بقول بعض الأعراب :

وفى الحيرة الغادين من بطن وَجرة ... غزال كحيل المقلتين ربيبُ
فلا تحسبي أن الغريب الذى نأى ... ولكن من تنأين عنه غريب

وقول الآخر :

فيارب إن أهلك ولم ترو هامتى ... بليلى أمت لا قبر أعطش من قبرى
وإن أك عن ليلى سلوت فانما ... تسليت عن يأس ولم أسل عن صبر
وان يك عن ليلى غنى وتجلد ... فرب غنى نفس قريب من الفقر

٨ — وقد نص الجرجانى على أنه لا يريد بالسهل الضعيف ولا يقصد من الرشيق المؤنث وهو يتكلم عن سهولة الشعر ورشاقته ، وإنما يريد النمط الأوسط الذى ارتفع عن الساقط السوقىّ وانحط عن البدوىّ الوحشى . وهو لا يوصى باجراء الشعر كله مجرى واحدا وإنما يرى أن تقسم الألفاظ على رُتَب المعانى فلا يكون الغزل كالفخر، ولا المديح كالوعيد، ولا الهجاء كالاستبطاء، ولا الهزل كالجد ، ولا التعريض كالتصريح . فان المدح بالشجاعة والبأس يتميز عن المدح باللباقة والظرف . ووصف الحرب والسلاح ليس كوصف المجلس والمدام : فلكل واحد من الأمرين نهج هو أملك به، وطريق لا يشاركه الآخر فيه . ثم يقول « وليس ما رسمته لك فى هذا الباب بمقصور على الشعر دون الكتابة ولا بمختص بالنظم دون النثر، بل يجب أن يكون كتابك فى الفتح والوعيد خلاف كتابك فى التشوّق والتهنئة واقتضاء المواصلة ، وخطابك إذا حذرت وزجرت أفخم منه إذا وعدت ومنّيت . فأما الهجو فأبلغه ما جرى مجرى الهزل والتهافت ، وما اعترض به التصريح والتعريض ، وما قربت معانيه وسهل حفظه وأسرع علوقه بالقلب ولصوقه بالنفس [1] » .

(١) ص ٢٦ و ٢٨ وساطة .

فأما القـذف والإفحاش فهو سـباب محض . وليس للشاعر إلا إقامة الوزن وتصحيح النظم . ويقول بعد كلام « وملاك الأمر فى هذا الباب خاصة ترك التكلف ورفض التعمل، والاسترسال للطبع، وتجنب الحمل عليه والعنف به . ولست أعنى بهذا كل طبع . بل المهذب الذى قد صقله الأدب، وشحذته الرواية، وجلته الفطنـة، وألهم الفصـل بين الردئ والجيد، وتصور أمثلة الحسن والقبيح (١) » .

٩ — والذى يتعقب النقد عند العرب يرى الجرجانى مسبوقا فى هذه الآراء. فليس له إلا فضل الترتيب والتنسيق . وهو فضل ليس باليسير . على أنك تشعر وأنت تراه يتصرف فى هذه الافكار تصرف المـالكين أن عقـله أُشرب مذاهب النقد والمفاضلة بين طبقات النثر الجيد والشعر البليغ ، بحيث يتعذر عليه هو نفسه أن يميز بين ما استفاده بالدرس والمراجعة وما أمدّته به قريحته المتوقدة وذوقه السليم...وللقارئ أن يرجع الى صحيفة بشر بن المعتمر (٢) ووصية أبى تمام للبحترى (٣) فسيرى عناصر هذه النظريات التى يسوقها الجرجانى فى سياسة النفس وتقويم البيان.

ولكنه سـيرى كذلك أن الجرجانى أنهضُ بحجته ، وأملكُ لرأيه ، وأقـرب الى نفس قارئه من الذين سبقوه فى هذا الباب . وتلك دلالة على استقلاله بما أودع كتابه من الآراء .

١٠ — وقد رأى أبو الحسن الجرجانى أن يفرق بين الشعر والدين وأن يميز بين غاية الأدب وغاية الأخلاق . وهو يعجب ممن ينتقص المتنبي و يغض من شعره لأبيات وجدها تدل على ضعف العقيدة وفساد المذهب فى الديانة ، كقوله :

يترشـفن من فمى رشـفات هن فيـه أحلى من التوحيـد

وقـــوله :

وأبهــر آيات التهـامىّ أنـه أبوكم وإحدى ما لكم من مناقب

مع أنهم احتملوا إسراف أبى نواس فى مثـل قوله فى انتهاب اللذات والشك فى عذاب الاخـــرة :

(١) ص ٢٦ و ٢٨ وساطة . (٢) ص ٥٨ من البيان والتبيين .
(٣) زهر الآداب ج ١ ص ١٠١ ط أولى .

فدع الملام فقد أطعت غوايتى ... ونبذت موعظتى وراء جدارى
ورأيت إيثار اللذاذة والهوى ... وتمتعا من طيب هذى الدار
أحرى وأحزم من تنظُّر آجل ... ظنى به رجمٌ من الأخبار
إنى بعاجل ما ترين موكل ... وسواه إرجاف من الآثار
ما جاءنا أحد يخبر أنه ... فى جنة مذ مات أو فى نار

ويقول فى تأييد هذه النظرية "فلو كانت الديانة عارا على الشعر وكان سوء الاعتقاد سببا لتأخر الشاعر لوجب أن يمحى اسم أبى نواس من الدواوين ويحذف ذكره إذا عدت الطبقات ولكان أولاهم بذلك أهل الجاهلية ومن تشهد الآية عليه بالكفر ولوجب أن يكون كعب بن زهير وابن الزِّبعرى واضرابهما ممن تناول رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاب من أصحابه بكما خرسا و بكاء مفحمين . ولكن الأمرين متباينان . والدين بمعزل عن الشعر" (١) .

ويجب أن نذكر أن صاحب هذه الفكرة هو "قاضى القضاة" وسيد الفقهاء فى الرىّ وجرجان : لنعرف الى أى حدّ كانت النزعة الفنية مسيطرة على مشاعر هذا القاضى الأديب. غير أننا نلاحظ أن الشعر الذى تمثل به لأبى نواس لا يشفع فى تأييد هذا الرأى الخطير . فليست الشاعرية أن يعلن الرجل كفره أو إيمانه فى تعابير لا رونق لها ولا ماء ، كما أعلن كفره أبو نواس ، وكما يعلن الأشياخ والأحبار والرهبان حرصهم على الدين والأخلاق ، وانما الشاعرية روح يتمرّد به الشاعر فيهز نفس القارئ أو السامع هزا عنيفا يحمله على أن يؤمن وهو طائع ذلول بما يدعو اليه الشاعر من تزيين الاثم والبغى أو تقبيح الغىّ والفسوق .

ومن ذا الذى لا تروقه روعة الفتك فى قول ديك الجنّ :

لما نظرت إلىّ عن حدق المها ... وبسمت عن متفتح النُّوّار
وعقدت بين قضيب بان أهيف ... وكثيب رمل عقدة الزنار
عفرت خدّى فى الثرى لك طائعا ... وعزمت فيك على دخول النار

(١) الوساطة ص ٥٧ و ٥٨

أو من ذا الذى لا يخشع لعظمة الفضل والوقار فى قول معن بن أوس :

لعمرك ما أهويت كفى لريبة (١) ولا حملتنى نحو فاحشة رجلى
ولا قادنى سمعى ولا بصرى لها ولا دلنى رأيى عليها ولا عقلى
وأعلم أنى لم تصبنى مصيبة من الدهر إلا قد أصابت فتى قبلى
ولست بماش ما حييت لمنكر من الأمر لا يمشى الى مثله مثلى
ولا مؤثر نفسى على ذى قرابة وأوثر ضيفى ما أقام على أهلى

والشاعر الواحد قد يرضيك جدّه وهزله ، ويروقك شكه ويقينه ، حين يصدر عن ألوان نفسه ، ويتحدّث صادقا عن أسرار قلبه . ولا عيب على الشاعر فى أن تختلف آراؤه باختلاف ذوقة وإحساسه : فان الشعر كالمرآة . والنفس دنيا ثانية تتراءى صورها المختلفة فى لوحة الشعر الجميل . وما ذا تريدون من الشعر والأدب أيها الناس ! أتريدون أن تعلنوا الأحكام العرفية على الكتّاب والشعراء والفنانين لئلا ينظروا بعيونهم ، ويفقهوا بقلوبهم : فيكون من آثارهم ما ينقض ما تواضعتم عليه منذ أجيال ؟ إن الله الذى يلوّن العالم كل يوم بلون جديد وتفتنّ يده الصَّناع فى تزيين الأرض والسموات ، وينفخ من روحه فيمن اصطفاهم للشعر والبيان ، هو وحده جل شأنه القادر على أن يقول : هذا ما أريد أن يكون ، وذلك ما أنكر أن يكون ! ! وسيظل الأدب الحق أداة يعرب بها الشعراء عما تريد القدرة أن تُصوّر به محاسن هذا الوجود .

فهنيئا لمن أراد الله أن يشربهم صفوة الحياة ليكون للعالم من أدبهم فرقان وانجيل .

* * *

تلك نواح كشفنا عنها وبيناها من كتاب الوساطة راجين أن يعود اليه القارئ طالبا للمزيد . فليس النقد إلا وسيلة الى إثارة الرغبة فى المراجعة والشوق الى الاطلاع .

---

(١) الريبة ، بكسر الراء ، التهمة .

٣ – ابن فارس

١ – لم تعين كتب التراجم السنة التى ولد فيها أحمد بن فارس، ولم يتفق مترجموه على المكان الذى ولد فيه . وقد نسبه ابن الأنبارى الى المكان الذى مات فيه وهو الرى : فسماه أبا الحسين الرازى . والرازى نسبة شاذة الى الرى[1] . ويقول ياقوت فى معجم الأدباء[2] : « واختلفوا فى وطنه فقيل : كان من رستاق الزهراء من القرية المعروفة كرسف وجياناباذ، وقد حضرت القريتين مرارا ولا خلاف أنه قروى . حدّثنى والدى محمد بن أحمد وكان من جملة حاضرى مجالسه أنه أتاه آت فسأله عن وطنه فقال : كرسف . قال فتمثل الشيخ :

بلاد بها شُدّت علىّ تمائمى وأول أرض مس جلدى ترابها »

أما وفاته رحمه الله فكانت بالرىّ فى صفر سنة ٣٩٥ هجرية وقد دفن بجوار قاضى القضاة على بن عبد العزيز الجرجانى .

٢ – ذكر السيوطى فى بغية الوعاة[3] أن ابن فارس كان نحويا على طريقة الكوفيين وأنه سمع أباه وعلىّ بن ابراهيم بن سلمة القطان . وذكر ابن الأنبارى أنه أخذ عن أبى بكر أحمد بن الحسن الخطيب راوية ثعلب . وعن أبى عبد الله أحمد بن طاهر المنجم، وكان يقول عن أبى عبد الله هذا : " ما رأيت مثله ولا رأى هو مثل نفسه[4] " وكان ابن فارس حريصا على تدوين ما يأخذه عن أبيه . وقد أثبت ابن الأنبارى شاهدا على ذلك الحرص نكتفى بالاشارة اليه . وذكر ياقوت أن ابن فارس حدّث عن أبيه أنه قال : حججت فلقيت بمكة ناسا من هذيل فجاريتهم ذكر شعرائهم فما عرفوا أحدا منهم . ولكننى رأيت أمثل الجماعة رجلا فصيحا وأنشدنى :

إذا لم تحظ فى أرض فدعها وحث اليعملات على وجاها[5]

ولا يغررك حظ أخيك فيها إذا صفرت يمينك من جَداها

(١) طبقات النحاة ص ٣٩٢ (٢) ج ٢ ص ١٢ (٣) ص ١٥٣ (٤) طبقات النحاة ص ٣٩٢
(٥) اليعملات : الجمال .

ونفسك فز بها إن خفت ضيما وخل الدار تحزن من بكاها
فانك واجــد أرضا بأرض ولست بواجد نفسا سواها

٣ — كان لابن فارس عدد كثير من التلامذة أشهرهم الصاحب بن عباد و بديع الزمان الهمذانى . أما حاله مع الصاحب فقد ابتدأت بوفاق، وانتهت بشقاق — نسجع على ذكرى الصاحب بن عباد! — تمت بينهما الألفــة فى بداية الأمر حتى وضع ابن فارس كتابه « الصاحبي » نسـبة الى الصاحب . وحتى مدح الصــاحبُ ابنَ فارس بقوله « شـيخنا أبو الحسين محمد رُزق حسن التصنيف ، وأمن فيــه من التصحيف[(١)] » ثم انحرف الصاحب عن ابن فارس لانتسابه إلى خدمة آل العميد وتعصبه لهم فأنفذ اليــه من همذان كتاب الحجر من تأليفه فقال الصاحب «رد الحجر من حيث جاءك» ثم لم تطب نفسه بتركه فنظر فيه وأمر له بصلة[(٢)] . وكان الصاحب كما ذكر ياقوت فى معجم الأدباء[(٣)] يعرّض أحيانا بابن فارس فيذكر أنه رأى «بعض الجهال يصحف ويقول» . وأما حاله مع بديع الزمان الهمذانى فكانت فيما يظهر غاية فى صفاء الوداد. نعرف ذلك من كتاب بديع الزمان إلى أستاذه جوابا على كتاب ورد اليه منــه فى ذم الزمان . ومن البر بالأدب والتاريخ أن نذكر هنــا نص ذلك الكتاب لنرى كيف كان بديع الزمان يرتاب فيما تقدمه من نظام الحكومات الاسلامية ، وكيف كان يحذر تقلب النفس الانسانية التى سُجِّــل غدرها فى قصائد الشعراء، وصحائف الأنبياء. ولننظر كيف يقول «نعم أطال الله بقاء الشيخ الامام إنه الحمأ المسنون[(٤)]، وإن ظنت الظنون، والناس ينسبون لآدم، وإن كان العهد قــد تقادم . وارتبكت الأضداد، واختلط الميــلاد . والشيخ الإمام يقول « فســد الزمان » أفلا يقول متى كان صالحا ؟ أفى الدولة العباسية وقد رأينا آخرها وسمعنا أوّلها ؟ أم المدّة المروانية وفى أخبارها لاتكسع الشول بأغبارها[(٥)]؟ أم السنين الحربية[(٦)] .

(١) طبقـات الأدباء ص ٣٩٤ (٢) ياقوت ج ٢ ص ٩ (٣) ج ٢ ص ٣٠٢

(٤) الحمأ المسنون : الطين المتغير . (٥) الشول جمع شائلة على غير قياس . والأغبار جمع غبر وهو بقية اللبن . والكسع هو ترك بقية من اللبن فى أخلاف الناقة . المعنى : لا تغزر لبن إبلك واحلبها لأضيافك فانك (لا تدرى من الناتج) كما فى بقية البيت . (٦) نسبة الى حرب بن أمية ، والمراد خلافة معاوية وابنه يزيد .

والـــرمح يركز فى الكلى (١) والسيف يغمد فى الطُّلى (٢)
ومبيت حجر فى الفـــلا والحـارثان وكـربلا

أم البيعة الهاشمية وعلىٌّ يقول : ليت العشرة منكم براس من بنى فراس؟ أم الأيام الأموية والنفير إلى الحجاز ، والعيون إلى الأعجاز ؟ أم الامارات العدوية وصاحبها يقول : وهل بعد البزول إلا النزول ؟ أم الخلافة التيمية وصاحبها يقول : طوبى لمن مات فى نأناة الاسلام؟ أم على عهد الرسالة ويوم الفتح قيل : اسكتى يا فلانة ، فقد ذهبت الأمانة ؟ أم فى الجاهلية ولبيد يقول :

ذهب الذين يعاش فى أكنافهم وبقيت فى خَلَف كجلد الأجربِ

أم قبل ذلك وأخو عاد يقول :

بـلاد بهـا كنا وكنا نحبهـا إذ الناس ناس والزمان زمان

أم قبل ذلك وقد روى عن آدم عليه السلام :

تغـيرت البلاد ومن عليها فوجه الأرض مغـبرٌّ قبيح

أم قبل ذلك وقد قالت الملائكة : أتجعل فيها من يفســد فيها ويسفك الدماء؟ وما فسد الناس ، وإنمـا اطرد القياس . وما أظلمت الأيام ، وإنما امتد الظلام . وهل يفسد الشىء إلا عن صلاح ، ويمسى المرء إلا عن صباح ؟

ثم انتقل بديع الزمان إلى الرفق بأستاذه والعطف عليه فقال :

« ولعمرى لئن كان كرم العهد كتابا يرد ، وجوابا يصــدر ، إنه لقريب المنال ، وإنى على توبيخه لى لفقير إلى لقائه ، شفيق على بقائه ، منتسب إلى ولائه ، شاكر لآلائه . لا أحل حريدا عن أمره ، ولا أقف بعيدا عن قلبه . مانسيته ولا أنساه . إن له أيده الله على كل نعمة خوّلنيها الله نارا ، وعلى كل كلمة علّمنيها منارا . ولو عرفت لكتابى موقعا من قلبــه لاغتنمت خدمته به ولرددت اليه سُؤر كاسه ، وفضل أنفاسه . ولكنى خشيت أن يقول (هذه بضاعتنا ردّت

(١) الكلى جمع كلية وكلوة بالضم . (٢) الطلى بالضم الأعناق جمع طلية أو طلاوة .

الينا) وله أيده الله العتبى، والمودة فى القربى، والمرباع، وما ناله البـاع . وما ضمه الجلد، وضمنه المشط . وليست رضاى ولكنها جل ما أملك » .

إلى آخر ما قال (١) :

ولو وجدنا نص الكتاب الذى بدأ به ابن فارس لعرفنا شيئا من صور نفسه، وألوان قلبه : فان لأزمات القلب، ولجعات النفس، دلالة كبيرة على المناحى التى يجنح اليها الكتاب والشعراء والباحثون (٢) .

٥ ــ كان ابن فارس وسطا فى شعره ونثره : فلم يكن يُسفّ حتى يصل الى وصمة الإعياء . ولم يكن يعلو حتى يصل إلى جودة البيان . ونثره فى جملة بيّن واضح مقبول . يعجبنى منه قوله ــ فى تقريع رجال الفقه والحديث على اللحن وترك الإعراب ــ : « وقد كان الناس قديما يجتنبون اللحن فيما يكتبونه أو يقرءونه اجتنابهم بعض الذنوب . فأما الآن فقد تجوزوا حتى إن المحدث يحدث فيلحن والفقيـه يؤلف فيلحن . فاذا نبها قالا (ما ندرى ما الاعراب وإنمـا نحن محدثون وفقهاء) فهما يُسران بما يساء به اللبيب ! ولقد كلمت بعض من يذهب بنفسه ويراها من فقه الشافعى بالرتبة العليا فى القياس . فقلت له : ماحقيقة القياس ومامعناه؟ من أى شيء هو؟ فقال (ليس علىّ هذا وإنما علىّ إقامة الدليل على صحته) .

«فقل الآن فى رجل يروم إقامه الدليل على صحة شيء لا يعرف معنـاه ولا يدرى ما هو ونعوذ بالله من سوء الاختيار !» .

وللقارئ أن يتأمل هذه الجملة فسيراها جيدة المعنى نقية الأسلوب، وسيرى كيف وصل الكاتب الى ما يرمى اليه من التهكم اللاذع بالفقهاء والمحدثين من غير أن يلجأ الى غرابة المعانى

(١) راجع ص ٤١٤ و ٤١٩ ــ من رسائل البديع .

(٢) الذى فى رسائل بديع الزمان أن هذه الرسالة جاءت جوابا عن كتاب ورد اليـه من ابن فارس فى ذم الزمان . وفى نهاية الأرب ج ٧ ص ٢٦٢ أن بديع الزمان ذكر فى مجلس ابن فارس فقال ما معناه : إن البديع قد نسى حق تعليمنا إياه وعقنا وشمخ بأنفه عنا فالحمد لله على فساد الزمان وتغير نوع الانسان ! فبلغ ذلك البديع فكتب الى ابن فارس ذلك الكتاب .

وجلجلة الألفاظ . وفى هذه الجملة أيضا دلالة على أن غفلة الفقهاء عن اللغة العربية قديمة العهد وليست من سيئات العصر الحديث .

٦ — أما شعر ابن فارس فهو على قلته يكاد يقف عند شكوى الزمان . من ذلك قوله — وقد قل ماله ، وكثر دينه ، ولم يغنه علمه — :

سقى همذان الغيث لست بقائل ... سوى ذا وفى الأحشاء نار تضرم
وما لىَ لا أُصفى الدعاء لبلدة ... أفدت بها نسيان ما كنت أعلم
نسيت الذى أحسنته غير أننى ... مَدين وما فى جوف بيتىَ درهم (١)

وقوله فى كثرة همومه وتعزيه بالهرة والكتاب والمصباح اذا أوى الى بيته المقفر الجديب :

وقالوا كيف حالك ؟ قلت خير ... تقضّى حاجة وتفوت حاج
نديمى هرتى وأنيس نفسى ... دفاتر لى ومعشوقى السراج (٢)

وقد يستظرف دفاعه عن البخل والحرص إذ يذكر أن المال المضنون به يسخر الحمقى لخدمة صاحبه : فقد يكرم الرجل لغناه قبل أن يكرم لفضله . وفى هذا المعنى يقول :

يا ليت لى ألف دينار موجهة ... وأن حظىَ منها فلس إفلاس
قالوا فما لك منها قلت تخدمنى ... لها ومن أجلها الحمقى من الناس (٣)

وقد يستجاد قوله فى التغاضى عن هفوات الصديق :

عتبت عليه حين ساء صنيعهُ ... وآليت لا أمسيت طوع يديه
فلما خبرت الناس خُبر مجرب ... ولم أر خيرا منه عدت اليه (٤)

ومن ظريف الاشارة الى ضعف حجج النحاة قوله فى فتور الجفون :

مرت بنا هيفاء مقدودة ... تركية تنمى لتركى
ترنو بطرف فاتر فاتن ... أضعف من حجة نحوى (٥)

(١) ص ٢١٨ ج ٣ من اليتيمة . (٢) ص ٢١٩ ج ٢ (٣) ص ٢١٩ ج ٢
(٤) ص ٢٢٠ (٥) ص ٢٦٩

٧ — لابن فارس مؤلفات كثيرة لم يبق منها إلا القليل . والذى يعنينا هو (الصاحبي) الذى قدّمه الى الصاحب بن عباد، وهو كتاب متوسط الحجم يقع فى ٢٣٢ ص بالقطع الكبير طبعته المطبعة السلفية فى سنة ١٩١٠ طبعا جيدا نقلا عن نسخة صحيحة بخط المرحوم الشيخ الشنقيطى من مكتبته بدار الكتب المصرية وقد نقلها رحمه الله عن نسخة فى إحدى مكاتب القسطنطينية قرئت على المؤلف فى سنة ٣٨٢ هـ ، وعلى ظهرها بخطه ما يفيد إجازة القراءة والنسخ . قال المرحوم الشنقيطى "وكانت مقابلتى إياه صفحة صفحة : لا أبتدئ الصفحة إلا بعد مقابلة الصفحة التى كتبتها قبلها فتمت كتابته ومقابلته فى آن واحد ولله الحمد" .

أما قيمة الكتاب من الوجهة العلمية فستظهر حين نناقش ما فيه من مختلف الأبحاث .

٨ — يحار الباحث فى تحديد حياة ابن فارس العقلية : ومرجع هذه الحيرة هو ظهور هذا الرجل بلونين مختلفين كل الاختلاف . أما سبب هذه الحيرة فهو إغفال المتقدمين تاريخ آثار هذا اللغوى الأديب فقد نعرف أنه راجع كتاب الصاحبي فى سنة ٣٨٢ ولكننا لا نعرف فى أى سنة من سنى حياته العلمية وضع رسالته فى الرد على محمد بن سعيد الكاتب . والفرق بعيد جدا بين رسالته هذه وكتابه ذاك : فهو فى "الصاحبي" رجل حذِر هيوب يحسب مسايرة العقل جريمة ، ويعدّ التفكير من جملة الذنوب . ولكنه فى رسالته الى ابن سعيد باحث مملوء بالغيرة والحمية لكل حق ولكل جديد .

نظرات ابن فارس فى كتاب "الصاحبي" كلها جمود وكلها ذهول . وقد يصحو أحيانا فيرمى بالقول السديد . وحسب القارئ فى الدلالة على إغراق كتاب الصاحبي فى «الرجعية» أن يعرف أن ابن فارس يفضل العروض على الفلسفة . ويقول فى وصفه "علم العروض الذى يربى بحسنه ودقته واستقامته على كل ما يتبجح به الناسبون أنفسهم الى التى يقال لها الفلسفة"(٢) .

ومن هذه العبارة أخذ الشيخ بخيت فيما نظن قوله فى رينان "ذلك الرجل الذى يدعى أنه فيلسوف" .

---

(١) ص ٤ (٢) ص ٣٧

وحقا إن الفلسفة لا تزيد عن أنها « التى يقال لها الفلسفة » ورينان لا يزيد عن أنه "الرجل الذى يدعى أنه فيلسوف" وسبحان من أغنانا عما ترك المبدعون فى العلوم والفنون !!

وأغرب من هذا أن يستنكر ابن فارس أن يكون للفلاسفة مؤلفات فى النحو والإعراب وأن يستبعد أن يكون لهم شعر جميل . ويقول فى ذلك "وزعم ناس يتوقف عن قبول أخبارهم أن الذين يسمون الفلاسفة قد كان لهم إعراب ومؤلفات نحو"(١)، ثم يقول "وهذا كلام لا يعرج على مثله . وانما تشبه القوم آنفا بأهل الاسلام فأخذوا من كتب علمائنا وغيروا بعض ألفاظها ونسبوا ذلك الى قوم ذوى أسماء منكرة بتراجم بشعة لا يكاد لسان ذى دين ينطق بها . وادّعوا مع ذلك أن للقوم شعرا . وقد قرأناه فوجدناه قليل الماء نزر الحلاوة غير مستقيم الوزن" ثم يقول فى وصف العروض "ومن عرف دقائقه وأسراره وخفاياه علم أنه يربى على جميع ما يتبجح به هؤلاء الذين ينتحلون معرفة حقائق الأشياء من الأعداد والخطوط والنقط التى لا أعرف لها فائدة . غير أنها مع قلة فائدتها ترق الدين وتنتج كل ما نعوذ بالله منه"(٢) .

وكذلك كان يرتاب أكثر المتقدّمين فى العلوم العقلية . ويرونها خطرا على العقائد : كما يفعل المتأخرون اليوم . وهذا كله هرب من البحث وإخلاد الى الخمول . وإلا فكيف يبعد الناس عن دينهم كلما توغلوا فى درس حقائق الأشياء ؟

٩ — نترك هذه الناحية من عقلية ابن فارس التى تمثل لنا رأيه ورأى أمثاله فى فهم ما توحى به العقول . وننتقل الى الجانب المشرق من حياته العقلية فنراه يمثل لنا انقسام أهل ذلك العصر الى طائفين تقتتلان . تدعو إحداهما الى الاكتفاء بما ترك المتقدّمون من الآثار الأدبية . وتدعو أخراهما الى الابداع والتجديد فى عالم الآداب . ويكفى أن يعرف الباحث أن من رجال ذلك العصر من أنكر اختيار الشعرا كتفاء بديوان الحماسة ليرى أن (الرجعية)

(١) ص ٤٢ (٢) ص ٤٣

كانت تفتك بأحلام أولئك الناس وأن الصراع بين القديم والجديد يكاد يتصل بالحياة الفكرية في جميع الأجيال .

وفي رسالة ابن فارس الى محمد بن سعيد صورة لهذه الخصومة العقلية التي شهدها رجال القرن الرابع . فلنتركه يتكلم ولننظر كيف يدافع عن شعراء عصره المبدعين إذ يقول في خطابه الى ابن سعيد " ألهمك الله الرشاد ، وأصحبك السداد ، وجنبك الخلاف ، وحبب اليك الانصاف ! وسبب دعائي هذا لك إنكارك على أبي الحسن محمد بن علي العجلي تأليفه كتابا في الحماسة و إعظامك ذلك ولعله لو فعل حتى يصيب الغرض الذي يريده ، و يرد المنهل الذي يؤمه لاستدرك من جيد الشعر ونقيه ، ومختاره و رخيه ، كثيرا مما فات الأُوَل . فما ذا الانكار ولم الاعتراض؟ ومن ذا حظر على المتأخر مضادة المتقدّم؟ ولم تأخذ بقول من قال "ما ترك الأول للآخر شيئا " وتدع قول الآخر "كم ترك الأول للآخر " وهل الدنيا إلا أزمان ولكل زمن منها رجال ؟ وهل العلوم بعد الأصول المحفوظة إلا خطرات الأفهام ونتائج العقول ؟ ومن قصر الآداب على زمان معلوم و وقفها على وقت محدود؟ ولم لا ينظر الآخر مثل ما نظر الأول حتى يؤلف مثل تأليفه ، و يجمع مثل جمعه ، و يرى في كل ذلك مثل رأيه ؟

وما تقول لفقهاء زماننا اذا نزلت بهم من نوازل الأحكام نازلة لم تخطر على بال من كان قبلهم ؟

أو ما علمت أن لكل قلب خاطرا ولكل خاطر نتيجة ؟ ولم جاز أن يقال بعد أبي تمام مثل شعره ولم يجز أن يؤلف مثل تأليفه؟ ولم حجرت واسعا وحظرت مباحا وحرمت حلالا وسددت طريقا مسلوكا ؟ وهل (حبيب) إلا واحد من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم ؟ ولم جاز أن يعارض الفقهاء في مؤلفاتهم ، وأهل النحو في مصنفاتهم ، وأرباب الصناعات في جميع صناعاتهم ، ولم يجز معارضة أبي تمام في كتاب شذ عنه في الأبواب التي شرعها فيه ؟ أمر لا يدرك ولا يدرى قدره ! !

ولو اقتصر الناس على كتب القدماء لضاع علم كثير، ولذهب أدب غزير، ولضلت أفهام ثاقبة، ولكلّت ألسن لسنة، ولما توشى أحد لخطابة ولا سلك شِعبا من شعاب البلاغة ولمجت الأسماع كل مردّد مكرر، وللفظت القلوب كل مرجع ممضغ . وحتام لا يسأم (لو كنت من مازن لم تستبح إبلى) والى متى "صفحنا عن بنى ذهل" — الى أن قال "وهلا حثثت على إثارة ما غيبته الدهور وتجديد ما أخلقته الأيام وتدوين ما نتجته خواطر هذا الدهر وأفكار هذا العصر؟ على أن ذلك لو رامه رائم لأتعبه ولو فعله لقرأت ما لم يحط عن درجة من قبله من جد يروعك، وهزل يروقك، واستنباط يعجبك، ومزاح يلهيك"(١) .

١٠ — تلك هى الناحية المشرقة من حياة ابن فارس العقلية وهى كما يرى القارئ تختلف عن سابقتها أشد الاختلاف. وقد ذكر صاحب اليتيمة جزءا كبيرا من هذه الرسالة فليرجع اليها من يطلب المزيد. ولكننا نرى من البر بالأدب أن نذكر نماذج من الشعر المحدث لعهد ابن فارس وكانت تضيق به نفوس الرجعيين اذا ذاك . وهو يستجيد قول يوسف بن حمويه المعروف بالمنادى وكان من أهل قزوين :

جُدّ مثلى زيارة الخمار واقتنائى العَقار شرب العُقار
ووقارى اذا توقر ذو الشيـ ـبة وسط الندىّ ترك الوقارَ
ما أبالى اذا المدامة دامت عذل ناهٍ ولا شناعة جار
رب ليل كأنه فرع ليلى ما به كوكب يلوح لسارى
قد طويناه فوق خشف كحيل أحور الطرف فاتن سحار(٢)

(١) ص ٢١٥ و ٢١٦ ج ٣ يتيمة .

(٢) وردت هذه الأبيات فى ديوان أبى نواس مع اختلاف قليل ، وربما كانت مما أضيف الى شعر أبى نواس لاتصالها بفنه المعروف فى الغزل والشراب ، وهى فى الديوان طويلة تصل الى خمسة عشر بيتا آخرها هذا البيت الحكيم :

فتى يفلح الفتى وهو إن را ح بسكر وان غدا فى خمار

ويستجيد قول أحمد بن بندار :

زارنى فى الدجى فنم عليه	طيب أردانه لدى الرقباء
والثريا كأنها كف خود	أبرزت من غلالة زرقاء

ويستجيد قول بعض رجال الموصل :

فديتك ماشبت عن كبرة	وهذى سنىّ وهذا الحساب
ولكن هجرت فحل المشيب	ولو قد وصلت لعاد الشباب

الى هنا وقف القارئ على شيء من حياة ابن فارس يقربه اليه بعض التقريب ان لم يمثله كل التمثيل . فلنأخذ فى نقد آرائه فى فقه اللغة العربيــة والكشف عما فيها من مظان الخطأ ومواقع الصواب .

٤ – نقد آراء ابن فارس فى فقه اللغة العربية

١ – الفقه العلم بالشيء والفهم له والفطنة . وغلب على علم الدين لشرفه . كما فى القاموس المحيط . وفى أساس البلاغة (قال أعرابى لعيسى بن عمر شهدت عليك بالفقه : أى بالفهم والفطنة . وفى الحديث (من أراد الله به خيرا فقهه فى الدين) وفقهت فلانا كذا وأفقهته أياه فهمته ففقهه وتفقهه . وقال عمر لجرير بن عبدالله كنت سيدا فى الجاهلية وفقيها فى الاسلام . قال الزمخشرى وتقول فلان بين الفراهة : فى أبواب الفقاهة . وفحل فقيه عالم بذوات الضبع (١) وذوات الحمل .

فالفقه كما ترى دقة الفهم ونفاذ البصيرة فى التفريق بين حقائق الأشياء . وعبارة " فقه اللغة " لم يكد يتفق القدماء على إفرادها بمدلول خاص . وانما نجدها فى تعابير الكتاب والمؤلفين على سبيل الاختيار لا على وجه التعيين . والثعالبى يحدثنا بأن كتابه (فقه اللغة) انما سمى بهذا الاسم وفقا لاختيار الأمير الذى أهداه اليه فدل ذلك على أن المنحى الذى سلكه فى تأليفه لم يكن جريا على خطة اتفق عليها الباحثون فى ذلك الحين . فما هو المقصود من عبارة (فقه اللغة) فى العصر الحديث ؟ ذكر السنيور جويدى فى محاضرته الأولى بالجامعة المصرية (٧) أكتوبر سنة ١٩٢٦ ان كلمة (Philologie) تصعب ترجمتها بالعربية وأن لها فى اللغات الغربية معنى خاصا لا يتفق عليه أصحاب العلم والأدب . فمنهم من يرى هذا العلم مجرد درس قواعد الصرف والنحو ونقد نصوص الآثار الأدبية . ومنهم من يذهب الى أنه ليس درس اللغة فقط ولكنه بحث عن الحياة العقلية من جميع وجوهها . واذا صح هذا فمن الممكن أن يدخل فى دائرة " الفيلولوجى " علم اللغة وفنونها المختلفة كتاريخ اللغة ومقابلة اللغات والنحو والصرف والعروض وعلوم البلاغة وعلم الأدب فى معناه الأوسع فيدخل تاريخ الآداب وتاريخ العلوم

(١) الضبع — بفتحتين — شهوة الناقة الى الفحل .

من حيث تصنيف الكتب العلمية ، وتاريخ الفقه من حيث تدوينه فى المجاميع والمجلات وتاريخ الأديان من حيث درس الكتب المقدّسة وتأليف الكتب الدينية واللاهوتية، وتاريخ الفلسفة من حيث تأليف كتب الحكمة وكتب الكلام . ولا سبيل الى معرفة كل هذه الحياة العقلية إلا بدرس أحوال المركز الذى نشأت فيه تلك الآثار الأدبية " .

ويترتب على هذا التعريف كما ذكر السنيور جويدى أن يصبح هذا العلم من أوسع العلوم دائرة وأن يصبح «الفيلولوج» مضطرا الى البحث عن أوائل الأدب حين يدرس درجة التمدن عند شعب من الشعوب ، والى تأمل العلاقات التى كانت بينه وبين غيره وما أثر فيه من الحوادث السياسية والتاريخية . ثم لا يكفى لمن يريد درس كتب المجوس الدينية مثلا أن يقف عند معرفة اللغات الايرانية بل عليه أن يطيل النظر فى كل وجوه الحياة عند الفرس وما تأثر به هذا الدين مما اتصل به من العقائد والديانات .

هذا هو اتجاه السنيور جويدى الذى كان أستاذ فقه اللغة العربية بكلية الآداب . وهو كما يرى القارئ يجعل مهمة الباحث فى هذا العلم شاقة عسيرة ويرد ما تميز واستقل من علوم اللغة الى علم واحد تنوء به عزائم الآحاد . وقد شعر الأستاذ نفسه بهذا فقرّر أنه لا يمكن للباحث أن يجيد إلا جزءا واحدا من ذاك العلم الكثير الأجزاء !

٢ — على أن من الحق أن نقرّر أن كلمة " فقه اللغة " التى اختيرت لترجمة كتاب الثعالبي لم يَرْم بها قائلها من غير أن يكون لها فى نفسه مدلول خاص : فقد وردت هذه الكلمة فى فاتحة كتاب ابن فارس إذ قال " هذا الكتاب الصاحبي فى فقه اللغة العربية وسنن العرب فى كلامها " وهو بالطبع كان يعرف ما ترمى اليه هذه التعابير . فلم يبق إلا أن يكون الباحثون فى علوم اللغة العربية لذلك العهد قد فكروا فى فن جديد غير ما عُرف من علوم البلاغة وما اصطُلح عليه من مسائل النحو والصرف والاشتقاق . وهذا الفن الجديد الذى كاد ينفرد به رجال القرن الرابع والخامس لم يجد من يُعنى بتدوين أصوله ، وتحقيق فروعه ، حتى يستقل عن غيره بعض الاستقلال . وانما ظل كما ابتدأ مسائل متفرقة ينقصها الترتيب والتفصيل

ويعوزها النقد والتمييز، وما الى ذلك من أنواع العناية بمختلف الفنون . وعندى ان أهم مايؤخذ على المؤلفين فى فقه اللغة هو إهمال المصادر وإهمال التاريخ ولنضرب لذلك الأمثال :

جاء فى الفصل الثالث من الباب التاسع عشر من كتاب الثعالبى أن "الارتكاض" حركة الجنين "والنوس" حركة الغصن بالريح "والتدلدل" حركة الشيء المتدلى — و"الترجرج": حركة الكفل السمين والفالوذج الرقيق . و"النسيم"(١): حركة الريح فى لين وضعف . و"الذّماء": حركة القتيل . و"النودان" حركة اليهود فى مدارسهم . وكان يجب أن يذكر بجانب هذا التنويع ما يؤيده من الشعر الموثوق بصحته وأن يدلنا على العصر الذى استعملت فيه كلمة "النودان" مثلا وأن يبين أعربية هى أم عبرية .

وجاء فى الفصل السابع عشر من الباب الرابع والعشرين أن الانسان إذا شرب فهو نشوان وإن دب فيه الشراب فهو ثمل . فإذا بلغ الحدّ الذى يوجب الحدّ فهو سكران . فاذا زاد امتلاء فهو سكران طافح . فاذا كان لا يتماسك ولا يتمالك فهو ملتخ . فاذا كان لا يعقل شيئا من أمره ولا ينطلق لسانه قيل سكران باتّ وسكران ما يبتّ(٢) . وكان من الواجب أن يذكر لنا الثعالبى شيئا عن أصول هذه التعابير وأن يرينا متى وقعت كلمة (سكران طافح) وكيف وقعت : فى شعر أو فى نثر . وإذا كان مصدرها الشعر فمن يدرينا لعل للوزن والقافية دخلا فى صبغها بصبغة التأكيد . وكل ما عمله الثعالبى أن دلنا على أن كلمة (ملتخ) منقولة عن الأصمعى وأن (سكران بات وسكران ما يبت) كلاهما عن الكسائى ولم يتعرّض لأيهما الراجح وأيهما المرجوح .

وهذا المأخذ يسرى على جميع الأبواب التى روعى فيها حصر الأوصاف والنعوت . فإن أكثر ما جرى عليه الثعالبى فى "فقه اللغة" وابن سيده فى "المخصص" وابن الأجدابى فى "كفاية المتحفظ" لم يلحظ فيه اختلاف اللغات . وإنما كان الغرض منه جمع الأشباه والنظائر فى الصفات والأسماء .

(١) ص ٢٧٥ (٢) ص ٤٠٢

٣ — قلت لك إن المتقدمين لم يفردوا هذا العلم بموضوع خاص ، والآن أشير إلى أن منهم من غلبت عليه صنعة الكتابة فكان من همه أن يزيد فى مادة الإنشاء بجمع ما تبدد من الألفاظ والتعابير، وكان منهم من غلب عليه النحو والتصريف فكان من همه أن يقيد ما أطلقه من حرموا صناعة الإعراب إذ وجدهم (لا يبينون ما آنقلبت فيه الألف عن الياء مما انقلبت الواو فيه عن الياء ولا يحدّون الموضع الذى انقلاب الألف فيه عن الياء أكثر من انقلابها عن الواو مع عكس ذلك ولا يميزون مما يخرج على هيئة المقلوب ما هو منه مقلوب وما هو من ذلك لغتان . وذلك بجذب وجبذ . ويئس وأيس . ورأى وراء ... وكذلك لا ينبهون على ما يسمعونه غير مهموز مما أصله الهمز على ما ينبغى أن يعتقد منه تخفيفا قياسيا وما يعتقد منه بدلا سماعيا ولا يفرقون بين القلب والإبدال ولا بين ما هو جمع يكسر عليه الواحد وبين ما هو اسم للجمع[(١)] .

وهذا الاتجاه يسير إلى ما رمى إليه ابن جنى فى "الخصائص" و إن كان دونه .

فإن ابن جنى أراد أن يسمو على ما شُغل به الكوفيون والبصريون وأن يعمل فى أصول النحو ما عمله الذين سبقوه فى أصول الفقه[(٢)] . وهذا وذاك سعيٌ إلى غاية واحدة هى إنشاء فن جديد يجمع بين أسرار اللغة وأسرار الإعراب . ولا تزال الحاجة شديدة إلى فهم ما حاوله الثعالبى وابن جنى وابن سِيده من دقائق هذا الفن العجيب ، والبحث عن المصادر الأولى التى مهدت لهم السبيل إلى التعمق فى بعض الأبواب ، وتعقب الآثار الأدبية التى تعين على تصحيح ما وقعوا فيه من الأغلاط . وذلك يتطلب كثيرا من الجهود .

٤ — فى كتاب ابن فارس طائفة من الأبحاث يتصل بعضها بأسرار اللغة ويرجع بعضها إلى مسائل عرضية كانت مما يشغل الناس إذ ذاك . من هذا كلامه عن الخط العربى وأول من كتب به وهو ينقل فى سذاجة أن أول من كتب الكتاب العربى والسريانى والكتب كلها آدم عليه السلام قبل موته بثلثمائة سنة . كتبه فى طين وطبخه فلما أصاب الأرض الغرق وجد

(١) راجع مقدمة المخصص . (٢) ص ٧ من الخصائص .

كل قوم كتابا فكتبوه فأصاب اسماعيل الكتاب العربى . ويرى كذلك أن الخط توقيف لظاهر قوله عز وجل : « إقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من عَلَق . إقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم » ويرى أنه ليس ببعيد أن يوقف الله آدم أو غيره من الأنبياء على كتاب ويقول «فأما أن يكون مخترع اخترعه من تلقاء نفسه فشىء لا تُعلم صحته إلا من خبر صحيح »(١) .

ويبالغ فى إثبات أن لغة العرب توقيف لا اصطلاح . ويرى كما رأى فى زعمه ابن عباس أن الأسماء التى علمها الله آدم " هى هذه التى يتعارفها الناس من دابة وأرض وسهل وجبل وحمار وأشباه ذلك" ويقول فى سذاجة " ولعل ظانا يظن أن اللغة التى دللنا على أنها توقيف إنما جاءت جملة واحدة وفى زمان واحد وليس الأمر كذلك بل وقّف الله عز وجل آدم عليه السلام على ماشاء أن يعلمه إياه مما احتاج إلى علمه فى زمانه وانتشر من ذلك ماشاء الله ثم علم بعد آدم من عرب الأنبياء صلوات الله عليهم نبيا نبيا ماشاء أن يعلمه حتى انتهى الأمر إلى نبينا محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم . فآتاه الله جل وعز من ذلك ما لم يؤته أحدا قبله تماما على ما أحسنه من اللغة المتقدّمة . ثم قر الأمر قراره فلا نعلم لغة من بعده حدثت، فان تعمّل اليوم لذلك متعمل وجد من نقاد العلم من ينفيه ويرده"(٢) وهذا التوقيف هو عند ابن فارس منشأ اللغات . وإنه لخطأ مبين . وقد خطر له أن النحاة يقولون إن العرب فعلت كذا ولم تفعل كذا : من أنها لاتجمع بين ساكنين ولا تبتدئ بساكن ولاتقف على متحرك وأنها تسمى الشخص الواحد بالأسماء الكثيرة وتجمع الأشياء الكثيرة تحت الاسم الواحد، وهذا دليل على أن للعرب شيئا من الاختيار فى كيفية التعبير وهو يدفع ذلك بقوله . " إن العرب تفعل كذا بعد ما وطّأناه من أن ذلك توقيف حتى ينتهى الأمر إلى الموقف الأوّل" ويحسن أن نذكر أن ابن فارس لم يبالغ فى تأييد هذا الرأى إلا عند الكلام عن منشأ اللغات فقد انطلق عقله بعد ذلك وأدرك أن لاختلاف الاصقاع والأقاليم تأثيرا فى تكوين اللغة وان لم يعط هذا الوجه حقه من البيان .

(١) الصاحبى ص ٧ و ٨ (٢) ص ٦

٥ — وقد عُنى ابن فارس وهو يتكلم عن الكتابة والقراءة والخط بمسألة تتعلق برسم المصحف وقراءته : فذكر بسنده أن عثمان أرسل إلى أُبىّ بن كعب كتف شاة فيها "لم يتسن" و "فأمهل الكافرين" و"لاتبديل للخلق" فدعا بالدواة فمحا إحدى اللامين وكتب "لخلق الله" ومحا "فأمهل" وكتب "فمهل" وكتب لم "يتسنه" ألحق فيها هاء .

ونقل عن الفراء أنه قال (إتباع المصحف إذا وجدت له وجها من كلام العرب وقراءة القرآن أحب إلىّ من خلافه) .

وأنه قال (وقد كان أبو عمرو بن العلاء يقرأ «إن هذين لساحران» ولست أجترئ على ذلك وقرأ (فأصّدق وأكون) فزاد واوا فى الكتاب ولست أستحب ذلك) .[1]

وكان علَى ابن فارس أن يكشف عن مغزى هذا التغيير فى رسم المصحف وأن يبين إلى أى حدّ يقبل تصحيح النحاة لقراءات القرآن . ولكن يظهر أن رغبة الجماهير فى الكف عن التعمق فى درس ما يتصل بالدين حالت بينه و بين الإفصاح عما لمحاولات النحاة من الغرض البعيد. ونحن أيضا نكتفى بالاشارة إلى هذا البحث الخطير[2] .

٦ — المعروف أن العلوم العربية لم تنشأ الا فى الاسلام : فالنحو من وضع أبى الأسود الدؤلى . والعروض من وضع الخليل بن أحمد . والبلاغة من وضع عبد القاهر الجرجانى . الى آخر ما يهجس به أدعياء التاريخ . وقدتنبه ابن فارس الى استبعاد هذه البداية للعلوم العربية فذكر أن علم العروض أقدم من عهد الخليل . قال : والدليل على صحة هذا وأن القوم قد تداولوا الإعراب أنا نستقرئ قصيدة الحطيئة التى أولها :

شاقتك أظعان لليلى دون ناظرة بواكر

فنجد قوافيها كلها عند الترنم والإعراب تجىء مرفوعة ولولا علم الحطيئة بذلك لأشبه أن يختلف اعرابها : لأن تساويها فى حركة واحدة آتفاقا من غير قصد لا يكاد يكون[3] .

---

(١) ص ٩ و ١٠ و ١١ (٢) القرآن يجب أن يفرد له نحو خاص ، وكذلك الأدب الجاهلى والأموى ، ولغات العالم كله تعترف بما يسمى "النحو التاريخى" ونحن فى حاجة الى ذلك النحو لتوجيه بعض ما يبدو شاذا من تعابير القرآن . (٣) ص ١٠ و ١١

وهنا يجب أن نشير الى غلطة وقع فيها ابن فارس وهو يذكر أن علم العربية وعلم العروض كانا قبل الدؤلى والخليل . فقد نص على "أن هذين العلمين قد كانا قديما وأتت عليهما الأيام وقلا فى أيدى الناس ثم جدّدهما هذان الإمامان" .

ومعنى هذا أن النحو الذى نعرفه علم مجدَّد لا مبتكر، وكذلك العروض . وهذا خطأ إن أردنا أن النحو والعروض كانا قديما على مثل هذا الوضع . والحق أنه يبعد أن لا يكون العرب فكروا فى ضبط لغتهم منذ العهود القديمة . ولكنه يبعد كذلك أن يكون ما عرفوه وتواضعوا عليه من الضوابط والقواعد مماثلا لما عرف بعد الاسلام . لأن النحوى الذى نعرفه هو نحو اللغة القرشية فكلمة "العرب" فى عبارة ابن فارس تحتاج الى تحديد .

٧ — ولابن فارس رأى فى التعابير الأدبية فقد نقل لنا تعابير كثيرة ضاعت مغازيها من أذهان المتكلمين وبقيت خِلوا من المدلول . وهو يرى أن كثيرا من الكلام ذهب بذهاب أهله وأن علماء اللغة يختلفون فى كثير مما قالته العرب فلا يكاد واحد منهم يخبر عن حقيقة ما خولف فيه بل يسلك طريق الاحتمال والامكان، وأنه لا يعرف أحد منهم حقيقة قول العرب فى الاغراء (كذبك كذا) وما جاء فى الحديث من قوله (كذب عليكم الحج) "وكذبك العسل" .

وقول القائل :

كذبت عليكم أوعِدونى وعللوا بى الأرض والأقوام قردان موظبا

وقول الآخر :

كذب العقيق وماء شنّ بارد ان كنت سائلتى غبوقا فاذهبي

ونحن نعلم أن قوله (كذب) يبعد ظاهره عن باب الإغراء . وكذلك قولهم (عنك فى الأرض "عنك شيئا" وقول الأفوه :

عنكمو فى الأرض إنا مذحج ورويدا يفضح الليل النهار

ومن ذلك قولهم "أعمد من سيد قتله قومه" أى "هل زاد ؟" .

وقال ابن ميادة :

وأعمد من قوم كفاهم أخوهمو صدام الأعادى حين فُلّت نيوبها

قال الخليل وغيره "معناه هل زدنا على أن كفينا" قال ابن فارس فهذا من مشكل الكلام الذى لم يفسَّر بعد . وقول أبى ذؤيب :

صخب الشوارب لا يزال كأنه عبـد لآل أبى ربيعة مسبع

قال ابن فارس : فقوله "مسبع" لم يفسر حتى الآن تفسيرا شافيا .

ومن هذا الباب قولهم "ياعيد مالك" و"ياهئ مالك" و"ياشئ مالك" ولم يفسروا قولهم "صه" و"ويهك" و"إنيه" ولاقول القائل :

* بخائبك الحق يهتفون وحى هل *

ويقولون "خائبكما وخائبكم" . فأما الزجر والدعاء الذى لا يفهم موضـعه فكثير كقولهم "حى" و"حى هلا" "وبعين ما أرينك" فى موضع العجل . و (هج) و (هجا) و"دع" و"دعا" و"لعا" للعاثر يدعون له وينشدون :

ومطية حملّت ظهـر مطية حرج تنمى مِنْ عثار بدعدع

ويروى عن النبى أنه قال "لا تقولوا دعدع ولا لعلع . ولكن قولوا اللهم ارفع وانفع" قال ابن فارس : فلولا أن للكلمتين معنى مفهوما عنـد القوم ما كرهمـا النبى . وكقولهم فى الزجر "أخر" و"أخرى" و"دها" و (هلا) و (هاب) و"ارحبى" و"عد" و"عاج" و"ياعط" و"يعاط" وينشدون :

وما كان على الجئى ولا الهئ امتداحيكا

وكذلك "إجد" و"وأجدم" و"حدج" .

قال ابن فارس : لا نعلم أحدا فسر هذا . (١)

(١) ص ٣٤ — ٣٧

تأمل أيها القارئ فى هذه التعابير المجهولة وآذكر أنها لم تجهل إلا لأنها كانت متصلة بقبائل تناساها المحدثون . ولو كانت هـذه التعابير متأصلة فى لغـة قريش لبقيت معروفة المدلول . وهنا نشير الى أنه لا بدّ من وضع قاموس يراعى فيه جانب التاريخ . فان المعاجم العربية جمعت الألفاظ والتعابير من هنا وهناك من غير أن تعين ما عُرف فى عصر ثم جُهل وما استُعمل ثم تجافاه الاستعمال . وقد نجد من كتّاب العصر الحاضر من يظن المعاجم صورة صادقة لما كان يذهب اليه العرب فى طرائق التعبير وهو خطأ لو يعلمون شنيع !

٨ — وقـد تنبه ابن فارس الى التعابير التى لا يمكن الوصـول فيها الى تعيين المراد . والمشتبه الذى لا يقال فيه اليوم إلا بالتقريب والاحتمال وما هو بغريب اللفظ ولكن الوقوف على كنهه معتاص . وذكر من ذلك قولنا (الحين) و (الزمان) و (الدهر) و (الأوان) فانك لا تدرى اذا قال الحالف «والله لا كلمته حينا أو زمانا أو دهرا» الى أى حدّ يتصل الإعراض وكذلك « بضع سنين » مشتبه . قال ابن فارس وأكثر هذا مشكل لا يقصر بشىء منه على حدّ معلوم ومن هـذا الباب على رأيه قولهم فى الغنى والفقر وفى الشريف والكريم واللئيم اذا قال « هـذا لأغنياء أهلى » أو « فقرائهم » أو « أشرافهم » أو « كرامهم » أو « لئـامهم » وكذلك إن قال «امنعوه سفهاء قومى» لم يمكن تحديد السفه (١) .

قال ابن فارس : ولقد شاهدت منذ زمان قريب قاضيا يريد حجرا على رجل مكتهل فقلت وما السبب فى حجره عليه؟ فقيل يزعم أنه يتصيد بالكلاب وأنه سفيه . فقرئ على القاضى قوله جل ثناؤه «وما علمتم من الجوارح مكلّبين تعلموهن بمـا علمكم الله . فكلوا مما أمسكن عليكم» . فأمسك القاضى عن الحجر على الكهل (٢) .

٩ — وقـد أراد ابن فارس أن يثبت للغة العرب خصائص ليست لغيرها من سائر اللغات فزعم أنهـا انفردت بالبيان : لقوله جل ثناؤه ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين﴾ .

(١) ص ٣٦ (٢) ص ٣٧

ثم أعقب هـذا الشاهد الذى لا يقيم حجته بهذه العبارة « فان قال قائل : فقد يقع البيان بغير اللسان العربى لأن كل من أفهم بكلامه على شرط لغته فقد بين . قيل له : إن كنت تريد أن المتكلم بغير اللغة العربية قد يعرب عن نفسه حتى يفهم السامع مراده فهذا أخس مراتب البيان : لأن الأبكم قـد يدل باشارات وحركات له على أكثر مراده ثم لا يسمى متكلما فضلا عن أن يسمى بينا أو بليغا .

"وان أردت أن سائر اللغات تبين إبانة اللغة العربية فهذا غلط : لأنا لو احتجنا أن نعبر عن السيف وأوصافه باللغة الفارسـية لمـا أمكننا ذلك إلا باسم واحد . ونحن نذكر للسيف بالعربية صفات كثيرة . وكذلك الأسد والفرس وغيرها من الأشياء المسماة بالأسماء المترادفة . فأين هذا من ذاك؟ وأين لسائر اللغات من السعة ما للغة العرب؟[1] " .

وهذا كما يرى القارئ كلام أجوف لا طائل تحته وهو يدل على أن ابن فارس كان قليل العلم بما عُرف لعهده من آثار الفرس واليونان . وإلا فكيف جاز له أن يظن أنه لاحظ لغير العرب فى البلاغة والبيان! ثم ما هو الدليل على انفراد العرب بالإفصاح؟ لا شىء إلا أن للأسد خمسين ومائة اسم ، وللسيف خمسمائة ، وللحية مائتين ، وما شاء الله كان ! وقد شاع هذا الغلط عدّة قرون وكان من آثاره ان سأل الرشـيد الأصمعى عن شـعر لابن حزام العكلى ففسره فقال الرشيد :

يا أصمعى! إن الغريب عندك لغير غريب! فقال "يا أمير المؤمنين ألا أكون كذلك وقد حفظت للحجر سبعين اسما" وكان من آثاره أيضا أن أفرد الصاحب ابن عباد هذه المترادفات بكتاب !

ولقد جرى ذكر هذه (الثروة اللغوية) فى درس الدكتور طه حسين فأشار الى أن هذا غير طبيعى أو أنه على الأقل إسراف . وهو يرجح أن كثرة المترادفات الى هذا الحد ليست إلا أثرا من عبث الرواة ولعبهـم بالجماهير . ويرى أنهـا ترجع الى السياحات العديدة التى كان

(١) ص ١٢

يرمى بها الرواة واللغويون الى جمع ما تفرق فى أحشاء البادية من مختلف الصفات والأسماء ليعودوا الى الحواضر مثقلين بمادة المكاثرة والتعجيز ثم لا يتحرجون من أن يقولوا إن العرب تعرف للأسد خمسين ومائة اسم وللسيف خمسمائة وللحية مائتين .

فمن هم هؤلاء العرب أيها الناس؟ أليسوا فى أنفسكم كل من أقلت الجزيرة العربية من شتيت القبائل وعديد الأحياء؟ ولكن ألا تذكرون اننا حين نذكر لغة العرب لا نريد غير لغة قريش التى نزل بها القرآن؟ أفتستطيعون أن تثبتوا أن قريشا عرفت للحجر سبعين اسما وللكلب ما لا ندرى كم تعدون من الأسماء ؟

١٠ — وقد غفل ابن فارس عن تأثير الاقليم فى اللغة العربية فظن التعابير التى انفرد بها العرب — لما تتأثر به أسماعهم وأبصارهم — فضلا تطول به لغتهم سائر اللغات . وكذلك يرى أنه لا يمكن لغير العربى أن يعبر عن قولهم (رحب العطن، وغمر الرداء . ويخلق ويفرى . وهو ضيق المجم . قلق الوضين . وهو ألوى بعيد المستمر . وهو شراب بأنقع . وهو جذيلها المحكك وعذيقها المرجب . وعىّ بالاسناف) .

ولو تأمل ابن فارس قليلا لعرف أن هذه التعابير ليست إلا تمثيلا لما يراه العرب فى باديتهم من الحيوان والنبات والجماد ، وأنه من المعقول أن يكون للهند والفرس والروم تعابير كهذه أخذت مما تقع عليه أبصارهم من أنواع الموجودات ولا يستطيع العرب أن يسيغوها لأنها وقعت على غير ما يألفون .

٥ — النقد الأدبي عند ابن شهيد

سر البيان — خصومة ابن شهيد وحقده على المعلمين في قرطبة — مذهب الجاحظ فى تعليم البيان — كيف تكون ملاحة النحو وفصاحة الغريب — الأنساب والقرابات بين الحروف — ربط القوافى والأوزان بالمعانى — كيف كان الشعر ينفع المجتدين عند البقالين والقصابين — هل فى مقدور كل بليغ أن يصل الى كل غرض — البلاغة سياسة نفسية من المتكلم للمخاطب — أثر الطبع فى البلاغة — هل لجمال الأعضاء دخل فى جمال النفوس ؟ — وهل كان الجاحظ لدمامته من أهل الغفلة والحق ؟ — كيف نزن أقدار الرجال ؟

١ — أشرنا عند الكلام على رسالة "التوابع والزوابع"(١) الى ما كان يراه ابن شهيد من أن البيان نفحة سماوية ولا صلة له بالنحو والتصريف ومعرفة الغريب، فلنذكر الآن أن هذا الرأى كان من المسائل التى شغل بها ابن شهيد وأخذ يبدئ فيها و يعيد كلما تكلم عن النقد والبيان . ومن الخير أن ننص هنا على أن ابن شهيد لم يكن فى درس هذه المسألة مخلصا كل الإخلاص، فقد تبين لنا بعد مراجعة ما كتبه فى ظروف مختلفة أنه كان حريصا على تحقير جماعة من اللغويين والنحويين الذين عاصروه فى الأندلس وناصبوه الخصومة والعِداء . وقد اجتهد فى أن يخفى علينا تحامله على رجال النحو والتصريف والغريب ويصبغ أحكامه بصبغة التعميم، ويبعد عن أذهاننا ما يريده من التخصيص، ولكنه غُلِب على أمره فصرح بشكواه من قلة إنصاف النحويين له وتسلطهم عليه وإسرافهم فى ثلبه . فلنفهم هذا جيدا قبل عرض آرائه لندرك أن أقواله مُشربة بالضغن والحقد وأنه لا ينبغى أن نتخذها أساسا صالحا لتقدير العلوم العربية من نحو وصرف واشتقاق : لأن تلك العلوم ضرورية، وليس من النفع أن نوافق ابن شهيد على الاستهانة بها وتحقير أهلها، و إن كنا نعرف أنها لا تكفى وحدها لمنح طلاب الأدب ملكة البيان .

---

(١) راجع تحليل رسالة التوابع والزوابع فى باب « الأخبار والأقاصيص » من الجزء الأوّل .

٢ — يحدثنا ابن شهيد أن قوما من المعلمين فى قرطبة ممن أتوا على أجزاء من النحو وحفظ كلمات من اللغة يحتون عن قلوب غليظة كقلوب البعران، الى فطن حمئة، وأذهان صدئة، لا منفذ لها فى شعاع الرقة، ولا مدبّ لها فى نور البيان، سقطت اليهم كتب فى البديع والنقد فهموا منها ما يفهم القرد اليمانى من الرقص على الايقاع والزمر على الألحان، فهم يصرفون غرائبها تصريف من لم يرزق آلة الفهم، ولم يكن له آلة الصناعة، كالحمار الذى لا يمكنه أن يتعلم صناعة ضرب العود والطنبور لتدوير رُسغه واستدارة حافره، وأنه لو جاز لحمار أن يغنى :

ما بال أنجم هـذا الليل حائرة أضلت القصد أم ليست على فلك

لما جاز أن يوقع بالمضراب على الأوتار، ويرخى الوتر فى مجرى السبابة والبنصر فيبلبل بلشيده، ويولول فى ضربه، وكذلك حال المتعلمين فى قرطبة على رأى ابن شهيد (١).

٣ — وفى موطن آخر نراه يندد بالمعلمين ويصفهم بأوصاف منكرة ثم يقول :

”ومما علم من خلق هذه العصابة اذا لحتنا أبصارهم قابلونا بالملق، وهم منطوون على الحسد والحنق، فاذا جمعتنا المحافل، وضمتنا المجالس، تراهم الينا مبصبصين، وعن الأخذ فى شيء من تلك المعانى واقفين، وانما يتبين تقصير المقصر، وفضل السابق المبرز، اذا اصطكت الركب وازدحمت الحدق، واستعجل المقال ... الخ“ (٢).

٤ — ولا يكتفى ابن شهيد بمثل تلك الحملات فى تحقير المعلمين، بل يضيف قول الجاحظ :

”إنا اذا اكترينا من يعلم صبياننا النحو والغريب قنع منا بعشرين درهما فى الشهر، ولو اكترينا من يعلمهم البيان لما قنع منا إلا بألف درهم“ وقد أمكنت هذه الكلمة ابن شهيد من إعلان رأيه فى كتاب البيان والتبيين الذى ألفه الجاحظ وهو فى رأيه كتاب لم يكشف فيه ”عن وجه التعليم وصور كيفية التدريج“ ليرى القارئ كيف يكون وضع الكلام وتنزيل البيان،

(١) الذخيرة ص ١٢٢ ج ١ (٢) ص ١٢٤ (٣) ١١٨

وكيف يكون التوصل الى حسن الابتـداء وتوصيل اللفظ بعد الانتهاء . ومن رأى ابن شهيد أن الجاحظ " استمسك بفائدته، وضن بما عنده غيرة على العلم، وشحا بثمرة الفهم" لأنه عرف «أن النفع كثير والشاكر قليل" ولذلك كان كتابه فى البيان موقوفا على أهله ومن كرع فى حوضه، أما الجاهل والمبتدئ فلا نفع له من كتابه على الاطلاق .

٥ — ونحن لانوافق ابن شهيد على مارآه فى كتاب البيان، ونفهم أن الجاحظ لم يخف شيئا عن عمد، وإنما نفترض أن تلك كانت طريقة الجاحظ فى التأليف : فهو ينتقل من فن الى فن، ومن كلام الى كلام، جريا على طريقته فى تسطير كل مايمر بخاطره من ألوان الأدب والعلوم لأيسر المناسبات . ومانكاد نتصوّر أن التعليم كان من مبتغيات الجاحظ حتى يهتم بالترتيب والتبويب، وإنما نتمثـله رجلا يكتب لنفسه قبـل كل شىء، ويرضى شهوته فى تدوين عناصر الثقافة الأدبية والعلمية على طريقة كتاب الموسوعات من القدماء الذين كانوا يخشون على العلم من الضياع ويكفيهم أن يدوّنوا ما يسـمعونه أو ينقل اليهم من مختلف الأقوال والآراء والشواهد والأمثال .

٦ — وليس إنحاء ابن شهيد على النحو والغريب معناه أنه ينكر قيمة ذلك فى البيان ، كلا، وإنما يحتم أن يختار الكاتب أملح النحو وأفصح الغريب . وملاحة النحو هذه لم أرها عند أحد غير ابن شهيد، وهو يريد بها اختيار الوضع النحوى الذى يساعد على أداء المعنى، فقد يكون الكلام مستقيما من الوجهة النحوية ولا يكون مستقيما من الوجهة البيانية ، فان البلاغة فى الواقع تبنى على سلامة التركيب .

والتركيب السليم لايراد به التركيب الخالى من الغلط حين يراد وزنه بالموازين النحوية، وإنما هو التركيب الذى يستوفى الدقائق المعنوية التى يهتم بتقييدها علماء المعانى . أما فصاحة الغريب فهى عند ابن شهيد وضـع اللفظة الغريبة فى موضعها بحيث لو وضعت مكانها كلمـة مألوفة لتطرق الى المعنى شىء من الإخلال . ولننظر كيف يقص علينا ابن شهيد بعض ما كان يقع له مع تلاميذه فى هذا الباب :

« جلس إلىّ يوسف الاسرائيلي وكان أفهم تلميذ مرّ بي وأنا أوصي رجلا عزيزا علىّ من أهل قرطبة وأقول له : ان للحروف أنسابا وقرابات تبدو في الكلام . فاذا جاور النسيب النسيب ، ومازج القريب القريب ، طابت الألفة وحسنت الصحبة، وإذا ركبت صور الكلام من تلك حسنت المناظر، وطابت المخابر، أفهمت ؟ قال :

إى والله! قلت له : وللعربية إذا طلبت، وللفصاحة إذا التمست، قوانين من الكلام مَن طلب بها أدرك، ومن نكب عنها قصر، أفهمت؟ قال : نعم . قلت : وكما تختار مليح اللفظ ورشيق الكلام فكذلك يجب أن تختار مليح النحو وفصيح الغريب وتهرب من قبيحه . قال : أجل . قلت أتفهم شيئا من عيون كلام القائل :

لعمرك إنى يوم بانوا فلم أمت خفاتا على آثارهم لصبورُ
غداة التقينا إذ رميت بنظرة ونحن على متن الطريق نسير
ففاضت دموع العين حتى كأنها لناظرها غصن يراح مَطيرُ

فقال : إى والله ! وقعت (خفاتا) موقعا لذيذا ، ووضعت (رميت) و (متن الطريق) موضعا مليحا، وسرى (غصن يراح مطير) مسرى لطيفا. فقلت له : أرجو أنك تنسمت شيئا من نسيم الفهم فاغد علىّ بشيء تصنعه .

قال ابن شهيد : «وكان ذلك اليهودى ساكنا يعى ما أقول فغدا ذلك القرطبي فأنشدني:

حلفت برب مكة والجبال لقد وزنت كروبى بالجبال

في أبيات تشبهه وجاء اليهودى فأنشدني :

أيمم ركبانهم منعجا وقد ضمنوا قلبك الهودجا

واستمر إلى آخر القصيدة فأتى بكل حسن، فقال لى ذلك القرطبي : شعر اليهودى أحسن من شعرى! قلت ولا بأس بفهمك إذ عرفت هذا . ولم يزل يتدرّب باختلافه إلىّ حتى ندى تُربه، وطلع عشبه، ثم تفتح زهره ، وضاع عبقه (١) . ورآني أستعمل وحشي الكلام

(١) ضاع عبقه : انتشرت رائحته .

فى موضعه ولم يشعر بحسن الموضع فآستعمل شيئا منه وعرضه علىّ . فقلت : استره ! فقال : تبخل علىّ به ! وعرضه على ابن الإفليلى فقال له : تنكب هذا الكلام . فقال له : إن أبا عامر يستعمله ! قال : يضعه فى موضعه وهو أدرب منك[(١)] » .

وهذا كلام جيد، وأجوده ما نص فيه على أن للحروف أنسابا وقرابات تبدو فى الكلام، فاذا جاور النسيب النسيب ومازج القريب القريب طابت الألفة وحسنت الصحبة . وهذه الفكرة الدقيقة ليست من مبتكرات ابن شهيد فقد رأيناها قبله منسوبة إلى ابن العميد حين حدثنا الصاحب فى مقدّمة كتابه عن مساوى المتنبي أنه لم يجد فيمن صحب من يفهم الشعر كما يفهمه أبو الفضل بن العميد « فانه يتجاوز نقد الأبيات إلى نقد الحروف والكلمات ولا يرضى بتهذيب المعنى حتى يطالب بتخير القافية والوزن[(٢)] » .

و بذلك تكون كلمة ابن العميد أسبق وأشمل من كلمة ابن شهيد ، لأن ابن العميد يربط القوافى والأوزان بالمعانى، فليس كل وزن بصالح لكل معنى، لأن بعض القوافى والأوزان أرق أو أضخم من بعض، كما أن بعض الألفاظ والمعانى ألطف أو أجزل من بعض، وفطنة الشاعر والكاتب هى التى تؤلف بين المعنى و بين لبوسه من ألفاظ وحروف وقواف وأوزان .

٧ — ويرى ابن شهيد أن البلاغة تختلف باختلاف أقدار المخاطَبين، ومعنى هذا أن البلاغة صلة نفسية بين المتكلم والمخاطب ، فهى ترجع إلى فهم المتكلمين لنفوس المخاطَبين، وعلى ذلك لا يكون أساس بلاغة الكلام صلاحيته لأن يلقى إلى جميع الناس فى جميع الأحوال، وإنما بلاغة الكلام أن يبلغ بصاحبه إلى الغرض الذى يرمى إليه عند الخطاب . ويقول فى ذلك :

«وربما لاذ بنا المستطعم باسم الشعر ممن يخبط[(٣)] العامة والخاصة بسؤاله فيصادف منا حالة لا تتسع فى كبير مبرة فنشاركه ونعتذر له ، وربما أفدناه بأبيات يتعمد بها البقالين ومشايخ القصابين، فاذا قارفت أسماعهم، ومازجت أفهامهم، در حلبهم، وانحلت عقدهم، وجل شخص

(١) ص ١١٨ و ١١٩ من الذخيرة . (٢) مقدّمة كشف مساوى المتنبى .

(٣) الخبط : السؤال، من خبط الشجرة شدّها ثم نفض ورقها لتسقط منها الثمرة .

ذلك البائس فى عيونهم : فما شئت إذ ذاك من خبزة وثيرة يحشى بها كمه ، ورقبة سمينة تدفن فى مخلاته ، ومن كوز فقاع يصب فى فمه ، وتينة رطبة يسدّ بها حلقه ، وسنو سمكة ودكة تدس تحت لسانه ، وفالوذجة رطبة يحنك بها حنكه ، فلا يكاد البائس يستتم ذلك حتى يأتينا فيكب على أيدينا يقبلها ، وأطرافنا يمسحها ، راغبا فى أن نكشف له السر الذى حرك العامة فبذلت ما عندها له وبادرت برفدها اليه (١) » .

وتلك قصة نعرف منها كيف كان الشعر الفصيح ينفع من يستجدون البقالين والقصابين فى الأندلس ، وكيف كانت تلين اللغة لمثل ابن شهيد حتى يخاطب بها فى بلاغة جميع الطبقات .

والمهم أن نعرف رأى صاحبنا أبى عامر حين طُلب منه كشف السر الذى حرك العامة فجادت بعد بخل ، وهشت بعد جمود ، وهو يقول فى الجواب :

” وتعليمه ذلك النحو من أنحاء الشحذ لا نستطيعه : لأن هذا الذى يريد منا تعليمه هو البيان وبين فكره وبينه حجاب . ولكل ضرب من الناس ضرب من الكلام ووجه من البيان (٢) “ .

٨ — وابن شهيد يرى أنه ليس فى مقدور كل بليغ أن يصل الى كل غرض : فهناك ناس بخلاء من الكبراء يعسر تحريكهم إلى البذل بحيث لا ينجع فيهم تقريظ ، وإذ ذاك ” يحتاج الى أثقب ما يكون من الذهن وأوسع ما يكون من الحيلة . إلا أن هذه العصابة لا يمكن لذى النباهة تحريكها ولا بد لها من طبقة يكون لها فى العين بعض التصويب والتصعيد ، ولهذا صار سب الاشراف عسيرا عويصا فانك تجدهم يتدحرج عنهم قبيح المقال ، ولا يضعفهم خبيث الكلام ، لقوة بنيانهم وثبات أركانهم ، فهدم بنيان هؤلاء صعب (٣) “ .

وهذا الذى يقوله ابن شهيد يحتاج إلى تحديد : فمن الحق أن هناك مواطن يحار فيها البليغ وقد تبدو البلاغة فى بعض الأحيان لونا من اللغو والفضول ، لعجز الكاتب والشاعر والخطيب عن غزو بعض النفوس ، ولكن فى تلك المواطن وحدها يُحتاج الى بيان الكتّاب والخطباء

(١) ص ١١٩ (٢) ص ١٢٠ (٣) ص ١٢٠

والشعراء، و بمقدار فهم البليغ لما تعقد واستبهم من بعض الأهواء والميول يكون نجاحه فى درك ما يتعسر على سواد المنشئين ، لأن لكل شخصية مهما مكر صاحبها وخبث ولؤم جوانبُ من الضعف ينفذ اليها القول حين يتصل المنشئ بأسرار من يخاطبهم من أهل الشح والكنود ؛ وسر البلاغة لا يظهر إلا فى المواطن التى تبدو مفروغا من الكلام فيها ، وميئوسا من فائدة العود الى شرحها وتفصيلها ، فان المنشئ لا يعجز إلا حيث يكون الجوّ جو بداهة وظهور بحيث يظهر كل بيان وكأنه حديث مردّد معاد، عند ذلك يعرف البليغ الموفّق كيف يحوّل المسائل الظاهرة الى مشاكل عقلية و روحية واجتماعية، فينقل قلوب الجاحدين وعقولهم الى جِواء من البحث والتفكير و يقفهم موقف الحيرة والتردّد بين الخير والشر والبر والعقوق . فليس البليغ هو من يأتى فقط بالبِدْع الطريف، ولكن البليغ هو من يحوِّل الموضوعات العادية الى شئون جدية طريفة تُحلل فيها عزائم أهل الشح أو تنهض ضمائر أهل الجمود . وليس من الصحيح أن هناك ناسا يصعب هدم بنيانهم، ولكن الصحيح أن هناك ناسا لا يهدمون لأنهم يهاجمون بمعاولٍ محطمة من الهجو القبيح .

والبليغ يستطيع أن يصل دائما من طريق علم النفس الى مكامن الضعف من نفوس الأقوياء الذين يتوحّون أمام دعوات الخير والبر والاحسان، ففى كل نفس مهما لؤمت جوانب خيرة غافية يقدر على إيقاظها البارعون من أهل البيان .

وجملة القول فى هذا المعنى أن البلاغة ضرب من السياسة النفسية، ومن الساسة من تكون نظراتهم أشدّ خطراً على أعدائهم من الجيوش والأساطيل،وكذلك البليغ يكون فى أحيان كثيرة شرا مستطيرا على المعاندين ممن يخاطبهم أو يراسلهم أو يحاورهم فى جدّ أو فى هزل، من قرب أو من بعد ، لأن البلاغة ليست إلا نقل ما فى الروح من حب أو حقد، أو عتب، أو ملام ، وصبّ ذلك كله فى رفق أو عنف فى أفئدة من تخاطب أو تكاتب من عدوّ أو صديق . وذلك يفرض أن تفيض عنا البلاغة ونحن فى أعلى درجة من درجات التيقظ والقوّة، وفى أسمى أوج من الغضب أو الحنان، بحيث تكون أنفاسنا شواظا يتلظى حين نهاجم

ونفثك ، ونسيما يتأرّج حين نحنو ونعطف . أما وضع الكلام فى ذهول ومن غير درس لأنفس المخاطَبين فهو العىّ الذى استعاذ منه الخطباء، والإفحام الذى تهيب عواقبه الشعراء .

ومن الناس من يظنّ أن البلاغة ليست إلا سواد المداد فى بياض القراطيس !

٩ — على أن ابن شهيد لم يفتـه أن يقرّر أنّ سر البـلاغة يرجع الى الطبع قبل أن يرجع الى استيفاء مسائل النحو وحفظ كثير الغريب . وعنده أن البلغاء يتفاوتون بقدر ما يتفاوت تركيب أنفسهم مع أجسامهم :

” فمن كانت نفسه مستولية على جسمه كان مطبوعا روحانيا يُطلع صور الكلام والمعانى فى أجمـل هيئاتها وأروق لباسها . ومن كان جسمه مستوليا على نفسه من أصـل تركيبه كان ما يطلع من الصور ناقصا عن الدرجة الأولى فى التمـام والكمال وحسن الرونق .

” فمن كانت نفسه هى المستولية على جسمه فقد تأتى منه فى حسن نظام صور رائعة تملأ القلوب وتنعش النفوس، فاذا فتشت لحسنها أصـلا لم تجده، ولجمال تركيبها وجها لم تعرفه، وهذا هو الغريب أن يتركب الحسن من غير الحسن، كقول امرئ القيس :

تنورتهـا من أذرعات وأهلها بيثرب أدنى دارها نظر عالى

فهـذه الديباجة إذا تطالبت لهـا أصلا من غريب معنى لم تجـده، ولكن لها من التعلق بالنفس والاستيلاء على القلب ما ترى(١)“ .

وهذا الكلام يمثل جانبا من جوانب البلاغة عند ابن شهيد، وهو جانب الطبع . ومعنى ذلك أنه قد يتفق لنا أن نعجب بفقرة من النثر ، أو بيت من الشـعر ، بدون أن يكون لمـا أعجبنا به معنى غريب، وإنمـا سر إعجابنا يرجع الى ما طُبع به الكلام من شرف الطبع وسمو الروح . والجانب الثانى عند ابن شهيد هو المعنى ، أما اللفظ فهو عنده قالب ولَبوس لا قِوام له بغير المعنى، وهو لذلك يوصى الناقد بأن ”يفتش عن شرف المعانى ، وينظر مواقع البيان ، ويحترس من حلاوة خدع اللفظ(٢)“ .

(١) ص ١١٧ (٢) ص ١٥٦

ويقرر أن البليغ "إنما يستحق اسم الصناعة بتقحم بحور البيان، وتعمد كرائم المعانى" ولا يتم له ذلك إلا بأن "يمتطى الفصل ويركب الحذ، ويطلب النادرة السائرة وينظم من الحكمة ما يبقى بعد موته" [(١)] .

وكل هذا جدير بالتأمل والدرس ففيه شرح لما استغلق على النقاد أزمانا كثيرة، ألسنا نرى فى بعض الرسائل والخطب والقصائد نماذج فاتنة ، وهى مع ذلك خلو من غرائب المعانى؟ فلنعرف الآن أن السر فى إعجابنا بأمثال تلك النماذج مرجعه الى الطبع والروح . ونحن نستطيع تعليل ذلك بدرس من نعرف من الناس ، فهناك أفراد غَناؤهم قليل، ومحصولهم ضئيل، ومع ذلك نُفتن بهم أحيانا ونراهم أهلا للحب والإعجاب . وهذا هو سر ذيوع كثير من الآراء الخفيفة الوزن، القليلة العمق، فانها قد تصدر عن فِطر سليمة، وطبائع شريفة، ينقصها العمق ولكنها غنية بالنبل والصفاء .

١٠ — ولا يقف ابن شهيد عند اشتراط شرف النفس ، وكرم الطبع، بل يتعدّى ذلك الى الصفات الجسمية : وهو يرى الأجسام من صور النفوس . يوضح ذلك قوله فى المعلمين بقرطبة : "يدركون بالطبيعة ويقصرون بالآلة . وتقصيرهم بالآلة هو من طريق العلل الداخلة، من فساد الآلة الروحانية، والخادمة لآلات الفهم، الباعثة لرقيق الدم فى الشريان الى القلب وزيادة غلظ أعصاب الدماغ ونقصانها عن المقدار الطبيعى، وما يعين على ذلك بالحس وطريق الفراسة من فساد الآلات الظاهرة كفرطحة الرأس وتسفيطه، ونتوء القمحدوة [(٢)]، والتواء الشدق، وخزر العين، وغلظ الأنف، وازوراء الأرنبة . فنستعيذ بالله أن لايشوه خلقة قلوبنا وجرم أكبادنا" [(٣)].

وهذه الأحكام متصلة أوثق اتصال بعلم النفس وعلم منافع الأعضاء ، فليس من شك فى أن للجسم تأثيرا شديدا على الروح حتى فى صورته . والصور المقبولة تبعث فى أصحابها روح الثقة بالنفس . وليس من المجازفة فى شىء أن نتخذ من ذلك تعليلا لهفوات العظماء : فهم فى الأكثر أصحاب أهواء وشهوات، وذلك مظهر من مظاهر الاتساق بين عافية البدن وشباب الروح .

(١) ص ١٥٦ (٢) القمحدوة : عظم الرأس مما يميل الى القفا . (٣) ص ١٢٢

١١ — وابن شهيد وفىّ لمبدئه فى ربط الصلة بين النفس والأعضاء، وقد حمله ذلك على النيل من الجاحظ والغض من قيمته العلمية والأدبية، ورميه بالغفلة والحمق . وقد خطّأ أبا القاسم الافليلى فى تقديمه الجاحظ على سهل بن هارون . ومن رأى ابن شهيد أن حرمان الجاحظ من شرف المنزلة بشرف الصنعة مع تقدم ابن الزيات وابراهيم بن العباس إما أن يكون لأنه كان مقصرا فى الكتابة وجميع أدواتها ، أو لأنه كان ساقط الهمة، أو لأن إفراط جحوظ عينيه قعد به : لأنه لابدّ للملك من كاتب مقبول الصورة تقع عليه عينه، وأذن ذكية تسمع منه حسه، وأنف ذكى لا تُذَمّ أنفاسه عند مقاربته له . ولذلك استحسنوا من الكاتب أن يكون طيب الرائحة، سليم آلات الحواس، نقى الثوب، ولا يكون وسخ الضرس منقلب الشفة، مكحل الأظفور، وضر الطوق .

وقد شعر ابن شهيد بأنه من التحامل أن يرمى مثل الجاحظ بنقص فى أدوات الكتابة فقال :

”ربما أنكر قولنا فى شرطه جمع أدوات الكتابة فقيل : وأى أداة نقصت الجاحظ؟ فنقول : أول أدوات الكتابة العقل، ولا يكون كاتب غير عاقل، وقد نجد عالما غير عاقل، وجدليا غير حصيف، وفقيها غير حليم . وقد وجدنا من ينسب العقل الى سهل أكثر ممن ينسبه الى الجاحظ، ولو شاهد الجاحظ سهلا يخادع الرشيد ملكا ويدبر له حربا ، ويعانى له إطفاء جمرة فتنة ، ناهضا فى ذلك كله بعقله وتجربة علمه لرأى أن تلك السياسة غير تسطير المقال، فى صفة غراميل البغال، وغير الكلام فى الجرذان، وبنات وردان، ولعلم أن بين العالم والكاتب فرقا“ (١)

وهذا الكلام يعطى لابن شهيد صورة غير مقبولة ، فالأدب والعلم عنده من وسائل العيش والحظوة لدى الملوك، وبمقدار نجاح الكاتب فى دنياه يكون فضله . وهذا خطأ مبين .

قد تكون دمامة الجاحظ هى التى قعدت به كما قصّر بابن شهيد نفسه ثقل سمعه، وكما تخلف صاحبه الأفليلى لورم أنفه . وإذ ذاك يكون للجاحظ عذره المقبول .

(١) ص ١٢٣ و ١٢٤

ولكن هل خطر ببال ابن شهيد أن هناك اختلافا بينا فى تركيب النفوس ؟ إننا نعرف بالتجربة أن للعقول شهوات، فقد تكون السياسة أشهى ما يسمو اليه أمثال سهل بن هارون ولكن لا ريب فى أن العلم أيضا شهوة، وكان الجاحظ مفتونا أشدّ الفتنة بدرس علم الحيوان، وكان كذلك مفتونا بدرس طبائع الناس وغرائزهم فى مختلف الطبقات. فليس من العيب أن يهتم بالصغائر فى العلوم لأن العلم فى أصغر جزئياته لا ينال من العالم غير الإكبار والإجلال. إن من العدل أن نزن الأمور بميزان آخر غير النجاح المؤقت الذى يظفر به الكتّاب السياسيون: يجب أن نزن أقدار الرجال بما يبذلون من الجهود فى أعمالهم الأدبية والعلمية، وإذ ذاك تمكن الموازنة بين ما عمل سهل بن هارون فى ميدان السياسة وبين ما عمله الجاحظ فى ميدان العلم، أما الموازنة بين حظوظهما الدنيوية فباب من الضلال. ويا ويل أهل الفضل إن قيست أقدارهم بمقياس ما يملكون من دراهم معدودات !

٦ – أبو بكر الباقلانى (١)

١ — لم يصل الينا من آثار أبى بكر محمد بن الطيب الباقلانى إلا كتابه «إعجاز القرآن» وفى بقاء هـذا الكتاب مع ضياع سائر ما وضعه المؤلف دليل على أن معاصريه كانوا اهتموا بنسخه ومدارسته فسلم بذلك من الضياع . ونحن وإن لم نر من مؤلفات الباقلانى غير كتابه فى إعجاز القرآن فانا نستطيع الحكم بأنه خير كتبه : لأنه فى موضوع خطير جدا كان يستوجب من مثله حماسة واستعدادا بالغين . فقد كان بعض الناس فى عصره يرتابون فى إعجاز القرآن وكان فى ارتيابهم ما يسوقه إلى درس الإعجاز من جميع أطرافه ، ودفع الشبه التى كان يذيعها الملحدون فى الحواضر الاسلامية . وإنه ليمثل لنا الأزمة العقلية التى أطبقت على معاصريه إذ يقول :

« ومن أهم ما يجب على أهل دين الله كشفه ، وأولى ما يلزم بحثه ، ما كان لأصل دينهم قواما ، ولقاعدة توحيدهم عمادا ونظاما ، وعلى صدق نبيهم برهانا ، ولمعجزته ثبتا وحجة . لا سيما والجهل ممدود الرواق ، شديد النّفاق ، مستول على الآفاق . والعلم الى عفاء ودروس ، وعلى خفاء وطموس ، وأهله فى جفوة الزمن البهيم ، يقاسون من عبوسه لقاء الأسد الشتيم ، حتى صار ما يكابدونه قاطعا عن الواجب من سلوك مناهجه ، والأخذ فى سبله . فالناس بين رجلين : ذاهب عن الحق ذاهل عن الرشد ، وآخر مصدود عن نصرته مكدود فى صنعته ، فقد أدى ذلك الى خوض الملحدين فى أصول الدين ، وتشكيكهم أهل الضعف فى كل يقين . وقد قل

(١) ولد الباقلانى فى البصرة ، وسكن بغداد ، وبها كانت وفاته يوم الأحد لسبع بقين من ذى القعدة سنة ٤٠٣ وكان من كبار أهل السنة . ورثاه بعض معاصريه بقوله :

أنظر الى جبل تمشى الرجال به ... وانظر الى القبر ما يحوى من الصلف
وانظر الى صارم الاسلام مغتمدا ... وانظر الى درة الاسلام فى الصدف

والباقلانى : نسبة الى الباقلى بتشديد اللام وقصر الألف . وفيها كلام تجده فى وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٧٠

أنصاره، واشتغل عنه أعوانه، وأسلمه أهله، فصار عرضة لمن شاء أن يتعرض فيه حتى عاد مثل الأمر الأول على ما خاضوا فيه عند ظهور أمره : فمن قائل إنه سحر، وقائل يقول إنه شعر . وآخر يقول إنه أساطير الأولين ... الخ[1] » .

وليس فى هذه الفقرة شيء جديد فان شكوى الزمان من الظواهر الانسانية التى يجدها المطلع فى أكثر ما اثر عن القدماء والمحدثين . ورجال الدين خاصة يكثرون من التبرم بمعاصريهم ووصفهم بالزيغ والالحاد والفسوق . فليس معنى هذا الكلام أن أهل القرن الرابع كانوا أكثر الناس شبهات وأضاليل ، ولكن معناه أنهم كانوا كذلك فى نفس المؤلف ، وفى هذا ما يدفعه الى التأهب لمناضلة المرتابين فى إعجاز القرآن .

٢ — ونحب فى بداية هذا الفصل أن نحدّد موقفنا فى درس كتاب الباقلانى عن الإعجاز . ونقرّر — فى صراحة — أننا لا نريد عرض مسألة الإعجاز على بساط البحث من جديد . وانما يهمنا أن نتبين كيف كان القدماء يفهمون النقد وكيف كانت مذاهبهم فى وزن الكلام البليغ . فكتاب الباقلانى فى نظرنا صورة للحياة الأدبية فى أنفس الناقدين من رجال القرن الرابع . وليس حجة فى تقدير القرآن . لأن وزنه أخف من أن يفصل فى تلك المسألة الدقيقة : مسألة الكلام المعجز الذى يسمو ببلاغته على ما يتطلع اليه فرسان الفصاحة والبيان . وهناك جانب آخر لا نذكر أن من الباحثين من أشار اليه : وهو جمع المحاولات الأدبية التى حاولها خصوم القرآن ، ففى تلك المحاولات صورة من صور النقد لها قيمة فى أنفس من يعنون بتاريخ الآداب . ونحن كمؤرخين للأدب يهمنا أن نستقصى جهد الطاقة ما تناثر هنا وهناك من محاولات الناقدين بدون تفريق بين الخطأ والصواب . فان ذلك فى جملته يمكننا من درس الحياة الأدبية دراسة علمية بعيدة عن مطارح الأوهام والظنون .

٣ — من ذلك ما حدّثنا الباقلانى أنه نُقل اليه أن من خصوم القرآن من (جعل يعدله ببعض الأشعار ويوازن بينه وبين غيره من الكلام ولا يرضى بذلك حتى يفضله عليه[2]) — ففى

(١) ص ٩ و ٢٠ (٢) ص ١٠

هذا الخبر ظاهرة أدبية خطيرة ينبغى أن نقيد أنها وقعت فى القرن الرابع . ولو أن الباقلانى بين لنا كيف كانت تلك المعادلات والموازنات لاستطعنا أن نعرف الى أى حد كانت تلك المحاولات تتصل بتاريخ النقد الأدبى ، ولكن ما صنعه الباقلانى نفسه فى نقد امرئ القيس والبحترى يحدد لنا ذلك المنهج بعض التحديد : فقد عرض لأشهر قصيدة نسبت الى امرئ القيس وهى المعلقة فنقدها بيتا بيتا بعد أن أشار الى أنه لا يرتاب فى جودة شعر امرئ القيس ولا يشك فى براعته وفصاحته وما أبدع فى طرق الشعر من أمور اتُّبع فيها كذكر الديار والوقوف عليها وما يتصل بذلك من التشبيه الذى أحدثه والتلميح الذى يوجد فى شعره والتصرف الكثير الذى يصادَف فى قوله والوجوه التى ينقسم اليها كلامه من صناعة وطبع وسلاسة وعلو ومتانة ورقة . ولم ينقد الباقلانى معلقة امرئ القيس إلا ليبين للقارئ أن تلك القصيدة ونظائرها تتفاوت فى أبياتها تفاوتا بينا فى الجودة والرداءة والسلاسة والانعقاد والسلامة والانحلال والتمكن والتسهل والاسترسال والتوحش والاستكراه : فهى على ذلك كلام ينحت من الصخر تارة ويذوب تارة . ويتلوّن تلوّن الحرباء ، ويختلف اختلاف الأهواء ، ويكثر فى تصرفه اضطرابه وتتقاذف به أسبابه . ومثل هذا الكلام لا يقارَن بالقرآن الذى يصفه بأنه "قول يجرى فى سبله على نظام ، وفى وصفه على منهاج ، وفى وضعه على حد ، وفى صفاته على باب ، وفى بهجته ورونقة على طريق مختلفة مؤتلفة ، ومؤتلفة متحدة ، ومتباعدة متقاربة ، وشارده مطيع ، ومطيعه شارد ، وهو على متصرفاته واحد : لا يستصعب فى حال ولا يتعقد فى شأن" .

٤ — ونتيجة هذا — من وجهة تاريخية — أن الباقلانى ومعاصريه رأوا أنه فى الامكان أن يوازنوا بين قصيدة من الشعر وسورة من القرآن . وان لم يتحد الموضوع . وسبيل ذلك أن تبين محاسن القصيدة ومساويها ويشرح فيها المبتذل والطريف والمقبول والمرذول ثم يقابَل ما سلم فيها بالسورة التى توازيها فى الكمية ليظهر ما فى السورة من المحاسن التى لم يشنها ضعف ولا تهافت ولا فضول .

وهـذا النحو من النقد يعـدّ من المحاولات البارمة فى الأدب العربى . ولا عيب فيـه إلا التحامل والإسراف . فان خصوم القرآن كانوا يأبون إلا الوصول إلى شواهد يحكمون لهـا بالفضل . والباقلانى كان يعمد الى القصائد التى يعرف فيها الضعف ليصل دائمـا الى الحكم للقرآن بالفضل . وقد بلغ به التحامل أن طعن فى قول البحترى :

ما الحسن عندك ياسعاد بمحسن فيما أتاه ولا الجمـال بمجـمل

وزعم أن أسلم منه وأبعد من الخلل قول كشاجم :

بحياة حسنك أحسنى وبحق من جعل الجمـال عليك وقفا أجمـلى

مع أن الذى يفهم الشـعر ويتذوقه يحكم بأن بيت كشاجم هذا لا يصح أن يقارن ببيت البحترى إلا عند غُلف القلوب . وأغرب من هذا الشطط أن ترى الباقلانى يأخذ فى نقد بيت البحترى فيقول :

قوله "عندك" حشو وليس بواقع ولا بديع وفيه كلفة . والمعنى الذى قصده أنت تعلم أنه متكرر على لسان الشـعراء : وفيه شيء آخر لأنه يذكر أن حسنها لم يحسن فى تهييج وجده وفى تهييم قلبه . وضد هـذا المعنى هو الذى يميل اليه أهل الهوى والحب .

٥ — هذا كلام الباقلانى . وهو كلام سقيم يدل على أنه لم يفهم بيت البحترى على الاطلاق ! وعلى هذا النمط من التحامل أفسد الرجل تلك الطريقة الجميلة : موازنة قصيـدة من الشعر بسورة من القرآن . وكيف تنتظر العدل من حَكَمٍ يكتب صحيفة الاتهام على هواه ؟

إن الذى يوازن بين قصيدة من الشعر وسورة من القرآن يجب عليه أن يكون مسـتعدا للحكم بالعدل . وهذا لا يتيسر لناقد يرى من همه أن يبحث عن مساوى القصـيدة ويطمس محاسـنها أو يتجاهلها أو يغض من قيمتها . وهو فى مقابل ذلك يجـدّ فى البحث عن محاسن السورة القرآنيـة وإبراز مزاياها ولا يستبيح لنفسـه التفكير فى وضـع ألفاظها أو معانيهـا أو أغراضها أو أسلوبهـا موضع النقد . وهذا كاف فى تجريح ما همّوا به قديمـا من الموازنة بين أثرين : أحدهما من الشعر، وثانيهما من القرآن .

٦ — وتقع بعد ذلك مسألة شغل بها أكثر الباحثين فى إعجاز القرآن .

وهى إعجاز غير القرآن من كلام الله كالتوراة والإنجيل والصحف الربانية .

ويجيب الباقلانى بأنه لا شىء من ذلك بمعجز فى النظم والتأليف وان كان معجزا كالقرآن فيما يتضمن من الأخبار بالغيوب . ويضيف إلى ذلك أنه لم يكن معجزا لأن الله لم يصفه بما وصف به القرآن ولأنه لم يقع التحدّى اليه كما وقع التحدّى إلى القرآن[(١)] .

ومعنى ذلك أن الباقلانى يرى أن غير القرآن من كلام الله لم يكن معجزا لأن الله لم يصفه بذلك . وتكون النتيجة أن نسبة الكلام إلى الله لا تعطيه صفة الإعجاز إلا إذا وصف الله كلامه به وتحدّى المعارضين اليه كما تحداهم إلى القرآن .

ونحن نسأل : لماذا لم يصف الله التوراة والانجيل بالإعجاز ؟ ولماذا لم يمنح تلك الكتب المزية التى منحها القرآن ؟ ؟ .

وقد توقع الباقلانى أن يوجه اليه هذا السؤال . وكذلك عرض لنا رأيا له قيمته فى فهم القدماء لخطر اللغة العربية ومقارنتها بما سبقها أو عاصرها من اللغات. وهو يرى أن اللغات التى كتبت بها التوراة والانجيل لا يتأتى فيها من وجوه الفصاحة ما يقع به التفاضل الذى ينتهى الى حدّ الاعجاز . وانما يقع فيها التقارب فى البيان[(١)] .

فان سأل القارئ : أكان الباقلانى يعرف من اللغات الأجنبية ما يمكنه من الحكم بأن اللغة العربية انفردت من بين سائر اللغات بالتفاضل فى وجوه الفصاحة؟ فانا نجيب بالنفى .

وهو نفسه يحدّثنا بأنه رأى أصحابه يذكرون هذا فى سائر الألسنة ويقولون : ليس يقع فيها من التفاوت ما يضمن التقديم العجيب[(١)] .

٧ — وهنا يتطوع الباقلانى بشرح أسرار تفوق اللغة العربية فيقول :

---

(١) ص ٣٤

«ويمكن بيان ذلك بأنا لا نجد فى القدر الذى نعرفه من الألسنة للشىء الواحد من الأسماء ما نعرفه من اللغة العربية وكذلك لا نعرف فيها الكلمة الواحدة تتناول المعانى الكثيرة على نحو ما تتناوله العربية» (١) .

وهذا المعنى عرض له ابن فارس إذ قال :

« انا لو احتجنا أن نعبر عن السيف وأوصافه باللغة الفارسية لما أمكننا ذلك إلا باسم واحد ونحن نذكر للسيف بالعربية صفات كثيرة وكذلك الأسد والفرس وغيرهما من الأشياء المسماة بالأسماء المترادفة . فأين هذا من ذاك وأين لسائر اللغات من السعة ما للغة العرب» (٢) .

والفكرة فى ذاتها سخيفة : لأن فضل اللغة العربية لا يرجع الى ما فيها من كثرة المترادفات إذ كانت هـذه المترادفات من الثروات الضائعة التى لا يحتاج اليها الا عند اللغو والتطويل . والقرآن نفسه الذى اتفقوا على سموّه لم يعتمد على المترادفات فى كثير ولا قليل وانما هو كلام طلق يجرى الى غاية فى غير تعمل ولا اعتساف .

٨ — ومن غرائب المقارنات أن المسيو مرسيه استفاد من اجماع علمائنا القدماء على أن كثرة المترادفات من أهم خصائص اللغة العربية فجاء أخيرا وطعن لغتنا طعنة دامية فى تقرير مطول قدّمه الى وزير المعارف فى باريس زعم فيه أن اللغة العربية لغة « مائعة » لا تعرف تحديد الألفاظ ولا الصفات (٣) .

والمسيو مرسيه غير منصف فى هذا الموضوع لأنه فى تقريره اهتم بجمع الهنات والعيوب وكان الظن به أن لا يتناسى أن المترادفات التى كان منها خمسون اسما للحجر ومائة للسيف وخمسمائة للاسد ليست مترادفات جمعت من اللغة القرشية وهى أساس لغتنا العربية وانما هى كلمات «تصيّدها» الرواة من مختلف أرجاء الجزيرة حبا فى المبالغة والإغراب .

فمن يبلغ الباقلانى وابن فارس ان ما كان غُرة فى زمانهم أصبح فى زماننا من أعراض الأمراض ؟

(١) ص ٣٤ (٢) الصاحبى ص ١٢

(٣) كان ذلك فى خريف سنة ١٩٣٠ ونشر التقرير فى أحد مطبوعات وزارة المعارف الفرنسية .

وذلك التمحل من جانب البلاقلانى ساقه الى تقرير « أن الشعر لا يتأتى فى تلك الألسنة على ماقد اتفق فى العربية وان كان قد يتفق فيها فى صنف أو أصناف ضيقة لم يتفق فيها البديع مايمكن ويتأتى فى العربية وكذلك لا يتأتى فى الفارسية جميع الوجوه التى تتبين فيها الفصاحة على ما يتأتى فى العربية » .

٩ — وهذه التهم التى كان يوجهها القدماء الى اللغات الأجنبية يقدّمها الأجانب اليوم الى اللغة العربية : فلغتنا فى أذهان كثير من أهل الغرب والشرق لا يتأتى فيها الشعر على ما قد اتفق فى الانجليزية والفرنسية والألمانيه مثلا « وان كان قد يتفق فيها فى صنف أو أصناف ضيقة » فما أعجب ما تشابه التهم على اختلاف الأجيال ! .

على أن كلام الباقلانى له دلالته ومعناه : فهو صريح فى اعتزاز القدماء باللغة العربية ، وإنا لنجد عند الجاحظ أصلا لهذا القول . وهو يحدثنا بأن الفرس والهند والروم كانت لهم خصائص لم يتفق مثلها للعرب وأن العرب فى مقابل ذلك انفردوا بالفصاحة والبيان (١) .

١٠ — وللقارئ أن يذكر أن هذا « الغرور القومى » كانت له مضارّ ومنافع ، فمن مضاره أنه صرف العرب عن نقل الشعر الفارسى واليونانى ظنا منهم أن فى شعر امرئ القيس مثلا غنى عن شعر هوميروس . ومن منافعه أنه أغراهم بالاعتزاز بشعرهم ولغتهم حتى ظنوا أن الاعجاز لايتأتى وقوعه فى غير اللغة العربية التى حسبوها تفرّدت بالتصرف فى الاستعارات والاشارات .

وقد يكون حظ القدماء أجمل من حظنا فى هذا الباب . فنحن اليوم نؤمن بأن اللغة العربية كسائر اللغات لا يتفق فيها الاعجاز لذاتها . وانما يقع الاعجاز حيث تكون العبقرية فى القلوب والعقول .

ونؤمن بأن فى اللغات ضروبا من التصرف فى القول قد لا يتفق مثلها أحيانا للغة العربية ولكنا لم ننقل من الشعر الأجنبى شيئا يقارب ما نقله أسلافنا من الفلسفة الأجنبية وانصرف

(١) راجع البيان ج ٣ ص ١٢

كثير من شبابنا عن دراسة الشعر القديم فحرموا من تراث الأسلاف وكان لهم فيه معين من الفن لا ينضب ولا يغيض .

وقف المجددون فى الشعر موقف التردد والحيرة : فلا هم عرب ينسجون على منوال الفرزدق والبحترى والمتنبي ، ولاهم فى طبعهم فرنجة يجيدون محاكاة بيرون وجوت ولامرتين.

١١ — وقد جاء فى كتاب « إعجاز القرآن » ما يفيد أن القرآن ليس من جنس كلام العرب ؟

فما هى حجة الباقلانى؟ حجته أن العرب لم يأتوا بمثله وأن منهم من خشع له بدون أن يدرك معناه . ومن أمثلة ذلك ان جماعة بعثوا بعتبة بن ربيعة الى الرسول — وكان عتبة حسن الحديث عجيب الشأن بليغ الكلام — فلما وصل الى الرسول طمعاً فى أن يأتى أصحابه بما عنده قرأ عليه النبي سورة ﴿ حم . السجدة ﴾ من أولها حتى انتهى الى قوله : ﴿ فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ﴾ .

فوثب عتبة مخافة العذاب .

قال الباقلانى " فاستحكوه ما سمع فذكر أنه لم يسمع منه كلمة واحدة ولا اهتدى لجوابه . ولو كان ذلك من جنس كلامهم لم يخف عليه وجه الاحتجاج والرد . فقال له عثمان ابن مظعون " لتعلموا أنه من عند الله إذ لم يهتد لجوابه[1] " .

ذلك ماقرره الباقلانى . ومانحسب أحدا يرتاب فى أن هذا محض اختلاق : فانه لايعقل أن يؤمن الرجل بما لا يفهم . ومن المرجح أن مثل هذه الأقاويل مما وضعه الرواة والقُصاص .

ويقول الباقلانى فى موطن آخر :

" قد ذكرنا أن العرب كانت تعرف ما يباين عاداتها من الكلام البليغ لأن ذلك طبعهم ولغتهم فلم يحتاجوا الى تجربة عند سماع القرآن ... وقال تعالى : ﴿ ولو جعلناه قرآنا أعجميا

(١) إعجاز القرآن ص ٣٠ و ٣١

لقالوا لولا فصلت آياته أ أعجمى وعربى»، فأخبر أنه لو كان أعجميا لكانوا يحتجون فى ردّه إما بأن ذلك خارج عن عرف خطابهم أو كانوا يعتذرون بذهابهم عن معرفة معناه بأنهم لا يتبين لهم وجه الإعجاز فيه لأنه ليس من شأنهم ولا من لسانهم أو بغير ذلك من الأمور وانه إذا تحدّاهم الى ما هو من لسانهم وشأنهم فعجزوا عنه وجبت الحجة عليهم[1] ".

والقارئ يرى تناقضا بين هذه الفقرة وبين الفقرة التى نقلناها آنفا . وهذا التناقض وقع بين سياقين فصل بينهما بنحو مائتى صفحة فللباقلانى عذره حين غاب عنه هنا ما أثبته هناك.

فخلاصة الفقرة الأولى ان القرآن ليس من جنس كلام العرب لأنه اتفق لأحدهم أن خشع له بدون أن يستطيع حكاية لفظه أو معناه .

وخلاصة الفقرة الثانية ان القرآن من جنس كلام العرب . ولولا ذلك لاحتجوا فى ردّه بأنه خارج عن عرف خطابهم، أو اعتذروا بذهابهم عن معرفة معناه بأنهم لا يتبين لهم وجه الإعجاز فيه لأنه ليس من شأنهم ولا من لسانهم .

١٢ — ونحب أن نفصل رأينا فى هذه المسئلة ونحن نرى أن الفوارق بين اللغات تنحصر فى الألفاظ والأساليب: فاللغة تكون غير عربية إذا كانت ألفاظها أو أساليبها أعجمية. وقد يتفق مثلا أن نفتح كتابا تركيا أو فارسيا فنرى إحدى صفحاته تغلب فيها الكلمات العربية أو تكون بعض الجمل فى ألفاظ عربية ولكننا لا نفهم شيئا لأن الأسلوب غير عربى .

وقد تكون جملة وضعت فى ألفاظ أعجمية ورتبت فى وضعها على الأسلوب العربى . ولكننا لانفهمها لأن ألفاظها غير عربية. ومن هنا يتضح أن العرب فهموا بلا جدال ألفاظ القرآن ومعانيه لانه عربى اللفظ والأسلوب . ولا عبرة بما حكاه الباقلانى من أن بعض العرب عجز عن تأدية ما سمعه من آى القرآن . لأن هذا يخالف المعقول والمنقول ويناقض ما منّ به القرآن على منكريه من أنه بلسان عربى مبين .

(١) ص ٢١٨

١٣ — بقى نوع آخر من وجوه التفاضل فى الكلام وهو المعنى : ونحن نرى أن سر الفصاحة والبلاغة يرجع إلى ما فى المعنى من قوة وروح . ومن المتفق عليه أنه لا يكفى أن يكون المعنى صحيحا ليكون الكلام بليغا . ألا ترى أنه لا يوجد أصدق من قول من قال :

كأننا والماء من حولنا قوم جلوس حولهم ماء

ولكن من الذى يقيم وزنا لصدق هذا الكلام ؟ إن هذا الصدق هو التفاهة بعينها . وقد رأى بعض النحاة ان البديهيات لا تسمى كلاما . ومن رأى ذلك البعض أن من يقول "السماء فوقنا والأرض تحتنا" لم يقل شيئا ولا يضاف ما يلفظ به الى الكلام المفيد .

وعلى هذا لا يكفى أن يكون الكلام صادقا ليكون بليغا . وإنما يجب أن يكون مع صدقه طريفا يستهوى العقل والقلب . ومن امثلة ذلك قول قريط بن أنيف :

لو كنت من مازن لم تستبح إبلى بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا
إذن لقام بنصرى معشر خُشُنٌ عند الحفيظة ان ذو لوثة لانا
قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم طاروا إليه زرافات ووحدانا
لا يسألون أخاهم حين يندبهم فى النائبات على ما قال برهانا
لكنّ قومى وان كانوا ذوى عدد ليسوا من الشر فى شيء وان هانا
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ومن إساءة أهل السوء إحسانا
كأن ربك لم يخلق لخشيته سواهمو من جميع الناس إنسانا
فليت لى بهمو قوما إذا ركبوا شدوا الإغارة فرسانا وركبانا

وهذه القطعة من بدائع الشعر العربى . وهى قطعة خالدة ستظل قوية بارعة ما بقى فى العالم ناس يفهمون سر العربية . ومع هذا لا تستطيع أن تجد فيها ألفاظا يعز على غير قائلها الوصول إليها ، أو أسلوبا فى التعبير يتميز عن غيره من الأساليب . وجمالها كله يرجع إلى دقة المعنى وطرافته وتخير الألفاظ تخيرا يجعلها تتمثل مع المعنى كتلة واحدة . فقوله مثلا :

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم طاروا إليه زرافات ووحدانا

هـذا البيت يمكن رجع طرافتـه الى كلمة " أبدى ناجذيه " وكلمة " طاروا " وهاتان ليستا كلمتين وإنمـا هما المعنى تجسم فى لفظين فرضهما السياق . وقوله :

لكن قـومى وان كانوا ذوى عدد ليســوا من الشر فى شئ وإن هانا

فقوة هـذا البيت ترجع الى قوله " وان كانوا ذوى عدد " وقوله — " وإن هانا " وفيهما أيضا يتجسم المعنى فى قوة وروح . وقد بلغ هذا الشاعر أقصى غايات التهكم فى قوله :

كأن ربك لم يخلق لخشـيته سواهمو من جميـع النـاس إنسانا

١٤ — وقد تجد من الشعر ما تخلو معانيه وألفاظه من الروعة الظاهرة . ولكن قوة الروح تصـل به الى أسمى غايات الابداع . ومثال ذلك قول حطان بن المعـلى يشكو فقره وما وضع القدر فى رجليه من قيود الأهل والذرية :

أنزلنى الدهر على حكمـه من شامخ عالٍ الى خفض
وغالنى الدهر بوفـر الغـنى فليس لى مال سـوى عرضى
أبكـانىَ الدهر ويا ربمـا أضحكنى الدهر بمـا يرضى
لولا بنيات كزغب القطـا رُددن من بعض الى بعض
لكان لى مضطرب واسـعٌ فى الأرض ذات الطول والعرض
وإنمـا أولادنا بيننـا أكبادنا تمشى على الأرض
لو هبت الريح على بعضهـم لا متنعت عينى عن الغمض

وقوة هذا الشعر ترجع الى الشاعر لا إلى اللفظ ولا الى الأسلوب : ومن ذلك يتضح أن من يزعمون أن القرآن ليس من جنس كلام العرب لم يفهموا شيئا من أسرار الإعجـاز . ولذلك تراهم يدورون حول الظواهر والمحسِّنات اللفظية : فيقول بعضهم إن العرب لم يكونوا يعرفون غير الأسجاع والأمثال فبهرهم القرآن لأنه جاء على نمط غير الذى كانوا يعرفون من أنماط الأسجاع والأمثال . ويقول آخرون : إن العرب كانوا تارة يسجعون وتارة يترسلون فجاء القرآن لجمع بين السجع والترسل فى نظام بديع . ويقول مؤلفو كتاب "المجمل" الذى قررت الوزارة

تدريسه بالمدارس الثانوية : إن العرب لم يكونوا يعرفون غير الشعر وفنونه وأوزانه وأغراضه فجاء القرآن ففاجأهم بلون من الأدب جديد[١] .

١٥ — وهذا كما يرى القارئ يرجع الى الناحية اللفظية أو الفنية . ونحن نرى غير ذلك فنرى أن محمدا عليه السلام اجتذب العرب لأنه نبى ولم يجتذبهم لأنه فنان . فالفن الكلامى لم يكن جديدا عند العرب وانما كان الجديد عندهم أن يأتيهم رجل منهم بأساليب من الفكر والعقل والوجدان غير التى كانوا يألفون . ولو رجعنا الى حزب المعارضة لعهد الرسول لرأيناه لا ينكر إلا ما جاء به القرآن من معان وأغراض . ولم يتعرض مطلقا لما جاء به من ألفاظ وأساليب . فالمعركة كانت تدور رحاها حول ما فى القرآن من الدعوة الى توحيد الله عز شأنه وإفراده بالقدرة والجبروت . ولو تأملنا قليلا لرأينا أن الذى يروعنا من الشاعر الواحد هو ما تنفرد به بعض قصائده أو أبياته من دقة المعنى أو طرافة الخيال .

ومن هنا صح للنقاد القدماء أن يقولوا عن بعض الشعراء :

"لو قال هـذا وسكت لكان أشعر الناس" .

وصح لهم أيضا أن يقولوا :

"أشعر الناس النابغة إذا رغب . والأعشى إذا شرب . وامرؤ القيس إذا طرب . وعمرو ابن كلثوم إذا غضب" .

وهذا كلام دقيق جدّا لأنه يضيف قوّة الشعراء الى خصائصهم النفسية والروحية : فالشاعر شاعر لأنه يتحدّث عن ذات نفسه وعن ضميره وروحه ووجدانه ، فهو فيما يرجع الى جوهر نفسه أفصح منه فيما يتعلق بنوافل الأغراض .

ولذلك كان هذا الشاعر أبلغ إذا مدح . وذاك أفصح اذا شبّب . وذلك أخل اذا تحمس . ولو استقرينا المنازعات الأدبية فى الأمم التى نعرفها لرأيناها ترجع الى المعانى والأغراض لا الى الألفاظ والأساليب . فالنزاع فى فرنسا مثلا بين الكلاسيك والرومانتيك كان نزاعا حول الفكرة .

(١) راجع ص ٦٣ و ٦٤

فالكلاسيك يرون أن الأغراض يجب أن تكون موضوعية (objectif) والرومانتيك يفضلون أن تكون الاغراض ذاتية (Subjectif) .

١٦ — وفى مصر والشرق العربى كانت المنازعات الأدبية تدور حول الفكرة فالنزاع الأدبى القديم بين محمدعبده ومعاصريه كان نزاعا حول فكرة . والنزاع بين قاسم أمين ومعاصريه كان يدور حول فكرة . والخصومات العنيفة التى وقعت بين على يوسف وعبد العزيز جاويش كانت حول فكرة . والنزاع القريب جدّا بين الجديد والقديم كان نزاعا حول فكرة. وما نحسب أحدا ممن هاجموا المنفلوطى كان ينكر أن أسلوبه جيد ولكن الذين هاجموه ادّعوا أنهم يحاربون فى شخصه فكرة المحافظة على قديم التقاليد .

ولا جدال فى أن الألفاظ والأساليب تتلوّن وتتشكل بلون الفكرة التى تسيطر عليها. وعلى هذا الأساس وجد الأسلوب الجزل والأسلوب الرقيق . فالرقة والجزالة من مقتضيات المعانى لا الألفاظ . فالمعنى الجزل له لفظ جزل، والمعنى الرقيق له لفظ رقيق . فاذا غلبت الرقة على شاعر مثل البها زهير فمرجعها الى الفكرة لأنه شاعر وديع يعبر عن معانٍ وديعة يلهَم أمثالها أصحاب الوداعة والرقة من الشعراء المترفين . واذا غلبت الجزالة على شاعر مثل المتنبي فمرجعها أيضا الى الفكرة لأنه شاعر طامع فى أسمى ما يطمح اليه فحول الرجال وهو الملك والتغلب والسيطرة والسلطان .

أفبعد هذا البيان يدهش ناس مما أشرت اليه مرة من أن السلامة والتعقيد والرقة والجزالة والوضوح والغموض كلها صور للنفس الانسانية التى تفصح عما يطيف بها من معان وأفكار وأراء وأغراض ؟ .

١٧ — وبعد هذا وذاك : أكان القرآن كلاما من جنس كلام العرب أم كان لونا من التعبير يختلف عما عرفوه وألفوه كل الاختلاف ؟ .

هو كلام من جنس كلامهم ومن جوهره ومعدنه . ولكنه يمتاز بقوّة المعنى وقوّة الروح . فان قيل : ولِمَ تعذر عليهم أن يأتوا بشىء من مثله؟ فانا نجيب بأن القرآن نفسه فصل

فى هـذه المسألة حين قال ﴿ فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وآدعوا من آستطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ .

فلنتأمل جيدا عبارة ﴿إن كنتم صادقين﴾ ففيها الجواب كل الجواب . وهل كان فى مقدور العرب أن يكونوا جميعا أنبياء حتى يصلوا الى ماوصل اليه مواطنهم وزعيمهم وسيدهم محمد بن عبد الله الذى صدقت كلمتهم فيه قبل نبوّته حيث لقبوه بالصادق الأمين ؟

١٨ — وقد كان من القدماء من يرى أن البلاغة لا ترجع الى المعانى : لأن المعانى فى رأيهم يعرفها العربى والعجمى والقروى والبدوى . وإنما ترجع البلاغة الى جودة اللفظ وصفائه .

ودليل ذلك عندهم أن الخطب والأشعار الرائعة ما عملت لإفهام المعانى فقط . لأن الردىء من الألفاظ يقوم مقام الجيد منها فى الافهام وان الكلام اذا كان لفظه حلوا عذبا ومعناه وسطا دخل فى جملة الجيد، واذا كان المعنى صوابا واللفظ باردا دخل فى جملة المستهجن الملفوظ[1] .

١٩ — أما نحن فنلق العجم والقرويين جانبا ونحصر البلاغة فى جمهور المثقفين . ثم نقرر أن الألفاظ ملك للجميع يجدونها حيث أرادوا فى المعاجم والدواوين، ولا يبقى موضعا للجهد والعنت أو العبقرية إلا المعانى والأغراض . ومن العبث أن نظن أن البلاغة لا تخرج عن المناورات اللفظية . فان هذا إسراف فى تقدير الزخرف وامتهان لصولة العقول . إن الألفاظ فى مقدور كل شاعر وكل كاتب وكل خطيب . ولكن المعجز حقا هو الفكرة . وليس معنى هذا أننا لا نقيم وزنا للصناعة الفنية . ولكن معناه أننا نقرر أن الفكرة تجىء أولا ويجىء الورق ثانيا كما يقول الفرنسيون .

وقد رأى ناس قول الباقلانى "ليس القرآن من جنس كلام العرب" فقرروا خاطئين أن القرآن يخالف ما درجت عليه البلاغة العربية من حيث الأسلوب . ولو سألتهم عن تحديد معنى (الأسلوب) لعجزوا عجزا مبينا، لأن الأسلوب فى رأينا هو الصورة الظاهرة لعقل الكاتب

(١) راجع الصناعتين ص ٤٢

وروحه وفكرته ومرماه، وليس فى مقدور أحد من المتفوقين فى علوم البلاغة أن يحدد الأسلوب تحديدا منطقيا يجمع خصائصه ويمنع ما يتطرق اليه من غريب الأوصاف ، أو أن يدلنا على خواص أسلوب القرآن دلالة واضحة بريئة من عوارض اللبس والغموض، فان ألفاظ القرآن كألفاظ كل كلام عربى مبين لا تمتاز باللفظ ولا بالأداء وإنما تمتاز بالمعنى والغرض والروح .

فان أراد أحد شاهدا على ما نقول فانا نفتح المصحف عرضا بدون تخير ثم ننقل آيات لنسأله أن يعين ما جاء فيه غريبا عن الأساليب العربية . ولنختر خمس آيات من مطلع سورة الأنبياء : ﴿ اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون . ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون . لاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون . قال ربى يعلم القول فى السماء والأرض وهو السميع العليم . بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أُرسل الأولون ﴾ .

فأين تكون غرابة الأسلوب فى هذه الآيات الخمس ؟ وأين يكون السياق الفنى الغريب عن الأعراب؟ أليس مرجع الروعة فى هذه الآيات الى المعنى والروح؟ أترونها تمتاز بالسجع؟ وكيف والسجع كان معروفا قبل القرآن ؟ أترون ألفاظها متخيرة منتقاة ؟ هو ذلك . ولكن كيف يدور اختيار الألفاظ؟ أترون لاختيار الألفاظ مدارا غير موجبات المعانى والأغراض؟ فان كانت هذه الآيات الخمس لا تكفى فالى القارئ شواهد أخر من القرآن المجيد . يقول الله عز شأنه : ﴿ ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا ﴾ .

وأنا أشهد صادقا أنى ما فكرت فى هذه الآية إلا دهشت من سمو هذا النصح النبيل . فأين يكون جمال هذه الآية؟ أترونها من جنس غير جنس كلام العرب كما زعم الباقلانى؟ هيهات! إن ألفاظها تشبه جميع الألفاظ وتركيبها لا يتميز بشىء عن غيره من التراكيب .

ولكن الجمال هنا فى المعنى الشريف الذى قضى به القرآن وذلك المعنى هو الدعوة الى إيثار العدل فى جميع الأحوال من غضب وسكون وحب وشنآن . وقد راجعت صديقا اديبا فى هذه الآية فأراد أن يلتمس الجمال الفنى فى كلمة (ولا يجرمنكم) فان صح افتراض ذلك الصديق

فانا نسأل أيضا ومن أين ظفرت تلك الكلمة بمعنى الإعجاز. أليس مرجع ذلك الى ربطها بالمعنى الذى اقتضاه السياق ؟ على أنه من الخير أن نسوق الآية كاملة لنتبين كيف يمكن أن تكون بعض أجزاء الآية الواحدة أقوى من بعض :

﴿ ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ .

ألا ترون إن أنصفتم أن كلمة (اعدلوا هو أقرب للتقوى) تقل فى قوتها عن كلمة ﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا ﴾ فما هو سبب التفاوت ؟ لا يظن أحد أن مرجع التفاوت هو الأسلوب فان القرآن تفرّد فى رأى مخالفينا بوحدة الأداء والتعبير، فلم يبق من فرق بين صدر الآية وعجزها غير تفاوت المعنى . والتفاوت هنا جاء من أن صدر الآية معنى بِكر لا يجرى إلا على ألسنة الحكماء والأنبياء ، على حين نرى عجز الآية يؤدّى معنى مفهوما لدى جميع الناس .

ثم لننظر قوله جل شاءه ﴿ ألم أعهد اليكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان انه لكم عدوّ مبين ﴾ . هذه من غرر الآيات القرآنية : فأين يقع منها الحسن ؟ أترونه فى اللفظ ؟ أترونه فى الأسلوب ؟ وكيف وهى ألفاظ يجدها من يريد فى أسلوب واضح يدركه جميع المخاطبين ويستطيعه جميع الكاتبين . ان الجمال هنا فى الروح العالى : حيث يخاطب الله الآثمين وقد ألقى بهم فى نار الجحيم .

٢٠ — نترك شواهد القرآن جانبا لأنها من المواطن الشائكة . ونوضح نظريتنا بشواهد من النثر الجيد والشعر البليغ .

قيل لأعرابى يسوق مالا كثيرا : لمن هذا المال ؟ قال : لله فى يدى !

تأملوا عبارة "لله فى يدى" لتروا انها من نوادر الكلام الجيد البليغ ، ثم انظروا أترون فيها شيئا غير جمال المعنى ؟

ان الأدباء جميعا يحفظون كتاب عمرو بن مسعدة ، كتاب التوصية الذى ضربت ببلاغته الأمثال ، فلنذكر به القرّاء :

" كتابي هذا كتاب معنيّ بمن كتب له ، واثق بمن كتب اليه، وأرجو أن لا يضيع حامله بين الثقة والعناية . والسلام " .

أفترون هنا جديدا في لفظ أو في أسلوب ؟ إن الطرافة كلها تنحصر في المعنى لو تنظرون.

وكتب أحد الأمراء يوصي بعض قوّاد الجيش :

" وكن من احتيالك على عدوّك أشدّ حذرا من احتيال عدوّك عليك " .

وهذا كلام نادر قلما تجود بمثله القرائح . فأين يكون جماله ؟ أترونه في شيء غير المعنى ؟

وكتب عمر بن الخطاب الى أبي موسى الأشعري :

"عُدْ مرضى المسلمين ، واشهد جنائزهم، و باشر أمورهم بنفسك، فانما أنت رجل منهم غير أن الله جعلك أثقلهم حملا " .

وهي نصائح عادية وأبلغها جميعا قوله " فانما أنت رجل منهم غير أن الله جعلك أثقلهم حملا " .

أفترون الجمال هنا، جمال البلاغة، في شيء غير المعنى ؟

٢١ — والشعر؟ ما جماله وما عذوبته ؟ أنظروا قول ابن الأحنف :

أتأذنون لصب في زيارتكم فعندكم شهوات السمع والبصر

إن صدر هذا البيت عاديّ لا طريف فيه ولكن تأملوا عجزه حيث يقول (فعندكم شهوات السمع والبصر) ألا ترون انه معنى نادر نفيس وفيه وحده جمال البيت؟ ألا ترون أن لفظة "شهوات" لم تكن أوفى ولا أدق إلا حيث قرنت بالسمع والبصر وتحاشت ماعداهما من نعيم الحواس ؟

وانظروا قول قيس بن ذَريح :

الى الله أشكو فقد لُبنى كما شكا الى الله بعد الوالدين يتيمُ

وهذا من الكلام الجيد : فهل كانت جودته في غير معناه ؟ أليس كل ما هنا من روعة يعود الى تشبيه الزوجة الصالحة بالأم الرءوم، وتشبيه العاشق المهجور بالطفل اليتيم ؟

وانظروا قول جميل بن معمر :

فلو أرسلت يوما بثينة تبتغى — يمينى ولو عزت علىّ يمينى
لأعطيتها ما جاء يبغى رسولها — وقلت لها بعد اليمين سلينى
سلينىَ مالى يا بثين فانما — يبيَّن عند المال كل ضنين
فما لك لما خبَّر الناس أننى — أسأت بظهر الغيب لم تسلينى
فأُبلىَ عذرا أو أجيئ بشاهد — من الناس عدل أنهم ظلمونى
لحا الله من لاينفع الود عنده — ومن حبله ان مُدّ غير متين
ومن هو ذو لونين ليس بدائم — على ثقة خوان كل أمين

وقد تقولون : إن جمال هذا الشعر فى رقته وعذوبته . ولكن أترون الرقة والعذوبة إلا صورة ظاهرة لروح الشاعر وما يضمره لمعشوقته من عطف وحنان ؟ ألم أقل لكم إن الرقة والجزالة هى صفات للمعانى تمثل فى أشباح الألفاظ !

٢٢ — ولو اننا عدنا الى كتب النقد لرأينا أن القدماء كانوا يجعلون المعنى أساس الصورة بحيث يُعد الشاعر سارقا للمعنى و إن غير من صورته . ومن ذلك قول البعيث :

أترجو كليب أن يجئ حديثها — بخير وقد أعيا كليبا قديمها

أخذه الفرزدق فقال :

أترجو ربيع أن يجى صغارها — بخير وقد أعيا ربيعا كبارها

وهذا ليس بشىء فى جانب المعانى التى تؤخذ من المدح الى الهجاء ومن النسيب الى الرثاء وهى كثيرة جدا ، ومع ذلك تنبه النقاد الى أنها سرقة ، وتنبه الشعراء الى جرائمهم حتى روى عن الأخطل أنه قال : " نحن معاشر الشعراء أسرق من الصاغة "[1] .

٢٣ — وأنا مع هذا كله من أعرف الناس بقدر الألفاظ والأساليب فلست أنكر أن الشعراء والكتاب والخطباء يتفاوتون فى الصياغة الفنية ، ولكننى أومن قبل كل شىء بالمعنى

(١) الموشح ص ١٤١

والروح . وأرى الألفاظ على لسان الشاعر والكاتب والخطيب تشبه أدوات الحرب وأسلحة القتال فى أيدى الرجل: فالسيف هو السيف فى يد البطل وفى يد الجبان، ولكنه فى يد البطل موت أزرق الناب . على حين نراه فى يد الجبان أقل غناء من العصا فى يد الوليد. والخيل هى الخيل، ولكن الجواد لايكون جوادا إلا اذا اعتلى صهوته فارس مغوار، وهو تحت الرجل الرخو أشبه شىء بالحمار "تحت الفلاح العبيط" والمرأة هى المرأة، ولكنها بين يدى الرجل الغزل أنضر منها فى حضرة الرجل البليد ! والكتّاب المجيدون الذين أجمع الناس على احترامهم تتفاوت أيامهم تفاوتا شديدا: فهم فى بعض الأيام من فرسان البلاغة وأعيان البيان، وهم فى أيام أخر يُسفّون ويتهافتون . فما سبب ذلك؟ السبب معروف فان روح الكاتب يتأثر بمزاجه وظروفه وموضوعه تأثرا بليغا . فلو كان الأسلوب هو سر البلاغة لتحتم أن يكون الكاتب بليغا فى جميع أحواله، وهذا محال . فلم يبق إلا أن يكون للبلاغة سر آخر غير الأسلوب . وذلك السر هو المعنى والروح . وليست المعانى الجيدة بطائعة للكاتب فى كل لحظة، ولا الروح القوى بمواتيه فى كل حين . أيفهم قوم الآن أن القرآن من جنس كلام العرب فى اللفظ والأسلوب ؟ أيفهمون الان أن القرآن يمثل النثر العربى فى العصر الذى نزل فيه وأن سرّ إعجازه راجع الى روحه ومعانيه ؟

٢٤ — ومن أغلاط الباقلانى قوله بنفى السجع من القرآن، وهو يتابع فى هذا أبا الحسن الأشعرى وأصحابه، ويعارض جمهورا كبيرا من أهل العلم والأدب، منهم من سبقه ومنهم من عاصره، وحجة مخالفيه أن السجع مما يبين به فضل الكلام وأنه من الأجناس التى يقع بها التفاضل فى الفصاحة والبيان . ومن أقوى مايستدلون به على وجود السجع فى القرآن أن المسلمين اتفقوا على أن موسى أفضل من هارون، ومع ذلك قيل فى موضع "هارون وموسى" مراعاة للسجع، ولما كانت الفواصل فى موضع آخر بالواو والنون قيل "موسى وهارون"[1] .

---

(١) ص ٥٩

والواقع أن السجع موجود فى القرآن فى مواطن كثيرة ، ولا ينكره إلا معاند لا يفقه ما يقول، ومن أمثلته : ﴿ والسماء ذات الرجع ، والأرض ذات الصدع، إنه لقول فصل ، وما هو بالهزل[(١)] ﴾ .

ومن أمثلته أيضا : ﴿ والسماء ذات البروج ، واليوم الموعود، وشاهد ومشهود ، قتل أصحاب الأخدود، النار ذات الوقود، إذ هم عليها قعود، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود[(٢)] ﴾.

وكذلك : ﴿ إذا الشمس كورت، وإذا النجوم انكدرت، وإذا الجبال سُيِّرت ، وإذا العشار عطِّلت، وإذا الوحوش حشرت، وإذا البحار سجِّرت، وإذا النفوس زوجت، وإذا الموءودة سئلت ، بأى ذنب قتلت ، وإذا الصحف نشرت ، وإذا السماء كشطت ، وإذا الجحيم سعرت، وإذا الجنة أزلفت، علمت نفس ما أحضرت . فلا أقسم بالخنَّس، الجوارِ الكنَّس، والليل إذا عسعس، والصبح إذا تنفس، إنه لقول رسول كريم، ذى قوة عند ذى العرش مكين، مطاع ثم أمين، وما صاحبكم بمجنون، ولقد رآه بالأفق المبين، وما هو على الغيب بضنين[(٣)] ﴾ .

ولا أطيل فى سرد الآيات المسجوعة، ففى السور المكية شواهد كثيرة على السجع والازدواج .

٢٥ — والمهم أن نعرف ما هى حجة الباقلانى على نفى السجع من القرآن لنقدر وزنه للحجج والبينات، وهو يقول :

" لو كان القرآن سجعا لكان غير خارج عن أساليب كلام العرب، ولو كان داخلا فيها لم يقع بذلك إعجاز، ولو جاز أن يقال : هو سجع معجز، لجاز لهم أن يقولوا : شعر معجز ، وكيف والسجع مما كان يألف الكهان من العرب، ونفيه من القرآن أجدر بأن يكون حجة من نفى الشعر ، لأن الكهانة تنافى النبوّات، وليس كذلك الشعر[(٤)] " .

---

(١) سورة الطارق . (٢) سورة البروج . (٣) سورة التكوير . (٤) ص ٦٠ .

وهذا كلام ساقط ضعيف ، فالسجع موجود فى القرآن، ولكن الرجل يأبى أن يعترف به ، لأن الاعتراف بوجوده فى القرآن يتضمن الاعتراف بأنه غير خارج عن أساليب كلام العرب، والاعجاز فى رأيه ينحصر فى الأسلوب، وما دمنا سلمنا بأن القرآن معجز فانه يجب أن نؤمن بأنه غير مسجوع، وإلا ساوينا بينه وبين سائر الكلام !

ونحن لا ندرى كيف آتفق للباقلانى وأصحابه من الأشعرية أن يفهموا هذا الفهم العقيم ولا ندرى كيف صح له أن يحتم نفى السجع من القرآن قياسا على نفى الشعر، بل يزيد على ذلك أن نفى السجع أوجب لأنه كان أسلوب الكهان . والمسألة كلها لعب فى لعب وضلال فى ضلال : لأن اختصاص السجع بالكهان حديث خرافة ، والمعقول أن السجع كان عند أهل الجاهلية لونا من الزخرف الفنى يلجأ اليه الكاتب والخطيب رغبة فى التأثير ، ولم يغلب السجع على الكهان إلا لأنهم كانوا أكثر من غيرهم ثقافة وأدبا ، إذ كانوا قادة الجماهير فى الجاهلية . والسجع فى القرآن لا يمنع من إعجازه، لأن الاعجاز كما أسلفنا مرجعه الى سمو المعنى وقوة الروح، والرسول رجل من العرب تفرد من بينهم بتبليغ الرسالة الى قومه ، فمن الواضح أنه ينقلها اليهم فى أجمل ما عرفوا من الأساليب . ونفى الشعر عن القرآن ليس معناه أن الشعر غير صالح للإعجاز كما توهم الباقلانى، ولكنى أرجح أن الشعر لعهد النبوة لم يكن من تقاليده الاهتمام بالشؤون الجدية، وخاصة المسائل الروحية والدينية، ولذلك نجد القرآن يعرّض بالشعر ويتهم الشعراء باللغو والفضول والهيام فى أودية الخيال . والشعر مع هذا فى أسلوبه لعهد النبوة كان أضيق من أن يتسع لشرح المشاكل الدينية والاجتماعية التى أطال فى شرحها القرآن، ومن هذا يتبين أن عدم تبليغ الرسول رسالته شعرا لم يكن معناه أنه تحامى الشعر لئلا يشارك العرب فى أساليبهم كما ظن الباقلانى وأصحابه الأشعريون .

٢٦ — على أن الباقلانى لا يقف عند هذا الخطأ بل يتعداه الى خطأ أشنع فى فهم السجع فيقول :

" والذى يقدرون أنه سجع فهو وهم لأنه قد يكون الكلام على مثال السجع وان لم يكن سجعا ، لأن ما يكون به الكلام سجعا يختص ببعض الوجوه دون بعض ، لأن السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذى يؤدى السجع ، وليس كذلك ما اتفق مما هو فى تقدير السجع من القرآن لأن اللفظ يقع فيه تابعا للمعنى ،وفصلٌ بين أن ينتظم الكلام فى نفسه بألفاظه التى تؤدّى المعنى المقصود فيه و بين أن يكون المعنى منتظما دون اللفظ ، ومتى ارتبط المعنى بالسجع كانت إفادة السجع كافادة غيره، ومتى ارتبط المعنى نفسه دون السجع كان مستجلبا لتجنيس الكلام دون تصحح المعنى (١) " .

وخلاصة هذه الفكرة أن الكلام لا يكون سجعا إلا اذا كان المعنى فيه تابعا للفظ ولا ندرى من أين أتى الباقلانى بهذه القاعدة . والصواب أن خير السجع ما كان اللفظ فيه تابعا للمعنى ، كما أشار الى ذلك غير واحد ممن كتبوا فى فنون البيان ، ونحن اذا تأملنا السجع فى القرآن رأينا اللفظ فيه تابعا المعنى، ونرى القرآن فى مواطن كثيرة يضحى بفواصل السجع فى سبيل المعنى، لا كما يفعل المتكلفون حين يضحون بالمعنى فى سبيل السجع .

وهناك خطأ آخر تورط فيه الباقلانى إذ يقول :

" لو كان الذى فى القرآن على ما تقدرونه سجعا لكان مذموما مرذولا، لأن السجع إذا تفاوتت أوزانه واختلفت طرقه كان قبيحا من الكلام ، وللسجع منهج مرتب محفوظ وطريق مضبوط، متى أخل به المتكلم أوقع الخلل فى كلامه ونُسب الى الخروج على الفصاحة، كما أن الشاعر إذا خرج عن الوزن المعهود كان مخطئا وكان شعره مرذولا، وربما أخرجه عن كونه شعرا ، وقد علمنا أن بعض ما يدعونه سجعا متقارب الفواصل متدانى المقاطع ، وبعضها مما يمتدّ حتى يتضاعف طوله عليه وترد الفاصلة على ذلك الوزن الأول بعد كلام كثير، وهذا فى السجع غير مرضيّ ولا محمود (٢) " .

(١) ص ٦٠ و ٦١ (٢) ص ٦١

ووجه الخطأ هنا أن الباقلانى يحاكم القرآن الى قواعد وضعها المتأخرون، وكان أولى به أن يفهم أن القرآن هو الأساس، وخروج القرآن على السجع من حين الى حين من دلائل سلامته و بلاغته ، لأن التزام السجع باب الى الغلو والإغراق ، ولم يقبح السجع على ألسنة المتأخرين إلا لأنهم التزموا به ما لا يلزم فى التريين والتجميل . والذين قالوا بوجود السجع فى القرآن لم يفرضوا التزامه فى جميع الأحوال ولا وقعوا فى مثل ما وقع فيه الباقلانى من الخطأ حين نفاه على الاطلاق[1] .

---

(١) يحسن بالقارئ أن يرجع الى الفصل الذى بسطنا فيه «أطوار السجع» فى الجزء الأوّل .

٧ – أبو القاسم الآمدى

١ — لم يصل الينا من أخبار الحسن بن بشر الآمدى شيء كثير . وكل ما نعرفه أنه ولد بالبصرة — ولا ندرى متى — وأنه انتقل الى بغداد فتلقى النحو واللغة عن الأخفش والزجاج وابن دريد وابن السَّراج، وأنه عاد الى البصرة فكتب لأبى الحسن أحمد وأبى أحمد طلحة بن الحسن بن المثنى . وكتب بعدهما للقاضى أبى جعفر بن عبد الواحد . ثم لأخيه أبى الحسن محمد بن عبد الواحد ثم لزم بيته بالبصرة الى أن مات نحو سنة ٣٧١ هـ (١) .

٢ — وليس فيما قرأنا من أخباره ما يعين مذهبه فى الحياة . ونستطيع فقط أن نتخذ من مؤلفاته دليلا على أن حياته العقلية قُصرت أو كادت على اللغة والنقد . يؤيد ذلك مجموعة كتبه التى أشار اليها ياقوت ومنها : كتاب المختلف والمؤتلف فى أسماء الشعراء . وكتاب نثر المنظوم . وكتاب الموازنة بين أبى تمام والبحترى . وكتاب فى أن الشاعرين لا تتفق خواطرهما . وكتاب ما فى عيار الشعر لابن طباطبا من الخطأ . وكتاب فرق بين الخاص والمشترك من معانى الشعر . وكتاب تفضيل شعر امرئ القيس على الجاهليين . وكتاب تبيين غلط قدامة بن جعفر فى كتاب نقد الشعر . وكتاب معانى شعر البحترى . وكتاب الرد على ابن عمار فيما خطّأ فيه أبا تمام . وكتاب فعلت وأفعلت (٢) .

وهذه المجموعة تعين اتجاهات ذهنه فى حياته الأدبية : فهو من النقاد المولعين بدرس الشعر ونقد ما كتب عنه . وهو بنوع خاص مغرم بدرس البحترى وأبى تمام، وتعقب ما كتبه رجال القرن الثالث عن الشعر والشعراء . ولو بقيت مؤلفاته لاستطعنا أن نصل الى شيء كثير من المعارف الأدبية التى كان يملكها رجال القرن الثالث والرابع، ولأمكننا أن نعرف

(١) راجع ترجمته فى معجم الأدباء ج ٣ ص ٥٤ — ٦١ (٢) ياقوت ص ٥٨ ج ٣

الى أى حد كان أولئك القوم يعرفون من الدقائق الفنية التى تسبق الى أذهان الشعراء فتتفق أو تختلف وَفقا لاختلاف الأحوال أو توافُق المشاعر والأذواق .

وهناك شواهد تدل على أنه فى حياته الاجتماعية كان حريصا على تتبع أحوال معاصريه وربط ما يسمع من أخبارهم بما نُقل اليه من أخبار السالفين وتقييد ما عرف عن أهل عصره من النوادر والفكاهات .

٣ — وكان فوق ذلك كثير الشعر، حسن الطبع، جيد الصنعة، مشتهرا بالتشبيهات — كما قال ياقوت — ولكن شعره ضاع وما بقى منه يدل على أنه كان جيد المعانى فى أسلوب ينقصه الرُّواء . من ذلك قوله :

يا واحدا بان فى الزمان ممن يجاريه أو يدانى
دعنىَ من نائل جزيل يعجز عن شكره لسانى
فلست والله مستميحا ولا أخًا طامعا ترانى
وهب اذا كنت لى وهوبا من بعض أخلاقك الحسان

وقوله فى عالم تمتام :

لا تنظرن الى تعتعه اذا رام الكلام ولفظه المعتاص
وانظر الى الحكم التى يأتى بها تشفيك عند تطلق وخلاص
فالدر ليس يناله غواصه حتى تقطع أنفس الغواص

ومن الشعر الفكاهى قوله فى أحد القضاة :

رأيت قلنسوة تستغيـ ـث من فوق رأس تنادى خذونى
وقد قلقت فهى طورا تميـ ـل من عن يسار ومن عن يمين
فطورا تراها فويق القفا وطورا تراها فويق الجبين
فقلت لها أى شىء دهاك فردت بقول كئيب حزين
دهانىَ أنْ لست فى قالبى وأخشى من الناس أن يبصرونى

وأن يعبثوا بمزاح معى وإن فعلوا ذلك بى قطعونى
فقلت لها مرّ من تعرفين من المنكرين لهذى الشؤون
ومن كان يشهق إما رآك ويخرج من جوفه كالرنين
ومن كان يصفع فى الله لا يمل ويشتد فى غير لين
ويسلح ملأك كيل التمام إما على صحة أو جنون
ففارقها ذلك الانزعاج وعادت إلى حالها فى السكون .

٤ — وأهم ما بقى من آثار الآمدى هو كتابه "الموازنة بين أبى تمام والبحترى" وهو كتاب يضعه فى الصف الأول ويقدّمه على كثير من الناقدين .

وأسلوبه فى ذلك الكتاب من أدق الأساليب وأصفاها وأبعدها من اللغو والفضول، وآراؤه فى نقد الشعر آراء جيدة سديدة نعجب لها اليوم أشدّ العجب وبيننا وبينه عشرة قرون .

٥ — وأمتن ما يصل بيننا وبين ذلك الرجل — على بعد العهد — معرفته لنفسية الأدعياء أدعياء الأدب والبيان : فهو يقرّر أن الناس يعتقدون أن الشعر منفرد من بين سائر الأشياء بجواز العلم به لكل أحد والحكم عليه لكل ناظر . لأن الذى يعرف منهم من الذهب والفضة والرقيق والخيل والسلاح والثياب والطيب أكثر مما يعرف من الشعر لا يتهم نفسه فى المعرفة بالشعر تهمته إياها فى المعرفة بتلك الأشياء: لأنه يرى الفرس فيعجبه ملاحة سبيبه، واستدارة كفله ، وبريق شعره، وصحة قوائمه ، وسلامة أعضائه، وبراءته من العيوب الظاهرة والباطنة، ولكنه لا يقدم على ابتياعه حتى يشاور فى أمره أصحاب البصر به. ويرى السيف فيبهره منه جلاؤه، وصقاله، وصفاء حديده ، ولكنه لا يمضى فيه اختياره حتى يعتمد على من يعرف حسنه وطبعه وجوهره وفرنده ومضاءه . ويريد ابتياع ثوب الوشى فيروقه منه حسن طرزه، وكثرة صوره، وبديع نقوشه، واختلاط ألوانه، فلا يبادر إلى إعطاء ثمنه حتى يرجع إلى أهل العلم بجوهره وجودة رقعته وصحة نسجه وصحة إبريسمه . ولكنه لا يجرى على هذه القاعدة فى الشعر لأنه ربما سمع القصيدة فأعجبه منها حسن وزنها

أو دقة معانيها أو ما آشتملت عليه من مواعظ وآداب وحكم وأمثال : فيتعجل بالحكم لها على سواها قبل أن يرجع إلى من هو أعلم منه بالشعر واستواء نظمه ووضع ألفاظه فى مواضعها، وغير ذلك من الأنظار الدقيقة التى لا يدركها إلا أرباب الصناعة[١] .

٦ — ومن الدقائق الغريبة أن نرى الآمدى منذ عشرة قرون يفهم أن هناك حاسة فنية يرجع اليها الناقد حين يعوزه الإفصاح عما يدركه من أسرار البيان : فهو يحدثنا أنه كما قد يكون الفرسان سليمين من كل عيب موجود فيهما سائر علامات العتق والجودة والنجابة و يكون أحدهما أفضل من الآخر بفرق لا يعلمه إلا أهل الخبرة والدراية الطويلة، وتكون الجاريتان بارعتين فى الجمال سليمتين من كل عيب فيفرق بينهما العالم بأمر الرقيق حتى يجعل فى الثمن بينهما فضلا كبيرا بدون أن يقدر على عبارة توضح وجه ذلك الفرق وإنما يعرفه بطبعه وكثرة دربته وطول ملابسته ، فكذلك الشعر : قد يتقارب البيتان الجيدان النادران فيعلم أهل العلم بصناعة الشعر أيهما أجود إن كان معناهما واحدا، وأيهما أجود فى معناه إن كان معناهما مختلفا[٢] .

٧ — وهذه النظرية البعيدة فى تقدير الحاسة الفنية لم تكن مما انفرد به الآمدى : فقد سُبق اليها ولكنه آستغلها أحسن آستغلال . وأجمل ما جاء فى هذا الباب ما حكاه إسحق الموصلى : "قال لى المعتصم أخبرنى عن معرفة النغم و بينها لى — فقلت إن من الأشياء أشياء تحيط بها المعرفة ولا تؤديها الصفة" .

قال : "وسألنى محمد الأمين عن شعرين متقاربين وقال : اختر أحدهما فاخترت . فقال : من أين فضلت هذا على هذا وهما متقاربان ؟ فقلت : لو تفاوتا لأمكننى التبيين ، ولكنهما تقاربا ففاضلت بينهما بشىء تشهد به الطبيعة ولا يعبر عنه اللسان" . وقيل لخلف الأحمر : إنك لا تزال ترد الشى من الشعر وتقول هو ردىء والناس يستحسنونه فقال :

"إذا قال لك الصيرفى : إن هذا الدرهم زائف فليس بنافعك قول غيره إنه جيد"[٢] .

ولكن كيف السبيل الى كسب الذوق الأدبى أو الحاسة الفنية ؟

---

(١) الموازنة ص ٢٠٦ (٢) الموازنة ص ٢٠٧

هنا يجيب الآمدى بأن ذلك لا يكون إلا بكثرة النظر فى الشعر، والارتياض فيه، وطول الملابسة له والانقطاع اليه، والانكباب عليه، والجدّ فيه، والحرص على معرفة أسراره وغوامضه .

٨ — والآمدى مع هذا يقرّر بأنه ليس فى مقدور كل إنسان أن يصل الى كسب الذوق الأدبى بطول الممارسة : لأن كل امرئ إنما يتيسر له ما فى طبعه قبوله وما فى طاقته تعلمه . وليس كل طبع قابلا لفهم أسرار الأدب والبيان ومن هنا صح له أن يقول :

« واعلم أيها السائل المتعنت أن هذا الذى تسائله ليس فى وسعه أن يجعلك فى العلم بالصناعة كنفسه . ولا يجد سبيلا الى قذف ذلك فى نفسك ولا فى نفس ولده ومَن هو أخص الناس به، ولا أن يأتيك فى ذلك بعلة قاطعة ولا حجة باهرة . على أن العلم الذى لا يستقر فى الذهن إلا بالروية والمشاهدة وطول الملابسة لا يمكن أن ينتقل الى ذهن آخر بمجرّد القول والصفة . إلا إذا استطاع صاحب البصر بالسيوف أن يصف لك عشرة آلاف سيف مختلفات الأجناس والجواهر، بحيث يجعلك مشاهدا لها كلها فى لحظة واحدة، عالما بكل علة، محيطا بكل حجة .

”وبعد فلعل الذى غرك فى دعواك المعرفة بالشعر والقدرة على الحكم فيه أن عندك خزانة كتب تشتمل على عدّة من دواوين الشعراء تتصفحها أحيانا وتحفظ منها القصيدة أو القصائد وفاتك أنك لم تغتر هذا الاغترار فيما يتعلق بثياب بدنك، وأثاث بيتك، وطرق نفقتك؛ لأنا لانراك تبتاع وشيا ولا آلة ولا تصرف دينارا بدرهم ولا درهما بدينار، حتى ترجع الى من يعرف ذلك دونك فتستعين به على حاجتك مخافة أن تفجع فى مالك . فكان خليقا بك أن تسلّم أمر الشعر الى أهله مخافة أن تفجع فى عقلك . ومصيبة الغبن فى العقل أكبر من مصيبة الغبن فى المال“[(١)].

٩ — والآمدى يؤثر الشعر المطبوع على الشعر المصنوع . ويعيب على الشعراء طلب الإغراق والإبداع والميل الى وحشىّ المعانى والألفاظ، وإن كان ذلك مما يروى ويستجاد

(١) ص ٢٠٧ و ٢٠٨

للأعراب " لأن الأعرابى لايقول إلا على قريحته، ولايعتصم إلا بخاطره، ولايستقى إلا من قلبه . وأما المتأخر الذى يطبع على قوالب ويحذو على أمثلة ويتعلم الشعر تعلما ويأخذه تلقنا فمن شأنه أن يتجنب المذموم، ولا يتبع من تقدّمه إلا فيما استُحسِن منهم واستُجيد لهم واختير من كلامهم ... فان الشاعر قد يعاب أشدّ العيب إذا قصد بالصنعة سائر شعره، وبالابداع جميع فنونه ، لأن مجاهدة الطبع ومغالبة القريحة مخرجة سهل التأليف الى سوء التكلف وشدة التعمل . ولكل شيء حدّ إذا تجاوزه المتجاوز سمى مفرطا . وما وقع الافراط فى شيء إلا شانه ، وأعاد الى الفساد صحته ، والى القبح حسنه وبهاءه » .

وخلاصة هذا الرأى أن الأعراب يغفر لهم ما لا يغفر للشعراء المثقفين لأنهم محتذون على غير مثال، وهذا أحلى فى النفوس، وأشهى الى الأسماع، وأحق بالاستجادة مما يورده المحتذون على مثال .

وهذه مسألة فيها نظر : لأن أكثر ماروى عن الأعراب دخلته الصنعة إذ كانت جمهرته من صنع الرواة . ونحن نفهم أن الأعراب يخطئون ويصيبون ، وهم حين يخطئون قد يكونون خاضعين لفطرة هى أجدى على اللغة وأنفع من جهود المثقفين فى الصقل والتجميل .

فاننا نرى للأعراب حرية فى الحذف والايصال لا نجد لها ظلا عند الشعراء الحضريين وتلك الحرية فى الحذف والايصال هى أخص سمات اللغات الحية . وفى اللغة الفرنسية لذلك ألف شاهد وألف دليل .

١٠ — وظاهر من النصوص المختلفة فى كتاب الموازنة أن الامدى يريد بالذات مسألة التعمل والتكلف والإغراب بايثار وحشىّ المعانى والألفاظ . فهذا يُقبل من الأعراب : لأنه من وحى الفطرة، ويُرفض من شعراء الأمصار : لأنه نتيجة التكلف . ومعنى هذا أنه كان هناك رأى يدعو الى تهذيب اللغة وتصفيتها وتخليصها من عنجهية الأعراب . وقد يستخلص من هذا أيضا أنهم كانوا يفهمون أن عيش الحضارة مما يوحى التأنق والتخير

فى المعانى والألفاظ والتعابير . فالشاعر الحضرى لا يُقبل منه التوعر لأنه خروج على فطرته ، وقد يقبل من البدوى لأنه يجرى فيه على سجيته ، فكأن الفطرة هى الميزان . وهذا كما يرى القارى من أدق الأحكام .

وقد يكون لهذا الاتجاه دخل فى أعمار الألفاظ ، فبعضها عُمِّر طويلا لأنه وافق هوى فى أنفس الحضريين وبعضها هجر فمات لقلة الاستعمال : ومن هذه الناحية فضَّل الآمدى البحترى على أبى تمام : لأن البحترى كان يتعمد حذف الغريب والوحشى من شعره ليقربه من فهم من يمتدحه . إلا أن يأتيه طبعه باللفظة بعد اللفظة فى موضعها من غير طلب لها . وكان من أمره فى ذلك أنه كان يكنى أبا عبادة ، فلما دخل العراق تكنى أبا الحسن ليزيل العنجهية والأعرابية ويساوى فى مذاهبه أهل الحاضرة ويقرب بهذه الكنية الى أهل النباهة والكتاب من الشيعة (١) . فهو بذلك بدوى تحضر فراج شعره فى البدو والحضر . ولا كذلك أبو تمام فانه حضرى تشبه بأهل البدو فلم ينفق بالبادية ولا عند أكثر الحاضرة .

١١ — والآمدى لا يستبعد اللحن بل يقرر أنه " لا يكاد يعرى منه أحد من الشعراء المحدثين ولا يسلم منه شاعر من الشعراء الاسلاميين . وأنه قد جاء فى أشعار المتقدمين ما لا يقوم العذر فيه إلا بالتأويلات البعيدة . وأن ما عِيب على البحترى من مخالفة المقاييس والبعد عن الصواب قد جاء كثير مثله فى أشعار القدماء . والأعراب الفصحاء (٢) " .

والواقع أن اللحن قديم . ومن الخطأ أن يُظن أن العرب لم يلحنوا إلا حين اختلطوا بالأعاجم . ولكنه من الواجب أن يلاحظ أن لطبائع الشعراء والكتاب دخلا فى فيما أُثر عنهم من اللحن : لأن لبعض الأذهان طرائق خاصة فى التعبير قد تعدّ انحرافا عن الصواب . فى حين أنها تفصح عن أغراض اصحابها أتم الافصاح — ولو ترك الناس على فطرتهم لكان من طرائق تعبيرهم مادّة صالحة لعلم النفس : لأن الأساليب الكتابية صور للاتجاهات العقلية ، والوجدانية ، والنفسية . وفى العقول كما فى الأساليب وضوح وغموض وخطأ وصواب .

(١) راجع ص ١٣ (٢) ص ١٤

بين صاحب أبى تمام وصاحب البحترى

اخترع الآمدى مناظرة طريفة تمثل النزاع الذى قام بين أصحاب أبى تمام وأصحاب البحترى . وهى مناظرة طويلة يجدها القارئ فى صدر كتاب "الموازنة بين الطائيين" ورأينا أن نثبت طرفا منها فى هذا الفصل ليرى القارئ كيف لانَ النثر وعذُب على قلم الآمدى وهو يصوغ هذا الحديث[(١)] :

صاحب أبى تمام — كيف يجوز لقائل أن يقول إن البحترى أشعر من أبى تمام ، وعن أبى تمام أخذ، وعلى حذوه احتذى، ومن معانيه استقى : حتى قيل الطائى الأكبر والطائى الأصغر .

صاحب البحترى — أما الصحبة له فما صحبه، ولا تتلمذ له، ولا روى ذلك أحد عنه ولا نقله، ولا أرى قط أنه محتاج اليه .

ودليل ذلك الخبر المستفيض من اجتماعهما وتعارفهما عند أبى سعيد محمد بن يوسف الثغرى وقد دخل عليه البحترى بقصيدته التى أولها :

* أأفاق صب من هوى فأفيقا *

وأبو تمام حاضر فلما أنشدها علق أبو تمام منها أبياتا كثيرة فلما فرغ من الانشاد أقبل أبو تمام على محمد بن يوسف فقال : أيها الأمير ! ما ظننت أن أحدا يقدم على أن يسرق شعرى وينشده بحضرتى حتى اليوم ! ثم اندفع ينشد ما حفظه حتى أتى على أبيات كثيرة من القصيدة فبهت البحترى . ورأى أبو تمام الإنكار فى وجه أبى سعيد فحينئذ قال أبو تمام :

"أيها الأمير والله ما الشعر إلا له وإنه أحسن فيه الاحسان كله" وأقبل يقرظه، ويصف معانيه، ويذكر محاسنه، ولم يقنع من محمد بن يوسف حتى أضعف له الجائزة. فمن كان يقول مثل هذه القصيدة التى هى من عين شعره، وفاخر كلامه، قبل أن يعرف أبا تمام، جدير به

(١) اكتفينا فى إثبات هذه الصفحات بما أورده المرحوم مصطفى لطفى المنفلوطى فى مختاراته. ومن أراد الشواهد فليرجع اليها فى صدر كتاب الموازنة فهى هناك أوفى وأمتع .

أن يستغنى عن أن يصحبه، أو يتلمذ له أو لغيره من الشعراء . على أننى لا أنكر أنه استعار بعض معانى أبى تمام لقرب البلدين وكثرة ما كان يطرق سمع البحترى من شعره . وليس ذلك بمقتض أن يكون أبو تمام أستاذ البحترى ولا بمانع أن يكون البحترى أشعر من أبى تمام . فهذا كثيِّر قد أخذ من جميل واستق من معانيه، فما رأينا أحدا قال إن جميلا أشعر منه بل هو عند أهل العلم بالشعر والرواية أشعر من جميل .

صاحب أبى تمام — إن البحترى نفسه يعترف أن أبا تمام أشعر منه فقد سئل عنه وعن أبى تمام : « فقال إن جيده خير من جيدى » وجيد أبى تمام كثير .

صاحب البحترى — إن كان هذا الخبر صحيحا فهو للبحترى لا عليه، لأن قوله هذا يدل على أن شعر أبى تمام كثير الاختلاف، وشعره شديد الاستواء، والمستوى الشعر أولى بالتقدمة من المختلف الشعر، وقد اجتمعنا نحن وأنتم على أن أبا تمام يعلو علوا حسنا وينحط انحطاطا قبيحا . وأن البحترى يعلو بتوسط ولا يسقط . ومن لا يسقط ولا يُسفّ أفضل ممن يسقط ويُسفّ .

صاحب أبى تمام — إن أبا تمام انفرد بمذهب اخترعه وصار فيه أولا وإماما متبوعا وشُهر به حتى قيل هذا مذهب أبى تمام وطريقة أبى تمام . وسلك الناس نهجه واقتفوا أثره، وهى فضيلة عرِىَ عن مثلها البحترى .

صاحب البحترى — ليس الأمر على ما وصفت، وليس أبو تمام صاحب هذا المذهب ولا بأول فيه ولا سابق اليه، بل سلك فيه سبيل مسلم بن الوليد وآحتذى حذوه وأفرط فى ذلك وأسرف حتى زال عن النهج المعروف، والسّنن المألوف، بل إن مسلما غير مبتدع له ولكنه رأى هذه الأنواع التى وقع عليها آسم البديع متفرقة فى أشعار المتقدّمين فقصدها وأكثر فى شعره منها . ولكنه حرص على أن يضعها فى مواضعها ولم يسلم مع ذلك من الطعن عليه حتى قيل أنه أوّل من أفسد الشعر فجاء أبو تمام على أثره واستحسن مذهبه، وأحب أن يجعل كل بيت من شعره غير خال من هذه الأصناف، فسلك طريقا وعرا، وآستكره الألفاظ

والمعانى استكراها : ففسد شعره ، وذهبت طلاوته ، ونشف ماؤه . فقد سقط الآن احتجاجكم باختراع أبى تمام لهذا المذهب وسبقه اليه . وكل ما فى المسئلة أنه استكثر منه وأفرط فكان إفراطه فيه من أعظم ذنوبه، وأكبر عيوبه . أما البحترى فانه ما فارق عمود الشعر وطريقته المعروفة على كثرة ما جاء فى شعره من الاستعارة والتجنيس والمطابقة فكان انفراده بحسن العبارة وحلاوة اللفظ وصحة المعنى والبعد عن التكلف والتعمل سببا فى إجماع الناس على استحسان شعره واستجادته وتداوله . ونَفاق شعر الشاعر دليل على علو مكانته واضطلاعه بما يلائم الأذواق ويلامس القلوب من أساليب الكلام ومناهجه .

صاحب أبى تمام — إنما أعرض عن شعر أبى تمام من لم يفهمه لدقة معانيه وقصور فهمه عنه، أما النقاد والعلماء فقد فهموه وعرفوا قدره ، و إذا عرفت هذه الطبقة فضيلته لم يضره طعن من طعن بعدها عليه .

صاحب البحترى — لا يستطيع أحد أن ينكر منزلة ابن الأعرابى وأحمد بن يحيى الشيبانى ودعبل بن على الخزاعى من الشعر ومنزلتهم من العلم بكلام العرب . وقد علمتم مذهبهم فى أبى تمام وازدراءهم بشعره . حتى قال دعبل : إن ثلث شعره محال، وثلثه مسروق، وثلثه صالح . وقال : ما جعل الله أبا تمام من الشعراء بل شعره بالخطب والكلام المنثور أشبه منه بالشعر. وقال ابن الأعرابى فى شعر أبى تمام : ان كان هذا شعرا فكلام العرب باطل ! وهذا محمد بن يزيد المبرِّد ما علمناه دوّن له كبير شيء .

صاحب أبى تمام — إن دعبلا كان يشنأ(١) أبا تمام ويحسده على ما هو معروف ومشهور، فلا يُقبل قول شاعر فى شاعر. وأما ابن الأعرابى فكان شديد التعصب عليه لغرابة مذهبه، ولأنه كان يرد عليه من معانيه مالا يفهمه ولا يعلمه ، فكان إذا سئل عن شيء منها يأنف أن يقول لا أدرى فيعدل الى الطعن عليه . ولا مانع أن يكون جميع من تذكرونه على هذا القياس .

---

(١) يشنأ : يبغض .

صاحب البحترى — لا عيب على ابن الأعرابى فى طعنه على شاعر عدل فى شعره عن مذاهب العرب الى الاستعارات البعيدة المخرجة للكلام الى الخطأ والإحالة . والعيب فى ذلك يلحق أبا تمام إذ عدل عن المحجة الى طريقة يجهلها ابن الأعرابى وأمثاله من المضطلعين بالسليقة العربية .

صاحب أبى تمام — إن العلم فى شعر أبى تمام أظهر منه فى شعر البحترى، والشاعر العالم أفضل من الشاعر غير العالم .

صاحب البحترى — كان الخليل بن أحمد عالما شاعرا، وكان الأصمعى شاعرا عالما، وكان الكسائى كذلك، وكان خلف بن حيان الأحمر أشعر العلماء، وما بلغ بهم العلم طبقة من كان فى زمانهم من الشعراء غير العلماء، وقد كان أبو تمام يعمل على أن يدل فى شعره على علمه باللغة وكلام العرب .

أما البحترى فلم يقصد هذا ولا اعتمده ، ولا كان يعدّه فضيلة ولا يراه علما ، بل كان يرى أنه شاعر لا بدّ له أن يقرب شعره من فهم سامعه فلا يأتى بالغريب إلا أن يتفق له فى اللفظة بعد اللفظة فى موضعه من غير طلب له ولا حرص عليه . على أن هذا العلم الذى تؤثرون به أبا تمام لم ينفعه : فقد كان يلحن فى شعره لحنا يضيق العذر فيه ولا يجد المتأول له مخرجا منه إلا بالحيلة والتمحل الشديد .

صاحب أبى تمام — لسنا ننكر أن يكون صاحبنا قد وهم فى بعض شعره وعدل عن الوجه الأوضح فى كثير من معانية . وغير غريب على فكر نتج من المحاسن ما نتج ، وولّد من البدائع ما ولّد ، أن يلحقه الكلال فى الأوقات ، والزلل فى الأحيان ، بل من الواجب لمن أحسن إحسانه أن يسامَح فى سهوه ويتجاوَز له عن خطاه. وما رأينا أحدا من شعراء الجاهلية سلم من الطعن ولا من أخذ الرواة عليه الغلط والعيب، وكذلك ما أخذته الرواة على المحدثين المتأخرين من الغلط والخطأ واللحن أشهر من أن يحتاج إلى أن نبرهنه أو ندل عليه ، وما كان أحد من

أولئك ولا هؤلاء مجهول الحق ولا مجحود الفضل بل عفّى إحسانهم على إساءتهم، وتجويدهم على تقصيرهم .

صاحب البحترى — أما أخذ السهو والغلط على من أُخذ عليهم من المتقدمين والمتأخرين ففى البيت الواحد والبيتين والثلاثة . أما أبو تمـام فلا تكاد تخلو له قصـيدة واحدة من عدّة أبيات يكون فيها مفسدا أو مُحيلا أو عادلا عن السنن أو مستعيرا آستعارة قبيحة أو مخطئا للمعنى بطلب الطباق والتجنيس ، أو مبهما بسـوء العبـارة والتعقيـد حتى لا يفهـم ولا يوجد له مخـــرج .

صاحب أبى تمام — إنكم تنكرون على أبى تمـام من الفضل ما يعترف به البحترى نفسه فقد رثاه بعد موته رثاء اعترف فيه له بالسبق وفضله على شعراء عصره .

صاحب البحترى — لم لا يفعل البحترى ذلك وقد كان هو وأبو تمام صديقين متحابين وأخوين متصافيين يجمعهما الطلب والنسب والمكتسب ، فليس بمنكر ولا غريب أن يشهد أحدهما لصاحبه بالفضل ويصفه بأحسن ما فيه ، وينحله ما ليس فيه ، على أن الميت خاصة يُعطَى فى تأبينه من التقريظ والوصف وجميل الذكر أضعاف ما كان يستحقه .

صاحب أبى تمام — كيفما كان الأمر لا تستطيعون أن تدفعوا ما أجمع عليه الرواة والعلماء أن جيد أبى تمام لا يتعلق به جيد أمثاله . وإذا كان جيده بهذه المكانة وكان من الممكن إغفال رديئه وآطراحه كأنه لم يقله فلا يبقى ريب فى أنه أشعر شعراء عصره والبحترى واحد منهم .

صاحب البحترى — إنما صار جيد أبى تمام موصوفا ومذكورا لندرته ووقوعه فى تضاعيف الردىء فيكون له رونق وماء عند المقابلة بينه وبين ما يليه . وجيد البحترى بجيد أبى تمام إلا أنه يقع فى جيد مثله أو متوسط فلا يفاجئ النفس منه ما يفاجئها من جيـد صاحبه .

٨ – أبو هلال العسكرى

١ – فى الأدب العربى رجلان باسم العسكرى يشتبهان كثيرا على الباحثين، لأن كلا منهما الحسن بن عبد الله العسكرى . وكان من أسباب هذا اللبس أن أخطأ صديقنا الأستاذ خير الدين الزركلى فى كتابه "الأعلام"(١) فأرّخ وفاة أحدهما بوفاة الآخر اعتمادا على فهرس دار الكتب المصرية .

قال ياقوت : أما وفاته فلم يبلغنى منها شىء غير أنى وجدت فى آخر كتاب الأوائل من تصنيفه (وفرغنا من املاء هذا الكتاب لعشر خلت من شعبان سنة ٣٩٥) وقد ظن جورجى زيدان أن هذا تاريخ الوفاة .

والفرق بين ذينك الشخصين أن أحدهما يكنى أبا أحمد وهو الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكرى، وثانيهما يكنى أبا هلال وهو الحسن بن عبد الله بن سهل العسكرى ، وقيل إن أبا هلال كان ابن أخت أبى أحمد(٢) .

والعسكرى نسبة الى عسكر مُكرم، وهى مدينة من كور الأهواز ، ومكرم الذى تنسب اليه مكرم الباهلى وهو أوّل من اختطها، كما يقول ابن خلكان(٣) .

٢ – وكان أبو أحمد العسكرى من رجال اللغة والرواية . وكان الصاحب ابن عباد يودّ الاجتماع به ولا يجد اليه سبيلا ، فقال لمخدومه مؤيد الدولة بن بويه : ان عسكر مكرم قد اختلت أحوالها، وأحتاج الى كشفها بنفسى، فأذن له فى ذلك، فلما أتاها توقع أن يزوره أبو أحمد العسكرى فلم يزره . فكتب الصاحب اليه :

ولما أبيتم أن تزوروا وقلتمو ضعفنا فلم نقدر على الوخَدانِ(٤)

---

(١) ص ٢٢٩ ج ١ (٢) ياقوت ص ١٣٧ ج ٣ (٣) وفيات الأعيان ص ٢٣٥ ج ١

(٤) الوخدان : سعة الخطو، كالوخد والوخيد .

أتيناكمو من بعد أرض نزوركم　　وكم منزل بكر لنا وعوان
نسائلكم هل من قرى لنزيلكم　　بملء جفون لا بملء جفان

وكتب مع هـذه الأبيات شيئا من النثر فجاوبه أبو أحمد عن النثر بنثر مثله، وجاوبه عن الشعر بهذه الأبيات :

أروم نهوضا ثم يثنى عزيمتى　　تعوّذ أعضائى من الرجفان
فضمّنت بيت ابن الشريد كأنما　　تعمـد تشبيهى به وعنانى
"أهمّ بأمر الحزم لو أستطيعه　　وقد حيل بين العير والنزوان"

فلما وقف الصاحب على الجواب عجب من اتفاق هذا البيت له وقال : «والله لو علمت أنه يقع له هذا البيت لما كتبت اليه على هذا الروىّ» .

وقد رأى أبو أحمد أن هـذا لا يقنع الصاحب وانه لا بدّ من الحمل على النفس، فركب بغلة وقصده فلم يتمكن من الوصول اليه لاستيلاء الحشم، فصعد تلعة ورفع صوته بقول أبى تمام :

مالى أرى القبـة الفيحاء مقفلة　　دونى وقد طال ما استفتحت مقفلها
كأنها جنة الفردوس معرضة　　وليس لى عمل زاك فأدخلها

فناداه الصاحب : ادخلها يا أبا أحمد فلك السابقة الأولى ! فتبادر اليه أصحابه فحملوه حتى جلس بين يديه فسأله عن مسألة فقال : الخبير صادفت ! فقال الصاحب : يا أبا أحمد ! تغرب فى كل شىء حتى فى المثل السائر ! فقال : تفاءلت عن السقوط بحضرة مولانا . وأصل المثل (على الخبير سقطت) وكانت وفاة أبى أحمد العسكرى سنة ٣٨٢ (١)

وانما كتبنا هذه الكلمة عن أبى أحمد لأنه كان أستاذ أبى هلال، ولنرشد القارئ الى أن أبا هلال حين يقول فى الصناعتين : « أخبرنا أبو أحمد » فانه لا يريد رجلا سواه . ومن

(١) وفيات ج ١ ص ٢٣٥ وقيل سنة ٣٨٧ ياقوت ج ٣ ص ١٣٤

كتاب الصناعتين نعرف شيئا كثيرا عن أبى أحمد العسكرى من الوجهة الأدبية ، فقد نقل عنه أشياء كثيرة فى أغلب ضروب البيان ، واختار شذرات من نثره تمثله من أوساط الكتّاب [١] .

٣ — أما أبو هلال فهو شخصية قوية جذابة لها أثر عظيم فى اللغة العربية ، ولولم يكن له إلا كتاب الصناعتين لكفى دلالة على فضله وبراعته وتفوّقه فيما عنى به من درس الشعر والنثر وتعقب مذاهب الشعراء والكتاب .

كان أبو هلال أبىّ النفس ، قوى القلب ، يترفع عن الدنايا وينأى بنفسه عما يرتطم فيه أدعياء الأدب من كسب العيش عن طريق التزلف الى الأمراء والرؤساء . وقد رأينا أن أستاذه وخاله أبا أحمد العسكرى كان قدوة له فى ذلك ، إذ كان الصاحب يستدعيه الى حضرته فيعتذر بالضعف والشيخوخة فرارا من أن يحشر فى زمرة الأتباع وطلاب المغانم وأرباب الغايات .

كان أبو هلال يتجر فى الثياب احترازا من الطمع والدناءة والتبذل [٢] ، ولكنه كان قوى الشعور بأن تلك مهنة لا تليق به ولا بأدبه ، فكان يزفر بمثل قوله :

جلوسىَ فى سوق أبيع وأشترى ... دليل على أن الأنام قرودُ
ولا خير فى قوم يذل كرامهم ... ويعظم فيهم نذلهم ويسود
ويهجوهمو عنى رثاثة كسوتى ... هجاء قبيحا ما عليه مزيد

وقوله :

إذا كان مالى مال من يلقط العجم [٣] ... وحالىَ فيكم حال من حاك أو حجم
فأين انتفاعى بالأصالة والحجا ... وما ربحت كفى على العلم والحكم
ومن ذا الذى فى الناس يبصر حالتى ... فلا يلعن القرطاس والحبر والقلم [٤]

٤ — وقد كان أبو هلال مع هذا التأبى متصل الحبل بالصاحب بن عباد ، وليس فى كتب التراجم ما يشرح لنا صلته بذلك الوزير الذى استعبد معاصريه من الكتاب

(١) أنظر ص ٣١٩ صناعتين . (٢) ص ١٣٥ ج ٣ ياقوت . (٣) العجم : النوى .
(٤) ص ١٣٦

والشعراء ، ولكني رأيت في كتاب الصناعتين ما يدل على أن صلته به كانت قوية ، ولذلك مظهران :

الأول اشادته بأدب الصاحب ، والثاني تحامله على المتنبي ، وكان ابن عباد يكره المتنبي كرها شديدا لترفعه عن مدحه ، فكان لذلك يدفع النقاد الى النيل منه والوقوع فيه ، والغض من شعره .

أما إشادته بأدب الصاحب فتظهر في استشهاده بكلامه ، كقوله في باب السجع والازدواج : " ومثله قول الصاحب : لكنه عمد الى الشوق فأجرى جياده غرا وقرحا ، وأورى زناده قدحا فقدحا ... وقوله : هل من حق الفضل تهضمه شغفا ببلدتك ، وتظلمه كلفا بأهل جلدتك ، ... وقوله : وقد كتبت الى فلان ما يوجز الطريق الى تخلية نفسه ، وينجز وعد الثقة في فك حبسه[1] " .

ونرى أبا هلال في مكان آخر يقول : " روى لنا أن عمر بن أبي ربيعة أنشد ابن عباس رضي الله عنه :

* تشط غدا دار جيراننا *

فقال ابن عباس :

* وللدار بعد غد أبعد *

فقال عمر : والله ما قلت إلا كذلك ... وإذا كان القوم في قبيلة واحدة وفي أرض واحدة فان خواطرهم تقع متقاربة ، كما أن أخلاقهم وشمائلهم تكون متضارعة ... وأنشدت الصاحب اسماعيل بن عباد :

* كانت سراة الناس تحت أظله *

فسبقني وقال :

* فغدت سراة الناس فوق سراته *

وكذلك كنت قلت ، فعلى هذا جائز ما يدعى لهم[2] .

(١) ص ٢٠٢ (٢) ص ١٧٣

وفى هذه العبارة تظهر مجاملة أبى هلال للصاحب، فهو يتخذ من حضور ذهنه دليلا على أن حضور الذهن من النعم التى قد يهبها الله للناس !

ونراه فى باب الفصل والوصل يقول : "وهكذا يفعل الكتّاب الحذاق، والمترسلون المبرزون ... ألا ترى ما كتب الصاحب فى آخر رسالة له : فان حنثت فيما حلفت، فلا خطوتَ لتحصيل مجد، ولا نهضت لاقتناء حمد، ولا سعيت الى مقام فخر، ولا حرصت على علو ذكر ... وهذه اليمين التى لو سمعها عامر بن الظرب لقال هى الغموس[1]، لا القسم باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ... فأتى بأيمان ظريفة ومعان غريبة .

وكتب أيضا فى آخر رسالة : وأنا متوقع لكتابك، توقع الظمآن للماء الزلال، والصوّام لهلال شوّال .

وكتب آخر أخرى : وسئل أن أخلفه فى تجشيم مولاى الى هذا المجمع، ليقرب علينا تناول البدر بمشاهدته، ولمس الشمس بغرته .

فانظر كيف يقطع كلماته على كل معنى بديع، ولفظ شريف[2] » .

٥ — وأما تحامله على المتنبى فيظهر فى مواطن كثيرة من كتابه، فهو لا يذكره باسمه، ولا يتحدّث عن شعره إلا حين يريد التمثيل للشعر القبيح . ففى باب تمييز المعانى ينشد قول السيد الحميرى :

أيارب إنى لم أرد بالذى به مدحت عليا غير وجهك فارحم

ثم يقول : "فهذا كلام عاقل يضع الشىء فى موضعه، ويستعمله فى إبانه، ليس كمن قال وهو فى زماننا :

جفخت وهم لايجفخون بها بهم شيم على الحسب الأغر دلائل[3]

فأشمت عدوه بنفسه .

(١) اليمين الغموس بالغين المعجمة التى تغمس صاحبها فى النار . (٢) ص ٣٥٤ و ٣٥٥

(٣) لم يذكر أبو هلال عجز البيت (ص ٤٥) . ص ٢٩٣

وفى باب الكناية والتعريض يقول : «ومن شنيع الكناية قول بعض المتأخرين :

إنى على شغفى بما فى خمرها ... لأعف عما فى سراويلاتها

وسمعت بعض الشيوخ يقول : الفجور أحسن من عفاف يعبر عنه بهذا اللفظ» .

و « بعض الشيوخ » ذاك هو الصاحب بن عباد الذى قيد هذه الملاحظة فى آخر رسالته فى الكشف عن مساوى المتنبى[1] .

وفى باب الترصيع يقول : « ومن معيب هذا الباب أيضا قول بعض المتأخرين :

عجب الوشاة من اللحاة وقولهم ... دع ما نراك ضعفت عن إخفائه

هذا ردىء لتعمية معناه[2] » .

وفى باب التوشيح يقول : « ومما عيب من هذا الضرب ... قول بعض المتأخرين :

فقلقلت بالهم الذى قلقل الحشا ... قلاقل عيس كلهن قلاقل

وإنما أخذه من قول أبى تمام فأفسده :

طلبتك من نسل الجديل وشدقم ... كومٌ عقائلُ من عقائل كوم[3]»

٦ — وتحامل أبى هلال على المتنبى هو المطعن الظاهر فى أخلاقه ، فقد كان يستطيع أن ينقد شعر المتنبى فيظهر الجيد منه والردىء ، ولكل شاعر جيد وردىء، ولكنه سلك خطة واحدة هى النص على السخيف من شعر المتنبى مع التعامى عن معانيه الجيدة، وخياله الوثاب . فانضم بذلك إلى النقاد المغرضين الذين كلفوا بالبحث عن عيوب المتنبى ابتغاء مرضاة الوزير ابن عباد، وما أحط الأدب إذا سخر لأهل الملك والسلطان !

٧ — ويعدّ نثر أبى هلال من الطبقة العالية . وهو يسجع ، ولكنه لا يلتزم السجع ، والتعبير المشرق الفصيح من أظهر مميزاته، ولا يكاد القارئ يرى فى نثره عبارة غامضة أو فكرة

---

(١) مخطوطة فى دار الكتب المصرية . (٢) ص ٣٠٠ (٣) ص ٣٠٤ والجديل وشدقم فحلان كانا للنعمان .

يحوطها اللبس ، وإنما يمضى فى الشرح والإيضاح بلغة سهلة مقبولة لا يعتريها ضعف ولا التواء . وانظر قوله فى جودة الرصف وحسن النظم :

«أجناس الكلام المنظوم ثلاثة : الرسائل والخطب والشعر . وجميعها تحتاج إلى حسن التأليف وجودة التركيب . وحسن التأليف يزيد المعنى وضوحا وشرحا . وسوء التأليف مع رداءة الرصف والتركيب شعبةٌ من التعمية . فاذا كان المعنى سَبيا[(١)]، ورصف الكلام رديا، لم يوجد له قبول ولم تظهر عليه طلاوة . وإذا كان المعنى وسطا ، ورصف الكلام جيدا ، كان أحسن موقعا وأطيب مستمعا ، فهو بمنزلة العقد إذا جعل كل خرزة منه إلى ما يليق بها كان رائعا فى المرأى وإن لم يكن مرتفعا جليلا ،وان اختل نظمه فضمت الحبة إلى ما لا يليق بها اقتحمته العين وإن كان فائقا ثمينا . وحسن الرصف أن توضع الالفاظ فى مواضعها وتمكن فى أماكنها ، ولا يستعمل فيها التقديم والتأخير والحذف والزيادة إلا حذفا لا يفسد الكلام ولا يعمى المعنى ... وسوء الرصف تقديم ما ينبغى تأخيره منها وصرفها عن وجوهها وتغيير صيغتها ومخالفة الاستعمال فى نظمها[(٢)] .

ولا يستطيع وضع لغة التأليف فى مثل هذه السهولة وهذه الدقة إلا الكتّاب المتفوّقون .

وانظر أيضا قوله :

" البلاغة ليست مقصورة على أمة دون أمة ، ولا على ملك دون سوقة، ولا على لسان دون لسان، بل هى مقسومة على أكثر الألسنة . فهم فيها مشتركون، وهى موجودة فى كلام اليونان وكلام العجم وكلام الهند وغيرهم ، ولكنها فى العرب أكثر لكثرة تصرفها فى النثر والنظم والخطب والكتب والسجع والمزدوج والرجز ، وهم أيضا متفاوتون فيها ، فقد يكون العبد بليغا ولا يكون سيده، وتكون الأَمَة بليغة ولا تكون ربتها ، فالبلاغة قد تكون فى أعراب البادية دون ملوكها، وقد يحسنها الصبى والمرأة"[(٣)] .

(١) السبى، هنا، معناه الجيد، والسبية : الدرة . (٢) ص ١٢٠ الصناعتين .

(٣) ص ٢١٣ التفضيل بين بلاغتى العرب والعجم ضمن مجموعة التحفة البهية طبع الآستانة .

وجمال هذه الفقرة يرجع الى دقتها وسلامتها من الفضول، وفيها صورة لفهم رجال ذلك العهد لمواقع البلاغة ، فهى فى رأيهم ليست وقفا على أمة دون أمة، ولكنهم يشعرون أن العرب أقدر الناس على الكلام البليغ ، ولا يمكن أن يطالَب الرجل بغير ذلك، فمن الصعب أن يدرك الناقد أن هناك لغة أجمل من لغته، إذ كان تذوق الأساليب يرجع الى طول الألفة والصداقة الروحية لأسرار الكتّاب والشعراء . وفى رأيى أن البلاغة كالموسيقا لا تُفهم ولا تُذاق إلا بطول السماع، فهناك ألحان شرقية بديعة لا يدرك جمالها إلا الشرقيون ، ولو سمعها الغربيون لسخروا منها وعدوها من عبث الرعاع . وهناك ألحان غربية دقيقة لا يقدّرها إلا الغربيون، ولو سمعها الشرقيون لسدّوا آذانهم وقالوا هذه همهمة الأعجام !

٨ — وكان أبو هلال يجيد الشعر ، ويضع شعره فى طبقة أشعار المفلقين، فينشده فى الصناعتين مستشهدا به كما يستشهد بشعر أبى تمام والبحترى، أو النابغة وامرئ القيس، ومن إليهم من القدماء والمحدَثين، وهذا يدل على اعتداده بقيمته الفنية ، ونحن كذلك نراه من الشعراء المجيدين، فنستحسن قوله — وقد أنشده فى باب المطابقة — :

قل لمن أدنيه جهدى وهو يقصينىَ جهده
ولمن ترضاه مولا ك ولا يرضاك عبده
أمليحٌ بمليح الشـ ـكل أن يخلف وعده
أم جميلٌ بجميل الـ ـوجه أن ينقض عهده
ما الذى صدك عنى ليت ما صدك صده (١)

ونستجيد قوله فى تفضيل الشتاء على غيره من الأزمنة :

إن روح الشتاء خلّص روحى من حرور تشوى الوجوه وتكوى
برد الماء والهواء كأن قد سرق البرد من جوانح خِلْو

(١) ص ٢٤٧ من الصناعتين .

ريحه تلمس الصدور فتشفى　　وغماماته تصوب فتروى
لست أنسى منه دماثة دجن　　ثم من بعده نضارة صحو
وجنوبا يبشر الأرض بالقطـ　　ـر كما بشر العليل ببرو
وغيوما مطرزات الحواشى　　بوميض من البروق وخفو
كلما أرخت السماء عُراها　　جمع القطر بين سفل وعلو
وهى تعطيك حين هبت شمالا　　برد ماء فيها ورقة جو
وليال أطلن مدّة درسى　　مثلما قد مددن فى عمر لهوى (١)

(١) ص ١٣٨ ج ٣ ياقوت .

٩ - كتاب الصناعتين

١ — أجمل أثر لأبى هلال العسكرى هو كتاب الصناعتين : الكتابة والشعر . وقد أراد أن يودعه جميع ما يحتاج اليه فى صنعة الكلام نثره ونظمه ، من غير إخلال ولا إسهاب ، وجعله عشرة أبواب مشتملة على ثلاثة وخمسين فصلا ، تكلم فيها عن موضوع البلاغة ، وتمييز الكلام جيده من رديئه ، والإيجاز والإطناب ، وحسن الأخذ وقبحه ، والتشبيه والسجع والازدواج ، والبديع وفنونه ، الخ .

والغاية من علم البلاغة فيما نص أبو هلال هى أن يعرف المتأدب إعجاز القرآن . وهى فكرة كثيرة الذيوع عند المتقدّمين : فعلوم اللغة العربية فى عرفهم إنما وضعت لفهم القرآن المجيد ، وهم يريدون أن يطمئن المؤمن الى إعجاز القرآن اطمئنانا مؤسسا على قواعد من البيان تحمل المنصف على الإقرار بإعجاز ذلك الكتاب . وهناك غايات ثانوية منها فهم الأدب ومنها القدرة على إجادة الإنشاء (١) . وقد أشار أبو هلال الى أن الكتب المصنفة فى ذلك الفن كانت لعهده قليلة وأن أشهرها كتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وهو فى رأيه كتاب جم المنافع لما آشتمل عليه من جيد الفصول والفقر والخطب والأخبار ، وما حواه من أسماء الخطباء والبلغاء ، إلا أن الإبانة عن حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة فى تضاعيفه : فهى ضالة بين الأمثلة لا توجد إلا بالتأمل الطويل ، والتصفح الكثير (٢) .

٢ — كتاب الصناعتين كتاب جيد ، تشعر وأنت تقرؤه أنه كتاب نادر المثال ، والمؤلف قوى الشعور بذلك ، فإنا نراه يقول بعد أن شرح نعوت البلاغة ووجوه البيان والفصاحة : «ولم يسبقنى الى تفسير هذه الأبواب وشرح وجوهها أحد ، وإنما آقتصر من كان قبلى على ذكر تلك النعوت عارية مما هى مفتقرة اليه من إيضاح غامضها ، وإنارة مظلمها ،

---

(١) ص ٣ من مقدّمة الصناعتين . (٢) ص ٥

فكان المنفعة بها للعالم دون المتعلم ، والسابق دون اللاحق ، وربما اعترض الشك فيها للعالم المبرز، فسقطت عنه معرفة كثير منها،وأنت أيدك الله تعتمد ما ذكرته من ذلك، وتأتم بما شرحته منه، وتستدل به على ما ألفيته من جنسه اذا عثرت به، لتستغنى عن جميع ما صنف فى البلاغة، وسائر ما ذكر من أصناف البيان والفصاحة، إن شاء الله[١] » .

ونراه يقول بعد أن تكلم عن قبح الأخذ : «وقد أتيت فى هذا الباب على الكفاية، ولا أعلم أحدا ممن صنف فى سرق الشعر فمثل بين قول المبتدئ وقول التالى وبين فضل الأول على الاخر والآخر على الأول غيرى ، وإنما كان العلماء قبلى ينبهون على مواضع السرق فقط، فقس بما أوردته على ما تركته، فانى لو استقصيته لخرج الكتاب عن المراد[٢] .

٣ — وأول ما يلاحَظ فى كتاب الصناعتين أنه كتاب أدب قبل أن يكون كتاب نقد، فان المؤلف ينتهز جميع الفرص ليعرض للقارئ طرائف النثر الجيد والشعر البليغ، وهو لا يكتفى بشاهد واحد، وإنما يندفع فينتقل من رسالة أنيقة الى حكمة بليغة، ومن بيت جيد الى قطعة مختارة . وقد بقى كتاب الصناعتين لذلك مرجعا لأجمل ما أنتجته القرائح العربية : ففيه نماذج من النثر البليغ قد يندر أن نجدها فى كتاب سواه، واليك هذه الدرة التى نقلها عن كثير ابن هراسة فى وصية ابنه :

« يا بنى! إن من الناس ناسا ينقصونك اذا زدتهم ، وتهون عليهم اذا أكرمتهم ، ليس لرضاهم موضع فتقصده، ولا لسخطهم موقع فتحذره، فاذا عرفت أولئك بأعيانهم ، فأبد لهم وجه المودّة وآمنعهم موضع الخاصة ، ليكون ما أبديت لهم من وجه المودة حاجزا دون شرهم وما منعتهم من موضع الخاصة قاطعا بحرمتهم[٣] » .

٤ — ومن أظهر الدلائل على أنه كتاب أدب قبل أن يكون كتاب نقد أنه يكثر من الاستطراد، والاستطراد هو المنهج الغالب على كتب الأدب الخالص، وهو منهج جميل كان يريد به القدماء نشر المعارف الأدبية، أو ما يسمى اليوم بالثقافة العامة، ومن أمثلة

(١) ص ٣٩ (٢) ص ١٧٩ (٣) ص ٢٤٠

استطراده أنه أراد أن يضرب مثلا للعلم الكثير فى القول اليسير فقال : وسئل بعض الأوائل : ما كان سبب موت أخيك؟ قال: كونه! ... وهنا مضى أبو هلال يخبرنا أن الناس تنازعوا هذا المعنى . فقد قيل لأعرابى : كيف حالك؟ فقال: ماحال من يفنى ببقائه، ويسقم بسلامته، ويؤتى من مأمنه . وأن النبي عليه السلام قال : كفى بالسلامة داء . وأن حميد بن ثور قال:

أرى بصرى قد رابنى بعد صحة ... وحسبك داء أن تصح وتسلما

وقال آخر:

كانت قناتى لا تلين لغامز ... فألانها الإصباح والإمساء

ودعوت ربى بالسلامة جاهدا ... ليصحنى فاذا السلامة داء

وقال ابن الرومى :

لعمرك ما الدنيا بدار إقامة ... اذا زال عن نفس البصير غطاؤها

وكيف بقاء العيش فيها وانما ... ينال بأسباب الفناء بقاؤها

وقريب من ذلك قول محمد بن على : مالك من عيشك إلا لذة تزدلف بك إلى حمامك ، وتقربك من يومك . فأية أكلة ليس معها غَصَص، وشربة ليس معها شَرق؟ فتأمل أمرك، فكأنك قد صرت الحبيب(١) المفقود أو الخيال المخترم . وقال أبو العتاهية :

* أسرع فى نقص امرئ تمامه *

ولم يكتف بهذا أبو هلال ، بل ذكر أن أول من نطق بهذا المعنى النمر بن تولب فى الجاهلية إذ قال :

يود الفتى طول السلامة والغنى ... وكيف يرى طول السلامة يفعل

يرد الفتى بعد اعتدال وصحة ... ينوء اذا رام القيام ويحمل

ثم ذكر من الأمثال : كل من أقام شخص ، وكل من زاد نقص . وأضاف الى ذلك شيئا من مختار شعره فى هذا المعنى(٢) .

(١) فى الأصل «الجيب» وهو تحريف، والتصويب عن الكامل ج ١ ص ٨٧ طبعة الخشاب .

(٢) راجع ص ٢٧ — ٢٩

٥ — ومما يؤاخَذ عليه أبو هلال أنه يهمل أسماء الكتّاب والشعراء فى كثير من الشواهد، كأن يقول: كتب بعضهم الى أخ له[(١)] "أما بعد فان المرء ليسره درك ما لم يكن ليفوته، ويسوءه فوت مالم يكن ليدركه، فليكن سرورك فيما قدمت من خير، وأسفك على ما فاتك من بر" وكأن يقول: "كتب بعضهم يصف رجلا فقال: "أما بعد فانك قد كتبت تسأل عن فلان كأنك قد هممت بالقدوم عليه، أو حدثت نفسك بالوفود اليه، فلا تفعل، فان حسن الظن به لا يقع إلا بخذلان الله تعالى، وإن الطمع فيما عنده لايخطر على القلب إلا بسوء التوكل على الله تعالى، والرجاء لما فى يديه لا ينبغى إلا بعد اليأس من رحمة الله تعالى، لا يرى إلا أن الإقتار الذى نهى الله عنه هو التبذير الذى يعاقب عليه، والاقتصاد الذى أمر به هو الإسراف الذى يغضب منه ... وأن مواساة الرجل أخاه من الذنوب الموبقة، وأفضاله عليه إحدى الكبائر المرهقة، وأن الله تعالى لا يغفر أن يؤثر المرء على نفسه ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء[(٢)] ! »

٦ — ويكثر أبو هلال من كلمة "قال الشاعر، وقال الآخر" من غير تعيين، وهذا عيب لم ينفرد به، وانما هو عيب غالب على أكثر المؤلفين فى اللغة العربية، وصلنا به الى الجهل المطبق بتمييز العصور بعضها من بعض، ولو نسبت كل كلمة الى قائلها لعرفنا كثيرا من تطورات المعانى والألفاظ والأساليب .

٧ — وسر البلاغة عند أبى هلال يرجع الى الألفاظ "وليس الشأن فى ايراد المعانى، لأن المعانى يعرفها العربى والعجمى، والقروى والبدوى، وانما هو فى جودة اللفظ وصفائه، وحسنه وبهائه[(٣)]" ودليله على أن مدار البلاغة على تحسين اللفظ أن الخطب الرائعة، والأشعار الرائقة، ما عملت لإفهام المعانى فقط، لأن الردىء من الألفاظ يقوم مقام الجيد منها فى الإفهام . ودليل آخر عنده أن الكلام اذا كان لفظه حلوا عذبا ومعناه وسطا دخل فى جملة الجيد، واذا كان المعنى صوابا واللفظ باردا فاترا — والفاتر شر من البارد — كان مستهجنا ملفوظا، ومذموما مردودا[(٤)] .

(١) ص ٣١ (٢) ص ٢٨١ (٣) ص ٤٢ (٤) أنظر ص ٤٢ و ٤٣

وقد ضرب المثل فيما سبق بالعقد المنظوم : فانه يكون أروع إذا جُعلت كل خرزة منه إلى ما يليق بها وان لم يكن مرتفعا جليلا ، وان اختل نظمه فضمت الحبة منه إلى مالا يليق بها اقتحمته العين وان كان فائقا ثمينا .

وقد عرض فى باب التتميم إلى قول الخنساء :

وان صخرا لتأتمُّ الهداة به   كأنه عَلَم فى رأسه نار

وبين أنه مأخوذ من قول الأعشى :

وتُدفَن منه الصالحات وان يُسِئْ   يكن ما أساء النار فى رأسى كبكبا

إلا أنها أخرجته فى معرض أحسن من معرض الأعشى . ثم قال : ”وهذا دليل على صحة ما قلناه من أن مدار البلاغة على تحسين اللفظ وتجميل الصورة (١)“

٨ — وحسن اللفظ عند أبى هلال موقوف على جمال المعنى ، فلا خير فيما أُجيد لفظه إذا سخف معناه (٢) . والكلام عنده بسلاسته وسهولته وتخير لفظه وإصابة معناه وجودة مطالعه واستواء تقاسيمه ، مع عدم ضروراته بحيث يكون المنظوم مثل المنثور فى حسن رصفه وتأليفه ، وكمال صوغه وتركيبه (٣) . وهو يفضل الكلام السهل ، ويراه أدل على قدرة الشاعر والكاتب (٤) . وهذا حق : فان سهولة الكلام تحتاج الى صنعة ومهارة وحذق ، وليس فى مقدور كل كاتب أن يخاطب الناس جميعا بما يفهمون فى لغة سهلة تجرى الى أذهانهم وعقولهم وأذواقهم ، ثم تظل مع ذلك فوق قُواهم لا يستطيعون أن يأتوا بشئ من مثل ما فيها من الألفاظ المتخيرة ، والمعانى الشريفة ، والخيال الجميل .

وقد ضرب المثل للسهل الممتنع بقول العباس بن الأحنف :

إليك أشكو رب ما حلّ بى   من صدّ هذا التائه المعجبِ
إن قال لم يفعل وإن سِيل لم   يبذل وإن عوتب لم يُعتب
صبٌّ بعصيانى ولو قال لى   لا تشرب البارد لم أشرب

(١) ص ٣١٠   (٢) ص ٤٤   (٣) ص ٣٩   (٤) ص ٤٤

وقول البحترى :

أيها العاتب الذى ليس يرضى ... نم هنيئا فلست أطعم غمضا
إن لى من هواك وجدا قد استهـ ... ـلك نومى ومضجعا قد أقضا
فجفونى فى عبرة ليس ترقا ... وفؤادى فى لوعة ما تقضّى
بأبى شادنٌ تعلق قلبى ... بجفون فواتر اللحظ مرضى
لست أنساه إذ بدا من قريب ... يتثنى تثنىَ الغصن غضا
واعتذارى إليه حين تجافى ... لىَ عن بعض ما أتيت وأغضى
واعتلاقى تفاح خديه تقبيـ ... ـلا ولثما طورا وشما وعضا

وقول الآخر :

صرفتَ القلب فانصرفا ... ولم ترع الذى سلفا
وبنتَ فلم أذب كمدا ... عليك ولم أمت أسفا
كلانا واجد فى النا ... س ممن ملّه خلفا

ولكن السهولة عند أبى هلال شىء آخر غير الليونة، فالكلام الذى يسهل حتى يصل الى الرخاوة والانحلال ردىء مردود (١) .

والكلام الجزل يجىء بعد السهل فى الرتبة ، والجزل فى رأيه هو الذى تعرفه العامة اذا سمعته ولاتستعمله فى محاوراتها (٢) . والفرق بين السهل والجزل على هذا أن السهل تفهمه العامة وتطمع فيه مع عجزها عنه، أما الجزل فهو ماتفهمه العامة وتشعر مع فهمها له أنها لاتقدر عليه .

والجزالة عند أبى هلال شىء آخر غير الوعورة ، فهى الجمع بين القوة والسهولة ، كقول سعيد بن حميد :

”وأنا من لايحاجّك عن نفسه، ولا يغالطك عن جرمه، ولا يلتمس رضاك إلا من جهته، ولا يستدعى برك إلا من طريقته ، ولا يستعطفك إلا بالإقرار بالذنب ، ولا يستميلك

(١) ص ٤٧ (٢) ص ٤٧

إلا بالاعتراف بالجرم . نبت بى عنك غِرة الحداثة، وردتنى اليـك الحنكة، وباعدتنى منك الثقة بالأيام ، وأدنتنى اليـك الضرورة. فان رأيت أن تستقبل الصنيعة بقبول العذر، وتجدّد النعمة بآطراح الحقد، فان قديم الحرمة وحديث التوبة يمحقان ما بينهما من الإساءة، فان أيام القدرة وان طالت قصيرة، والمتعة بها وان كثرت قليلة، فعلت" (١) .

ومما هو أجزل من هذا قول الشعبي للحجاج وقد أراد قتله لخروجه عليه مع ابن الأشعث :

" أجدب بنا الجناب، وأحزن بنا المنزل، واستحلسنا الحذر (٢)، واكتحلنا السهر، وأصابتنا فتنة لم نكن فيها بررة أتقياء، ولا فجرة أقوياء" فعفا عنه (٣) .

ومع اهتمام أبى هلال باللفظ نراه ينص فى مكان آخر على أن المدار على إصابة المعنى ، وأن المعانى تحل من الكلام محل الأبدان ، والألفاظ تجرى معها مجرى الكسوة (٤) . وهنا ينـاقض رأيه الأول، فضـلا عن ضعف تشبيه المعانى بالأبدان والألفاظ بالأثواب ، وكان أولى لو شـبه الألفاظ بالأجسام والمعانى بالأرواح . وفى رأيى أنه يجب أن يُفرَق بين المعنى والغرض، لأن ما جرى عليـه أبو هلال وغيره من كتّاب النقد والبيان يرتكز على وحدة البيت فى الشعر، وعلى وحدة الفاصـلة فى النثر، مع أنه يجب التفكير فى وحدة الغرض الذى سـيق من أجله الكلام، وبذلك ننقل النقد الى أفق أوسع، وتكون المعانى الجزئية وحدات تتكوّن منها الرسالة أو الخطبة أو القصيدة، كما ينظم العقد من حبات الجمان (٥) .

وهناك أبواب فى كتاب الصناعتين تشعرك بنفحات الأدب الجميل، وان لم تكن فى جملتها من مبتكرات أبى هلال . ففى باب الالتفات شواهـد بديعة مسـندة الى الأصمعى إذ قال : أتعرف التفاتات جرير؟ قلت : لا، قال :

أتنسى إذ تودعنا سليمى بعود بَشامة؟ سُـقِيَ البَشامُ

---

(١) ص ٤٩ (٢) استحلسنا الحذر : اتخذناه حلسا . والحلس بالكسر كساء على ظهر البعير تحت البرذعة ويبسط فى البيت . (٣) ص ٤٩ (٤) ص ٥١ (٥) انظر الصفحات ٩٣ — ١٠٢ من كتاب (الموازنة بين الشعراء) .

ألا تراه مقبلا على شعره (لعل الصواب شأنه) ثم التفت الى البشام فدعا له ؟

وقـــوله :

طرب الحمام بذى الأراك فشاقنى لا زلت فى عَلَلٍ (١) وأيك ناضــــر (٢)

وفى باب الرجوع يمثل بقول القائل : ليس معك من العقل شيء، بلى بمقدار ما يوجب الحجة عليك . وقول الشاعر :

أليس قليلا نظرة ان نظرتها اليك؟ وكلا ليس منك قليلُ (٣)

وفى تجاهل العارف يتحفنا بهذه القطعة النفيسة من نثره هو — طيب الله ثراه — إذ يقول «سمعت بورود كتابك، فاستفزنى الفرح قبل رؤيته، وهز عطفى المرح أمام مشاهدته، فما أدرى أسمعت بورود كتاب، أم ظفرت برجوع شباب، ولم أدر ما رأيت : أخط مسطور، أم روض ممطور؟ وكلام منثور، أم وشى منشـــور ؟ ولم أدر ما أبصرت فى أثنائه : أأبيات شعر، أم عقود در؟ ولم أدر ما حملته : أغيث حل بوادى ظمآن، أم غوث سيق الى لهفان» (٤)

وقـــد يُلاحظ أن أبا هلال يغالى أحيانا فى نقده، فيؤاخذ مثلا أوس بن حَجَر فى قوله :

ولست بخابئٍ أبدا طعاما حذار غد، لكل غد طعامُ

لمـــا تكرر فيه من لفظ غد (٥) .

ونحن لا نطالب أبا هلال بأن يصيب فى كل أحكامه، فذلك مطلب عسير، وانما يكفى أن نقول إن كتابه يضع القارئ فى حركة فكرية متصلة . وأنا شخصيا مدين له، فقد قرأته أكثر مــن عشرين مرة، وأشعر كلما عدت اليه بأنه كتابٌ جديد يُقرأ لأول مرة، وذلك أقصى ما يطلب من الكتاب النفيس .

(١) العلل، بالتحريك، الشرب بعد الشرب تباعا . (٢) ص ٣١٠ (٣) ص ٣١٣

(٤) ص ٣١٤ (٥) ص ٤١

١٠ – أبو على الحاتمى

١ – أبو على محمد بن الحسن بن المظفر الحاتمى من الشخصيات القوية التى غابت أخبارها عن الناس فلم يعرفها منهم إلا القليل : وسبب ذلك يرجع إلى أن جمهورنا لا يعرف من أعيان الشعر والنثر والنقد إلا من وصلت اليه من آثارهم صُبابات كافية تميط اللثام عن بعض الجوانب من أدبهم المجهول . ونحن من بين الأمم لا نعرف من أدبنا القديم إلا قليلا ، لأن نهضتنا الحديثة تشبه يقظة المخمور الذى ينظر حواليه فتتراءى له صور وأشباح لا يميزها إلا بجهد شديد . من أجل ذلك قل عندنا من صحت عزيمته على النظر إلى أدب العرب بمثل ما ينظر الأوربيون إلى أدب اليونان والرومان . وسيرى القارئ فى هذا الفصل بوارق من ذهن الحاتمى تشعره بأن من المخجل أن يُنسى مثل هذا الرجل فى عصر يزعم ناشئوه أنهم طلاب مجد وأنهم حريصون على وصل ما انقطع من تراثهم الفكرى المجيد .

٢ – ألف أبو على الحاتمى عدّة كتب فى اللغة والأدب والنقد، منها حلية المحاضرة فى صناعة الشعر ، والموضحة فى مساوى المتنبي ، والهلباجة فى صناعة الشعر ، وسر الصناعة فى الشعر أيضا ، والحالى والعاطل فى الشعر كذلك ، وكتاب المجاز فى الشعر أيضا (١) . وهذا الإلحاح فى الكتابة عن الشعر يدل على أنه كان من المولعين بدرس الشعر ونقده وأنه كان من أئمة زمانه فى هذا الباب . وقد ضاعت كتبه النقدية مع الأسف الموجع ، ولم يبق منها إلا شواهد ضئيلة تذكى الحسرة فى أنفس من يقدرون قيمة النقد الحق فى دلالته على ثقابة الذهن ، ومتانة العقل ، وسلامة الذوق ، وإفصاحه عن تطور الحياة العقلية فى مختلف الأجيال .

ولنسارع فنقدم للقارئ كلمة حفظت فى " زهر الآداب " تمثل فهم الحاتمى لوحدة القصيد إذ يقول :

(١) ياقوت ج ٦ ص ٥٠٢

" مَثَل القصيدة مَثَل الإنسان فى اتصال بعض أعضائه ببعض ، فمتى انفصل واحد عن الآخر وباينه فى صحة التركيب غادر الجسم ذا عاهة تتخوّن محاسنه، وتعفى معالمه . وقد وجدت حذاق المتقدّمين، وأرباب الصناعة من المحدثين ، يحترسون فى مثل هذه الحال احتراسا يجنبهم شوائب النقصان، ويقف بهم على محجة الإحسان ، حتى يقع الاتصال ، ويؤمن الانفصال، وتأتى القصيدة فى تناسب صدورها وأعجازها، وانتظام نسيبها بمديحها، كالرسالة البليغة والخطبة الموجزة لا ينفصل جزء منها عن جزء . وهذا مذهب اختص به المحدَثون لتوقد خواطرهم، ولطف أفكارهم، واعتمادهم البديع وأفانينه فى أشعارهم، وكأنه مذهب سهلوا حَزْنه، ونهجوا دارسه . فأما الفحول الأوائل ومن تلاهم من المخضرمين والاسلاميين فمذهبهم التعالم عن كذا الى كذا ، وقصارى كل أحد منهم وصف ناقته بالعتق والنجابة والنجاء ، وأنه امتطاها فادّرع عليها جلباب الليل . وربما اتفق لأحدهم معنى لطيف يتخلص به الى غرض لم يعتمده، إلا أن طبعه السليم، وصراطه فى الشعر المستقيم، نضا بتاره، وأوقد بالبقاع ناره. فمن أحسن تخلص شاعر الى معتَمَده قول النابغة الذبيانى :

فكفكفت عنى عبرة فرددتها ... على النحر منها مستهِلٌّ ودامعُ
على حين عاتبت المشيب على الصبا ... وقلت ألما أصح والشيب وازع
وقد حال همّ دون ذلك شاغل ... مكان الشغاف تبتغيه الأصابع
وعيد أبى قابوس فى غير كنهه ... أتانى ودونى راكس فالضواجع

وهذا كلام متناسب تقتضى أوائله أواخره، ولا يتميز منه شىء عن شىء . ولو توصل الى ذلك بعض الشعراء المحدَثين الذين واصلوا تفتيش المعانى، وفتحوا أبواب البديع ، واجتنوا ثمر الآداب، وفتحوا زهر الكلام، لكان معجزا عجبا، فكيف بجاهل بدوى إنما يغترف من قليب قلبه، ويستمدّ عفو هاجسه" (١) .

(١) ج ٣ ص ١٧ و ١٨

أليس فى هذه الفقرات دليل على أن الحاتمى كان بعيد الغور فى نقد الشعر؟ ألا تسمو نظراته هذه الى أدق ما وصل اليه النقاد فى العصر الحديث ؟ وأى تمثيل أصدق من تمثيل القصيدة بالإنسان فى اتصال بعض أعضائه ببعض ؟ يضاف الى ذلك جرأته فى رمى الجاهليين ومن تلاهم من المخضرمين والإسلاميين بقلة الفهم لأسرار الصناعة، وقصر ذلك على المحدثين الذين توقدت خواطرهم ولطفت أفكارهم واعتمدوا أفانين البديع . وإنما عددنا ذلك جرأة لأن الرأى الغالب فى تلك الأيام كان يميل الى تفضيل القدماء واختصاصهم بالإمامة فى الشعر ورمى من عداهم بالتخلف والإسفاف . على أن الحاتمى لم يفته أن يقرر أن البدوى الجاهل قد يغترف من قليب قلبه ويستمد عفو هاجسه فيأتى بالمعجز الذى يعز أحيانا على العارفين بأسرار البيان .

٣ — ولكن هذه البراعة التى يمثلها ما بقى للحاتمى من الشذرات القليلة لم ترتفع به كثيرا فى الأوساط الأدبية لعصره ولم يتحدث عنه من معاصريه إلا القليل . فما تعليل ذلك؟ إننا نفترض أن خمول الحاتمى يرجع الى انصراف الناس عنه لصَلَفه وكبريائه وذهابه بنفسه الى أبعد غايات الزهو والخيلاء ، وقد حدثنا ياقوت أنه كان مبغّضا الى أهل العلم فهجاه ابن الحجاج وغيره بأهاج مرة (١) . ولم يكن لهذا البغض من سبب فيما نفترض غير إسراف الحاتمى فى العُجب ودعواه التفرد بالحذق واللوذعية والذكاء . والحذلقة من أخطر ما يُرزأ به العلماء والأدباء وهى تجلب الى أصحابها من ألوان العداوة والبغضاء ما يذهب بما لَهم من وطيد المجد وكريم الصيت . وقد يتفق لأهل العلم والأدب أن يُشغلوا بالإعلان عن مواهبهم وكفاياتهم فيكون ذلك أسرع الى هدمهم وتهوين أقدارهم فى أنفس الناس . وكيف لا يضيق الجمهور صدرا بحذلقة الحاتمى وهو يقول عن نفسه فى مقدمة كتاب وضعه فى سر صناعة الشعر :

«وقد خدمت سيف الدولة — تجاوز الله عن فرطاته ! — وأنا ابن تسع عشرة سنة تميل بى سنة الصبا وتنقاد بى أريحية الشباب بهذا العلم ، وكان كلفا به عَلِقا علاقة المغرم

(١) معجم الأدباء ج ٦ ص ٥٠١

بأهله، منقبا عن أسراره . ووُزِنتُ فى مجلسه تكرمة وإدناء وتسوية فى الرتبة — ولم تسفر خداى عن عذاريهما — بأبى على الفارسى وهو فارس العربية وحائز قصب السبق فيها منذ أربعين سنة، وبأبى عبد الله بن خالويه وكان له السهم الفائز فى علوم العربية تصرفا فى أنواعه، وتوسعا فى معرفة قواعده وأوضاعه، وبأبى الطيب اللغوى وكان كما قيل حتف الكلمة الشرود حفظا وتيقظا، ونازعت العلماء ومُدحت فى مصنفاتهم، وعُددت فى الأفراد الذين منهم أبو سعيد السيرافى وعلى بن عيسى الرمانى وأبو سعيد المعلى، واتخذت بعضا ممن كان يقع الايماء عليه سخرة، وأنا إذ ذاك غرير الغرارة، تميد بى أسرار السرور، ويسرى علىّ رخاء الاقبال، وأختال فى ملاءة العز فى بُلَهْنِيَة من العيش وخفض من النعيم، وخطوب الدهر راقدة وأيامه مساعدة » .

فعلام يدل هذا الكلام ؟ ألا يدل على أن الحاتمى كان مفتونا بنفسه أشد الفتنة، ومسرفا فى الزهو أشنع الاسراف ؟ وقد نفهم أن يدافع الرجل عن نفسه فيذكر من مناقبه ومحامده ما يشاء حين يرى الجمهور يجحد فضله، ويطمس محاسنه، ولكنا نعرف كذلك أن هذا لا يقع إلا من المشغوفين بالشهرة والصيت : لأنهم يتوهمون دائما أنهم مغبونون، وأن الجمهور لفضلهم كنود .

٤ — وقد اصطدم كبرياء الحاتمى بكبرياء المتنبى، وكانا متعاصرين يضمر كلاهما لصاحبه أقتم ألوان البغضاء . والشاعر والناقد حين يختصمان يصلان الى أبشع صور التحامل والعدوان، ولاسيما اذا اصطبغت الخصومة بصبغة سياسية ظاهرها التعصب للأدب وباطنها التحزب الشنيع . وهذا هو الذى وقع فى خصومة الحاتمى للمتنبى : فقد كان الحاتمى صديقا أو تبعا للوزير المهلبى، وكان المهلبى يبغض المتنبى بغضا شديدا لترفعه عن مدحه واتصاله بأنداده من الوزراء والرؤساء، وكذلك تربص الحاتمى وانتظر قدوم المتنبى الى بغداد ليناظره ويؤلب العامة عليه ويزهدهم فى شعره، فتم له من ذلك بعض ما أراد .

٥ — ترك الحاتمى رسالتين فى نقد المتنبى : أولاهما خلاصة ما جرى فى المجلس الذى تلاقيا فيه لأول مرة ، وهى رسالة مغرضة بالطبع ، لأنه تكلم وحده وقصّ ظروف المناظرة على هواه . ولكن ذلك لا يمنع من أن نصدق الحاتمى حين يذكر أنه ضايق المتنبى ، لأننا نعرف أن كل ناقد أقوى من كل شاعر ، لأن كل معول يؤثر فى كل بناء ، والناقد يستطيع كل شىء متى آستباح لنفسه الظلم واختلاق العيوب . والمتنبى كان رجلا واسع الشهرة ، والمشاهير فى الغالب جبناء : يتوهم أكثرهم أن سوء القالة يذهب بأمجد الأعمال ، ويأتى على أرفع الأقدار . وبعض هذا الوهم صواب .

ولنترك الحاتمى يتحدّث قليلا لنرى خُيلاءه وقد قارع المتنبى :

« كان أبو الطيب المتنبى عند وروده مدينة السلام التحف رداء الكبر ، وأذال ذيول التيه ، وصعَّر خده ، ونأى بجانبه ، وكان لا يلقى أحدا إلا نافضا مذرويه [1] رافلا فى التيه فى برديه ، يخيّل اليه أن العلم مقصور عليه ، وأن الشعر بحر لم يغترف نمير مائه غيره ، وروض لم يرع نُوَّاره سواه ، فدل بذلك مُديدة ... حتى تخيل أنه القريع الذى لا يقارع ، والنزيع الذى لا يجارى ولا ينازع ، وأنه رب الغَلَب ، ومالك القصب ، وثقلت وطأته على أهل الأدب بمدينة السلام فطأطأ كثير منهم رأسه ، وخفض جناحه ، وطامن على التسليم له جأشه ، تخيل أبو محمد المهلبى أن أحدا لا يقدر على مساجلته ومجاراته ولا يقوم لتتبعه بشىء من مطاعنه . وساء معز الدولة أن يرد عن حضرة عدوّه رجل فلا يكون فى مملكته أحد يماثله فى صناعته ويساويه فى منزلته ، نهدت حينئذ متتبعا عواره ، ومتعقبا آثاره ، ومطفيا ناره ، ومهتكا أسراره ، ومقلما أظفاره ، وناشرا لمطاويه ، وممزقا جلباب مساويه ... الخ» [2] .

والرسالة تقع فى أربع عشرة صفحة كلها مقارعة ونضال ، وهى تمثل طريقة الحاتمى فى الكتابة ومذهبه فى النقد ، وفيها فقرات قوية ، كقوله يجيب المتنبى وقد سأله عن خبره

(١) المذروان بالكسر أطراف الألية ، بلا واحد ، أو هو المذرى ، ومن الرأس ناحيتاه ، ومن القوس ما يقع عليها طرف الوتر من أعلى وأسفل . وجاء ينفض مذرويه باغيا متهددا (قاموس) .

(٢) ياقوت ج ٦ ص ٥٦٥ وقد وردت القصة أيضا فى وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٣٢ باختلاف قليل .

فى تثاقل وفتور : ”أنا بخير ، لولا ما جنيت على نفسى من قصدك ، وكلفت قدمى فى المسير الى مثلك“ (١) ونقدات الحاتمى فى هذا المجلس لا تخرج عن أخذ المتنبي بالسرقات الشعرية وسوء التعبير فى طائفة من الأبيات اشتهر أمرها بين الناقدين . وقد ختمت هذه الرسالة بفقرات تفصح عن سرور المهلبي ومعز الدولة بهزيمة المتنبي ؛ وهى كذلك دليل ما وصفنا به الحاتمى من الإسراف فى التيه والخيلاء .

٦ — أما الرسالة الثانية فهى أعظم أثر وصلنا عن الحاتمى ، وهى رسالة ردّ فيها حكم المتنبي الى أصولها من كلام أرسطاليس ، وقد وضع لها مقدّمة صغيرة أراد أن يشعرنا بها أنه فى نقده عف نزيه إذ حدّثنا أنه يدافع عن المتنبي ”حين اتُّهم بسرقة ما فى شعره من أغراض فلسفية ومعان منطقية“ (٢) لأن ذلك إن كان وقع من المتنبي ”عن فحص ونظر وبحث فقد أغرق فى درس العلوم ، وإن يكن ذلك منه على سبيل الاتفاق فقد زاد على الفلاسفة بالإيجاز والبلاغة “ (٣) وهو فى الحالين على غاية من الفضل ، ونهاية من النبل .

وقد رأيت بعد الاطلاع على هذه (الرسالة الحاتمية) أن صاحبنا نال من المتنبي باللطف مالم ينله بالعنف ، فقد أخذ يسرد كلمات أرسطاليس ثم يعقبها بشعر المتنبي ، فاستطاع بذلك أن يفضح المتنبي فضيحة شنعاء . وفى الحق أن هذا العمل كان غاية فى اللؤم من جانب الحاتمى ، لأن حِكم المتنبي تبدو فطرية لأول وهلة ، وذلك سر سحرها فى أنفس القراء ، ولكنها تبدو متكلفة مصنوعة حين تُقرن الى ما نقلت عنه من كلام أرسطاليس ، وذلك سهم من النقد مسموم .

ومن أمثلة ذلك أن يقول المتنبي :

فان قليل الحب بالعقل صالح وإن كثير الحب بالجهل فاسدُ

وهو بيت مقبول ، ولكنه أقل قيمة من الحكمة التى أُخذ عنها فى قول أرسطاليس ”يسير من ضياء الحس خير من كثير من حفظ الحكمة“ (٣) .

(١) ص ٥٠٦ (٢) الرسالة الحاتمية (ص ١٤٤ من مجموعة التحفة البهية) . (٣) ص ١٤٦

وقول المتنبي :

يراد من القلب نسيانكم وتأبى الطباع على الناقل

يبدو للقارئ متنافر المعنى بعض الشيء، ثم يُفضح تنافره حين يُنظر الى أصله فى قول أرسطاليس " روم نقل الطباع من ردئ الأطماع شديد الامتناع[1] " .

وقول المتنبي :

اذا ترحلت عن قوم وقد قدروا أن لا تفارقهم فالراحلون همُ

أقل عمقا من قول أرسطاليس :

" من لم يردك لنفسه فهو النائى عنك وإن كنت قريبا منه ، ومن يردك لنفسك فأنت قريب منه وإن تباعدت عنه[2] " .

وقول المتنبي :

لعل عتبك محمود عواقبهُ فربما صحت الأجسام بالعللِ

أقل وضوحا من قول أرسطاليس :

"وقديفسد العضو لصلاح أعضاء كالكى والفصد اللذين يفسدان الأعضاء لصلاح غيرها[2]"

وقول المتنبي :

وما التيه طِبي فيهمو غير أننى بغيض الىّ الجاهلُ المتعاقلُ

أقل تعليلًا من قول أرسطاليس :

"إن الحكيم تريه الحكمة أن فوق علمه علما فهو يتواضع لتلك الزيادة، والجاهل يظن أنه قد تناهى فيسقط بجهله فتمقته النفوس[3]" .

وقول المتنبي :

ومن ينفق الساعات فى جمع ماله مخافة فقر فالذى فعل الفقرُ

منقول من قول أرسطاليس :

" من أفنى مدته فى جمع المال خوف العدم فقد أسلم نفسه للعدم[4]" .

(١) ص ١٤٥ (٢) ص ١٤٧ (٣) ص ١٤٨ (٤) ص ١٥٠

والرسالة الحاتمية تقع فى خمس عشرة صفحة نقد بها مؤلفها نحو عشرين ومائة بيت من شعر المتنبي، وهى كما أشرنا طعنة نجلاء يهون بجانبها كل ما لقى المتنبي من خصومه المسرفين .

٧ — ولكن لا يتوهم القارئ أن الحاتمى أصاب فى كل ما رمى به المتنبي من سرقة معانى أرسطاليس ، فقد يتفق الرجلان أحيانا فى المعنى وينفرد المتنبي بجمال الصورة .

فقول المتنبي :

إذا ٱعتاد الفتى خوض المنايا فأهون ما يمـــرّ به الوحولُ

أروع بلا جدال من قول أرسطاليس :

"من ٱستمرت عليه الحوادث لم يألم بحلولها"(١) .

وقول المتنبي :

إنعم ولَذّ فللأمور أواخرٌ أبدا كما كانت لهن أوائلُ

معنى عادى : فلا قيمة للادعاء بأنه مسروق من قول أرسطاليس :

"كل ما له أوّل تدعو الضرورة إلى أن له آخرا(٢) " .

وقول المتنبي :

نحن بنو الموتى ، فما بالنا نعاف ما لا بدّ من شربه

أفعل فى النفس من قول أرسطاليس :

"كرهُ ما لا بد من كونه عجزٌ فى صحة العقل"(٣) .

٨ — ولنا أن نأخذ على الحاتمى وقوفه عند أرسطاليس، كأن المتنبي لم يعرف فيلسوفا سواه، وهذا يشعر بأن ارسطاليس كان معروفا جدا عند العرب لذلك العهد ، حتى ٱستطاع الحاتمى أن يرجع اليه طائفة كبيرة من حكم المتنبي، ويُشعر كذلك بأن الشعراء كانوا يتصرفون فيما يقرءون تصرف الخبرة والعقل ، فقد نظر المتنبي إلى قول أرسطاليس : "ليس جمـال الإنسان بنافع له إذا كان ميت الحس من العلم" .

(١) ص ١٤٥ (٢) ص ١٥٥ (٣) ص ١٥٨

ثم أداره فى نفسه وما زال به حتى أغرقه فى لجة من الشعر حين قال :

لا يعجبنّ مَضيما حسن بزته   وهل يروق دفينا جودة الكفن

٩ — ولنا أن نلاحظ أن الرسالة الثانية للحاتمى أوفر أدبا من رسالته الأولى عن المتنبي، وقد يكون السبب فى ذلك أنها كتبت بعد موت الشاعر: بدليل قوله فى أوّل المراجعة "قال المتنبي رحمه الله ! " .

ولنا أن نلاحظ كذلك أن الحاتمى كتب رسالته الثانية وقد اكتهل وغلب عليه الوقار وفارقه النزق الذى ساد فى رسالته الأولى ، وحسبنا أن نقرأ قوله فى مقدّمة الرسالة الثانية :

"أما بعد فان أحق ما آحتكمت اليه نفوس أولى النظر، وانقادت اليه آراء أهل الفكر ، وجلت الشبه عنه نواظر المتصفحين ، وأمضت به عزائمها قلوب المعتبرين : العدل ، فانه سنخ(١) العقل، وحليف النهى ، وصنو الفهم ، وعدو الهوى " .

١٠ — هذا وكان الحاتمى متين الشعر، كما كان رصين النثر، وهو الذى يقول :

لى حبيب لو قيل لى ما تمنّ   ما تعديته ولو بالمنونِ
أشتهى أن أحلَّ فى كل جسم   فأراه بلحظ تلك العيون

وهو القائل فى قصر الليل :

يارب ليل سرور خلته قِصرا   كعارض البرق فى أفق الدجى برقا
قد كاد يعثر أولاه بآخره   وكاد يسبق منه فجره الشفقا

وهو القائل فى وصف الثريا :

وليل أقمنا فيه نُعمل كأسنا   إلى أن بدا للصبح فى الليل عسكرُ
ونجم الثريا فى السماء كأنه   على حلة زرقاء جيبٌ مدنَّر

ومات رحمه الله سنة ٣٨٨ وكان أبوه كذلك شاعرا أثبت له صاحب اليتيمه عدة مقطوعات فليرجع اليها القارئ هناك(٢) .

(١) السنخ ، بالكسر، الأصل .   (٢) ج ٣ ص ١٢

١١ – أبو عبد الله المرزبانى

١ – المرزبانى هو أبو عبد الله محمد بن عمران بن موسى بن سعيد . وأصله من خراسان – كما ذكر ابن النديم[١] – وهو من بيت رياسة ومجد : فقد كان أبوه نائب صاحب خراسان بالباب ببغداد . وقد نسب الى بعض أجداده وكان اسمه المرزبان . وهو اسم لا يطلق عند العجم إلا على الرجل المقدّر : العظيم القدر . ومعناه بالعربية حافظ الحد[٢] .

ولد فى بغداد سنة ٢٩٧ وتوفى سنة ٣٨٤ وقيل سنة ٣٧٨

وليس لدينا من أخبار المرزبانى إلا نُتف يسيرة، وأظهر أخباره أنه كان رجلا غنيا كريما يُفضِل على أساتذته وتلاميذه، وكانت داره مأوى لأهل العلم والأدب يبيتون فيها على الرحب والسعة حين يشاءون . ولم يكن يؤخذ عليه من الهفوات إلا إدمان الشراب . وكان من عادته فى ذلك أن يضع بين يديه زجاجة حبر و زجاجة خمر فلا يزال يشرب ويكتب وهو مقسم الفكر والاحساس بين الواقع والخيال . وقد شعر رحمه الله بخطر ذلك على عقله وصحته وظهر أثر تململه حين سأله عضد الدولة مرة عن حاله فقد أجاب «كيف حال من هو بين قارورتين؟ !» يعنى قارورة الحبر وقارورة الخمر .

٢ – وكان فى حياته العقلية يؤثر مذهب المعتزلة : فقد صنف فى أخبارهم كتابا كبيرا . وكان المعتزلة فى تلك الأيام يقودون الحركة الفكرية والأدبية فى الأقطار الاسلامية . وقد أُخذ عليه سامحه الله شىء من التسامح فى رواية الحديث .

وكان فى جملة حاله معروفا بصدق اللهجة وسعة المعرفة وكثرة السماع . وكان معاصروه يرونه من محاسن الدنيا، ومنهم من يقدّمه على الجاحظ . ولعل ذلك هو السبب فى تحامل بعض المغرضين عليه كأبى حيان التوحيدى الذى كان يقارنه بابن شاذان وابن الخلال ، ممن كان

(١) الفهرست ص ١٩٠ طبع القاهرة . (٢) ابن خلكان ص ٣٢٧ ج ٢

لهم جمع ورواية وليس لهم فيا جمعوه نقط ولا إعجام ولا إسراج ولا إلجام[١] . ولو بقيت كتب المرزبانى كلها أوجلها لاستطعنا أن نزن ما كان له من فكر وعقل وأسلوب، ولكن أكثرها ضاع ولم يبق منها إلا النزر القليل . غير أننا نجد ابن النديم مفتونا به أشد الفتون . وابن النديم حجة فى تقدير المصنفين والكتّاب والأخباريين، وقد حدّثنا أنه رأى كتاب المرزبانى عن الشعراء المشهورين والمكثرين من شعراء المحدثين . وقد أثبت فى هذا الكتاب مختار أشعارهم وبيّن أنسابهم وأزمانهم . وأن له كتابا آخر اسمه «المفيد» يشتمل الفصل الأوّل منه على أخبار المقلين من شعراء الجاهلية والاسلام وأخبار من غلبت عليه كنية منهم أو شُهر بكنية ابنه أو عُرف بأمه أونسب إلى جدّه أو عزى إلى مواليه وما جانس هذه الأحوال . ويشتمل الفصل الثانى على ما رُوى من نعوت الشعراء وعيوبهم فى أجسامهم وصورهم كالسودان ، والعور ، والعميان والعمش والبرصان، وسائر ما يؤثر فى الجسد من شعر الرأس إلى القدمين عضو عضوا . ويشتمل الفصل الثالث على مذاهب الشعراء فى دياناتهم كالشيعة وأهل الكلام والخوارج والمتهمين واليهود والنصارى ومن جرى مجراهم . ويشتمل الفصل الأخير على من ترك قول الشعر فى الجاهلية تكبرا وفى الاسلام تدينا، ومن ترك المديح ترفعا، والهجاء تكرما، والغزل تعففا، ومن أنفذ شعره فى معنى واحد كالسّيد بن محمد الحميرى والعباس ابن الأحنف ومن جرى مجراهما . وله كتاب آخر اسمه "الرياض" ذكر فيه أخبار المتيمين من الشعراء الجاهليين والمخضرمين والاسلاميين وفيه ذكر الحب وما يتشعب عنه وذكر ابتدائه وانتهائه وما ذكر أهل اللغة من أسمائه وأجناسه واشتقاق تلك الأسماء بشواهد من أشعار الجاهليين والمخضرمين والاسلاميين والمحدثين .

٣ — وليس المهم أن نلخص وصف ابن النديم لمؤلفات المرزبانى ففى مقدور القارئ أن يرجع اليه فى الفهرست[٢] ، ولكن يهمنا أن نشير إلى أن مجموعة مؤلفات المرزبانى تدور حول نقطة واحدة هى تنظيم الثقافة الأدبية .

(١) ياقوت ج ٣ ص ١٠٣ (٢) أنظر ص ١٩٠ — ١٩٣

فقد عُنى الرجل بأن يجمع أخبار الشعراء ويرتبها ترتيبا قد يعجز عنه أدباء اليوم فيضع للجاهليين كتابا، وللمحدثين كتابا، وعُنى كذلك بأن يضع مؤلفات مستقلة فى أكثر الشؤون الأدبية ككتابه عما وصف به العرب الصيف والشتاء والحر والبرد والغيوم والبروق والرياح والأمطار والرواء والاستسقاء ومادخل فى جملتها من أوصاف الربيع والخريف. وكتبه عن الزهد والزهاد والحجابة والحجاب والعدل والسيرة وأخبار الأولاد والزوجات والأهل وما جاء فيهم من مدح وذم، وكتابه عن الأنوار والثمار الذى ساق فيه طرفا مما قيل فى الورد والنرجس وجميع الأنوار من الأشعار وما جاء فيها من الآثار والأخبار. وكتابه فى نسخ العهود إلى القضاة وكتابه عن أشعار النساء، الخ.

ومن المدهش أنه ألف كتابا فى أخبار الشعراء سماه "المعجم" تحدث فيه عن نحو خمسة آلاف شاعر وأثبت فيه أبياتا لكل من تحدّث عنهم من الشعراء. فمن الذى يعرف اليوم هذا المقدار من أسماء الشعراء مع أننا اجتزنا من تاريخ الأدب نحو خمسة عشر قرنا وكان المرزبانى لم يجتز منه غير خمسة قرون ؟

ومما يوضح ما أشرنا إليه من عناية ذلك الرجل بتنظيم الثقافة الأدبية أنه كان ألف كتابا سماه " تلقيح العقول " فى أكثر من مائة باب جمع فيه كل ما يهم المتأدبين الاطلاع عليه مما قيل عن العلم والعقل والأدب وما جانس ذلك(١).

٤ — ولم يطبع من مؤلفات المرزبانى — فيما علمنا — غير كتاب الموشح الذى نشرته جمعية نشر الكتب العربية بالقاهرة سنة ١٣٤٣ هـ وهو كتاب جيد حدّثنا المؤلف فى مقدّمته أنه اهتم بذكر ما أُنكر على الشعراء فى أشعارهم من العيوب التى سبيل أهل عصره ومَن بعدهم أن يجتنبوها ويعدلوا عنها. وأنه أودع كتابه ما سهل وجوده وقرب متناوله من ذكر عيوب الشعراء التى نبه عليها أهل العلم وأوضحوا الغلط فيها من اللحن والسناد والإيطاء والإقواء والإكفاء والتضمين والكسر والإحالة والتناقض واختلاف اللفظ وهلهلة النسج وغير ذلك من سائر ما عِيب على الشعراء قديمهم ومحدثيهم فى أشعارهم خاصة، سوى عيوبهم فى أنفسهم وأجسامهم

(١) الفهرست ص ١٩١

وأخلاقهم وطبائعهم وأنسابهم ودياناتهم، وغير هذه الخصال من معايبهم التى استقصاها فى كتابه الملقب "بالمفيد"، وسوى سرقات معانى الشعر التى أتى بكثير منها فى كتابه الذى تحدث فيه عن فضائل الشعر ووصف محاسنه ومنافعه ومضاره وأوزانه وعيوبه ونعت أجناسه وضروبه وعروضه وأعيانه ومختاره وتأديب قائليه ومنشديه والبيان عن منحوله ومسروقه، وما يتصل بذلك من مختلف الأغراض (١).

٥ — وقد راجعنا كتاب الموشح عدة مرات فلم نظفر للمؤلف بما يميزه عن غيره من مصنفى الروايات والأخبار. وإن كنا نعترف بأن الرجل أجاد الجمع والتصنيف وقدم للقارئ معارض مختلفة مما أُخذ على الشعراء. وأكثر ما أثبته لا نجده اليوم فى غير كتابه. وإن كنا نعثر على أصوله مبعثرة هنا وهناك. فأنت حين تطلع على كتاب الموشح ترى مواده معروفة لك مستأنسة إليك بطول ما صادفتها فى شتى المطالعات. ولكنك لو أردت أن تظفر بمجموعة ما قال النقاد القدماء عن الأخطل أو جرير مثلا لما استطعت أن تجدها منظمة على نحو ما تجدها فى هذا الكتاب. على أن المؤلف كثيرا ما تظهر شخصيته فيُعرَف رأيه ومذهبه فى النقد كقوله مثلا فى نقد قول الطائى :

وقد سدّ مندوحة القاصعا ء منهم وأمسك بالنافقاء

"ولم نعب من هذه الألفاظ شيئا غير أنها من الغريب المصدود عنه. وليس يحسن من المحدثين استعمالها : لأنها لا تجاور بأمثالها ولا تتبع أشكالها. فكأنها تشكو الغربة فى كلامهم" (٢).

ومعنى هذا أن الغريب الوحشى قد يحسن استعماله اذا اطّرد فى كلام متأبد غريب. أما فى الكلام السلس فاستعماله غير مقبول. وهو يوافق بعض الموافقة ما يراه الجاحظ من أن الوحشى من الكلام يفهمه الوحشى من الناس كما يفهم السوقى رطانة السوقى. والتفاهم عند المرزبانى والجاحظ هو الأساس فى اختيار الألفاظ، إذ كان الناس لا يقبلون الألفاظ أو يرفضونها إلا موصولة بما يألفون.

(١) راجع مقدّمة الموشح. (٢) الموشح ص ٣١١

٦ — ولا يخلو المرزبانى — على فضله — من تحامل : فقد رأيته يغض من قيمة مختارات أبى تمام إذ يقول :

"وللطائى سرقات كثيرة أحسن فى بعضها وأخطأ فى بعضها . ولما نظرت فى الكتاب الذى ألّفه فى اختيار الأشعار وجدته قد طوى أكثر احسان الشعراء . وإنما سرق بعض ذلك فطوى ذكره وجعل بعضه عدّة يرجع اليها فى وقت حاجته ورجاء أن يترك أهل المذاكرة أصول أشعارهم على وجوهها ويقنعوا باختياره لهم فتخفى عليهم سرقاته . ولا يعذر الشاعر فى سرقاته حتى يزيد فى إضاءة المعنى ، أو يأتى بأجزل من الكلام الأول، أو يسنح له بذلك معنى يفضح به ما يتقدّمه ولا يفتضح به، وينظر إلى ماقصده نظر مستغن عنه لافقير اليه"[1] .

ففى هذه الفقرة تجنّ شديد على أبى تمام وإزراء بإحسانه فى تأليف مختاراته . وما أحسب الخاطر الذى مر ببال المرزبانى مر ببال ناقد شريف القصد . فهو يرى أن أبا تمام قصر اختياره على الاشعار التى لم يسرق منها، وأنه طوى الأشعار التى يرجو أن يغير عليها . وأنه أراد أن يصرف المتأدبين بمختاراته عن الرجوع إلى الأصول التى سرق منها ما استُجيد من شعره ...

ولا أدرى كيف يصح هذا من المرزبانى إلا أن أرجّح أنه كان من خصوم أبى تمام . وقد كان أبو تمام ابتُلى فى حياته وبعد مماته بمعارضة شديدة كادت تقتلع مجده من جذوره وترمى به فى هاوية العفاء . وسبب ذلك أن أبا تمام ظفر بشهرة قوية أخملت مئات الشعراء . والشهرة القوية تخلق الخصوم خلقا وترمى صاحبها بعداوات مسمومة لم يجترح فى خلقها إثما ولاجناية، حتى صح للمرزبانى على نزاهته أن يتهمه بسوءالنية فى تأليف المختارات مع أن فى الحماسة بابين لم نجد لهما مثيلا فى مجموعة أدبية وهما باب المراثى وباب النسيب .

٧ — ويغلب على المرزبانى أن يسوق المآخذ بدون أن يتعقبها بنقد أو تمحيص، وأحيانا يضيف اليها كلمة صغيرة تعين رأيه . من ذلك أنه نقل الكلمة الآتية بسندها عن بعض معاصريه :

(١) ص ٣١٢

"دخلت على أبى تمام الطائى وقد عمل شعرا لم أسمع أحسن منه وفى الأبيات بيت واحد ليس كسائرها . فعلم أنى قد وقفت على البيت فقلت : لو أسقطت هذا البيت ! فضحك وقال : أتراك أعلم بهذا منى؟ إنما مَثَل هذا مَثَل رجل له بنون جماعة كلهم أديب جميل متقدّم ومنهم واحد قبيح متخلف فهو يعرف أمره و يرى مكانه ولا يشتهى أن يموت . ولهذه العلة ما وقع مثل هذا فى أشعار الناس[(١)] " .

ونقل بعد ذلك هذه الكلمة . " قال مثقال الشاعر : قلت لأبى تمام تقول الشعر الجيد ثم تقول البيت الردىء! فقال : مَثَل هذا مَثَل رجل له عشرة بنين منهم واحد أعمى فلا يحب أن يموت " وفى التعقيب على هاتين الفقرتين يكتفى المرزبانى بأن يقول . " وهذه حجة ضعيفة جدا[(١)] " .

وأحيانا قليلة يبسط القول بعض الشيء فى النقد والمقابلة كما فعل فى نقد قول امرئ القيس :

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلِ بصبح وما الإصباح منك بأمثلِ

فقد بين أن أفضل منه قول الطِّرِمّاح بن حكيم :

بلى إن للعينين فى الصبح راحة لطرحهما طرفيهما كل مطرح

ثم قال " فأحسن فى قوله وأجمل وأتى بحق لا يدفع، وبين عن الفرق بين ليله ونهاره، وإنما أجمع الشعراء على ذلك — أى حضور الهم بالليل وذهابه بالنهار — من تضاعف بلائهم بالليل وشدّة كلفهم لقلة المساعد وفقد المجيب وتقييد اللحظ عن أقصى مرامى النظر الذى لا بدّ أن يؤدّى الى القلب بتأمله سببا يخفف عنه أو يغلب عليه فينسى ما سواه[(٢)] " .

وللمرزبانى ملاحظات صغيرة متفرقة قد لا يتنبه إليها القارىء المتصفح ويستجيدها المتأمل كقوله فى التعقيب على قول أبى العتاهية :

حلاوة عيشك ممزوجة فما تأكل الشهد إلا بسم

(١) ص ٣٢١ (٢) ص ٣٢ و ٣٣

فالمعنى صحيح لأن الشاعر جعله مثلا لبؤس الدنيا الممازج لنعيمها . ولكن يلاحظ المرزبانى أن العبارة غير مرضية : لأنا لم نر أحدا أكل شهدا بسم . وأجود من هذا البيت لفظا وأصح معنى قول ابن الرومى :

وهل خُلة معسولة الطعم تجتنى من البيض إلا حيث واش يكيدها
مع الواصل الواشى وهل تجتنى يد جنى النحل إلا حيث نحلَ يذودها (١)

وتلك ملاحظه دقيقة وهى تذكر بما نقله عن أحد معاصريه وقد سأل أبا تمام : أخبرنى عن قولك :

كأن بنى نبهان يوم وفاته نجوم سماء خرّ من بينها البدرُ

أردت أن تصف حسن حالهم بعده أو سوء حالهم؟ فأجاب أبو تمام : لا والله إلا سوء حالهم لأن قمرهم قد ذهب . فقال المعترض : والله ما تكون الكواكب أحسن ما تكون إلا اذا لم يكن معها قمر (٢).

٨ — وقد اشار المرزبانى فى غير موضع الى وحدة البيت فقد تحدّث عما أخذ على امرئ القيس فى قوله يصف الليل :

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكلكل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجل بصبح وما الإصباح منك بأمثل

فانه لم يشرح ما أراد بالبيت الأول إلا فى البيت الثانى . وهذا عيب عند العرب لأن خير الشعر ما لم يحتج البيت منه الى بيت آخر . وخير الأبيات ما استغنى بعض أجزائه ببعض الى وصول القافية كقول الشاعر :

الله أنجح ما طلبت به والبر خير حقيبة الرجل

فان قوله (الله أنجح ما طلبت به) كلام مستغن بنفسه وكذلك باقى البيت . على أن فى هذا البيت واو عطف عطفت جملة على جملة وما ليس فيه واو عطف أبلغ . وأجود من هذا قول النابغة الذبيانى فى اعتذاره الى النعمان :

---

(١) ص ٢٦١ (٢) ص ٣٠٧

ولست بمستبق أخا لا تلمه على شعث، أى الرجال المهذبُ

فكلامه فى أول البيت مستغن بنفسه وكذلك آخره حتى لو ابتدأ مبتدئ فقال (أى الرجال المهذب) لاعتذار أو غيره لأتى بكلام مستوفٍ لا يحتاج الى سواه[(١)].

وقد أشار الجاحظ فى بعض كتبه الى هذه المسئلة . ومن الخير أن ننبه القارئ الى أن وحدة البيت لا تنافى وحدة القصيدة، و إن ظن ناس غير ذلك، فان الوحدة فى البيت يراد بها اتساق النغم والألحان بحيث يصح الوقف فى نهاية كل بيت، ولهذا قيمة فى الرنة الموسيقية التى يحرص عليها شعراء العرب أشدّ الحرص . أما وحدة القصيدة فيراد بها وحدة الغرض، وذلك أن يقدر الشاعر لنفسه صورة شعرية يرسمها رويدا رويدا فى نظام وانسجام الى أن يتمها بتمام القصيدة .

ولأجل أن نبين للقارئ أن وحدة البيت ضرورية جدا لحفظ الموسيقا الشعرية ننقل له قطعة لابى العتاهية خلت من وحدة البيت على نحو ما يخلو منها الشعر الفرنسى مثلا، ولنتأمل كيف يقول :

ياذا الذى فى الحب يلحى أما والله لو كلفت منه كما
كلفت من حب رخيم لما لمت على الحب فذرنى وما
ألق فانى لست أدرى بما بليت إلا أننى بينما
أنا بباب القصر فى بعض ما أطوف فى قصرهم إذ رمى
قلبى غزال بسهام فما أخطا بها قلبى، ولكنما
سهماه عينان له كلما أراد قتلى بهما سلما

وهذا النوع من الشعر كان يسميه القدماء "المضمن" وهو عندهم من الشعر المعيب . لأن خير الشعر فى حكمهم ما قام بنفسه وكفى بعضه دون بعض . ولا نزال نحن نتبع أسلافنا فيما اطمأنوا إليه من خصائص القوافى والأوزان لأن للإلف أثرا شديدا فى تكوين الذوق . والشعر من الفنون التى تحكم فى قدرها الأذواق .

(١) أنظر ص ٣٣ و ٢٦١

٩ — وفى الموشح عبارات نقـديه تكاد تبلغ الغـاية فى دقة الوصف وليتأمل القارئ ما نقله المؤلف فى تحديد الشعر الجيد عن محمد بن يزيد النحوى :

” أحسن الشعر ما قارب فيه القائل اذا شبّه . وأحسن منه ما أصاب به الحقيقة ونبـه فيه بفطنته على ما يخفى على غيره وساقه برصف قوى واختصار قريب وعدل فيه عن الإفراط (١) “.

وهذا كلام دقيق وإن كنا لا نوافق ابن يزيد فى استهجانه قول بعضهم فى النحافة :

فلو أن ما أبقيت منى معلق بعـود ثمـام ما تأود عودها

وقال الآخر يصف سرعة ناقته :

* ويمنعها من أن تطير زمامها *

لأن فى الإزراء بمثـل هذه الأخيلة إزراء بمواهب الذكاء . فهناك أخيلة شعرية تجافى الحقائق فى كثير من الأحيان . ولكنها تظـل مع ذلك مقبولة يهش لهـا الذوق لدلالتها على ما وُهب الشاعر من بارع الذكاء .

وقد استنكر النقاد قول المتنبى :

كفى بجسمى نحولا أننى رجل لـولا مخاطبـتى إياك لم ترنى

وعدوه غلوا غير مقبول مع أننا قد نستطيب قول بعض المولّدين :

عادنى ممرضى فـلم ير منّى فوق فرش السقام شيئا يراهُ

قال لى أين أنت قلت التمسنى فبكى حين لم تجـدنى يداهُ

ولسنا نستطيب هذا لصحة معناه وإنما نستطيبه للصورة التى قدمها الشاعر فى وصف آثار النحول .

١٠ — والمرزبانى يهتم بتقييد ما يؤثر عن أخلاق الشعراء وتظهر فى ثنايا كلامه نزعة الحقد على المشاهير وان اجتهد فى إخفاء ذلك وحاول أن يصبغ كلامه بصبغة البحث الصرف فقد حدثنا أن أهاجى البحترى للخلفاء والملوك أشبه بهجاء سفلة الناس ورعاعهم وأنها تجمع بين

(١) ص ٢٤٣

سخافة اللفظ وهلهلة النسج والبعد من الصواب ، وأنه قد هجا نحوا من أربعين رئيسا ممن مدحهم منهم خليفتان : هما المنتصر والمستعين . وساق بعدهما الوزراء ورؤساء القوّاد ومن جرى مجراهم من أعاظم الكتّاب والكبراء بعد أن مدحهم وأخذ جوائزهم ، وأن حاله فى ذلك تنبئ عن سوء العهد وخبث الطوية ، وأنه نقل نحوا من عشرين قصيدة من مدائحه لجماعة توفر حظه منهم عليها الى مدح غيرهم وأمات أسماء من مدحهم أوّلا مع سعة ذرعه بقول الشعر واقتداره على التوسع فيه .

ويقول المرزبانى فى التعقيب على هذه المثالب :

"ولم أذكر حاله فى ذلك على طريق التحامل مع اعتقادى فضله وتقديمه ولكنى أحببت أن أبين أمره لمن لعله انسترعنه وحسبنا الله ونعم الوكيل[1]" .

وظاهر هذه الكلمة نزيه . ولكنها تمثل شهوة خفية طالما التبس أمرها على الناقدين . على أن المرزبانى مشكور على أى حال : فن أمثال هذه الهفوات تنكشف جوانب من النفس الانسانية . والناقد مسئول عن كشف ما يتعذر كشفه على الجمهور من أخلاق الشعراء والكتّاب والباحثين .

ومن يدرى ! فلعل الناس يعيشون فى رذائلهم أضعاف ما يعيشون فى فضائلهم ، ولست أريد بهذا كمية الحياة ، وإنما أريد روحها وسرها ، فان النفس لاتجانب الجادّة السوية إلا وهى ثائرة . والنفس فى لحظات الثورة تحيا حيوات طويلة قوية يصغر بجانبها ما تقضيه فى هدوء ووقار من طوال السنين . ولو أن المرزبانى قدّر أنه قد يجىء من رجال الأخلاق من يعلل هفوات البحترى بمثل ما عللنا لرأى أنه ليس مما يشفى النفس أن يبين أمر البحترى لمن لعله انسترعنه ! وما الذى كان يقع لو ظلت صغائر البحترى مستورة وظفر بلسان صدق فى الآخرين ؟

١١ — هذا وقد كنا نحب أن نطيل القول فى نقد ما اشتمل عليه كتاب الموشح ، وخاصة ما وقع بين شعراء العصر العباسى وبين رجال اللغة كالأصمعى وابن الأعرابى ، فان ذلك

(١) راجع ص ٣٣٦

يمثل النزاع بين القديم والحديث ، وتلك إحدى المشاكل التى تتجدد على اختلاف العصور .

وفيما رواه المرزبانى طائفة من الطُّرف والفكاهات كانت تحسن روايتها فى هذا الكتاب ، ولكنا نرى الاكتفاء بما أسلفناه راجين أن يكون فيه كشف عن منهج المرزبانى فى إحياء الثقافة الأدبية ، ونشر ما تداوله الناقدون من هفوات الشعراء .

والموشح مطبوع يستطيع الرجوع اليه من يريد المزيد .(١)

(١) من أظرف ما نقل المرزبانى من أخبار النزاع بين اللغويين والشعراء ما جاء فى ص ٢٩٦ «حدث العباس بن ميمون قال : سمعت الأصمعى يقول : حضرنا مأدبة وأبو محرز خلف الأحمر وابن مناذر معنا فقال له ابن مناذر : يا أبا محرز ! إن يكن امرؤ القيس والنابغة وزهير ماتوا فهذه أشعارهم مخلدة ، فقس شعرى الى أشعارهم : قال : فأخذ صحفة مملوءة مرقا فرمى بها عليه ! »

الباب الخامس

كتاب الآراء والمذاهب

١ – أبو حيان التوحيدى

١ — لست اعدو الحق إذا قلت : إن الأدب العالى لا يقع إلا متأثرا بعاطفتين اثنتين : الحب أو الحقد . ولن نجد فى تاريخ الاداب العربية كاتبا مجيدا أو شاعرا بليغا أو خطيبا منطيقا خلت نفسه من رقة الحب ، أو قسوة البغض . فالسر فى عبقرية البحترى مثلا يرجع إلى قوّة شغفه بمعالم الجمال ، كما أن السر فى عبقرية ابن الرومى يرجع إلى تطيره وحقده على من عرف ومن لم يعرف من سعداء الناس . وكذلك يعود السر فى تفوق عبد الحميد ابن يحيى إلى مروءته ونبل نفسه وعطفه على فقراء الكتّاب ، كما يعود الفضل فى فصاحة الحجاج إلى ما كان يضطرم فى صدره من نيران الحقد والضغينة والبغض والموجدة على الثائرين من أهل العراق .

وأبو حيان التوحيدى الذى نريد أن نفيض فى الحديث عنه رجل خلقته البأساء، وأنشأه الحقد على الموهوبين من أهل العلم والأدب والجاه . ولن تجده فى صميم أدبه إلا رعدا يزمجر كلما مر بباله خاطر الغنى والفقر، والنعيم والبؤس، والنباهة والخمول .

٢ — لا تسأل متى ولد، ولا أين ولد، فذلك رجل نشأ فى بيئة خاملة لم تكن تطمع فى مجد حتى تقيد تاريخ ميلاد ، ويكفى أن تعرف أنه فارسى الأصل ، وأنهم تردّدوا بين نسبته إلى واسط أو نيسابور أو شيراز، وأنه عاش فى القرن الرابع وشهد صدر القرن الخامس، فقد نص فى كتاب الصداقة والصديق على أنه كتبه فى سنة ٤٠٠ للهجرة . وجاء فى تاريخ شيراز أنه توفى سنة ٤١٤ [(١)] وفى هذا مايرجح أنه من أهل شيراز . وليس بغريب أن يكون هذا حظ التوحيدى فى تحديد مولده وتاريخ ميلاده فقد اختلف الناس فى مولد الشيخ محمد عبده فى مصر مع أنه

(١) حدّثنا بذلك المسيو ماسينيون وهو يناقش الرسالة فى السوربون . ولم نستطع مع الأسف أن نجد نسخة فى مصر من ذلك الكتاب .

نشأ فى عصر مغمور بأسباب الدقة والنظام . ولهذا الغموض فى حياة التوحيدى قيمة فى فهم جَدّه العاثر، وحظه المنكود، فلو كان رجلا مجدودا فى دنياه لتلفت الناس اليه واهتموا بنسبه وعرفوا مسقط رأسه، لكنهم عرفوه شقيا محروما فانصرفوا عنه ، وأغفلوا أمره ، حتى عجب ياقوت من أن لم ير أحداً عنى به من كتاب السير والتراجم على كثرة من اهتموا بهم من العلماء والكتّاب والشعراء .

٣ — قلت إن نبوغ أبى حيان التوحيدى يرجع إلى حقده وثورته على الحياة والأحياء، فلأذكر أن تلك الثورة شبت فى مفتتح حياته ومستهل صباه، حين سمع بأخبار ابن العميد والصاحب ابن عباد وما كان يجرى بين أيديهما من أسباب الرزق والرغد والطمأنينة ، فقصد ابن العميد واستظل بفِنائه حينا، ثم تحوّل الى ظلال ابن عباد، ولكنه لم يجد من فيض هذين الجدولين ماينقع غلته، ويطفىء صداه . هنالك انفجر بركان غضبه وتحوّل إلى أتّون متسعّر يرمى باللهب الماحق والشواظ المبيد . وقد حدّثنا فى كتابه (مثالب الوزيرين(١)) أنه لما قدم على الصاحب قدّم اليه نجاح بن سلمة ناظر خزانة كتبه ثلاثين مجلدة من رسائله وقال: يقول لك مولانا انسخ هذا فانه قد طلب منه بخراسان . فارتاع التوحيدى وخاف على بصره من نسخ تلك الرسائل الطوال ، ثم تضجر وتبرم وأشار إلى أنه توجه من العراق إلى باب الصاحب ليتخلص من شؤم حرفة الوراقة التى لم تكن كاسدة ببغداد ، فوصل ذلك إلى الصاحب فحقد عليه ، وكان رجلا لايقبل أن يعصَى له أمر، أو يراجَع فى قول . ثم كانت أيام التوحيدى عنده أيام إهمال ونسيان، فرحل عنه وأصلاه نيران الفحش والسباب . ولننظر كيف يقول :

”ماذنبى، أكرمك الله، إذا سألت عنه مشايخ الوقت، وأعلام العصر، فوصفوه بما جمعت لك فى هـذا المكان ! على أنى قد سترت كثيرا من مخازيه، إما هربا من الاطالة، أو صيانة للقـلم عن رسم الفواحش ، وبث الفضائح، وذكر ما يسمج مسموعه ، ويكره التحدث به ؛ سوى ما فاتنى من حديثه، فانى فارقته سنة ٣٧٠ “ .

(١) ياقوت ص ٣٩٦ ج ٥

”وماذنبي إن ذكرت عنه ماجرعنيه من مرارة الخيبة بعد الأمل، وحملني عليه من الاخفاق بعد الطمع، مع الخدمة الطويلة والوعد المتصل، والظن الحسن، حتى كأني خُصصت بخساسته وحدى، أو وجب أن أعامل بها دون غيرى“ (١).

٤ — وقد ختم التوحيدى كتابه مثالب الوزيرين بكلمة تدل على أنه كان يفهم أن الأدب باب من أبواب الرزق وسبيل من سبل الغنى، إذ صرح بأنه يحسد الذى يقول :

أعدّ خمسين حولا ما علىّ يدٌ ... لأجنبىّ ولا فضلٌ لذى رحم
الحمد لله شكرا قد قنعت فلا ... أشكو لئيما ولا أطرى أخا كرم

ثم صرح بأنه كان يتمنى أن يكون ذلك الرجل، ولكن العجز فى رأيه غالب لأنه مبذور فى الطينة، ثم استحسن قول الآخر :

ضيّق العذر فى الضراعة أنا ... لو قنعنا بقسمنا لكفانا
ما لنا نعبد الأنام إذا كا ... ن الى الله فقرنا وغنانا

ثم دعا بما دعا به بعض النساك :

” اللهم صن وجوهنا باليسار، ولا تبذلها بالإقتار، فنسترزق أهل رزقك، ونسأل شر خلقك، ونُبتَلى بحمد من أعطى، وذم من منع، وأنت من دونهم ولىّ الإعطاء، وبيدك خزائن الأرض والسماء “ (٢).

وهذا نص فى أنه كان مشغولا برزقه، وأنه كان لذلك معنيا بحمد الكرماء، وذم البخلاء، دفعا للفقر وطلبا للمال، فدرجت نفسه على الحرص والطمع، وألف الحقد على الأغنياء الباخلين، وكان مثله مثل المتنبى الذى تفجر شعره بالحقد على العالم والثورة على الوجود : لأنه لم يجد من يناصره فى طلب الغنى والجاه والملك، ومن هنا قلّت فى شعر المتنبي عواطف الحب والإخاء والوفاء : لأن مطامعه المادية حولته إلى رجل لا يدرك غير معانى الأثرة والشح والضغن والجحود.

(١) ياقوت ص ٣٩٦ ج ٥ (٢) ياقوت ص ٤٠٤ و ٤٠٥ ج ٥

٥ — وما زال التوحيدى يقدّم إلى نفسه وقود الغيظ والحفيظة حتى غلبه طبعه الجامح فى أخريات عمره ، فقدم كتبه طعمة للنـار ، حتى لا يكون بينه و بين العالم وشيجة من علم أو أدب أو دين ، ثم كتب فى ذلك رسالة مطولة تفيض بالألم اللاذع والحزن الوجيع . وقد حدّثنا فى تلك الرسالة بما يؤيد ماذهبنا اليه من أنه كان يتخذ العلم وسيلة إلى الغنى والجاه إذ قال فى وصف الغرض من كتبه :

«على أنى جمعت أكثرها للناس، واطلب المثالة منهم، ولعقد الرياسة بينهم ، ولمدّ الجاه عندهم، لحرمت ذلك كله» .

وفى تلك الرسالة فقرات مُرة موجعة تثير العطف على ذلك الرجل الذى شقى كل الشقاء بما رزق من رقة الحس، ودقة الفهـم، وقوّة الادراك . ولقـد صوّر بلواه بالناس أصدق تصوير حين قال :

« فإن قلت ولم تسمهم بسوء الظن، وتقرع جماعتهم بهذا العيب ؟

"فجوابى لك: أن عِيانى منهم فى الحياة هو الذى حقق ظنى بهم بعد الممات . وكيف أتركها لأناس جاورتهم عشرين سنة فما صح لى من أحدهم وداد، ولاظهر لى من إنسان منهم حِفاظ ، ولقـد اضطررت بينهم بعـد العشرة والمعرفة فى أوقات كثيرة إلى أكل الخضر فى الصحراء، و إلى التكفف الفاضح عنـد الخاصة والعامة ، و إلى بيع الدين والمروءة ، و إلى تعاطى الرياء بالسمعة والنفاق ، و إلى ما لا يحسن بالحر أن يرسمه بالقـلم، و يطرح فى قلب صاحبه الألم، وأحوال الزمان بادية لعينك ، بارزة بين مسائك وصباحك ، وليس ما قلت بخاف عليك مع معرفتك وفطنتك، وشدّة تتبعك وتفرغك، وما كان يجب أن ترتاب فى صواب مافعلته وأتيته بمـا قدّمته ووصفته، و بما أمسكت عنه وطو يتـه، إما هربا من التطويل، و إما خوفا من القال والقيل " .

٦ — وهذه الكلمة تعطينا صورة واضحـة من النزاع الدائم الموصول الذى كانت تثـور محرجاته بلا انقطاع بين التوحيدى و بين معاصريه، فذلك رجل يعرف ماهو الضمير، وما هى

متانة الخلق، ومامعنى الكرامة، ومامدلول الإباء، ولكن أحداث دهره قهرته على المشى فوق تلك الأشواك : أشواك الملق والمداهنة والرياء ، فمشى مجروح القلب ، مقتول النفس ، مطعون الوجدان . وكان اقترافه لمخزيات الضعة والهوان والصغار مما يضرم فى نفسه ثورة الحقد على الرؤساء المسعودين الذين لا ينال فيض ما لديهم بغير أسباب الخسة والدناءة والإسفاف .

٧ — وفى تلك المعركة الدامية التى خرج منها التوحيدى وهو بين الكتاب أهجى وأفحش من ابن الرومى بين الشعراء ، لا نجد بدا من الحكم عليه بأنه كان رجلا ظاهر الطمع والجشع والحرص، قبل فى جمع المال عن طريق الأدب أن يبيع دينه ومروءته وأن يقترف مالا يحسن بالحر أن يرسمه بالقلم : فى حين أنه كان يستطيع أن يدوس بقدميه ما يملك أصحاب التيجان ويقبل بنفس حازمة غنية على استدرار إحدى الصناعات ليعيش ، ثم يلقى العالم إن شاء بمثل قول أبى هلال :

جلوسىَ فى سوق أبيع وأشترى ... دليل على أن الأنام قرود

ولا خير فى قوم يذل كرامهم ... ويعظم فيهم نذلهم ويسود

ولكنه أخذ يلوم الناس ويؤاخذهم بمالا يؤاخذ به نفسه ولا يتورع هو عن الوقوع فيه. ودليل ذلك ما حكاه فى كتاب مثالب الوزيرين إذ قال :

”جرى بينى وبين ابن مسكويه شىء : قال لى مرة أما ترى الى خطأ صاحبنا — يعنى ابن العميد — فى إعطائه فلانا ألف دينار ضربة واحدة؟ لقد أضاع هذا المال الخطير فيمن لا يستحق . فقلت بعد ما أطال الحديث وتقطع بالأسف : أيها الشيخ ! إنى أسألك عن شىء واحد فاصدق فانه لا مَدَبَّ للكذب بينى وبينك ، لو غلط صاحبك فيك بهذا العطاء وبأضعافه وأضعاف أضعافه، أكنت تخيله فى نفسك مخطئا ومبذرا ومفسدا أو جاهلا بحق المال ؟ أوكنت تقول : ما أحسن ما فعل ! وليته أربى عليه ! فان كان الذى تسمع على حقيقته فاعلم أن الذى يرد ورد مقالك إنما هو الحسد، أو شىء آخر من جنسه، وأنت تدّعى

الحكمة وتتكلف فى الأخلاق، وتزيف الزائف وتختار منها المختار، فأفطن لأمرك ، وأطلع على سرك وشرك[١]" .

ولو أنه حاسب نفسه بمثل ما حاسب به ابن مسكويه لرأى ثورته على أهل زمانه تأخذ وقودها من قلب حاسد حقود، وهو مع هذا يدعى الحكمة ويتكلف الأخلاق .

ويظهر مع الأسف أن الانسان يبالغ فى درس الغرائز ونقد الطباع ، فاذا وصل الى نفسه خلا درسه من القوة وخلا نقده من العمق ، وأسبغ على خصاله وشمائله أثواب الرضا والاعجاب .

* * *

٨ — هذا الذى قدمناه عن التوحيدى جعل لنا منه شخصيتين مختلفتين بعض الاختلاف : الشخصية الأولى شخصية الأديب الذى يحدثنا عن نفسه وعن أشجانه وعن عتبه على الناس وتبرمه بالحياة . والشخصية الثانية شخصية الباحث الذى ينقل الصور المختلفة لما يفهم معاصروه من ضروب العلوم والآداب والفنون . وهذه الشخصية الثانية شخصية الباحث تقدمه الينا رجلا فهم النزعات الفلسفية والأخلاقية والأدبية ، ثم صورها لنا تصويرا يقرب من الإتقان فى كتاب المقابسات . وكتاب المقابسات هذا كتاب عظيم، طبع أولا بالهند، ثم طبع أخيرا فى مصر طبعا متقنا معنيا به من بعض الوجوه . وكتاب المقابسات لا ينفع المبتدئين إلا قليلا ، ولكنه نافع كل النفع لمن وقفوا على معضلات الفلسفة الاسلامية . ولعل أهم ما فيه أنه يعطينا صورة من الكتابة الفلسفية لعهده ، وإن كنا نرى فى ذلك بعض البعد عن الصواب، لأنه يحاكى الجاحظ فى أسلوبه الفلسفى والأدبى فيترك السجع ويقبل على الازدواج، غير أنه على كل حال لون من الكتابة الفلسفية التى تقبلها الناس فى ذلك الحين . وأدق ما يلاحظ على كتاب المقابسات أنه يطلعنا على ناحية خطيرة من عقلية الباحثين فى ذلك العهد، فهم يعرفون كيف تثار المشاكل وكيف تبذر بذور الخلاف ، فاذا حاولوا

(١) ياقوت ص ٤٠٦ ج ٥

الاجابة والتعليل ظهروا ضعفاء عاجزين. وهذه ظاهرة تجدها حيث تتصفح كتاب المقابسات ولعل السبب فى ذلك أنهم كانوا يعانون أزمة عقلية خطرة لم يتح لهم التغلب عليها، وكان من أثرها أن كثر الشك والارتياب والالحاد بين طبقات المفكرين .

ومن طريف ما أثاره أبو حيان التوحيـدى فى إحدى المقابسات ما أنطق به أبا إسحاق النصيبى إذ قال :

"ما أعجب أمر أهل الجنة ! قيل وكيف ؟ قال لأنهم يبقون أبدا هناك، لاعمل لهم إلا الأكل والشرب والنكاح؟ أما تضيق صدورهم . أما يكلّون . أما يربأون بأنفسهم عن هذه الحال الخسيسة التى هى مشاكلة لحال البهيمية ؟ أما يأنفون ؟ أما يضجرون (١) ؟

وفى الجواب على هذا السؤال الخطر أطال أبو حيان إطالة مملة لا تقنع ولا تفيد، لأنه افترض أن نعيم الجنـة بالعقل لا بالحس، وأن العقل لا يعـتريه الملل، ولا تصيبه الكلفة، ولا يمسه اللغوب . وعلى ذلك بقى الاعتراض حيث وقع : لأن القرآن أعطى اللذات الحسية شأنا غير قليل، وجعلها من الغايات التى يسمو اليهـا المؤمنون .

٩ — أما الشخصية الأولى شخصية الأديب فهى الجانب الأقوى من نفسية التوحيدى . وتتمثل هذه الشخصية الرائعة فى رسائله الوجدانية، وفى استطراداته الممتعة التى جرى بها قلمه فى كتاب الصداقة والصديق . والجانب الوجدانى من التوحيدى تكوّن ونشأ فى هجير الفاقة والبؤس ومعاناة الأيام . ولا تراه يجيد إلا حيث يتحدّث عن نكد دنياه وسواد لياليه . وانك لترثى له وتبكى لشكواه حين تراه يطالعك بأمثال الكلمة الآتية :

" وسمعت الخوارزمى أبا بكر محمـد بن العباس الشاعر البليغ يقول : (اللهم نفّق سوق الوفاء فقد كسدت، وأصلح قلوب الناس فقد فسدت، ولا تمتنى حتى يبور الجهل، كما بار العقل، ويموت النقص كما مات العلم" وأقول : " اللهم اسمع واستجب، فقد برح الخفاء، وغلب الجفاء، وطال الانتظار، ووقع اليأس، ومرض الأمل، وأشفى الرجاء (٢)" والخوارزمى

(١) راجع ص ١٩٤ من المقابسات . (٢) ص ١ من الصداقة والصديق .

هـذا الذى يعجب به التوحيدى و يتحدّث عنه ويتأسى به رجل عانى فى دهره مرارة الجور والحيف، ورأى الناس يقدّمون عليه بديع الزمان وهو لدن العود غض الاهاب، فلا عجب أن يردّد "التوحيدى" شكاته وأنينه وهو الذى رأى كيف تقدم عليه الأقدار أمثال ابن عباد .

١٠ — ولنقل هنا كلمة عن كتاب الصداقة والصديق فاليه يرجع الفضل فى تصوير الجانب الوجدانى من التوحيدى رحمه الله . ابتدأ هـذا الكتاب بزفرة وانتهى بزفرة . ابتدأ بالكلمة التى نقلناها آنفا عن الخوارزمى، وانتهى بقوله فى الاعتذار عن طول تلك الرسالة "فأقبل حاطك الله هذا القدر الذى قد بدأته وأعدته ، ونشرته وطويتـه ، على أنك لو علمت فى أى وقت ارتفعت هذه الرسالة، وعلى أى حال تمت، لتعجبت، وما كان يقل فى عينك منها يكثر فى نفسك ، وما يصغر منهـا بنقدك يكبر بعقلك . والله أسأل خاتمة مقرونة بغنيمة، وعاقبـة مفضية الى كرامة، فقد بلغت شمسى رأس الحائط، والله أستعين على كل ماهمّ النفس، ووزع الفكر، وأدنى من الوسواس " .

وكتاب الصداقة والصديق كتب فى أدق وقت من حياة التوحيدى، كتب حين بلغت شمسـه رأس الحائط كما قال ، كتب بعد كتابه مثالب الوزيرين بمدة قد تكون طويلة، فهو أنضج ثمرة من أدب التوحيـدى . وليس يهمنا فى هـذا المقام ما اشتمل عليـه من الفقرات الجميلة، والمقطوعات البديعة، والأخبار الطريفة، إنما يهمنا بنوع خاص مامر فيه من الصور الفنية الرائعة التى جرى بها قلمه البليغ ، فقد ترك لنا ذلك الرجل الفحل طائفة من النماذج العالية فى صور الخواطر والأفكار والتأملات، ومشى بنا فى أودية من الخيال ضاحكة الأزهار خفاقة النسمات .

١١ — والصور التى يقدّمها التوحيدى تمرّ غالبا على أنها أحاديث . فهو يصوّر خواطر الناس وآراءهم فى فهم الحياة تصويرا عجيبا يفصح عن قدرته أتم إفصاح ، وهو يظهر فى ثنايا كلامه غنىّ اللغة قوىّ الخيال يحيط بالمعنى من جميع أقطاره إحاطة بالغة لا يندّ منهـا شىء . ولننظر كيف يقول فى تشعب أنفاس الناس فى الحب والبغض :

” وما من أحد إلا وله فى هذا الفن حصة : لأنه لا يخلو أحد من جار أو معامل أو حميم أو صاحب أو رفيق أو سكن أو حبيب أو صديق أو أليف أو قريب أو ولىّ أو خليط . كما لايخلو أيضا من عدوّ أو كاشح أو مداج أو مكاشف أو حاسد، أو شامت، أو منافق أو مؤذ أو منابذ أو معاند أو مزل أو مضل أو مغل“ (١) .

ومثل هذه الفقرة يدل على بصر ذلك الرجل باللغة وقدرته على تصوير ما يشاء من المعانى النفسية والوجدانية التى تعجز أكثر الكتّاب . وقد أعطانا التوحيدى عدة صور فى الصداقة والحب . من ذلك قوله فى التفرقة بين الصداقة والعلاقة : ”الصداقة اذهب فى مسالك العقل، وأدخل فى باب المروءة ، وأبعد من نوازى الشهوة ، وأنزه عن آثار الطبيعة، وأشبه بذوى الشيب والكهولة، وأرمى الى حدود الرشاد ، وآخذ بأهداب السداد ، وأبعد من عوارض الغرارة والحداثة . فأما العلاقة فهى من قبيل العشق والمحبة والكلف والشغف والتتيم والتهيم والهوى والصبابة والتدانف والتشاجى . وهذه كلها أمراض أو كالأمراض، بشركة النفس الضعيفة والطبيعة القوية ، وليس للعقل فيها ظل ولا شخص . ولهذا تسرع هذه الأعراض الى الشباب من الذكران والإناث وتنال منهم وتملكهم وتحول بينهم و بين أنوار العقول وآداب النفوس وفضائل الأخلاق، ولهذا وأشباهه يحتاجون الى الزواجر والمواعظ ليفيئوا الى مافقدوه من اعتدال المزاج والطريق الوسط“ (٢) .

ونقل فى موضع آخر أنه سمع ابن مانويه القمىّ يروى عن جعفر بن محمد أنه قال :

مناغاة الصديق أعبث بالروح وأندى على الفؤاد من مغازلة المعشوق، لأنك تفزع بحديث المعشوق الى الصديق ولا تفزع بحديث الصديق الى المعشوق (٣) .

١٢ — وقد علل التوحيدى ميل الرجل الى أهله وأحبابه فذكر أنه يحن الى والده للتعزز به، لأن الوالد عضد وركن يعاذ به، ويؤوى اليه، ويتزع الى الوالدة لشفقتها ودعائها الذى لا يعرج الى الله مثله ، ويشتاق الى أخته للصيانة لها والتروّح اليها، والى ابن عمه للانتصار به،

(١) الصداقة والصديق ص ٧٣ (٢) ص ٤٠ (٣) ص ٧٩

ولابنة عمه لأنها لحم على وضم ؛ و يصبو الى عشيقه لأن ذاك شيء يجده بالفطرة والارتياح الذى قلما يخلو منه كريم له فى الهوى عرق نابض، وفى المجون جواد راكض . ثم قال : أما الصديق فوجدى به فوق شوقى الى كل من نعتُّه لك، لأنى أباثّه بما أجل أبى عنه، وأجبأ من أمى فيه، وأطويه عن أختى تجملا منها ، وأداجى ابن عمى عليه خوفا من حسد يفقأ ما بينى و بينه . فأما العشيقة فقصاراى معها أن أشوب لها صدقا بكذب وغلظة بلين لأفوز منها بحظ من نظر، ونصيب من زيارة، وتحفة من حديث. وكل هؤلاء مع شرف موقعهم منى وانتسابهم الىّ دون الصديق الذى حريمى له مباح، وسارحى عنده مُراح، أرى الدنيا بعينيه اذا رنوت، وأجد فائتى عنده اذا دنوت، اذا عززت له ذل لى ، واذا ذللت له عز بى، واذا تلاحظنا تساقينا كأس المودّة، واذا تصامتنا تناجينا بلسان الثقة، لايتوارى عنى إلا حافظا للغيب، ولايتراءى لى إلا ساترا للعيب (١) .

وقد عرض التوحيدى للصداقة والحب والعشق فى آخر كتاب المقابسات بتفصيل واف فليرجع اليه من شاء .

١٣ — ولم أجد فيما قرأت من كتب الأدب صورة فنية تمثل اتحاد القلوب والنفوس كالصورة التى قدمها الينا التوحيدى حين قال :

”قلت لأبى سليمان محمد بن طاهر السجستانى : إنى أرى بينك و بين ابن سيار القاضى ممازجة نفسية، وصداقة عقلية، ومساعدة طبيعية، ومواتاة خلقية، فمن أين هذا؟ وكيف هو؟ فقال : يا بنى! اختلطت ثقتى به بثقته بى فاستفدنا طمأنينة وسكونا لا يرثان على الدهر، ولا يحولان بالقهر . ومع ذلك فبيننا بالطالع ومواقع الكواكب مشاكلة عجيبة ومظاهرة غريبة، حتى أنا نلتقى كثيرا فى الإرادات، والاختيارات، والشهوات، والطلبات . وربما تزاورنا فيحدثنى بأشياء جرت له بعد افتراقنا من قبل فأجدها شبيهة بأمور حدثت لى فى ذلك الأوان حتى كأنها قسائم بينى و بينه، أوكأنى هو فيها أو هو أنا . وربما حدّثته برؤيا فيحدّثنى بأختها فنراها فى ذلك الوقت أو قبله بقليل، أو بعده بقليل“ .

(١) ص ٦٢

وقال بعد كلام: فقلت هل تجد عليه فى شىء، أو يجد عليك فى شىء؟ فقال: وجدى به فى الأوّل قد حجبنى عن موجدتى عليه فى الثانى، على أنه يكتفى منى فيما خالف هواى باللمحة الضئيلة، واكتفى أنا أيضا منه فى مثل ذلك بالاشارة القليلة. وربما تعاتبنا على حال تعرض على طريق الكناية عن غيرنا كأننا نتحدث عن قوم آخرين، ويكون لنا فى ذلك مقنع، واليه مفزع، وقلما نجتمع إلا ويحدثنى عنى بأسرار ما سافرت عن ضميرى الى شفتى، ولا ندّت عن صدرى الى لفظى، وذاك للصفاء الذى نتساهمه، والوفاء الذى نتقاسمه، والباطن الذى نتفق عليه، والظاهر الذى نرجع اليه، والأصل الذى رسوخنا فيه، والفرع الذى تشبثنا به. والله ما يسرنى بصداقة حُمْر النَّعم. واذا كنت أعشق الحياة لانى بها أحيا كذلك أعشق كل ما وصل الحياة بالحياة وجنى لى ثمرتها، وجلب الىّ روحها، وخلط بى طيبها وحلاوتها"[1].

والقارئ الذى ألف تذوق العبارات البليغة فى غنى عن تحليل مثـل هذا الحديث الشائق الخلاب، وما عسانا نجد فى الافصاح عن جمال التعبير فى مثل قوله "وقلما نجتمع إلا ويحدّثنى عنى بأسرار ما سافرت عن ضميرى الى شفتى، ولا ندَّت عن صدرى الى لفظى".

هيهات هيهات، فتلك لمحات من سحر البيان لا يوفق اليها إلا الملهمون.

* * *

١٤ — وينبغى أن نشير الى أن التوحيدى كان من أنصار إخوان الصفا، ولكنه كان يتستر اتقاءً لسخط الجمهور، وكانت طريقته فى تأييدهم أن ينطق الأشخاص بعبارات مريبة، كقوله: "الشريعة طب المرضى، والفلسفة طب الأصحاء، والأنبياء يطبون للمرضى حتى لا يتزايد مرضهم، وحتى يزول المرض بالعافية فقط، وأما الفلاسفة فانهم يحفظون الصحة على أصحابها حتى لا يعتريهم مرض أصلا. وبين مدبِّر المريض ومدبر الصحيح فرق ظاهر وأثر مكشوف لأن غاية تدبير المريض أن ينتقـل به الى الصحة — هذا اذا كان الدواء ناجعا والطبع قابلا والطبيب ناصحا — وغاية تدبير الصحيح أن يحفظ الصحة واذا حفظ الصحة فقد أفاده كسب

(١) ص ٣ و ٤ من الصداقة والصديق.

الفضائل وفرغه لها وعرضه لاقتنائها، وصاحب هذه الحال فائز بالسعادة العظمى، وقد صار مستحقا للحياة الآلهية، والحياة الآلهية هى الخلود والديمومة" [1] .

١٥ — وبهذه المناسبة نذكر أن رسائل إخوان الصفا ظهرت فى القرن الرابع وهى من أهم المصادر للفلسفة الاسلامية، ولا تُعرف أسماء مؤلفيها بالضبط، ولكن يرجح أن التوحيدى كان بينهم . أما لغتها فليست من النثر الفنى الذى كلف به مشاهير الكتّاب فى ذلك العصر، ولكنها لغة وسط بين لغة الكتابة ولغة التأليف، لأن كتابها أرادوا أن يفهموا الجماهير مايرمون اليه من الأغراض السياسية والدينية، وذلك لا يتم فى مثل لغة الصابى وابن العميد . فلم يكن لهم بد من أن يتخيروا تلك اللغة الخالصة من شوائب البديع كالسجع والتورية والجناس، ولكن غلبت عليهم النزعة العامية فى بعض الأحيان [2] .

(١) ص ١٥ مقدمة المقابسات .

(٢) كانت رسائل إخوان الصفا خليقة بأن تدرس درسا مفصلا فى هـذا الكتاب . ولكنا رأينا الباحثين أطالوا فيها القول قديما وحديثا ، ورأينا من ناحية ثانية أن النـثر الفنى فيها قليل . على أننا لم نغفلها جملة، بل كتبنا فصلا عن بعض اتجاهاتها الفلسفية فى باب (الأخبار والأقاصيص) — راجع « الانسان والحيوان أمام محكمة الجن» فى الجزء الأول . وراجع كذلك الشواهد التى أثبتناها هناك فى فصـل (السجع والازدواج) .

٢ – أبو على بن مسكويه

١ — لما أصل الى التثبت من لقب الكاتب المفكر أحمد بن محمد بن يعقوب ، فهو تارة "مسكويه" وتارة "ابن مِسكويه" وقد حدث ياقوت أنه "كان مجوسيا وأسلم" فظن صديقنا الأستاذ الزركلى صاحب "الأعلام" أن هذا صحيح ، فأثبت كذلك أنه كان مجوسيا وأسلم ، وهذا غير معقول ، فان الرجل "اسمه أحمد بن محمد" والأرجح عندى أن عبارة ياقوت سقطت منها كلمة ، وأن الأصل "وكان جده مجوسيا وأسلم" وقد يكون هذا الترجيح هو الصواب .

٢ — اتصل ابن مِسكويه فى شبابه بابن العميد واختص به ، ثم ساعده زمانه فاختص بأعلام بنى بويه وتولى مكتبة عضد الدولة فلقب بالخازن ، وكانت دار الكتب فى ذلك العهد تسمى "الخزانة" وظل متصلا بأولئك الملوك الى أخريات عمره . يدلنا على ذلك قوله يهنئ عميد الملك باتفاق الأضحى والمِهرجان فى يوم واحد :

قل للعميد عميد الملك والأدب — اسعد بعيديك عيد الفرس والعرب
هذا يشير بشرب ابن الغمام ضحى — وذا يشير علينا بابنة العنب
خلائقٌ خُيِّرتْ فى كل صالحة — فلو دعاها لغير الخير لم تجب
أعدت شرخ شباب لست أذكره — بعدا ، ورُدّ علىّ العمر من كثب
فطاب لى هرمى والموت يلحظنى — لحظ المريب ولولا أنت لم يطب
فإن تمرّس بى خصم تعصب لى — وإن أساء إلىّ الدهر أحسن بى
وقد بلغت الى أقصى مدى عمرى — وكلّ غربىَ واستأنست بالنوب
اذا تملأت من غيظ على زمنى — وجدتنى نافخا فى جذوة اللهب

٣ — شغل ابن مسكويه مدة طويلة بالكيمياء، ولكنه لم يكن فيها من الموفقين وكان اخفاقه مثارا لسخرية أبي حيان التوحيدى، فقد غمزه فى كتاب الإمتاع ووصفه بأنه "فقير بين أغنياء، وغنى بين أنبياء"(١) واتهمه بالجهل وقلة المحصول، وأنطق بعض محادثية بهذه الجملة "يا عجبا لرجل صحب ابن العميد أبا الفضل، ورأى ما عنده وهذا حظه! ثم أجاب : قد كان هذا! ولكنه كان مشغولا بطلب الكيمياء مع أبى الطيب الكيميائى الرازى مملوك الهمة فى طلبه، والحرص على إصابته، مفتونا بكتب أبى زكريا وجابر بن حيان، ومع هذا كان اليه خدمة صاحبه فى خزانة كتبه . هذا مع تقطيع الوقت فى الحاجات الضرورية والشهوية، والعمر قصير، والساعات طائرة، والحركات دائمة، والفرص بروق تأتلق، والأوطار فى عرضها تجتمع وتفترق، والنفوس عن فوائتها تذوب وتحترق . ولقد قطن العامرى الرى خمس سنين ودرس وأملى وصنف وروى فما أخذ عنه مسكويه كلمة واحدة، ولا وعى مسأله، حتى كأنه كان بينه وبينه سد . ولقد تجرع على هذا الصابَ والعلقم، ومضغ لقمة حنظل الندامة فى نفسه، وسمع بأذنه قوارع الملامة من أصدقائه، حين لم ينفع ذلك كله. وبعد هذا فهو ذكى حسن الشعر نقى اللفظ .

وقد أولع التوحيدى بمهاجمة ابن مسكويه ورماه بمدح الجود باللسان وإيثار الشح بالفعل، وادعاء الحكمة والتكلف فى الأخلاق . ولننظر كيف يقول فى كتاب الوزيرين .

"جرى بينى وبين أبى على مسكويه شىء : قال لى مرة : أما ترى الى خطأ صاحبنا — وهو يعنى ابن العميد — فى إعطائه فلانا ألف دينار ضربة واحدة! لقد أضاع هذا المال الخطير فيمن لا يستحق . فقلت بعد ما أطال الحديث وتقطع بالأسف : أيها الشيخ! أسألك عن شىء واحد، فاصدق فإنه لا مدبّ للكذب بينى وبينك : لو غالط صاحبك فيك بهذا العطاء وبأضعافه وأضعاف أضعافه أكنت تخيله فى نفسك مخطئا ومبذرا ومفسدا أو جاهلا بحق المال؟ أو كنت تقول : ما أحسن ما فعل، وليته أربى عليه ! فان كان

(١) معجم الأدباء ج ٢ ص ٨٩

الذى تسمع على حقيقته فاعلم أن الذى يرد ورد مقالك إنما هو الحسد أو شىء آخر من جنسه، وأنت تدعى الحكمة، وتتكلف فى الأخلاق، وتزيف الزائف وتختار منها المختار، فافطن لأمرك واطلع على سرك وشرك "[(١)].

٤ — ونحن نفهم سر هذا التحامل من جانب التوحيدى ، فقد كان شديد الحقد على المجدودين من أهل زمانه، وخاصة من اتصلوا بالملوك والرؤساء، ولنا أن نضيف إلى ذلك نجاح ابن مسكويه فى حياته العملية فقد كان الرجل فيما يظهر متين الأخلاق ، ومتانة الخلق قوة مرعبة يُرعد لها الأدباء المساكين الذين ابتُلوا بالطمع فى هدايا الملوك والوزراء ، وألفوا التزلف والتودّد الى أقطاب الجاه والمال . والأديب الذى يعتمد على نفسه وعلى خلقه وعلى كفايته الذاتية يعيش فى الأغلب غريبا بين معاصريه من الأدباء ، فليس عجيبا أن يتحامل أديب متشرد أفاق كالتوحيدى على أديب موفّق مطمئن العيش كابن مسكويه . ولو شئنا لأضفنا أيضا نزعة ابن مِسكويه الفلسفية فهى كذلك من أسباب حقد التوحيدى عليه، فقد كان التوحيدى واسع الثقافة إلى حدّ مدهش وكان يطمح فى التفرّد بالسمعة العلمية والأدبية والفلسفية بين رجال ذلك الجيل، ولهذا نراه حين يستر تحامله على ابن مسكويه لايجد غير هذا الثناء الهزيل إذ يقول :

" وبعد هذا فهو ذكى حسن الشعر نقى اللفظ "[(٢)] .

٥ — ومن دلائل النعمة التى ظفر بها ابن مسكويه فى حياته أن نراه ممدّحا يتملقه لئام الشعراء والكتّاب ، فقد كتب إليه بديع الزمان الهمذانى رسالة عتاب تكلف فيها الودّ والإخلاص، وكان بديع الزمان وقاح الوجه سليط اللسان ، لا يعترف لأحد بفضل ، ولا تصدر عنه كلمة الإنصاف إلا مدفوعة برغبة أو رهبة ، ويود لو أمكنته المقادير من طمس معالم النباهة والصيت فيما يمر به من مختلف البلاد : حتى لا يذكر بالعلم والنبل إنسان سواه . وتكاد رسائله وقصائده تُقصَر على بث ما كان يعتلج فى صدره من حزازات وعداوات

(١) مرت هذه الكلمة فى الفصل السابق ص ١٣٧ (٢) ياقوت ج ٢ ص ٩٠

وأضغان وأحقاد، وقد اتصل بابن مسكويه حينا، ثم سعى بينهما الواشون فكدروا ما كان ينتظره البديع من طيب الصلات، فكتب الى صاحبه الرسالة الآتية :

ويا عزّ ان واش وشى بيَ عندكم فلا تمهليه أن تقولى له مهلا
كما لو وشى واش بعزة عندنا لقلنا تزحزح لا قريبا ولا أهلا

بلغنى — أطال الله بقاء الشيخ — أن قيضة كلب وافته بأحاديث لم يعرها الحق نوره، ولا الصدق ظهوره، وأن الشيخ أذن لها على حجاب أذنه، وفسح لها فناء ظنه، ومعاذ الله أن أقولها، وأستجيز معقولها . بلى قد كان بينى و بينه عتاب لا ينزع كنفه، ولا يجذب أنفه، وحديث لا يتعدى النفس وضميرها، ولا تعرفه الشفة وسميرها، وعربدة كعربدة أهل الفضل لا تتجاوز الدلال والإدلال، ووحشة يكشفها عتاب لحظة، كغناء جحظة، فسبحان من ربى هذا الأمر حتى صار أمرا، وتأبط شرا، وأوحش حرا، وأوجب عذرا، بل سبحان من جعلنى فى حيز العذر أشيم بارقته، وأستخيل صاعقته، أنا المساء إليه، والمجنىّ عليه، والمستخَف به، لكن من بُلِى من الأعداء كما بليت، ورمى من الحسدة بما رميت، ووقف من الوجد والوحدة حيث وقفت، واجتمع عليه من المكاره ما وصفت، إعتذر مظلوما، وأحسن ملوما، وضحك مشتوما . ولو علم الشيخ عدد أبناء الحدد، وأولاد العدد، بهذا البلد، ممن ليس له همة إلا فى شكاية أو حكاية أو سعاية أو نكاية، لضن بعشرة غريب إذا بدر، وبعيد إذا حضر، ولصان مجلسه عمن لا يصونه عما رقى إليه . فهبنى قلت ما حُكى له، أليس الشاتم من أسمع ؟ أليس الجانى من أبلغ ؟ فقد بلغ من كيد هؤلاء القوم أنهم صادفوا من الأستاذ نفسا لا تستفز، وجبلا لا يهز، وشوا إليه بما أرّثوا به نارهم . ورد علىّ ماقالوه فما لبثت أن قلت :

فان يك حربٌ بين قومى وقومها فانى لها فى كل نائبة سلمُ

فليعلم الشيخ الفاضل أن فى كبد الأعداء منى جمرة، وأن فى أولاد الزنا عندنا كثرة، وقصاراهم نار يشبونها، أو عقرب يدببونها، أو مكيدة يطلبونها، ولولا أن العذر إقرار بما

قيل، وأكره أن أستقيل، بسطت فى الاعتذار شاذروانا، ودخلت فى الاستقالة ميدانا، لكنه أمر لم أضع أوله فلا أتدارك آخره .

وقد ختم بديع الزمان رسالته بهذه الأبيات :

مولاى إن عدت ولم ترض لى	أن أشرب البارد لم أشربِ
إمتط خدى وانتعل ناظرى	وصِدْ بكفى حُمَةَ العقرب
بالله ما أنطق عن كاذب	فيك ولا أبرق عن خُلَّب
فالصفو بعد الكدر المفترى	كالصحو بعد المطر الصيِّب
أن أجتن الغلظة من سيدى	فالشوك عند الثمر الطيب (١)

ثم انتظر من ابن مسكويه ان يعتذر عن إعراضه عنه، فأجابه بما نصه بعد الديباجة :

" أما البلاغات التى أومأ إليها فوالله ما أذنت لها ولا أذنت فيها ، وما أذهبنى عن هذه الطريقة وما أبعدنى عنها ! وقد نزه الله لسانى عن الفحشاء، وسمعى عن الإصغاء ، وما يتخذ العدو بينهما مجالا (٢) " .

ومثل هذا الجواب يشعر بأن موقف بديع الزمان من صاحبه كان موقف التابع من المتبوع . والمصادر لا تعيننا على تحديد ما كان بينهما من ألوان الصلات، وان كانت عبارة ياقوت صريحة فى أنه كان بينهما قبل هذا العتب وداد .

٦ — شغف ابن مسكويه شغفا بالغا بالفلسفة اليونانية واطلع على أكثر ما عرف العرب من مؤلفات اليونان، ويرى القارئ فى آثاره ظلالا كثيرة لآراء سقراط وجالينوس وأرسطاليس . ويظهر أن الفلسفة اليونانية وصلت الى أعماق نفسه فى وضوح وجلاء فاقتفى مناهج اليونان فى عرض الآراء ونقد مظاهر الحياة العقلية والسياسية والاجتماعية . وكذلك لم يقف فى دراسة الأخلاق عند الحدود الدينية التى كان يكتفى بها الصوفية

(١) ياقوت ج ٢ ص ٩٢ و ٩٣ (٢) ص ٩٣

والناسكون والزاهدون، بلساير العقل وصاحَبه وأنس به واطمأن إليه، ثم اتخذه أساسا للأخلاق، فصار العقل عنده نظيرا للوحى فى عرف المتبتلين،وما زال يدور حول المعقولات فى نظام السلوك حتى صار الخلق المعقول أحب إليه وأقرب إلى نفسه من الخلق المنقول : فهو لا يفعل الخير لأنه أُمر به ولا يجتنب الشر لأنه نُهىَ عنه ، وإنما يفعل ما يفعل ويترك ما يترك وَفقا لما اطمأن إليه عقله وأمر به وجدانه فى حدود النفع والمنطق والذوق.

وإلى القارئ وصيته — أو دستوره إن شاء — فى نظام السلوك :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما عاهدَ عليه أحمد بن محمد ربَّه وهو يومئذ آمن فى سِربه، معافى فى جسمه، عنده قوت يومه، لا تدعوه الى هذه المعاهدة ضرورة نفس ولا بدن ؛ ولا يريد بها مراءاة مخلوق ولا استجلاب منفعة، ولا دفع مضرة : عاهده على أن يجاهد نفسه ويتفقد أمره، فيعف ويشجع ويحكم . وعلامة عفته أن يقتصد فى مآرب بدنه حتى لا يحمله الشره على ما يضر جسمه أو يهتك مروءته ؛ وعلامة شجاعته أن يحارب دواعى نفسه الذميمة حتى لا تقهره شهوة قبيحة ولا غضب فى غير موضعه، وعلامة حكمته أن يستبصر فى اعتقاداته حتى لا يفوته بقدر طاقته شيء من العلوم والمعارف الصالحة ، ليصلح أوّلا نفسه ويهذبها ويحصل له من هذه المجاهدة ثمرتها التى هى العدالة، وعلى أن يتمسك بهذه التذكرة ويجتهد فى القيام بها والعمل بموجبها وهى خمسة عشر بابا :

إيثار الحق على الباطل فى الاعتقادات ، والصدق على الكذب فى الأقوال، والخير على الشر فى الأفعال ، وكثرة الجهاد الدائم لأجل الحرب الدائم بين المرء وبين نفسه ، والتمسك بالشريعة ولزوم وظائفها، وحفظ المواعيد حتى ينجزها،وأول ذلك ما بينه وبين الله عز وجل، وقلة الثقة بالناس بترك الاسترسال، ومحبة الجميل لأنه جميل لا لغير ذلك، والصمت فى أوقات حركات النفس للكلام حتى يستشار فيه العقل . وحفظ الحال التى تحصل

فى شيء شيء حتى تصير ملكة ولا تفسد بالاسترسال ، والاقدام على كل ما كان صوابا ، والاشفاق على الزمان الذى هو العمر ليستعمل فى المهم دون غيره ، وترك الخوف من الموت والفقر لعمل ما ينبغى ، وترك التوانى ، وترك الاكتراث لأقوال أهل الشر والحسد لئلا يشتغل بمقابلتهم ، وترك الانفعال لهم ، وحسن احتمال الغنى والفقر والكرامة والهوان ، وذكر المرض وقت الصحة ، والهم وقت السرور ، والرضا عند الغضب ليقل الطغى والبغى ، وقوة الأمل وحسن الرجاء ، والثقة بالله عز وجل وصرف البال اليه[1] .

---

(١) معجم الأدباء ص ٩٥ و ٩٦ ج ٢

٣ – الأخلاق عند ابن مسكويه

١ – الخلق – كما عرّفه ابن مسكويه – حال للنفس داعية لها الى أفعالها من غير فكر ولا روية . فهو بهذا غير التخلق : لأن التخلق يقتضى شعورا بالكلفة عند إرادة العمل الحسن وعند تجنب العمل القبيح . وقد عرض ابن مسكويه لآراء القدماء فى أصل الخلق، فبين أن منهم من ظنوا "أن الناس كلهم يخلقون أخيارا بالطبع ثم بعد ذلك يصيرون أشرارا بمجالسة أهل الشر والميل الى الشهوات الرديئة التى لا تقمع إلا بالتأديب[١] " وأن منهم آخرين " ظنوا أن الناس خلقوا من الطينة السفلى وهى كدر العالم فهم لأجل ذلك أشرار بالطبع وإنما يصيرون أخيارا بالتأديب والتعليم[٢] " وهناك رأى ثالث اختاره ابن مسكويه وهو الرأى الذى يقول بأنه "ليس شىء من الأخلاق طبيعيا للانسان" وإنما طبع الانسان على قبول الخلق فهو يتحول وفقا لما يؤثر فيه من أعمال الأخيار والأشرار . وليس لابن مسكويه فى أصل الخلق رأى خاص ، وإنما يتخير من بين الأراء، ومزيته أنه يعتمد على المشاهدة والاختبار، فيقول مثلا " وهذا الرأى هو الذى نختاره لأنا نشاهده عيانا" وحين يشرع فى بيان مراتب الناس فى قبول الآداب يذكر أنها كثيرة ثم يقول : وهى تشاهد وتعاين فيهم وخاصة فى الأطفال، فان أخلاقهم تظهر فيهم منذ بدء نشأتهم، ولا يسترونها بروية ولا فكر كما يفعله الرجل التام الذى انتهى فى نشوئه وكماله الى حيث يعرف من نفسه ما يستقبح منه فيخفيه بضروب من الحيل والأفعال المضادة لما فى طبعه ، وأنت تتأمل من أخلاق الصبيان واستعدادهم لقبول الأدب أو نفورهم عنه ، أو ما يظهر فى بعضهم من القحة وفى بعضهم من الحياء ، وكذلك ما ترى، فيهم من الجود والبخل والرحمة والقسوة والحسد وضده ، ومن الأحوال المتفاوتة ما تعرف به مراتب الانسان فى قبول الأخلاق الفاضلة وتعلم معه أنهم

(١) تهذيب الأخلاق ص ٣٧ (٢) ص ٣٨

ليسوا على رتبة واحدة وأن فيهم المتوانى والممتنع ، والسهل السلس ، والفظ العسر ، والخيّر والشــــرير" [١] .

٢ — والواقع أنه ليس لابن مسكويه غير هذه المزية وهى محاولة الانتفاع من المشاهدات والاختبارات . ولكن هذه المزية نفسها تكدرت عليه بسبب حيرته فى تعليل ما يعرض له من مختلف الآراء : فهو تارة مع جالينوس وتارة مع ارسطاليس ، وطورا مع العقل وطورا مع الشرع ، بحيث تصطدم فى كتبه معالم المعقول والمنقول ، ولذلك تراه يرتب أقوال الحكماء ترتيبا سيئا فى أكثر الأحوال ، لأنه لا يمضى الى غاية معينة يسوق فى سبيلها الحجج والبراهين . وقد يحتطب أحيانا فى ليل من الظنون والأوهام فيجمع بين الجيد والردىء والطيب والخبيث . ولهذا الخبط قيمته عند من يريدون تبيين ما فعلت الفلسفة اليونانية بالعقلية العربية ، فقد كانت فى أذهان كثير من الناس صورة للغبار الذى يثور عند هبوب الرياح ، وكانت الأذهان العربيــة هادئة مطمئنة فجاءتها فلسفة اليونان بزوابع وأعاصير أطارت ما كان آستقر فيها من أمن وسكون . وقد آن أن يعرف الناس أن الآراء التى تأتى من أقطار أجنبية لا تنفع من يتلقونها إلا بعد أن يهضموها ويسلموا من الافتتان بما فيها من طرافة وبريق ، ومَثَلهم فى ذلك مَثَل من يشرب الدواء لا تصفو نفسه ولا تذكو قريحته ولا يعتدل مزاجه إلا بعد أن يزول ما أحدث الدواء بأعصابه وحواســه من قلق واضطراب ، وكذلك وقع لمفكرى العرب حين غزتهم الفلسفة اليونانيــة . فكان منهم المفتون بكل ما (نقل) عن سقراط وأفلاطون وأرسطاليس ، وكان منهم من هضم تلك الفلسفة واستبقى لعقله وروحه ما فيها من تثقيف للعقل وتهـذيب للحس وتقويم للوجدان . ونحن نشهد فى عصرنا شــواهد لذلك ، ففى رجال اليوم من له فى كل صــباح رأى جديد ، لأنه لا يأخذ عن نفسه وإنما يتتلمذ لعدد من الفلاســفة والمفكرين قد يتوافقون وقد يتناقضون ، وهو لهم فى توافقهــم وتناقضهــم تابع أمين ، وقد يكون فى المساء صــدى لكتّاب قرأه فى الصــباح ، وكذلك يفعل فلان وفلان !

(١) تهذيب الأخلاق ص ٤١

ومن معاصرينا من خاص من قيود ما قرأ وعاد يفكر ويتذوق ويحس وهو حر العقل والذوق والاحساس .

٣ — رسم ابن مسكويه لنفسه خطة تجدر بمثله وهى القصد إلى تثقيف الخواص : فهو لا يكتب فى الأخلاق للناس أجمعين ، وإنما يتوجه بآرائه وأبحاثه إلى من درسوا المنطق وعرفوا كيف يكون القياس والبرهان . وكان يشعر — فيما يظهر — بأن خواص زمانه كانوا على حافة الشك والارتياب ، لهذا نراه يهتم أولا وقبل كل شيء باثبات وجود النفس وجودا مستقلا عن الجسم أتم استقلال ، بحيث لا تضعف حين يضعف ولا تزول حين يزول . ولم يضطره إلى مواجهة هذا البحث الشائك إلا اهتمامه كما قلنا بتقويم الخواص ، ولو كان يكتب للعوام لأراح نفسه من آصار هذه المخاطرة العقلية ، لأن العوام مطمئنون أو كالمطمئنين إلى خلود الروح وعودتها يوم البعث إلى بقايا جسمها فى التراب . وإقناع الخواص بوجود النفس واستقلالها وخلودها هو حجر الزاوية فى جذبهم إلى جمال الأخلاق ، لأنه لا يخشى على الخواص إلا شر الريب وعدم الاكتراث ، وهم لا يضلون — وما أكثر ما يضلون ! — إلا ليأسهم من خلود النفس الانسانية ، وقولهم مع سائر الدهريين "إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين" .

٤ — وابن مسكويه واثق بالمنطق ثقة مطلقة ، ومن أجل ذلك يعتمد عليه فى جميع الأحوال ، مطمئنا إلى أنه متى صحت المقدمات حقت النتائج . فلنختبر ما صنع فى بيان وجود النفس لنعرف مبلغ ما وصل إليه فى إثبات ما يريد ، وهو يذكر " أنا لما وجدنا فى الانسان شيئا ما يضاد أفعال الأجسام بحده وخواصه وله أيضا أفعال تضاد أفعال الجسم وخواصه حتى لا يشاركه فى حال من الأحوال ، وكذلك نجده يباين الأعراض ويضادها كلها غاية المباينة ثم وجدنا هذه المباينة والمضادة منه للأجسام والأعراض إنما هى من حيث كانت الأجسام اجساما والأعراض أعراضا حكمنا بأن هذا الشيء ليس بجسم ولا جزء من جسم ولا عرضا ، وذلك أنه لا يستحيل ولا يتغير ، وأيضا فانه يدرك جميع الأشياء بالسوية ولا يلحقه فتور ولا كلال ولا نقص[١] " .

(١) تهذيب الأخلاق ص ٤

ومعنى هذا أن الانسان مركب من شيئين : أحدهما الجسم، وثانيهما النفس ، والجسم محسوس ملموس لا يختلف فى تقـديره اثنان ، فلم يبق موضعا للنزاع إلا النفس وهى عنـده تضاد الأجسام فى الحدود والخواص .

” وبيان ذلك — كما شرح فى كتاب تهذيب الأخلاق(١) — أن كل جسم له صورة ما فانه ليس يقبل صورة أخرى من جنس صورته الأولى إلا بعد مفارقة الصورة الأولى مفارقة تامة .

مثال ذلك أن الجسم اذا قبـل صورة وشكلا من الأشكال كالتثليث مثلا فليس يقبـل شكلا آخر من التربيع والتدوير وغيرهما إلا بعـد أن يفارقه الشكل الأول، وكذلك إذا قبـل صورة نقش أو كتابة أو أى شىء كان من الصور فليس يقبـل صورة أخرى من ذلك الجنس إلا بعد زوال الأولى و بطلانها البتة . فان بقى فيـه شىء من رسم الصورة الأولى لم يقبـل الصورة الثانية على التمـام بل تختلط الصورتان فلا يخلص له إحداهما على التمـام . مثال ذلك إذا قبـل الشمع صورة نقش فى الخاتم لم يقبل غيره من النقوش إلا بعد أن يزول عنـه رسم النقش الأول“ .

هـذا هو الجسم، أما النفس فتقبـل صور الأشياء كلهـا على اختلافها من المحسوسات والمعقولات ”على التمـام والكمال من غير مفارقة للأولى ولا معاقبـة ولا زوال رسم، بل يبقى الرسم الأول تاما كاملا وتقبل الرسم الثانى أيضا تاما كاملا، ثم لا تزال تقبل صورة بعد صورة أبدا دائما من غير أن تضعف أو تقصر فى وقت من الأوقات عن قبول ما يرد و يطرأ عليها من الصـــور “ .

٥ — تلك إحدى محاولات ابن مسكويه فى استقلال النفس، وكلامه فى هذا البـاب كلام الواثق من صحـة ما يقول ، وليته تذكر أننـا حين نؤمن بوجود شىء لا ينهض إيماننا حجة على وجود ذلك الشىء على النحو الذى نتصوّره ونراه ، فليس اطمئنان ابن مسكويه إلى أن النفس موجودة مستقلة خالدة بكاف فى محو ما يحيك فى الصدور من الريب فى استقلالها

(١) ص ٤ و ٥

عن الجسم وتفردها دونه بالخلود . وأخشى أن يقف قوم فى وجه ابن مسكويه فينكروا عليه ما ادّعاه من أن النفس "تدرك جميع الأشياء بالسوية ولا يلحقها فتور ولا كلال ولا نقص" فقد شاهدَ ناس أن النفس تتبع الجسم فى الصحة والمرض والقوّة والضعف والنشاط والخمول، وان الإنسان يرى المعنويات والمحسوسات بأشكال مختلفة فى وجوه متباينة تبعا لاختلاف الذوق والحس والمزاج . ولاحظ ناس كذلك أننا عبيد لحواسنا وأعصابنا وأن جمهورنا مدين فى تكوين ذوقه وحسه وعقله إلى ما يأكل وما يشرب وما يلبس وما يرى وما يذوق ، وأنه كذلك مَدين إلى من يصادق ويخاصم فى تكييف ما يعتلج بصدره من ألوان المودّات والعداوات . وقد راعى ذلك فقهاء الشريعة الاسلامية حين وضعوا آداب القضاء، واستحبوا للقاضى أن يمتنع عن الحكم إذا شعر ببعض عوارض المرض أو الظمأ أو الجوع ، فليس من السهل الاقتناع بأن النفس معصومة من التحوّل والتغير والفساد، كما ظن ابن مسكويه وكما توهم متابعوه .

إن خلود النفس مشكلة قديمة تعبت فى حلها العقول ، والقول الفصل هو كلمة القرآن "ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا" ولو سكت عنها ابن مسكويه لأراح واستراح . ولكنه ظن المنطق والفلسفة يغنيان فى كشف ذلك السر الذى لم يحاول كشفه القرآن .

٦ — فاذا تركنا الجوانب النظرية فى أساس الأخلاق ومضينا نتعقب جهود ابن مسكويه فى شرح الجوانب العملية رأيناه فى أكثر الأحوال من الموفقين، من ذلك أنه عرض لشرح القاعدة التى تقول "الانسان مدنى بالطبع" فأخذ يفصلها بأن ذلك معناه "أنه لم يخلق الانسان خلق من يعيش وحده ويتم له البقاء بنفسه كما خلق كثير من الوحش والبهائم والطير وحيوان الماء، لأن كل واحد من تلك خلق مكتفيا بنفسه غير محتاج فى بقائه إلى غيره، بل قد أزيحت علته فى جميع ما تتم به حياته خلقة وإلهاما . أما الخلقة فلأنه مكتس بما يوافقه من وبر وصوف وشعر وريش وما أشبه ذلك، وذو آلة يتناول بها حاجته : إن كان لاقط حب

فمنقار، وإن كان آكل عشب فمشفر وأسنان موافقة للقطع والقلع ، وإن كان سبعا أو آكل لحم فأنياب أو مخالب أو مناسر ... وأما الإلهام فلانه يتناول من الأغذية ما يوافقه ويتجنب ما يضره ، وينتقل من مصيفه إلى مشتاه ، ويعد مصالحه كلها من القوت ولكنّ بغير تعليم ولا تدبير، بل بالالهام المولود معه ، فكل واحد منها مكتف بذاته فى حياته التى قدّرت له . فأما الانسان فانه خلق عاريا غير مهتد لشيء من مصالحه إلا بالمعاناة والتعليم ، ولا يكفيه القليل من المعاونين حتى يكونوا عدّة كثيرة وجماعة وافرة، وإذ كان هذا على هذا وكان سبيل الانسان فى حياته وحسن عيشته على خلاف الحيوان كله قيل إنه مدنى بالطبع : أى محتاج إلى ضروب المعاونات التى تتم بالمدينة واجتماع الناس . وهذا الاجتماع للتعاون وهو التمدّن سواء كان ذلك فى الناس وبرا ومدرا أو على رأس جبل"[1] .

٧ — ويخلص ابن مسكويه من ذلك إلى نتيجتين عظيمتين :

الأولى : أنه من العدل أن نعين الناس بأنفسنا كما أعانونا بأنفسهم ونبذل لهم عوض ما بذلوه لنا .

الثانية : أن الذهاب إلى التزهد وتحريم المكاسب ظلم : لأن الزاهد مضطر لا محالة إلى استنجاد الناس فى ضرورات بدنه وحاجاته إلى ما يقيم أوده، فهو يطلب معاونتهم ثم لا يعاونهم، وذلك ظلم وعدوان. فان ظن أحد من المتزهدين أن مقدار حاجته إلى معونات الناس قليل فليعلم أن ذلك القليل يحتاج فيه إلى استخدام عالم كثير من الناس لا يحصون "وإن كان لا يشعر بذلك"[2] .

وهذه دقة فى فهم الأخلاق ، لأننا قد نحسب أننا نحسن إلى الناس على حين لا نعمل غير قضاء ما علينا لهم من ديون . وكل إنسان فى الواقع مدين إلى إخوانه فى الإنسانية من قرب أو من بعد، فالمصباح الذى نقرأ فى ضوئه، ونظام البيت الذى نأوى إليه، والكتاب الذى نهتدى بهديه، والشرائع التى نعيش فى حماها، كل أولئك جزء من جهود انسانية عديدة

---

(١) راجع ص ٦٣ من الفوز الأصغر . (٢) راجع ص ٦٤

منهـا القريب ومنها البعيـد، وتلك الجهود تظلنا ونحن أجنّة فى بطون أمهاتنا ، وترعانا حين نولد، ثم تظل تلاحقنا ببرها طول الحياة ، إلى أن تشمل أجسامنا بالكرامة والرعاية يوم نموت . فلنعرف بعض ما أسدته إلينا الإنسانية، ولنذكر أن أفضلنا وأكرمنا هو من آمن حق الإيمان بأن الحياة تعاون وتساند وأن المرء بنفسه قليل .

٨ — ولعل أفضل ما كتب ابن مسكويه هو الفصل الذى عقده للكلام عن آداب الصداقة و رعاية الصديق ،وهو فى هذا مسبوق بعدد عظيم من الكتّاب والمفكرين ،ولكنه بسط القول فى الصـداقة بسطا شافيا ينساب إلى النفس انسياب المـاء إلى الأشجـار الظِّماء ، وهو فى ذلك الفصل خاصة يتكلم كلام المفكر المجرب الذى صادق وعادى وعرف كيف تكون مرارة العداوات وحلاوة الصداقات ، وهو يشـعرنا بأن الاحتفاظ بالصداقة ليس من الأمور الهينة كما يتوهم الأكثرون . وقـد نقتنع بعد قراءة ما كتب بأن تألُّف العـدو أيسر من الاحتفاظ بالصديق . وتلك مسألة فى غاية الدقة : فطالمـا ضيعنا أصدقاءنا حين ظننا بأن فى الصداقة ما يغنى عن التلطف والتودد ورعاية الحقوق .

٤ – ابن نباتة الخطيب

١ – اشتهر بابن نُباتة فى الأدب العربى ثلاثة رجال : أولهم عبد الرحيم بن محمد بن نباتة الخطيب الذى ولد فى ميافارقين بديار بكر سنة ٣٣٥ ودفن بها سنة ٣٧٤، والثانى محمد بن محمد بن نباتة المصرى الشاعر وصاحب "سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون" وهو من ذرية ابن نباتة الخطيب كما أشار إليه فى آخر إجازته للصلاح الصفدى وهى مذكورة فى خزانة الأدب (٦٨٦ – ٧٦٨)[١] والثالث عبد العزيز بن نباتة السعدى أحد الشعراء المجيدين الذين مدحوا سيف الدولة ابن حمدان .

٢ – وابن نُباتة الخطيب الذى نحن بصدده رجل موفّق رزق ما لم يرزق أحد من الشهرة العريضة بين الخطباء الواعظين . وقد ذكر ابن خلكان أن الاجماع وقع على أن خطبه ما عمل مثلها وفيها دلالة على غزارة علمه وجودة قريحته[٢] . وقد اهتم النقاد بتعقب خطبه ومناقشتها ، فعرض له ابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغة[٣] وعرض له ابن الأثير صاحب المثل السائر فى عدّة مواطن فى كتابه[٤]، واهتم بشرح ديوانه جماعة من المشاهير منهم عبد الله العكبرى (٥٣٨ – ٦١٦) وعبد اللطيف بن يوسف البغدادى (٥٥٧ – ٦٢٩) وعثمان بن يوسف القليوبى المتوفى سنة ٦٤٤

ويظهر مما كُتب عنه أن الرجل كان قد فنى فى الوعظ فناء تاما ، وكان مشغوفا بما يطمئنه على مصيره ومصير عمله ، فكان لذلك يتمنى لو يرى الرسول فى المنام ، وقد صحت له هذه الأمنية . نقل ابن خلكان عن تاج الدين الكندى باسناده المتصل الى الخطيب بن نباتة أنه قال : لما عملت خطبة المنام وخطبت بها يوم الجمعة رأيت ليلة السبت فى منامى كأنى بظاهر ميافارقين

(١) ص ١٨ مقدمة ديوان ابن نباتة لطاهر الجزائرى ومقدّمة ديوان ابن نباتة للبشتكى . (٢) ص ٥٠٧ ج ١

(٣) ص ١٤٢ ج ١ (٤) ص ١١٨ و ١٦٢ و ٤٦٠

عند الجبانة فقلت : ما هذا الجمع ؟ فقال لى قائل : هذا النبي صلى الله عليه وسلم ومعه أصحابه فقصدت إليه لأسلم عليه فلما دنوت منه التفت فرآنى فقال : مرحبا يا خطيب الخطباء ! كيف تقول — وأومأ إلى القبور — قلت : لا يخبرون بما إليه آلوا ، ولو قدروا على المقال لقالوا ، قد شربوا من الموت كأسا مرة ، ولم يفقدوا من أعمالهم ذرة ، وآلى عليهم الدهر ألية برة ، أن لا يجعل لهم الى دار الدنيا كرة ، كأنهم لم يكونوا للعيون قرة ، ولم يعدّوا فى الأحياء مرة ! أسكتهم والله الذى أنطقهم ، وأبادهم الذى خلقهم ، وسيجدّدهم كما أخلقهم ، ويجمعهم كما فرقهم ، يومَ يعيد الله العالمين خلقا جديدا ، ويجعل الظالمين لنار جهنم وقودا ، يوم تكونون شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا — وأومأت عند قولى تكونون شهداء على الناس الى الصحابة ، وبقولى شهيدا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم — يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تودّ لو أن بينها و بينه أمدا بعيدا .

فقال لى : أحسنت ، ادنُ ، فدنوت منه صلى الله عليه وسلم فأخذ وجهى وقبله وتفل فى فمى وقال : وفقك الله !

٣ — ومثل هذه الرؤيا يدل على منحى ابن نباتة وفهمه لواجبات الخطيب ، ورؤيا الرسول لاتدل على شيء أكثر من شغل الرائى واتجاهاته الفكرية ، فالرسول حين تراءى له فى نومه لم يحدّثه إلا بما يحب هو أن يتحدث به ، وكان ابن نباتة مغرما بالكلام على الموت والمعاد ، وكذلك وجّه الرسول اهتمامه فى المنام إلى سؤاله عن مصير أهل القبور . وملحقات الرؤيا تعطينا صورة من عقلية الواعظين ، ولا تزال تلك الصورة موجودة الى اليوم ، فاجتذاب الرسول لوجه الخطيب وتقبيله إياه ثم تفله فى فمه ، وبقاء الخطيب بعد هذا المنام ثلاثة أيام لا يطعم طعاما ولا يشتهيه مع غلبة ريح المسك على فيه وموته بعد ذلك المنام بقليل : كل هذا من الصور العقلية التى تردّد كل يوم بين طبقات الواعظين من الخطباء .

ويظهر أن صيت ابن نباتة وسمعته دفعت مَن بعده الى تلمس أخباره عن طريق المنام ، فقد قال ابن خلكان : رأيت فى بعض المجاميع ، قال الوزير أبو القاسم بن المغربى : رأيت

الخطيب ابن نباتة فى المنام بعد موته فقلت له : ما فعل الله بك ؟ فقال : دفع لى ورقة فيها سطران بالأحمر وهما :

قد كان أمنٌ لك من قبل ذا واليوم أضحى لك أمنان
والصفح لا يحسن عن محسن وإنما يحسن عن جانى

وهذا المنام الأخير فيه صور غريبة، فالله عز شأنه دفع إلى ابن نباتة ورقة ، ولكن أى ورقة ؟ هى صحيفة مكتوبة بالمداد الأحمر، وفيها بيتان من الشعر . فالرائى صوّر له وهمه أن المداد الأحمر أدل على القبول ، وأن البراءة حين ترد شعرا تكون أدل على العناية . وهذه الرؤيا تشبه ما قرأته — ولا أذكر أين — أن رجلا رأى أبا نواس بعد موته فقال له : ما فعل الله بك ؟ فأجاب غفر لى بقولى :

تكثّر ما استطعت من الخطايا فانك واجدٌ ربا غفورا

وقد أشرت فى كتاب الأخلاق عند الغزالى الى المنامات التى رآها أنصار الغزالى وخصومه بعد موته ثم قلت فى التعقيب عليها : « وأنا لا أتخذ من هذه الأحلام دليلا على أن الغزالى من أصحاب الكرامات، كما نوه بذلك مترجموه، كلا! وانما أتخذها دليلا على ماوصلت إليه منزلة الرجل فى قلوب المسلمين، فان لما يراه المرء فى منامه صلة قوية بما يلهج به فى يقظته، وهؤلاء الذين جُلدوا فى منامهم لا يبعد أن يكونوا استشعروا خوف الغزالى وهم أيقاظ، وعلى الأخص إذا لاحظنا ما شاع بين المسلمين فى تلك العصور الخوالى من سلطة الأولياء، وتصرفهم المطلق فى عالم الأحياء[١] » .

٤ — هذا الجو الذى أحاط بابن نباتة، جو التق والصلاح والزهد، أثر فى خطبه أبلغ تأثير، فأفاض فى ذكر الموت والبعث والحشر والميزان، وأطال فيما سيلقى المحسنون من الثواب، وما سيعانى المسيئون من العقاب . وهناك جو آخر أثر فى خطبه وأعطاها صبغة قوية رهيبة، ذلك الجو هو اتصاله بسيف الدولة بن حمدان، وكان سيف الدولة كثير الغزوات ، فلهذا أكثر الخطيب من خطب الجهاد ليحض الناس عليه ويحثهم على نصرة سيف الدولة .

(١) الأخلاق عند الغزالى ص ٣٤٧

٥ — ولكن ما هى قيمة ابن نباتة الذى حدّثنا صاحب المثل السائر(١) أن خطبه كانت منشورة بين أيدى الناس يغرمون بها و يكبون عليها ، وأنها كانت فى أنفسهم تساوى مقامات الحريرى ؟

من الوجهة الفنية يعدُّ ابن نباتة من أعرف الناس بصياغة الكلام ، وهو يراعى فنون البديع مراعاة تامة، وسجعه حسن مقبول . و ربما كان السجع أقرب فنون البديع الى لغة الخطباء؛ فهو أسرع تأثيرا فى الجماهير التى لا تفطن إلا إلى الظواهر البراقة من حلية البلاغة والبيان . و ربما كان فى اختيار الواعظين للسجع اتصال للتقاليد القديمة التى عرفت عن الكهان، والكهان هؤلاء كانوا رجالا يؤدّون فى البيئات الجاهلية ما يؤدّيه الخطباء الواعظون فى البيئات الاسلامية، والجمهور واحد أمام الفريقين : فهو دائما عامة الناس الذين يجدون فيما تحتوى السجعات من الألحان والأنغام والأوزان مثيرا لما لا يدركون من النزعات الانسانية الكامنة التى يهيجها النغم والإيقاع .

٦ — وابن نباتة يجمع بين السجع والموازنة، وذلك مما يهتم به الحريصون على التفوق فى الصناعة اللفظية، ولنضرب المثل بقوله :

" حتى إذا استحكمت فيهم طاعية التخليد، واستولت عليهم رفاهية التمهيد(٢) " .

وهو فى هذه الكلمة قابل بين "طاعية" و"رفاهية" و بين "التخليد" و"التمهيد"...وقوله :

" ولكن صال عليهم القضاء فأطرقوا، وطال بهم العفاء فأخلقوا(٣) " .

فقد قابل بين " صال " و " طال " و بين " القضاء " و " العفاء " و بين " أطرقوا " و " أخلقوا " .

وكذلك قوله : " فهلم عباد الله الى محاسبة النفوس، قبل مواثبة النحوس ، ومقارنة الرموس ، ومعاينة اليوم العبوس، يوم غض الرءوس، وفض الطروس(٤) " .

والموازنة فى هذه الفقرات ظاهرة لا تحتاج الى تعيين .

---

(١) ص ١١٨ (٢) ص ٦٠ من ديوان الخطب النباتية . (٣) ص ٦١ (٤) ص ٦٢

ومما يجيده ابن نباتة تضمين آى القرآن ، وإنه ليحكم ذلك إحكاما تاما حتى تقع الآية فى سياق الكلام موقعا لطيفا لا يتنبه له القارئ إلا إذا كان من الحفاظ ، وقد اختار له له ابن الأثير العبارات الآتية :

" فيأيها الغفَلة المطرقون ، أما أنتم بهذا الحديث مصدّقون ، فما لكم منه لا تشفقون ، فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون " .

وقوله فى ذكر يوم القيامة :

" هنالك يقع الحساب على ما أحصاه الله كتابا ، وتكون الأعمال المشوبة بالنفاق سرابا ، يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا " . وقوله أيضا " هنالك يرفع الحجاب ، ويوضع الكتاب ، ويجمع من وجب له الثواب ، ومن حق عليه العقاب ، فيضرب بينهم بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قِبَله العذاب " .

وهذه التضمينات كثيرة جدّا فى خطبه ، وشهد لها ابن الأثير بأنها من محاسن ما يجئ فى هذا النوع (١) .

٧ — وبجانب السجع والموازنة والتضمين يوجد فنّ آخر لابن نباته هو الكلف بالخيال . والخيال إذا ورد فى أمثال تعابيره المثقلة بالزخرف والصنعة والتجويد يقع من أنفس الجماهير موقع السحر ، لأن رواد المساجد والمعابد يقبلون عليها غالبا بنفوس صافية سريعة التأثر والقبول . ومن نماذج التخييل البارع قوله يتحدّث عن الله عز شأنه وهو يباهى ملائكته بأفواج الحجاج فى عرفات :

" يحنون إلىّ حنين الطير إلى أوكارها ، ويفدون علىّ من فجاج الأرض وأقطارها ، أنضاء على الأنضاء ، خوّاضا لجج الرمضاء " (٢) وأنا يعجبنى الخيال فى قوله " أنضاء على الأنضاء " يريد الحجاج الذين أنضاهم التقى والخوف على المطايا التى أنضاها السير والسرى . وقوله

---

(١) ص ٤٦٠ من المثل السائر . (٢) ص ١٢٧

" خوّاضا لجج الرمضاء " فيه أيضا خيال جميل ، وان كنت لا أستجيد إضافة اللجج الى الرمضاء، لأن أيام الحج لا تكون دائما فى القيظ الشديد .

وقد يسمو به التخيل الى بعض الصور الطريفة كقوله فى بعض خطب الجهاد .

" قد دخلت علينا الفتنة من كل باب ، وأطمعتنا الدنيا إطماع السراب ، نتهارش على حطامها تهارش الكلاب ، ونلبس فيها جلود الضأن على قلوب الذئاب ، ننظر الى المعروف نظر الخزر الغضاب ، ونسكن الى المنكر سكون البانى بالخود الكعاب ، وقد أظلنا من العدو سحاب ممتدة الأطناب ، ودبت فى ديارنا منه عقارب الخراب " (١) ؛

وقوله فى خطبة أخرى : "ان للجنة بابا حدوده تطهير الأعمال ، وتشييده إنفاق الأموال ، وساحته زحف الرجال إلى الرجال ، وطريقه غمغمة الأبطال ، ومفتاحه الثبات فى معترك القتال ، ومدخله من مشرعة الصوارم والنبال (٢) " .

٨ — أما من الوجهة العقلية فابن نباتة يقف دائما فى حدود الأفكار السطحية ، فيبدئ ويعيد فى ذكر الموت والمعاد ، ويتكلم على فضائل المواسم والشهور : فيستقبل أوّل السنة ويبين فضل يوم عاشوراء ، ثم يخطب فى فضل رجب ، ثم يودّعه ليستقبل شعبان ، ثم يودّع شعبان ليستقبل رمضان ، وهكذا دواليك من الشئون التى تهم العوام . وأهم خطبه من الوجهة المعنوية خطب الجهاد ، ولكنها أيضا خطب يملؤها الصخب ويقل فيها الروح الملتهب والرأى السديد . وهى دائما دون خطب علىّ بن أبى طالب التى كان يحفظها ابن نباتة ويتأثرها فى جميع مواقفه الخطابية . ومن الصعب أن نجد فى خطب الجهاد فقرة تستحق الخلود ، أو تدل على عمق فى الفكر أو سموّ فى الخيال ، وإن كنا نرضى عن مثل قوله :

" فقدّموا مجاهدة القلوب ، قبل مشاهدة الحروب ، ومغالبة الأهواء ، قبل محاربة الأعداء (٣) "

وقوله : " واستشعروا السكينة اذا كشفت الحرب نقابها ، وأطار الإقدام عُقابها ، وأحرّ اللطام ضرابها ، وأمرّ الحمام شرابها ، ونزلتم للجهاد منزلا قد أشرعت إليه الجنة أبوابها ،

(١) ص ١٨٠ من ديوان الخطب النباتية (٢) ص ١٨٤ (٣) ص ١٨٣

وطالعت الحور الحسان منه أحبابها ، وقيل هذه عروس دار الآمال فكونوا الآن خُطابها ، وصرخ الشيطان بطغام أعوانه ، وأرعد وأبرق بأضاليل بهتانه ، وهوّل باحتشاد عَبَدة صُلبانه ، وضمن لهم ما هو مخفر فى ضمانه ؛ وجاء الحق و بطل النفاق ، وانسدت بجيش العدوّ الجهات والآفاق ، فأخمدوا هنالك بصواعق العزمات رهجه ، وأبطلوا بصوادق الحملات حججه ، وأضربوا ببيض الصفاح ثبجه ، وأركبوا ببذل الأرواح لججه ، وانهبوا بالموت الصراح مهجه"(١).

ومهما يكن من شىء فقد استطاع ابن نباتة أن يملك ألباب الجماهير بخطبه ، وعرف كيف تساس العامة وكيف تغرس فى صدورها بذور التقى والإباء ، واستطاع أن يؤدّى الأغراض المرجوّة من مثله فى تعابير فصيحة لو أنها رزقت من العمق ما رزقته من السلاسة لكانت مَثَلا فى براعة الانشاء . وعذر الرجل أنه كان يخاطب طوائف من الناس العمقُ فى مخاطبتها عىّ ، والتدلى فى إفهامها إفصاح . ولكل مقام مقال .

(١) ص ٢٠٩ و ٢١٠

٥ - أبو محمد بن حزم (١)

١ — كان الناس يعرفون عن ابن حزم أشياء قليلة من حياته الخاصة. ولم يعرف الجمهور أكثر من أنه كان أكبر علماء الأندلس فى عصره ومن أشهر أئمة الإسلام وأعرفهم بالمذاهب الفلسفية والدينية التى تأصلت جذورها عند علماء المسلمين. وكتابه "الفصل فى الملل والأهواء والنحل" كان ولا يزال من أهم المراجع لعلوم الفلسفة ومذاهب التوحيد .

ويعد ابن حزم أفصح كاتب عرفته اللغة العربية فى الفقه والتشريع .

ولكن تبين أخيرا أنه كان لذلك الامام قلب خفاق ، وأنه حمل راية الحب فى زمانه واستهدف على عظمته للقيل والقال . وأول ما عرف ذلك كان فى دوائر المستشرقين حين طبع كتابه "طوق الحمامة" فى ليدن سنة ١٩١٤ بعناية المأسوف عليه الأستاذ بِتْروف . وقد أحدث ذلك الكتاب رجة عنيفة جدا فى أوروبا وتناولته المجلات الأدبية بالنقد والتحليل. وكان موجب تلك الضجة أنه لم يثبت أن كتابا ألف فى "فن الحب" قبل ذلك الكتاب لا فى اللغات القديمة ولا فى اللغات الحديثة، لأن أوروبا فى القرن العاشر للميلاد كانت معارفها قليلة جدا فى الشؤون الوجدانية . فكان من المستظرف حقا أن يكتشف الباحثون أنه كان فى ذلك العصر كاتب عربى يتناول حديث الحب والعشق والهيام فى تفصيل شائق جذاب هو آية الآيات فى فهم أسرار الأهواء والشهوات والقلوب . وذلك كله يقع من رجل كان إماما من أئمة الدين، ومثالا يُحتذَى فى أدب النفس، وكرم الطبع، ومتانة الخلق . وما كاد

(١) كان ابن حزم خليقا بأن يكتب فى ترجمة حياته فصل خاص ، ولكنا راعينا أن شخصيته فلسفية وفقهية قبل أن تكون أدبية ، ولولا كتابه فى الحب لما عرضنا لنثره الفنى فى هذا الكتاب . ولد أبو محمد على بن حزم سنة ٣٨٣ فى قرطبة . وتوفى سنة ٤٥٦ ومن جيد شعره :

وإن مكانا ضاق عنى لضيق * على أنه فيح مهامهُهُ سهبُ
وإن رجالا ضيعونى لضيع * وإن زمانا لم أنل خصبه جدب

ينشر كتاب (طوق الحمامة) حتى أقبل على نقده وتصحيحه جماعة من كبار المستشرقين أشهرهم : جولد يزهير ، ودوزى ، و بروكلمان ، والدكتور سنوك هو جرنيه ، والمسيو مرسيه . وتسابق المستشرقون الألمان والنمسويون والهولنديون والفرنسيون والانجليز والأمريكيون إلى استغلال ذلك الكتاب وتلخيصه أو ترجمته والتعليق عليه .

وكان تصحيحه يعدّ رياضة أدبية لكبار المستشرقين فما زالوا يبدئون و يعيدون حتى جاء المسيو مرسيه فوضع بحثا هاما جدا بالفرنسية استدرك به كل ما فات أولئك المصححين من الأغلاط . وقد رأى أحد المصريين وهو فى باريس أن يداعب المسيو مرسيه فعاد إلى طوق الحمامة فراجعه مراجعة دقيقة كشف بها طائفة من الأغلاط غفل عنها المسيو مرسيه حين أراد أن ينطق بالقول الفصل فى تحرير ذلك الكتاب . ثم قدمتْ تلك التصحيحات إلى جامعة باريس فأقرها المسيو دى مومبين والمسيو ما سينيون .

٢ — فى كتاب طوق الحمامة كلمة عن غرام ابن حزم ، وهو يحدثنا بأنه كانت له صبوات فى عهد الطفولة . وأنه قال قصيدة قبل بلوغ الحلم أولها :

دليل الأسى نار على القلب تلفحُ ... ودمع على الخدين يهمى ويسفحُ
إذا كتم المشغوف سر ضلوعه ... فان دموع العين تبدى وتفضح
إذا ما جفون العين سالت شؤونها ... ففى القلب داء للغرام مبرح (١)

ويرى ابن حزم أن المحبة لا تصح إلا بعد كثرة المشاهدة وتمادى الأنس . ويقول فى ذلك :

" وانى لأطيل العجب من كل من يدعى أنه يحب من نظرة واحدة ولا أكاد أصدقه ولا أجعل حبه إلا ضربا من الشهوة . وما لصق بأحشائى حب قط إلا مع الزمن الطويل ، و بعد ملازمة الشخص لى دهرا ، وأخذى معه فى كل جد وهزل . وكذلك أنا فى السلو والتوق : فما نسيت لى ودّا قط . و إن حنينى إلى كل عهد تقدّم لى ليغصّنى بالماء ، و يشرقنى

(١) طوق الحمامة ص ١٧

بالطعام . وقد استراح من لم تكن هذه صفته . وما مللت شيئا قط بعد معرفتى به ولا أسرعت إلى الأنس بشيء قط أول لقائى له ، ولا رغبت الاستبدال إلى سبب من أسبابى مذ كنت . لا أقول فى الأُلّاف والاخوان وحدهم . لكن فى كل ما يستعمل الانسان من ملبوس ومركوب ومطعوم وغير ذلك . وما انتفعت بعيش ولا فارقنى الإطراق مذ ذقت طعم فراق الأحبة . وأنه لشجا يعتادنى وولوع همّ ما ينفك يطرقنى . ولقد نغّص تذكرى ما مضى كل عيش أستأنفه . وإنى لقتيل الهموم فى عِداد الأحياء ودفين الأسى بين أهل الدنيا . والله المحمود على كل حال لا إله إلا هو . وفى ذلك أقول شعرا منه :

محبة صدق لَم تكن بنت ساعة ... ولا وريتْ حين ارتيادِ زنادها
ولكن على مهل سرت وتولدت ... لطول امتزاج فاستقرّ عمادها
فلم يدن منها عزمها وانتقاضها ... ولم ينأ عنها مكثها وازديادها
يؤكد ذا أنا نرى كل نشأة ... تتم سريعا عن قريب نفادها
ولكننى أرض عَزازٌ صليبة ... منيع إلى كل الغروس انقيادها
فما نفذت منها لديها عروقها ... فليست تبالى أن يجود عِهادها (١)

٣ — ويرى ابن حزم أن دوام الوصل لا يودى بالحب . وله فى ذلك كلمة لم أقرأ أبلغ منها فى شعر ولا نثر . وانظر كيف يقول :

" إنى ما رويت قط من ماء الوصل ولا زادنى إلا ظمأ : وهذا حكم من تداوى بدائه وإن رفه عنه سريعا . ولقد بلغت من التمكن بمن أحب أبعد الغايات التى لا يجد الانسان وراءها مرمى فما وجدتنى إلا مستزيدا . ولقد طال بى ذلك فما أحسست بسآمة ولا رهقتنى فترة . ولقد ضمنى مجلس مع بعض من كنت أحب فلم أُجل خاطرى فى فن من فنون الوصل إلا وجدته مقصرا عن مرادى وغير شاف وجدى ولا قاض أقل لُبانة من لُباناتى ، ووجدتنى كلما ازددت دنوا ازددت تلددا (٢) ، وقدحت زناد الشوق نار الوجد بين ضلوعى . فقلت فى ذلك المجلس :

(١) طوق الحمامة ص ٢٣ ، ٢٤ (٢) التلدد : التلهف والحيرة .

وددت بأن القلب شُقَّ بمدية وأُدخلتِ فيه ثم أطبق فى صدرى
فأصبحت فيه لا تحلين غيره إلى منقضى يوم القيامة والحشر
تعيشين فيه ما حييت فان أمت سكنت شغاف القلب فى ظلم القبر

وما فى الدنيا حالة تعدل محبين إذا عدما الرقباء ، وأمنا الوشاة، وسلما من البين، ورغبا عن الهجر، وبعدا عن الملل، وفقدا العذال، وتوافقا فى الأخلاق، وتكافيا فى المحبة، وأتاح الله لهما رزقا دارّا، وعيشا قارّا، وزمانا هاديا . وكان اجتماعهما على ما يرضى الرب من الحال[(١)]".

٤ — وكان ابن حزم مغرما أشد الإغرام بتتبع أخبار العشاق والمحبين ممن عاصروه وبخاصة الكتّاب والشعراء والوزراء . وكان يجد فى ذلك متعة نفسية غريبة . ومن تلك الأخبار التى عرفها بنفسه أو نقلت اليه عن معاصريه كانت مادة كتابه (طوق الحمامة) فهو يتحدّث عن الواقع لا عن الخيال . وقد تلقّط كثيرا من محاسن العشاق ومساويهم ودوّن فى كتابه أخبارا غريبة عن أهل العشق وأهل العفاف ... ومن ذا الذى لا يستطيب قوله :

" وإنى لأعلم من نأت دار محبوبه زمنا ثم تيسرت له أوبة فلم يكن إلا بقدر التسليم واستيفائه حتى دعته نوى ثانية فكاد أن يهلك : وفى ذلك أقول .

أطلت زمان البعد حتى إذا انقضى زمان النوى بالقرب عدت الى البعد
فلم يك إلا كرة الطرف قربكم وعاودكم بعدى وعاودنى وجدى
كذا حائر فى الليل ضاقت وجوهه رأى البرق فى داج من الليل مسود
فأخلفه منه رجاء دوامه وبعض الأراجى لا تفيد ولا تجدى[(٢)]"

ولننظر بأى رقة يتكلم عن رسائل الحب — وللقارئ أن يسأل نفسه بعد ذلك كيف صحت التجارب لرجل كان يعيش للفقه والفلسفة والدين فى أواخر القرن الرابع وصدر القرن الخامس — :

" وللكتب آيات . ولقد رأيت أهل هذا الشأن يبادرون بقطع الكتب وبحلها فى الماء وبمحو أثرها فرب فضيحة كانت بسبب كتاب . وفى ذلك أقول :

(١) ص ٥٨ ، ٥٩ (٢) ص ٨١

عزيز علىّ اليوم قطع كتابكم ولكنه لم يلف للود قاطعُ
فآثرت أن يبقى وداد ويمتحى مداد فان الفرع للاصل تابع
فكم من كتاب فيه ميتة ربه ولم يدره اذ نمقته الأصابع

وينبغى أن يكون شكل الكتاب ألطف الأشكال وجنسه أملح الأجناس . ولعمرى إن الكتاب للسان فى بعض الأحايين : إما لحصر فى الانسان وإما لحياء وإما لهيبة. نعم حتى أن لوصول الكتاب الى المحبوب وعلم المحب أنه قد وقع بيده ورآه للذة يجدها المحب عجيبة تقوم مقام الرؤية ، وإن لرد الجواب والنظر اليه سرورا يعدل اللقاء . ولهذا ما ترى العاشق يضع الكتاب على عينيه وقلبه ويعانقه . ولعهدى ببعض أهل المحبة ممن كان يدرى ما يقول ويحسن الوصف ويعبر عما فى ضميره بلسانه عبارة جيدة ويجيد النظر ويدقق فى الحقائق لايدع المراسلة وهو ممكن الوصل، قريب الدار، دانى المزار، ويحكى أنها من وجوه اللذة . وأما سق الحبر بالدمع فأعرف من كان يفعل ذلك ويقارضه محبوبُه بسق الحبر بالريق . وفى ذلك أقول :

جوابٌ أتانى عن كتاب بعثتـُه فسكّن مهتاجا وهيّج ساكنا
سقيت بدمع العين لما كتبته فعال محب ليس فى الود خائنا
فما زال ماء العين يمحو سطوره فياماء عينى قد محوت المحاسنا
غدا بدموعى أول الخط بينا وأضحى بدمعى آخر الخط بائنا

ولقد رأيت كتاب محب الى محبوبه وقد قطع فى يده بسكين له فسال الدم واستمد منه وكتب اليه الكتاب أجمع : ولقد رأيت الكتاب بعد جفوفه فما شككت أنه بصبغ اللك"[1] .

٥ — وفى هذه الفقرات صور لألوان من الحياة الوجدانية التى كان يحياها أهل الأدب والفلسفة وبعض رجال الدين فى تلك العصور .

وفى اهتمام ابن حزم بتدوين تلك الأخبار دليل على أن العرب فى الأندلس كانوا ينظرون الى الحب فى القرن العاشر بنفس العين التى كان ينظر بها الفرنسيون والانجليز والألمان الى الحب فى القرن التاسع عشر .

(١) ص ٣١ و ٣٢ واللك بالفتح نبات يصبغ به وبالضم ثفله أو عصارته .

ولم تكن تلك النظرة خاصة بعرب الأندلس . وانما كانت معروفة عند العرب فى الشرق. ومن العجيب أن فقهاء الشريعة الاسلامية هم الذين انفردوا من بين رجال الأدب العربى بإجادة هذا النوع من التأليف . وخاصة فقهاء الظاهرية كابن حزم ومحمد بن داود صاحب كتاب الزهرة الذى ألفه لمعشوقه محمد بن جامع .

ودراسة الحب باب من علم النفس لايتقنه إلا الأقلون . والناس يحسبون الكلام فى الحب لونا من العبث . لأنهم يغفلون عن طبائع النفس الانسانية التى لا تخلو من صبوات فى كهولة أو شباب .

وقد عرف كتاب الغرب وشعراؤه ومفكروه قيمة تلك الدراسات النفسية فأضافوا بها الى علم النفس ثروة عظيمة لاتخطر لكتاب الشرق فى بال .

٦ — وقد وصل ابن حزم الى نتائج كثيرة من دراسته للحب والجمال ففهمنا منه مثلا أن الحسن يتلون وفاقا لألفتنا له : فهو يذكر أنه يفضل الشعر الأشقر: لأن الفتاة التى أحبها لأول عهده بالحب كانت شقراء الشعر . وفى هذا يقول :

” ولقد شاهدت كثيرا من الناس لايتهمون فى تمييزهم ، ولايخاف عليهم سقوط فى معرفتهم ولا تقصير فى حدسهم قد وصفوا أحبابا لهم فى بعض صفاتهم بما ليس بمستحسن عند الناس ولا يُرضَى فى الجمال فصارت هِجيراهم وعرضة لأهوائهم ومنتهى استحسانهم. ثم مضى أولئك إما بسلوّ أو بين أو هجر أو بعض عوارض الحب وما فارقهم استحسان تلك الصفات ولا بان عنهم تفضيلها على ما هو أفضل منها فى الخلقة (١) ولا مالوا الى سواها . بل صارت تلك الصفات المستجادة عند الناس مهجورة عندهم وساقطة لديهم الى أن فارقوا الدنيا . وانقضت أعمارهم حنينا منهم الى من فقدوه وألفة لمن صحبوه .

وما أقول إن ذلك كان تصنعا لكن طبعا حقيقيا واختيارا لا دخلة فيه ولا يرون سواه ولا يقولون فى طىّ عقدهم بغيره . وانى لأعرف من كان فى جيد حبيبه بعض الوقص (٢) فما

(١) فى الأصل (الخليقة) . (٢) الوقص ، بالتحريك ، قصر العنق .

استحسن أغيد ولا غيداء بعد ذلك . وأعرف من كان أول علاقته بجارية مائلة الى القصر فما أحب طويلة بعد هذا . وأعرف أيضا من هوى جارية فى فمها فَوَه لطيف فلقد كان يتقذر كل فم صغير ويذمه ويكرهه الكراهية الصحيحة . وما أصف من منقوصى الحظوظ فى العلم والأدب ، لكن عن أوفر الناس قسطا فى الإدراك وأحقهم باسم الفهم والدراية . دعنى أخبرك أنى أحببت فى صباى جارية لى شقراء الشعر فما استحسنت من ذاك الوقت سوداء الشعر، ولو أنه على الشمس أو على صورة الحسن نفسه، وانى لأجد هذا فى أصل تركيبى من ذلك الوقت لا تواتينى نفسى على سواه ولا تحب غيره البتة .

وهذا العارض بعينه عرض لأبى رضى الله عنه . وعلى ذلك جرى الى أن وافاه أجله[(١)]".

ومثل هذا الكلام النفيس يفسد بطول الشرح والتعليق فليتأمله القارئ ان شاء . وليعلم أن هذا منهج جميل فى علم النفس وبمثل هذه الملاحظات الشخصية تتكون حقائق كثيرة فى تقييد ألوان الطباع والغرائز والنفوس .

٧ — ولنعرض لرأى ابن حزم فى طبيعة المرأة لنرى مافطرت عليه فى علاقاتها مع الرجال فقد شقى الناس قبلنا فى فهم ذلك المخلوق اللطيف الذى يقسم الحظوظ فى خبث ولؤم ويقضى بين المحبين بمثل ما تقضى به الحية العمياء حين تدخل أبراج الحمام .

وفى ذلك متعة عقلية وروحية فإن المرأة تبدو للرجل فى صور مختلفة بعضها كريه وبعضها مقبول، وفقا لما نتلون به من غدر أو وفاء، وهى فى حاليها سم حلو المذاق ، فهى سر ما نلقى فى دنيانا من رشد وغى، وبؤس ونعيم .

وليعرف القارئ أولا أن مثل هذه الدراسات لا يراد بها أن تكون عونا على فهم المرأة فستظل معقدة مهما كثرت الشروح والتفاسير . ولكن الجميل فى مثل هذه الدراسات أنها تقدم الى القارئ صورة حية لنفس صدقت فى الحب : هى نفس ابن حزم . وهو رجل قليل الأمثال بين رجال الوجدان .

(١) ص ٢٥ و ٢٦

وإنى لأعترف بأنى أرى — حين أدرس مثل هذه الآراء — أن نفس الرجل لم تتغير فى تذوق المرأة وأن المرأة لم تتغير فى حبها للرجل وطغيانها عليه . فنحن نحب أن نفترض أن هناك فروقا جوهرية فى الأذواق والأحاسيس، وأن الزمن باعد بين القدماء والمحدثين فى فهم طبائع الأشياء . ولكننا حين نستمع ماقال الأسلاف فى صدق واخلاص، نجد الطبيعة الانسانية هى هى لم تتغير إلا بقدر ضئيل . وهذا هو السر فى تعلقنا بالأدب القديم وحرصنا عليه فقد يكون "القدم" لونًا لغويا يرجع الى طرائق التعبير . ثم يظل الأدب على اختلاف العصور متقاربا جدا فى شرح أسرار النفوس .

كان ابن حزم منذ طفولته مغرما بدرس المرأة، ولننظر قوله :

" لقد شاهدت النساء وعلمت من أسرارهن ما لا يكاد يعلمه غيرى : لأنى ربيت فى حجورهن ونشأت بين أيديهن ولم أعرف غيرهن . ولا جالست الرجال إلا وأنا فى حد الشباب أو حين تبقل وجهى . وهن علمننى القرآن، وروينى كثيرا من الأشعار ودربننى فى الخط . ولم يكن وكدى واعمال ذهنى مذ أول فهمى وأنا فى سن الطفولة إلا تعرف أسبابهن والبحث عن أخبارهن وتحصيل ذلك، وأنا لا أنسى شيئا مما أراه منهن . وأصل ذلك غيرة شديدة طبعت عليها وسوء ظن فى جهتهن فطرت به فأشرفت من أسبابهن على غير قليل[(١)] " .

ويستخلص من هذه الفقرة أن تربية الأطفال وتعليمهم الخط والقرآن والأدب كان يوكل أحيانا الى النساء فى الأندلس فى أواخر القرن الرابع . ويستخلص منها أيضا أن النساء فى منازل الوزراء — كما هو الحال فى جميع بقاع الأرض — كانت تقع منهن هفوات تلفت أنظار الأطفال وتحملهم على الشك وسوء الظن . والطفل كثير التطلع الى أخبار من يعاشر من النساء .

ولم تقف معرفة ابن حزم للمرأة عند تلك الحدود الضيقة التى كان يتلق فيها الدروس، بل اتفق له وهو يافع أن أحب جارية كانت له اسمها "نعم" وكانت أمنية المتمنى، وغاية فى حسن

(١) ص ٤٦ ، ٤٧

الخلق والخلق . وقد فجعته فيها الأقدار واخترمتها الليالى وسنه دون العشرين وكانت هى دونه فى السن وفى فجيعته بها يقول :

"لقد أقمت بعدها سبعة أشهر لا أتجرد عن ثيابى، ولاتفتر لى دمعة على جمود عينى وقلة إسعادها . وعلى ذلك فوالله ما سلوت حتى الآن، ولو قبل فداء لفديتها بكل ما أملك من تالد وطارف، وما طاب لى عيش بعدها ولا نسيت ذكرها ولا أنست بسواها ولقد عفا حبى لها على كل ما قبله وحرم ما كان بعده(١)" .

٨ — تحدث ابن حزم كثيرا عن وفاء المرأة وغدرها ، وتلك مسألة لاحكم فيها لغير الطباع والظروف . وأروع ما حدثنا به القصة الآتية :

" أدركت بنت زكريا بن يحيى التميمى ، وكانت متزوجة بيحيى بن محمد بن الوزير يحيى ابن إسحاق فعاجلته المنايا وهما فى أغض عيشهما، وأنضر سرورهما . فبلغ من أسفها عليه أن باتت معه فى دثار واحد ليلة مات . وجعلته آخر العهد به وبوصله ، ثم لم يفارقها الأسف بعده الى حين موتها(٢)" .

وهذه قصة تستثير الدمع، وفيها أبلغ معانى الوفاء .

ويشبه هذه القصة الموجعة قوله فى كلمة ثانية :

"وأنا أخبرك عن أبى بكر أخى رحمه الله وكان متزوجا بعاتكة بنت قند صاحب الثغر الأعلى أيام المنصور أبى عامر - وكانت التى لا مرمى وراءها فى جمالها وكريم خلالها . ولا تأتى الدنيا بمثلها فى فضائلها . وكانا فى حد الصبا وتمكن سلطانه . يغضب كل واحد منهما للكلمة التى لا قدر لها : فكانا لم يزالا فى تغاضب وتعاتب منذ ثمانية أعوام . وكانت قد شفها حبه وأضناها الوجد فيه وأنحلها شدة كلفها به : حتى صارت كالخيال المتوسم، لايلهيها من الدنيا شىء، ولا تسر من أموالها بكثير ولا قليل إذ فاتها اتفاقه معها، وسلامته لها، الى أن توفى أخى رحمه الله : فما انفكت منذ بان عنها من السقم الدخيل والمرض والذبول الى أن ماتت بعده بعام

(١) ص ٨٥ (٢) ص ٦١

فى اليوم الذى أكل فيه هو تحت الأرض عاما . ولقد أخبرتنى عنها أمها وجميع جواريها أنها كانت تقول بعده : ما يقوِّى صبرى ويمسك رمقى فى الدنيا ساعة واحدة بعد وفاته إلا سرورى وتيقنى أنه لا يضمه وامرأة مضجع أبدا، فقد أمنت هذا الذى ماكنت أتخوف غيره . وأعظم آمالى اليوم اللحاق به"(١) .

٩ — والمرأة — كما عرفها ابن حزم — أكثر مواساة وإسعادا فى الحب من الرجل، وعند النساء من المحافظة على سر الحب والتواصى بكتمانه ماليس عند الرجال . ويقول فى ذلك :

"وما رأيت امرأة كشفت سر متحابين إلا وهى عند النساء ممقوتة مستثقلة . وإنه ليوجد عند العجائز فى هذا الشأن ما لا يوجد عند الفتيات . لأن الفتيات منهن ربما كشفن ما علمن على سبيل التغاير، وهذا لا يكون إلا فى الندرة . وأما العجائز فقد يئسن من أنفسهن فانصرف الاشفاق محضا الى غيرهن .

وإنى لأعلم امرأة موسرة ذات جوار وخدم فشاع على إحدى جواريها أنها تعشق فتى من أهلها ويعشقها، وأن بينهما معانى مكروهة وقيل لها إن جاريتك فلانة تعرف ذلك وعندها جلية أمرها . فأخذتها وكانت غايظة العقوبة فأذاقتها من أنواع الضرب والأذى ما لا يصبر على مثله جلداء الرجال رجاء أن تبوح لها بشىء مما ذكر لها فلم تفعل البتة ... وإنى لأعلم امرأة جليلة حافظة لكتاب الله عز وجل ناسكة مقبلة على الخير وقد ظفرت بكتاب لفتى الى جارية كان يكلف بها وكان فى غير ملكها فعرفته الأمر فرام الانكار فلم يتهيأ له ذلك . فقالت له : مالك؟ ومن ذا الذى عُصِم؟ فلا تبال بهذا فوالله لا أطلعت على سركما أحدا أبدا، واو أمكننى أن أبتاعها لك من مالى ولو أحاط به كله لجعلتها لك فى مكان تصل اليها فيه ولا يشعر بذلك أحد(٢) » .

وهذه الفقرة تشعرنا أن الدنيا تغيرت وأن زمن الخير مضى وراح !

---

(١) ص ١٠٩ (٢) ص ٤٥ ، ٤٦

١٠ — وقد فكر ابن حزم فى تعليل هذا الخلق وهو يرى أن السر فى تمكن طبع المواساة من النساء أنهن متفرغات البال من كل شىء إلا من الحب ودواعيه، والغزل وأسبابه، والتأليف ووجوهه . ولا كذلك الرجال : فانهم مشغولون بطلب العلم وكسب المال ومكابدة الأسفار، ومباشرة الحروب، وملاقاة الفتن، وتحمل المخاوف، وعمارة الأرض . وهذا كله صارف للنفس عن فهم معانى المواساة والإسعاد . ومن هنا يحدّثنا ابن حزم أنه قرأ فى سير ملوك السودان أن الملك منهم يوكل ثقة له بنسائه يلق عليهن ضريبة من غزل الصوف يشغلن بها أبد الدهر لأنهم يقولون ان المرأة اذا بقيت بغير شغل إنما تتشوق الى الرجال(١) .

وهـذا الذى يشير اليه ابن حزم هو الحقيقة الباقية : فالفراغ كان ولا يزال هو الأصـل فى فساد النساء . وهو كذلك الأصل فى فساد الرجال : فان العلائق الدنسة المنحطة لا تقع إلا من الفارغين . ومن أجل ذلك يظن كثير من المفكرين أن النساء اللائى ينهضن ببعض الواجبات الفردية أو الاجتماعية لا يتعرضن لمثل ما تتعرض له النساء الفارغات مهما زعموا أن الاتصال بالناس هو أصل الفساد وأن التحجب هو أصل الصيانة والعفاف .

ولا يتوهمنّ أحد أن المراد من شغل المرأة هو القضاء على الصلات الجنسية ، فان تلك الصلات أساس المجتمع، وهى كذلك أصل الحياة ومنها تفرعت البنات والأمهات . وإنما المراد أن نقضى بالرياضات المعقـولة على النزق والطيش والاسراف فى الشهوات . ومِلاك الأمر فى هذا كله الحياء وهو خلق يستفاد من إدراك المسئوليات والتبعات . وذلك لا يتيسر للفارغين العاطلين من رجال أو نساء .

١١ — ومن رأى ابن حزم أن المرأة والرجل سواء فى الضعف . وليس أحدهما بأقوى من الآخر على ضبط النفس . فما من رجل عرضت له امرأة جميلة بالحب وطال ذلك ولم يكن ثَم مانع إلا وقـع فى شرك الشـيطان ، ولا امرأة دعاها رجل باسم الحب إلا وأمكنته وان طال الزمان .

(١) أنظر : ص ٤٦

ولكن هل معنى ذلك أن الرجال والنساء جميعا معرضون للفساد ؟ اسمع ما يقول ابن حزم فى هذا المعنى فانه خير ما قرأت فى الأدب القديم والحديث :

"ولست أُبعد أن يكون الصلاح فى الرجال والنساء موجودا وأعوذ بالله أن أظن غير هذا ،

و إنى رأيت الناس يغلطون فى معنى هـذه الكلمة — أعنى الصلاح — غلطا بعيـدا . والصحيح فى حقيقة تفسـيرها أن الصالحة من النساء هى التى اذا ضُبطت انضبطت ، و إذا قطعت عنها الذرائع امتسكت . والفاسدة هى التى اذا ضُبطت لم تنضبط ، واذا حيل بينها وبين الأسباب التى تسهل الفواحش تحيلت فى أن تتوصل اليها بضروب من الحيل . والصالح من الرجال لا يداخل أهل الفسوق، ولا يتعرض للمناظر الجالبة للأهواء ، ولا يرفع بصره الى الصور البديعة التركيب . والفاسق من يعاشر أهل النقص و ينشر بصره الى الوجوه البديعة الصنعة . و يتصدى للشاهد المؤذية، و يحب الخلوات المهلكات . والصالحان من الرجال والنساء كالنار الكامنـة فى الرماد لا تحـرق من جاورها إلا بأن تحرك . والفاسقان كالنـار المشتعلة تحرق كل شىء[1] .

١٢ — كان ابن حزم — كما أشرنا — مغرما بدرس المرأة، ونضيف إلى ذلك أنه حدّثنا بأنه قضى حياته فى البحث عن أخبار النساء وكشف أسرارهن وكن قد أنسن منه بكتمان فكن يطلعنـه على غوامض أمورهن : فاطلع منهن على عورات كثيرة وعرف من تنبههن فى الشر ومكرهن فيه عجائب تذهل الألباء . ومثل هذا السلوك مهلكة للرجل فان التحدث إلى النساء والاطلاع على أسرارهن باب إلى الغواية . ولكن اسمع ما يقول فى ذلك :

« ومع هذا يعلم الله وكفى به عليما أنى برئ الساحة سليم الأديم صحيح البشرة نقى الجـزة[2] و إنى أقسم بالله أجـل الأقسام إنى ما حللت مئزرى على فـرج حرام قط ولا يحاسبنى ربى بكبيرة الزنا منذ عقلت إلى يومى هذا . والله المحمود على ذلك والمشكور فيما مضى والمستعصم فيما بقى[3] » .

(١) ص ١١٦ (٢) الحجزة، بالضم، معقد الإزار، ومن السراويل موضع التكة. (٣) ص ١١٨

والظاهر أن ابن حزم كان يجد حرجا من الكتابة فى الحب والحديث عن الجمال وكان أهل زمانه يتهمونه بالميل الى الإثم والفسوق . فجاء يقسم بالله أنه برئ الساحة سليم الأديم .

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهبُ

وقد يهزُّ ناس أكتافهم حين يسمعون مثل هذا القسم من رجل قضى حياته فى درس أسباب الهوى وفهم أسرار الجمال لأنهم لا يفهمون كيف يكون الحسن نفسه أهلا للدرس. ومن هنا آستبعد جماعة من الفقهاء أن يكون (طوق الحمامة) من وضع ابن حزم : ظنا منهم أنه لا يهتم بمثل هذه الأبحاث الا الفاسقون . وكان آبن حزم من أئمة الاسلام: فلا يعقل فى ظنهم أن يشغل بسفاسف الحب والجمال !

وهذا الغلط يرجع إلى حقيقة ثابتة : فان الفسق حجاب كثيف يحول دون فهم الحسن والعشق. وأكثر الناس لا يتمثلون الحب إلا موصولا بالفسوق. وهؤلاء عذرهم واضح إذا أنكروا على مثل ابن حزم أن يشغل نفسه بالكلام عن الحب والمحبين .

أقسم ابن حزم أنه لم يرتكب كبيرة منذ عقل «والحر مؤتمن وإن لم يقسم» وهذا التصون من جانب ابن حزم هو سر عبقريته . فان الجمال أعز وأمنع من أن يدرك أسراره من يسومونه الهوان حين يطمعون فى الدون من ملذات الحياة ؟

الجمال أهل للدرس . وليس بكثير عليه أن تنقضى فى درسه أعمار الأئمة وعظماء الباحثين فانه أشرف وأنفس ما فى الوجود .

والذين يستهجنون درس الجمال لا يدركون كيف كانت تكون المصيبة لو آنصرف الباحثون إلى درس ما فى وجوههم من دمامة، وما فى طباعهم من عِوَج، وما فى عقولهم من آلتواء .

إنما مثل الجمال كمثل النور المشرق الوهاج لا يثبت فى مواجهته إلا أصحاء العيون . فلا يحسب قوم أننا نرتاب فى عمى بصائرهم حين نراهم يستكثرون أن يشغل مثل ابن حزم بدرس أسرار الجمال !

٦ - أبو منصور الثعالبي (١)

١ — كان عبد الملك بن محمد الثعالبي من أظهر الشخصيات فى عصره . وقد صدق صاحب الذخيرة إذ قال فيه « كان فى وقته راعى تلعات العلم ، وجامع أشتات النثر والنظم ، ورأس المؤلفين فى زمانه ، وإمام المصنفين بحكم أقرانه ، سار ذكره سير المثل ، وضربت اليه آباط الابل ، وطلعت دواوينه فى المشارق والمغارب ، طلوع النجم فى الغياهب (٢) » .

وعبارة ابن بسام هذه قد تبدو كأنها نوع من المدح الفضفاض الذى يقال بلا حساب . ولكن الواقع أن الثعالبي فوق كل مدح ، وفضله على اللغة العربية أكبر من أن يقدّر . وما ظنك برجل لو ضاعت مؤلفاته لفقدت اللغة العربية جزءا عظيما جدا من ثروتها الأدبية ومن الذى يستطيع أن يحدد خسارة الأدب لو ضاعت يتيمة الدهر أو ثمار القلوب ؟

ولد الثعالبي سنة ٣٥٠ وتوفى سنة ٤٢٩ والثعالبي نسبة إلى خياطة جلود الثعالب . قيل له ذلك لأنه كان فراء قبل أن يظهر أدبه ويعلو نجمه ، ويبعد صيته . اتصل بطائفة من رجال الأدب والملك فى عصره ، منهم عبيد الله بن أحمد الميكالى ، ومأمون بن مأمون خوارزم شاه . وكان فيما يظهر مرضيا عنه من جميع من صحبهم من الرؤساء والوزراء .

٢ — كان الثعالبي شاعرا وكاتبا ، وإن لم يكن شعره فى الطبقة العالية . وقد يستجاد قوله فى النسيب :

لما بعثت فلم توجب مطالعتى   وأمعنت نار شوقى فى تلهبها
ولم أجد حيلة تبقى على رمقى   قبلت عين رسولى إذ رآك بها

---

(١) كان مكان الثعالبي بين كتاب النقد الأدبي أليق من مكانه بين كتاب الآراء والمذاهب . ولكنا لاحظنا أن له اتجاهات نفسية تقربه من كتاب هذا الباب . (٢) ص ٥٢١ ج ١ وفيات .

أما نثره بخيد، يغلب عليه السجع ، ولكنه برئ من التكلف ومن الغموض . وانظر قوله فى وصف عبيد الله الميكالى : « ومن أراد أن يسمع سر النظم، وسحر النثر، و رقية الدهر، ويرى صوب العقل، وذوب الظرف، ونتيجة الفضل، فليستنشد ما أسفر عنه طبع مجده، وأقره عالى فكره، من مُلَح تمترج بأجزاء النفوس لنفاستها، وتشرب القلوب لسلاستها ... وآيم الله مامن يوم أسعفنى فيه الزمان بمواجهة وجهه، وأسعدنى بالاقتباس من نوره، والاغتراف من بحره، فشاهدت ثمار المجد والسؤدد تنتثر من شمائله ، ورأيت فضائل أفراد الدهر عيالا على فضائله ، وقرأت نسخة الكرم والفضل من ألحاظه، وانتهبت فرائد الفوائد من ألفاظه ، إلا تذكرت ما أنشدنيه أدام الله تأييده لابن الرومى :

لولا عجائب صنع الله ما نبتت تلك الفضائل فى لحم ولا عصب

وما أنس لا أنس أيامى عنده بفيروزآباد ، إحدى قراه برستاق جوين ، سقاها الله ما يحكى أخلاق صاحبها من سَبَل القطر ! فانها كانت بطلعته البدرية ، وعشرته العطرية ، وآدابه العلوية، وألفاظه اللؤلؤية ، مع جلائل إنعامه المذكورة، ودقائق إكرامه المشهورة ، وفوائد مجالسه المعمورة، ومحاسن أقواله وأفعاله التى يعيا بها الواصفون، أنموذجات من الجنة التى وُعد المتقون . فاذا تذكرتها فى تلك المرابع التى هى مراتع النواظر، والمصانع التى هى مطالع العيش الناضر، والبساتين التى إذا أخذت بدائع زخارفها، ونشرت طرائف مطارفها، طُوى لها الديباج الخسروانى، ونُفى معها الوشى الصنعانى، فلم تشبَّه إلا بشيمه، وآثار قلمه، وأزهار كلمه، تذكرت سحرا وشيما ، وخيرا عميما ، وارتياحا مقيما، وروحا وريحانا ونعيما[(١)] .

٣ — أهمية الثعالبى من الوجهة الفنية لا ترجع إلى شغله بأزمات النفوس، وشهوات القلوب، ونزوات الرؤس، وثورات العقول . وإن كان يظهر من ثنايا كلامه أنه رجل خبر النفس الانسانية، وعرف ما تُرزأ به من بلايا الحب والبغض، والرغبة والاشفاق، والطمع والاخفاق، وتمرس بأهوال الاقبال والادبار ، والغنى والفقر ، والنعيم والبؤس ، وعرف كيف يصطرع الشك واليقين، والهدى والضلال .

(١) (أنظر مقدمة فقه اللغة) .

وإنما هو كاتب شُغل بتدوين الفنون الأدبية واللغوية، فقدم لأهل عصره ولقراء اللغة العربيــة فى مختلف الممالك وعلى اختـلاف الأجيال غذاء قويا للعقول والمشاعر والأذواق، ووضع أمام قرائه صورا مختلفة للقرائح والعبقريات التى عرفها بنفسه أو سمع بأخبارها، أو قرأ آثارها، حتى ليمكن الحكم بأن القرن الرابع كان يمحى أو يكاد لو لم يظفر بذلك الحافظ الأمين.

٤ — للثعالبى مؤلفـات كثيرة . منها كتاب الكنايات، وضـعه للكناية عما يستهجن ذكره، ويستقبح نشره، أو يستحيا من تسميته، أو يتطير منه، بألفاظ مقبولة تؤدّى المعنى، وتحسِّن القبيح، وتلطِّف الكثيف ، فيحصــل بها المراد مع العــدول عما ينبو عنه السمع ، ولا يأنس به الطبع .

وقد ذكر أنه لم يُسبق بتأليف مثله . وهـذا إن صح كان دليلا على تفوقه فى الابتكار .

ولكنى رأيت أحمد بن محمد الجرجانى المتوفى سنة ٤٨٢ يذكر فى مقدّمة كتابه فى الكنايات أن تصنيفه كذلك مبتكر مخترع لم يُسبق اليه، ولم يُزاحَم من قبل عليــه ، مع أن الثعالبى سبقه بنحو ثمانين سنة، ألا يمكن أن يكون الثعالبى أيضا يدعى السبق ادعاء ؛ وأن المؤلفين من قبله قد نحوا ذلك المنحى فى جمع أنواع التعريض والكنايات؟ ذلك ما لا نستطيع الجزم به، وإن كنا أثبتنا هذا الفرض لمناسبة ما ادعاه الجرجانى من الابتكار مع أنه مسبوق .

كتاب الكنايات كتاب جيد ممتع، لا تمل معاودته، ولا تنصرف النفس عن الرجوع اليه . وهو يمثل براعة العرب وافتنانهم فى التعبير . ولعل أجمل ما فيه ما يسـتحيا من نقله . ولكننا نذكر بعض الكنايات المستملحة التى أودعها الثعالبى كتابه مع الاعتراف بأننا تخيرنا أقل ما فيه روعة، إيثارا للتحفظ والوقار .

حكى الصـولى عن المكتفى فى حديث له قال : سهرت البارحة فذكرت بعض أدوية السهر : فأنست فنمت . قال : فقلنا له : والله ما سمعنا بأحسن من هــذه الكناية قط . فقال : والله ما سمعتها قبل وقتى هذا وإنما ساقها اللفظ[1] .

(١) ودواء السهر كناية عن النكاح وعن السكر .

وكتب الصاحب : إن سيدى ٱمتطى الأشهب فكيف وجد ظهره، وركب الطيار فكيف شاهد جريه، وهل سلم على حزونة الطريق، وكيف تصرف، أفى سعة أم ضيق ؟ (وهذه قطعة من خطاب كتبه الى صديق دخل على عروسه) .

قال : ومن طريف الكناية عن أخذ العذرة (١) ما قرأته فى أخبار بشار بن برد حين قال له يزيد بن منصور فى دار المهدى : ياشيخ ماصناعتك؟ قال : ثقب اللؤلؤ . وأرى الصاحب أخذ منه قوله لأبى العلاء الأسدى وقد دخل بأهله :

وقد مضى يومان من شهرنا   فقل لنا هل ثُقِب الدرّ

وله يقول أيضا :

قلبى على الجمرة ياأبا العلا   فهل فتحت الموضع المقفلا
وهل فككت الكيس عن ختمه   وهل كلت الناظر الأحولا

ولابن العميد فى هذا المعنى :

أنعم أبا حسن صباحا   وٱزدد بزوجتك ٱرتياحا
قد رُضت طِرفك خاليا   فهل ٱستلنت له جماحا
وطرقت منغلقا فهل   سنَّى الإله له ٱنفتاحا

وأنشد أبو الفضل الميكالى لنفسه فى مداعبة كانت له بين أهله :

أبا جعفر هل فضضت الصَّدف   وهل إذ رميت أصبت الهدف
وهل جبت ليلا بلا حشمة   لهول السرى سُدفا فى سُدف

قال الثعالبى : وبلغنى عن ابن عمر القاضى أنه كان لا يجلس للخصوم حتى ينال من الطعام والشراب ويلم بأهله احتياطا على دينه وتعففا بالحلال عما عساه تتوق نفسه اليه من الحرام اذا بدرت منه لحظة لمن عساها تحاكم اليه من النساء الحسان . فقرأت لأبى إسحاق الصابى فصلا فى هذا المعنى بعينه من كتاب عهد سلطانى لبعض القضاة تعجبت من حسن عبارته ، ولطف كنايته، وهو :

(١) العذرة : البكارة .

"وأمره أن يجلس للخصوم وقد نال من المطعم والمشرب طرفا يقف به عند أول الكفاية، ولا يبلغ به الى آخر النهاية، وأن يعرض نفســه على أسباب الحاجة كلها، وعوارض البشرية بأسرها، لئــلا يلم به ملم، أو يطيف به طائف، فيحيلان عن رشده، ويحولان بينــه وبين ســـداده"(١) .

٥ — ومن مؤلفات الثعالبى « كتاب ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب(٢) » وهو كتاب بناه على ذكر أشياء مضافة ومنسوبة الى أشياء مختلفة يتمثل بها ، ويكثر فى النظم والنثر وعلى ألسن الخاصة والعامة استعمالها، كقولهم غراب نوح، ونار ابراهيم، وذئب يوسف، وعصا موسى، وخاتم سليمان، وحمار عزير، وكقولهم كنز النطف، وقوس حاجب، وقرطا مارية، وصحيفة المتلمس، وحديث خرافة ، ومواعيــد عرقوب، وجزاء سنمار، ويوم عبيد، وعطر منشم، ونسر لقمان، الخ .

ونحن نقول بدون تحفظ إن هذا الكتاب من أنفس ما كتب باللغة العربية . ولغة الثعالبى فيــه تمتاز عن لغتــه فى سائر كتبه بالخلو من السجع، والجرى على السجية السمحة بلا تعــثر ولا التواء . وقــد جمع الثعالبى فى كتابه هــذا أكثر ما عرف لعهده من الطُّرف والنوادر والفكاهات والأقاصيص . وهو يصوّر علم معاصريه وجهلهم أتم تصوير . ولهذه الملاحظة قيمتها ، فليس كل ما فى كتاب ثمــار القلوب حقائق ثابتــة ، وانمــا هو مجموعة من الحقائق والأكاذيب التى قبلها معاصروه، وعدوها من العلم الصحيح .

فمن أغلاطه الكلام عن ثعابين مصر إذ ارتضى قول الجاحظ: الثعابين لاتكون إلا بمصر واليها حوّل الله تعالى عصا موسى عليــه الصلاة والسلام . قال تعالى : ﴿فألقى موسى عصاه فاذا هى ثعبان مبين﴾، يعنى أنه حولهــا ثعبانا . والثعبان عجيب الشأن فى إهلاك بنى آدم، فليس له عدو إلا النمس وهى إحدى عجائب الدنيا ، وذلك أنهــا دويبة متحركة ، فاذا رأت الثعبان دنت منــه فينطوى الثعبان عليها يريد أن يعضها ويأكلها فتحتبس فى بطنها ريحــا ،

(١) أنظر ص ١١ و ١٢ و ١٣ (٢) طبعه المرحوم محمد بك أبو شادى سنة ١٣٢٦ ﻫ .

وتزفر زفرة فتقدّ الثعبان قطعتين ، ولولا النمس لأكلت الثعابين أهل مصر . وهى هناك أنفع لأهلها من القنافذ لأهل سجستان .

وهذه فكرة غير صحيحة، فالثعابين موجودة فى مصر وفى غير مصر . وليس للثعابين فى مصر كل هـذا الخطر ، فقد تمضى القرون ولا يسمع بملدوغ . وان كان فى فطرة الأهالى عداوة الثعبان ومهاجمته حيث وجدوه، وهى فطرة الناس فى جميع البلاد .

وقد عرض الثعالبى لصناعة أهل الصين فدلنا على أن معاصريه لم يكونوا بارعين فى النقش والتصوير إذ قال : "وأهل الصين مختصون بصناعة اليد والحذق فى عمل الطُّرف، يقولون: أهل الدنيا ما عدانا عُمْى ، إلا أهـل بابل، فانهم عُور . ولهم الإغراب فى خرط التماثيـل، والابداع فى عمل النقوش والتصاوير، حتى أن مصوّرهم يصوّر الانسان ولا يغادر منه شيئا ، ثم لا يرضى بذلك حتى يصوّره ضاحكا أو باكيا ، ثم لا يرضى بذلك حتى يفصـل بين ضحك الشامت وضحك الخجل، وبين المبتسم والمستغرب، وبين ضحك المسرور وضحك الهازئ، فيصوّر صورة فى صورة (١) .

وهذا الذى يراه الثعالبى غريبا من أهـل الصين عادىّ لا غرابة فيه عند الأمم التى تُعنَى بالتصوير، ولكن عذر الثعالبى وعذر معاصريه وأسلافه أن النقش والتصوير كانا ممـا يحاربه رجال الدين، فبقيت لذلك صناعات اليد خاملة أو ضعيفة عند كثير من الناس .

٦ — ومن دقائق الإضافات فى ثمار القلوب أنها ترينا فهم العرب لكثير من الطباع الانسانية والحيوانية . من ذلك (عرق الخال) فان العرب تقول: عرق الخال لا ينام. يريدون أن عرق الخال أنزع من عرق العم. قالوا: والدليل على أن نصيب الأمهات فى الأولاد أكثر وأنها على الشبه أغلب، أن أكثر ما تلد الأمهات الإناث . وكذلك جميع الحيوان . فاذا أردت أن تعرف حق ذلك من باطله فأحص سكان عشر دور من يمينـك وعشر من شمالك وعشر من خلفك وعشر من أمامك، فانظر أيها أكثر، رجالهم أم نساؤهم، واعتبر ذلك فى الابل

---

(١) ص ٤٣٢

والبقر والشياه . وهم يعللون ذلك بأن الولد لا يخلق من ماء الأب دون ماء الأم ، والأب إنما يقذف مثل المخطة أو البصقة ثم يعتزل أو يغيب أو يموت أو يكون حاضرا، والأم منها الرحم وهو القالب الذى يطبع على الولد وتفرغ فيه النطفة كما يفرغ الرصاص المذاب فى القالب. فاذا وقع ماء الرجل وماء المرأة فى القالب وفى قرار الرحم فامتزجا تشعب خلق الولد على قدر تشعب الرحم، ثم لا يغتذى إلا من دم الأم ، ولا يمص إلا من قواها، ولا يجذب إلا من الأجزاء التى فيها من لطائف الأغذية . وله ذلك مادام فى جوفها . فاذا ظهر غذته بلبنها، ولا يشك الأطباء فى أن اللبن دم استحال عند خروجه، فهى تغذوه بدمها مرتين، وتزيد فى خلقه من أجزائها دفعتين، ولذلك صار حب النساء للأولاد أشد من حب الرجال (١) .

وهذا رأى قد يرتاب علماء اليوم فى بعض تفاصيله ، ولكنه فى جملته يدل على دقة الملاحظة عند علماء العرب وعند جمهور العرب نفسه، فقد تغنى الشعراء فى الجاهلية وفى صدر الاسلام بفضل الخال وعدّوه من جملة الآباء .

٧ — وفى ثمار القلوب إشارة الى كتيِّب للثعالبى اسمه (حشو اللوزينج) يبين غرامه بتصيد دقائق الأساليب. وحشو اللوزينج يضرب مثلا للشىء يكون حشوه أجود من قشره. وذلك أن حشو اللوزينج خير منه فيشبَّه به الحشو فى الكلام يستغنى عنه وهو أحسن منه . وهو نادر فى كلام العرب، ومن أشهره قول عوف بن محلم :

إن الثمانين وبُلِّغتَها قد أحوجت سمعى الى ترجمان

فقوله (و بلغتها) حشو مستغنى عنه، ومعنى الكلام يتم بدونه، ولكنه أحسن من جملته.

قال الثعالبى : سمعت أبا الفرج يعقوب بن ابراهيم يقول : سمعت أبا سعد رجاء يقول: دخلت يوما على أبى الفضل بن العميد فقال لى : إمض الى أبى الحسين بن سعد فقل له : هل تعرف لقول عوف (إن الثمانين و بلغتها) ثانيا فى كون الحشو أحسن من المحشو ؟ قال : فسرت اليه و بلغته الرسالة فقال: سألنى عنه محمد بن على بن الفرات فسألت أبا عمرو غلام ثعلب

(١) ص ٢٧٥

فقال سألت عنه ثعلبا فلم يأت بشيء، ثم بلغنى أن عبيد الله بن عبد الله سأل المبرد عنه فأنشده قول عدىّ بن زيد لابنه زيد بن عدى فى حبس النعمان :

فلو كنت الأسير — ولا تكنه ! — اذن علمت معَدٌّ ما أقولُ

قوله (ولا تكنه) حشو مستغنى عنه، ولكنه فى الحسن نظير (و بلغتها) .

واستطرد الثعالبى فنقل عن كتابه حشو اللوزينج أن المأمون قال يوما ليحى بن أكثم : هل تغديت اليوم؟ فقال : لا ، وأيد الله أمير المؤمنين! فقال المأمون : ما أظرف هذه الواو وأحسن موقعها! وذلك أنه لو قال : لا أيد الله أمير المؤمنين، لكان أشبه بالدعاء عليه لا له، ولكنه استظهر بالواو وجعلها حاجزة بين "لا" و"أيد الله أمير المؤمنين" حذرا من وقوع الشبهة. (١) وكان الصاحب يقول : هذه الواو أحسن من واوات الأصداغ فى خدود المرد الملاح .

وعناية الثعالبى بالبحث عما عجز عنه أئمة اللغة والأدب واضح الدلالة على شغفه بأسرار البيان، لا سيما وقد أطال التنقيب عن دقائق التعابير التى وقعت لمعاصريه كالصاحب والميكالى والخوارزمى و بديع الزمان .

٨ — وفى ثمار القلوب تفسير روائى لبعض الأمثال، كقولهم (ماء عناق) وهو مثل يضرب للداهية . وخلاصة حديثه أن رجلا كان يسق و بيته تلقاء وجهه فنظر فاذا برجل قد عانق امرأته يقبلها ، فأخذ العصا وأقبل مسرعا، فلما رأته المرأة أخفت الرجل فيما بين المتاع ، فنظر يمنة و يسرة فلم ير شيئا، فنظر فى الأرض فلم يبصر أحدا، فكذب بصره وكر راجعا . فلما كان الورد الثانى قالت المرأة: هل لك فى أن اكفيك السقى وتتورع اليوم؟ قال : نعم إن شئت . فأقام فى البيت، وانطلقت تسعى، وتحينت منه غفلة، فأخذت العصا وأقبلت حتى علت بها رأسه . فقال : و يلك ! ما دهاك؟ قالت : أين المرأة التى رأيتك معها معانقا لها ؟ فقال : والله ما كان عندى امرأة! قالت : بل أنا نظرت اليها بعينى وأنا على الماء . فتحالفا. فلما أكثرت قال : إن تكونى صادقة فان ماءكم هذا ماء عناق (٢) .

---

(١) (أنظر بقية الشواهد فى ص ٤٨٩ و ٤٩٠) . (٢) ص ٤٤٧

وفى كتاب ثمار القلوب كثير من أمثال هذه الأقاصيص . وهى فكاهات اخترعها الكتّاب تفسيرا للأمثال التى جهلوا مواردها ، وربما اخترعوا المثل والقصة وأذاعوهما فى الناس ، فيظن من لا رأى له أنها من أثر الواقع لا من صنع الخيال .

٩ — وأشهر مؤلفات الثعالبى "يتيمة الدهر" وهو كتاب عظيم أودعه أخبار من عاصره من الشعراء . ألفه سنة ٣٨٤ ، ثم استمر فى تحريره والإضافة اليه عدّة سنين ، فكان يبنى فيه وينقض ، ويمحو ويثبت . وصار مثله فيه كمثل من يتأنق فى بناء داره التى هى عشه ، وفيها عيشه ، فلا يزال ينقض أركانها ، ويعيد بنيانها ، ويستجدّها على أنحاء عدّة وهيآت مختلفة ، فان مات فيها مغفورا له انتقل من جنة إلى أخرى وورد من جنة الدنيا على جنة المأوى ، كما قال(١) .

وقد قسم الكتاب أربعة أقسام يشتمل كل قسم منها على أبواب وفصول :

القسم الأول فى محاسن أشعار آل حمدان وشعرائهم وغيرهم من أهل الشام وما يجاورها ومصر والموصل .

والثانى فى محاسن أشعار أهل العراق والدولة الديلمية من طبقات الأفاضل وما يتعلق بها من أخبارهم ونوادرهم وفصوص من فصول المترسلين منهم .

والقسم الثالث فى محاسن أشعار أهل الجبل وفارس وجرجان وطبرستان من وزراء الدولة الديلمية وكتابها وقضاتها وشعرائها وسائر فضلائها .

القسم الرابع فى محاسن أهل خراسان وما وراء النهر من الدولة السامانية والغزنية والطارئين على الحضرة ببخارى من الآفاق والمتصرفين على أعمالها ، وما يستظرف من أخبارهم ، وخاصة أهل نيسابور والغرباء الطارئين عليها والمقيمين بها .

١٠ — والثعالبى فى اليتيمة يؤثر السجع ، ولا يتركه إلا فى أحوال قليلة ، ولكن سجعه على كل حال مقبول .

---

(١) ص ٤ من المقدمة .

وهو قليل التعليل لأحكامه على الكتاب والشعراء . فاذا بدا له أن يعلل ويحلل وينقد فعل بلا تعمق ولا استقصاء ، ومن أمثلة تعليله قوله فى تفضيل شعراء الشام وما يقاربها على شعراء سائر البلدان .

"والسبب فى تبريز القوم قديما وحديثا على من سواهم فى الشعر قربهم من خطط العرب ، ولا سيما أهل الحجاز ، وبعدهم عن بلاد العجم ، وسلامة ألسنتهم من الفساد العارض لألسنة أهل العراق بمجاورة الفرس والنبط ومداخلتهم أياهم[(١)] " .

وفى بعض الأحيان يطيل فى ترجمة الشعراء والكتاب ، ولا يفعل ذلك إلا حين يعرض لمن كثر خصومهم وأنصارهم وتشعبت فيهم الأقاويل ، كالمتنبي والصاحب وأبى فراس . وفيما عدا ذلك يلم إلماما خفيفا قد يصل به إلى ترجمة كاتب أو شاعر فى نصف صفحة . وذلك جانب من الضعف فى ذلك الكتاب النفيس .

١١ — الثعالبى فى اليتيمة مفتون بالاسراف فى إطراء من يتحدث عنهم من مشاهير الرجال . وله فى ذلك تعابير تكاد تكون واحدة يدور بها هنا وهناك . فأبو على الزوزنى الكاتب " يغرس الدر فى أرض القراطيس ، وينشر عليه أجنحة الطواويس[(٢)] " .

وأبو الفرج الببغا "ظرف الظرف ، وينبوع اللطف ، له كلام ، بل مدام ، بل نظام من الياقوت بل حب الغمام[(٣)] " .

وأبو القاسم الاسكافى "لسان خراسان وغرتها وعينها وواحدها وأوحدها فى الكتابة والبلاغة ومن لم تخرج مثله فى البراعة والصناعة[(٤)] " .

وبديع الزمان " نادرة الفلك ، وفرد الدهر ، وغرة العصر ، ومن لم يلق نظيره فى ذكاء القريحة ، وسرعة الخاطر ، وشرف الطبع ، وصفاء الذهن ، وقوة النفس[(٥)] " .

وعبد الرحمن الشيرازى " روضة مجد وشرف ، وحديقة فضل وأدب[(٦)] " .

---

(١) ص ٦ (٢) ص ٧٠ ج ٤ (٣) ص ١٧٣ ج ١ (٤) ص ٢٩ ج ٤
(٥) ١٦٧ ج ٤ (٦) ص ٩٧ ج ٣

١٢ – ومع أن الثعالبي يميل إلى الطنطنة فى التعريف بالكتّاب والشعراء فانه لا يلتزم هذه الخطة وانما يعود اليها فى الحين بعد الحين، ويغلب على ظنى أنه لا يفعل ذلك إلا حين تكون نفسه مستعدّة لتنميق الإنشاء، واذ ذاك لا يكون مشغولا بتقديم الصفات الحقة لمن يترجم لهم، وانما يشغل بعرض مواهبه هو وقدرته على التصرف فى فنون الكلام، فتارة يقول فى ابن نباته السعدى " من فحول شعراء العصر وآحادهم، وصدور مجيديهم وأفرادهم، الذين أخذوا برقاب القوافى، وملكوا رق المعانى، وشعره مع قرب لفظه بعيد المرام، ممتز النظام، يشتمل على غرر من حر الكلام، كقطع الرياض غب القطر، وفِقَر كالغنى بعد الفقر، و بدائع أحسن من مطالع الأنوار وعهد الشباب، وأرق من نسيم الأسحار وشكوى الأحباب[(١)]" .

وحينا يقول فى محمد بن حامد "يجمع بين قول فصل، وأدب جزل، و يؤلف بين أشتات المناقب، وينظم عقود المحامد، وله خط يستوفى أقسام الحسن، ونثر كنثر الورد، ونظم كنظم الدر[(٢)]" .

وآنا يقول فى المتنبى " نادرة الفلك، و واسطة عقد الدهر، فى صناعة الشعر، شاعر سيف الدولة المنسوب اليه المشهور به، إذ هو الذى جذب بضبعه، و رفع من قدره، ونفق سعر شعره، وألقى عليه شعاع سعادته، حتى سار ذكره مسير الشمس والقمر، وسافر كلامه فى البدو والحضر، وكادت الليالى تنشده، والأيام تحفظه[(٣)]" .

١٣ – ولنقيد هنا أن الثعالبي كثير الاستغلال لألفاظ معاصريه، فهو لا يملك كل ما فى نثره من الاستعارات والتشبيهات . وله عذره فى ذلك فقد شغل بجمع طرائف التعبير، حتى ليمكن الحكم بأن أخيلة غيره كانت تسبق اليه من حيث لا يحتسب، وان كنا لا نبرئه من قصد السرقة ونية الانتهاب[(٤)] .

---

(١) ص ١٤٣ ج ٢ (٢) ص ١٦٠ ج ٤ (٣) ص ٧٨ ج ١

(٤) أنظر مقدّمة سحر البلاغة ص ١١٤، ١١٥ ج ١ زهر الآداب .

١٤ — وأخيرا نذكر أن من أقتل عيوب كتاب اليتيمة إغفال الوفيات، فقد يندر أن يذكر مؤلفه فى أى عام مات من يحدّثنا عنه، وفى أى عهد لقيه أو سمع به، ولو أن الثعالبى عنى بتدوين الوفيات لأدى لتاريخ الأدب حقا من أوجب الحقوق .

١٥ — ومن أهم مؤلفات الثعالبى كتاب" فقه اللغة "وهوكتاب جيد فى ثلاثين بابا رتبت فيه الألفاظ على حسب المعانى .وليس كتاب فقه اللغة فى جملته من صنع الثعالبى، فقد نقل فصولا برمتها عن أمثال ابن دريد والخوارزمى وأبى الحسن الجرجانى ، وابن الأعرابى . ولكن له فضل الترتيب والتبويب . ويزيد هذا الفضل اذا لاحظنا أن المصادر التى نقل عنها ضاعت ولم يبق لها أثر إلا فى كتابه . وهو يذكر فى الفصول التى ينقلها عن غيره أنه عرضها على مظانها فصحح أكثرها أو قارب الصحة[1] . وقد يجد مؤلفا وُضع فى تفصيل طائفة من المعانى فيعمد اليه فيخرج منه مايراه أصلح لكتابه[2]. وفى الكتاب فصول مهمة فيما يجرى مجرى الموازنة بين العربية والفارسية والرومية[3] .

ويلاحظ على كتاب فقه اللغة أنه مختصر فى موضوعه ، وأنه خال من الشواهد، بحيث يظن أن المؤلف حكّم فيه هواه ، ولو أنه ضرب الأمثال من الشعر والنثر لتحديد المعانى التى رمى الى تحديدها فى كتابه لأصبح ذلك السفر كتاب أدب ولغة، ولكان متعة لا تملها النفس، وأساسا لدرس تطورات المعانى والألفاظ والتعابير[4].

ونحن — بعد ما وجهناه من النقد الى الثعالبى — نعترف بأنه رجل خفيف الروح نقرأ كتبه ورسائله برغبة ولذة وشوق، وهو لذلك عميق الأثر فى نشر ما عُرف لعهده من أنواع الثقافة الأدبية . طيب الله ثراه !

---

(١) ص ٤٣٢ (٢) ص ٤٣٩ (٣) ٤٥٠ — ٤٥٦

(٤) مضت بعض الملاحظات على هذا الكتاب فيما كتبناه عن ابن فارس . راجع ص ٣٩ من هذا الجزء .

الباب السادس

كتاب الرسائل والعهود

١ – أبو الفضل بن العميد

١ – أبو الفضل بن العميد هو محمد بن الحسين سيد كتاب اللغة العربية فى القرن الرابع، وأعرف الوزراء لعهده بسياسة الملك، وبناية المجد، وكان معاصروه يسمونه "الجاحظ الثانى" لتوسعه فى العلوم العقلية والنقلية، واطلاعه على ما دوّن الأقدمون فى الأدب واللغة والفلسفة والتشريع . وما أحسبهم سموه الجاحظ الثانى فى الكتابة، لأنه أكتب من الجاحظ وأعرف منه بأسرار الكلام البليغ .

٢ – وقد اهتم كثير من كتاب التراجم بالكلام عن أبى الفضل بن العميد : فتحدث عنه الثعالبى[(١)] و ياقوت[(٢)] وابن خلكان[(٣)] بشىء من التفصيل، وعرض له التوحيدى فى غير موضع، ولكن أجمل ما قرأنا فى ترجمته هو الفصل الممتع الذى عقده للكلام عنه أبو على بن مسكويه فى كتاب (تجارب الأمم)[(٤)] بعد أن لازمه ليل نهار فى صحبة دامت سبع سنين .

٣ – كان ابن العميد باتفاق من ترجموا له أكتب أهل عصره، وأحفظهم للغة والغريب، وأكثرهم توسعا فى النحو والعروض واهتداء إلى الاشتقاق والاستعارات، وأعرفهم بشعراء الجاهلية والإسلام، وأدراهم بتأويل القرآن وحفظ مشكله ومتشابهه، وأبصرهم باختلاف فقهاء الأمصار، وأنفذهم سهما فى الهندسة والمنطق وعلوم الفلسفة والالهيات .

ولا يحسبنّ القارئ أن من الكثير أن يتصف رجل واحد بكل هذه المزايا . فقد كان ابن العميد خصب الذهن جدا، وكان يؤمن بأن المجد يفرض على طلابه وصل النهار بالليل فى الدرس والتحصيل وتدبير الأمور، ولم تشغله الوزارة عن الاختلاف إلى مجالس العلماء والاستفادة ممن عرفوا بسعة العلم ودقة البحث، وإنهم ليذكرون أنه كان يقرأ كتاب الطبائع

(١) يتيمة الدهر ص ٢ – ٢٥ ج ٣
(٢) فى مواطن كثيرة من (إرشاد الأريب) .
(٣) ج ٢ ص ٤٦٣ – ٤٦٦
(٤) ج ٢ ص ٢٧١ – ٢٨٢

للجاحظ على أبى بكر الخياط فاتفق أنه كان عنده فى بعض الأيام وقد نزع نعله فأخذه كلب فى الدار وأبعده عن موضعه، وأراد أبو بكر الطهارة فقام ولم يره، وطلبه فلم يجده، فرأى ابن العميد أن يقدّم اليه نعل نفسه؛ فعدّ ناس ذلك إسرافا من ابن العميد، فلما بلغته هذه المؤاخذة قال: كيف ألام على تعظيم رجل ما قرأت عليه بيتا من (الطبائع) إلا عرف ديوان قائله وقرأ القصيدة من أوّلها حتى ينتهى اليه. ولقد كنت وغيرى نتهم أبا عثمان الجاحظ فيما يستشهد به من غريب الشعر حتى دلنا على مواضعه ... أفما يستحق من هذه الصفة صفته هذه الكرامة اليسيرة فى جنب هذه الفضيلة الكبيرة[١] ؟

ولهذا الخبر قيمته الأدبية فضلا عن قيمته الخلقية، فهو من جهة الخلق دليل على تواضع ابن العميد وبره بالعلماء، ولكنه من الجهة الأدبية دليل على ميله إلى التعمق وشغفه بالاستقصاء، فكان من همه أن يحفظ دواوين القدماء وأن يستدرك على قاصديه من أهل الأدب والرواية ما يقع فى كلامهم من لحن أو حذف أو تصحيف.

٤ — ولم تكن معارف ابن العميد على كثرتها من النوع الذى يقدّر بالمكيال، بل كانت فى غاية من الدقه ولطف الجوهر: فقد حدّثنا الصاحب بن عباد أنه لم يجد فيمن صحب من يفهم الشعر كما يفهمه ابن العميد "فانه يتجاوز نقد الأبيات إلى نقد الحروف والكلمات، ولا يرضى بتهذيب المعنى حتى يطالب بتخير القافية والوزن" إلى أن قال: "وسمعته — أيده الله — يقول إن أكثر الشعراء ليس يدرون كيف يجب أن يوضع الشعر، ويُبتدأ النسج، لأن حق الشاعر أن يتأمل الغرض الذى قصده، والمعنى الذى اعتمده، وينظر فى أى الأوزان يكون أحسن استمرارا ومع أى القوافى يحصل أجمل اطراد[٢]".

وهذا كما يرى القارئ فهم دقيق، وسموّ بالنقد إلى أبعد مما كان يتطلع إليه الناقدون من وزن المعانى والألفاظ، فالرجل يرى أن جودة الشعر تتصل بوزنه وقافيته ولفظه ومعناه

(١) معجم الأدباء ج ٥ ص ٩ و ١٠ (٢) أنظر رسالة الصاحب عن المتنبى ص ٨

وكلماته وحروفه ، ثم تختلف عنـده القوافى والأوزان باختلاف المعـانى والأغراض ، وتلك نظرة لا يدركها إلا الفحول .

وهناك خبر صغير يبدو قليل الأهمية، ولكنى وقفت عنده طويلا : فقد ذكر يوما أبو بكر الخياط بحضرة ابن العميد فقال : أفادنى فى نقد الشعر ما لم يكن عندى : وذاك أنه جاءنى يوما باختيار له فكنت أرى المقطوعة بعد المقطوعة لا تدخل فى مرتضى الشعر فأعجب من إيراده لها واختياره إياها فسألته عنها فقال : لم يقل فى معناها غيرها فاخترتها لانفرادها فى بابها (١) .

فهل رأى القارئ أدق من هذه النظرة فى تعقب الأشعار والأحاديث ؟

٥ — وكان ابن العميد يجمع إلى سـعة العلم أدب النفس، على قلة ما يتفق من ذلك فى طباع الناس، فكان "قليل الكلام، نزر الحديث، إلا إذا سئل ووجد من يفهم عنـه : فانه حينئذ ينشط فيسمع منـه ما لا يوجد عنـد غيره، مع عبارة فصيحة، وألفاظ متخيّرة ، ومعان دقيقة، لا يتحبس فيهـا ولا يتلعثم ... وكان لحسن عشرته ، وطهارة أخلاقه، ونزاهـة نفسـه ، إذا دخل إليـه أديب أو عالم متفرد بفن سكت له وأصغى إليـه ، واستحسن كل ما يسمعه منه استحسان من لا يعرف منـه إلا قدر ما يفهم به ما يورد عليه" (٢) .

وهذا أدب لا يصبر عليه إلا كبار النفوس .

على أن أدب النفس فى صدر ابن العميد لم يقف عند هذه المعانى السلبية، بل تعدّاه إلى الجرأة القاهرة والإقدام الغلاب " فاذا حضر المعارك وباشر الحروب فانما هو أسد فى الشجاعة لا يصطلى بناره، ولا يدخل فى غباره ، ولا يناوئه قرن، ولا يبارزه بطل، مع ثبات جأش، وحضور رأى، وعلم بمواضع الفرص، وبصر بسياسة العساكر والجيوش، ومكابدة الحروب" وكان الى هـذه الخلال حسن التدبير الى حد الاعجاز، فقد تولى الوزارة لركن الدولة بعد أن تقدمه قوم غلبهم الجنـد على أمرهم ، وصارت مملكة ركن الدولة تحت سلطانهم ملعبا للفتن والدسائس وميـدانا للفوضى والاضطراب ، فلما تولى ابن العميد الوزارة استقام الأمر ،

(١) معجم الأدباء ج ٥ ص ١٠ (٢) راجع تجارب الأمم ج ٢ ص ٢٧٧ و ٢٧٨

واستطاع بحزمه وقوة نفسه أن ينظم الأمور و بضبط الأعمال "وبسط عدله وأقام هيبته فى صدور الجند والرعية حتى كان يكفيه رفع الطرف الى أحدهم على طريق الإنكار فترتعد الفرائص وتضطرب الأعضاء، وتسترخى المفاصل" كما عبر ابن مسكويه، وهو عندنا صادق فيما وصف به ابن العميد .

٦ — وكان ابن العميد من الوزراء الممدّحين، فقصده الشعراء من كل صوب، وساقوا اليه جياد المدائح، وللمتنبي فيه قصيدة رائية يحفظها أكثر الناس .

ولنشر هنا إلى أن ابن نباتة السعدى ورد عليه وهو بالرى وآمتدحه بقصيدته التى أولها[1] :

برْحُ آشتياق وادكار ولهيب أنفاس حِرارِ
ومدامع عبراتها ترفضُّ عن نوم مُطار
لله قلبي ما يجنّ من الهموم وما يوارى
لقد آنقضى سكر الشبا ب وما انقضى وَصَب الخُمار
وكبرت عن وصل الصغا رِ وما سلوت عن الصغار
سَقيًا لتغليسى إلى باب الرصافة وابتكارى
أيام أخطر فى الصبا نشوان مسحوب الإزار
حجى الى حجر الصرا ةِ وفى حدائقها اعتمارى
ومواطن اللذات أوطا نى ودار اللهو دارى
لم يبق لى عيش يلذ سوى معاقرة العقار
أحيا بألحان قمر تُ بهن ألحان القمارى
واذا استهل ابن العميـ ـدِ تضاءلت ديم القطار
خِرقٌ صفت أخلاقهُ صفو السبيك من النضار
فكأنما زفت موا هبهُ بأمواج البحار

(١) راجع ابن خلكان ج ٢ ص ٤٦٤ — ٤٦٦

وكأن نشر حديثه نشر الخزامى والعَرار
وكأننا مما تُفرِّق راحتاه فى نثار
كلفٌ بحفظ السر تحسب صدره ليل السِّرار
إن الكبار من الأمورِ تنال بالهمم الكبار
وإلى أبى الفضل اتبعتُ هواجس النفس السوارى

ولكن صلة ابن العميد تأخرت عن هذا الشاعر فشفع هذة القصيدة بأخرى وأتبعها برقعة فلم يزده ابن العميد على الاهمال مع رقة حاله التى ورد عليها الى بابه فتوصل إلى أن أدخل عليه يوم خميس وهو فى مجلس حافل بأعيان الدولة وتعدّى أرباب الديوان فوقف بين يديه وأشار اليه بيده وقال :

"أيها الرئيس ! انى لزمتك لزوم الظل، وذللت لك ذل النعل، وأكلت النوى المحرق انتظارا لصلتك، والله مابى من الحرمان، ولكن شماتة الأعداء: وهم قوم نصحونى فأغششتهم، وصدّقونى فاتهمتهم، فبأى وجه ألقاهم، وبأى حجة أقاومهم، ولم أحصل من مديح بعد مديح، ومن نثر بعد نظم، إلا على ندم مؤلم، ويأس مسقم. فان كان للنجاح علامة فأين هى وما هى؟ إلا أن الذين تحسدهم على ما مدحوا به كانوا من طينتك، وان الذين هجوا كانوا مثلك، فزاحم بمناكبك أعظمهم شأنا، وأنورهم شعاعا، وأمدهم باعا، وأشرفهم بقاعا" .

فحار رشد ابن العميد ولم يدر ما يقول، فاطرق ساعة ثم رفع رأسه وقال : هذا وقت يضيق عن الإطالة منك فى الاستزادة، وعن الاطالة منى فى المعذرة، واذا تواهبنا ما دفعنا اليه استأنفنا ما نتحامد عليه. فقال ابن نباتة : أيها الرئيس ! هذه نفثة مصدور منذ زمان، وفضلة لسان قد خرس منذ دهر. والغنىّ اذا مطل لئيم ! فاستشاط ابن العميد وقال: والله لما استوجبت هذا العتب من أحد من خلق الله تعالى ؟ ... ولست ولىّ نعمة فأحتملك، ولا صنيعتي فأغضى عليك، وان بعض ما أقررته فى مسامعى ينغص مرة الحلم، ويبدد شملي

الصبر، هذا وما استقدمتك بكتاب، ولا استدعيتك برسول، ولا سألتك مدحى ولا كلفتك تقريظى !

فقال ابن نباته : صدقت أيها الرئيس ! ما استقدمتنى بكتاب، ولا استدعيتنى برسول، ولا سألتنى مدحك، ولا كلفتنى تقريظك، ولكن جلست فى صدر ديوانك بأبهتك ، وقلت لا يخاطبنى أحد الا بالرياسة، ولا ينازعنى خلق فى أحكام السياسة، فأنى كاتب ركن الدولة، وزعيم الأولياء والحضرة، والقيِّم بمصالح المملكة ، فكأنك دعوتنى بلسان الحال ، ولم تدعنى بلسان المقال !

فثار ابن العميد مغضبا وأسرع فى صحن داره الى أن دخل حجرته، وتقوض المجلس، وماج الناس، وسمع ابن نباته وهو فى صحن الدار مارًّا يقول : والله إن سف التراب والمشى على الجمر أهون من هذا ! فلعن الله الأدب اذا كان بائعه مهينا له، ومشتريه مماكسا فيه !

فلما سكن غيظ ابن العميد وثاب إليه حلمه ٱلتمسه من الغد ليعتذر إليه ويزيل آثار ما كان منه : فكأنما غاص فى سمع الأرض وبصرها، فكانت حسرة فى قلب ابن العميد الى أن مات .

وقد نقلنا هذا الخبر على طوله لأهمية خاصة سيعرفها القارئ بعد لحظة، فان راويه وهو ابن خلكان عاد فحدثنا انه وجد هذه القصيدة وهذا المجلس منسوبين الى غير ابن نباته، وانه كشف ديوان ابن نباته فلم ير فيه هذه القصيدة وانه وجدها فى (مثالب الوزيرين) للتوحيدى منسوبة لأبى محمد عبد الرازق بن الحسن البغدادى وهذه المخاطبة لشاعر من أهل الكرخ .

ونحن نأسف مر الأسف على أن لم نتمكن من الاطلاع على كتاب (مثالب الوزيرين) ونخشى أن يكون ضاع أبد الابدين، مع أنه كان موجودا بالاستانه منذ ثلاثين عاما ، ولو أتيح لنا الاطلاع على هذا الكتاب لأستطعنا تخطئة ابن خلكان ، فاننا نجزم جزما قاطعا بأن هذا المجلس الذى نقلناه آنفا من صنع التوحيدى، ولا يضيرنا أن النسبة لم تصح بطريقة

علميــة ، فانا نعرف التوحيــدى معرفة قوية لطول ما صاحبناه وعاشرناه ، ولو ألقيت جملة من كلامه فى أكداس من الأوراق لميزناها لأوّل نظرة . فليكن الشــاعر من يكون، وليكن المخاطب من يكون، فان واضع المجلس هو التوحيــدى على كل حال ، ولا يبقى إلا أن نرجح أنه أداره على ابن العميــد لا على غيره ، لأن هــذه الحفيظة من التوحيــدى ما كانت لتثور فى هذه القوّة على رئيس غير ابن العميد الذى شغل بثلبه وتجريحه حينا من الزمان .

٧ — وكان لابن العميــد ولد ذكى القلب ، قوى الحس ، مشرق الذكاء ، فآهــتم بتأديبه وأحضر له كبار الأساتذة، وجعل عليه فى صباه جماعة من ثقاته يشرفون عليه فى منزله ومكتبه وينهون إليه أنفاسه ، فرفع إليه بعضهم انه آشتغل ليلة بمــا يشتغل به الأحداث من عقــد مجلس مسرّة وإحضار الندماء فى خفية شديدة واحتياط من أبيه، وأنه كتب إلى من سماه يستهديه شرابا فحمل إليه ما يصلحهم من الشراب والنقل والمشموم ، فدس آبن العميد الى ذلك الانسان من جاء بالرقعة الصادرة عن ابنه أبى الفتح فاذا فيها بخطه :

بسم الله الرحمن الرحيم

" قد اغتنمت الليــلة أطال الله بقاء سـيدى ومولاى رقدة من عين الدهر ، وانتهزت فيها فرصة من فرص العمــر ، وانتظمت مع أصحــابى فى سمط الثريا ، فان لم تحفظ علينــا النظام، باهداء المدام، عدنا كبنات نعش والسلام[1] " .

فاستطير آبن العميــد فرحا بهذه الرقعــة البديعة وقال : الآن ظهر أثر براعتــه، ووثقت بجريه فى طريقى، ونيابته منابى . ووقع له بألفى دينار .

ولكن هذا الفرح لم يدم طويلا ، لأن ذلك الوليد أخذ يمعن فى أسباب الزهو والخيلاء فكان يحمــل رؤساء الجند وقوّادهم على الخيول الفره بالمراكب الثقال ليسلموا له الرياســة . "حتى لا يأنف أحد من تقبيــل الأرض بين يديه والمشى قدامه إذا ركب ، مما لا يؤثره

(١) اليتيمة ج ٣ ص ٢٦

الأستاذ الرئيس ولا يرضاه لسيرته ، وكان يعظه وينهاه عن هذه السيرة، ويعلمه أن ذلك لو كان مما يترخص فيه لكان هو بنفسه قد سبق اليه ".

قال ابن مسكويه : « ولقد سمعته فى كثير من خلواته يشرح له صورة الديلم فى الحسد والجشع، وأنه ما ملكهم أحد قط إلا بترك الزينة وبذل ما لا يبطرهم ولا يخرجهم الى التحاسد، ولا يتكبر عليهم، ولا يكون إلا فى مرتبة أوسطهم حالا، وان من دعاهم واحتشد لهم وحمل على حالة فوق طاقته لم يمنعهم ذلك من حسده على نعمته والسعى على إزالتها وترقب أوقات الغِرة فى آمن ما يكون الانسان على نفسه منهم فيفتكون به فى ذلك الوقت»[1].

ولكن تلك العظات لم تغن شيئا فى تقويم ذلك الفتى، فكان أبوه يأخذه معه فى أسفاره حتى لا تكون سيرته سببا فى تغير ركن الدولة على وزيره. واتفق أن خرج أبو الفضل فى إحدى سفراته واستصحب معه ابنه أبا الفتح، فلما كان فى بعض الطريق — وكان يركب العماريات ولا يستقل على ظهور الدواب لإفراط عِلة النقرس وغيرها عليه — التفت حوله فلم ير فى موكبه أحدا، وسأل عن الخبر فلم يجد حاجبا يخبره ولا من جرت العادة بمسايرته غير ابن مسكويه . فسأله فأخبره أن الجند بأسرهم مالوا مع أبى الفتح الى الصيد. قال ابن مسكويه : «فاستشاط من ذلك وساءه أن يجرى مثل هذا ولا يستأذن فيه . وقد كان أنكر خلو موكبه وهو فى وجه حرب، ولم يأمن أن يستمر هذا التشتت من المعسكر فتتم عليه حيلة. فدعا أكبر حجابه ووصاه بأن يحجب عنه ابنه أبا الفتح، وأن يوصى النقباء بمنع الديلم من مسايرته ومخالطته، وظن أن هذا المبلغ من الانكار سيغض منه وينهى العسكر من اتباعه على هواه فلم يؤثر كلامه هذا كبير أثر. وعاد الفتى الى عادته واتبعه العسكر ومالوا معه الى اللعب والصيد والأكل والشرب ، وكان لا يخليهم من الخلع والالطاف، فشق ذلك على الأستاذ الرئيس جدا، ولم يحب أن يخرق هيبة نفسه بإظهار ما فى قلبه ، ولا أن يبالغ فى الانكار وهو فى مثل ذلك الوجه فيفسد عسكره ويطمع فيه عدوه، فدارى أمره، وتجرع غيظه، وأداه ذلك الى زيادة فى مرضه حتى هلك

(١) تجارب الأمم ج ٢ ص ٢٧٢

بهمذان وهو يقول فى مجلس خلواته : ما يهلك آل العميد ولا يمحو آثارهم من الأرض إلا هذا الصبي (يعنى ابنه) ويقول فى مرضه : ما قتلنى إلا جرع الغيظ التى تجرعتها منه[(١)] " .

وكانت وفاته رحمه الله بالرى سنة ٣٥٩ بعد أن عانى ما عانى من القولنج والنقرس يعاودانه صباح مساء . ويقال إنه رأى اكارا فى بستان يأكل خبزا ببصل ولبن وقد أمعن فيه فقال : وددت لو كنت كهذا الاكار آكل ما أشتهى ! وكذلك كانت العافية أنفع وأجمل من الملك والجاه والمال . وهل تبسم الدنيا لانسان عليل ؟

(١) تجارب الأمم ج ٢ ص ٢٧٣

٢ - نثر ابن العميد

١ — كان رجال القرن الرابع يقولون : "بدئت الكتابة بعبد الحميد، وختمت بابن العميد"(١) وهى مبالغه تذكر بما قيل فى ذلك العهد : "بدئ الشعر بملك، وختم بملك" يريدون أنه بدئ بامرئ القيس وختم بأبى فراس . وهذه وتلك من المبالغات التى تجرى على ألسنة المترلفين من الحواشى والأتباع ، فقد كان لابن العميد أشياع يقولون بإمامته فى النثر كما كان لأبى فراس أشياع يقولون بإمامته فى الشعر . وكلتا الكلمتين على ما فيهما من مبالغة ظاهرة ترجعان الى أصل من الحق أصيل : فقد كان ابن العميد وأبو فراس من أفذاذ الرجال، ولكل منهما روح قوى قهار يعز على من رامه ويطول .

والقارئ يعرف أننا ننكر أن تكون الكتابة بدئت بعبد الحميد،ولكننا لا ننكر أن عبدالحميد كان إماما لأهل عصره ، وأنه أدخل فى الكتابة أساليب وتعابير وتقاليد لم يكن يعرفها الأولون ، وكذلك كان ابن العميد إماما لكتاب القرن الرابع . وما نظن أنه أدخل فى فنون الكتابة ما أدخله عبد الحميد، ولكنه يمتاز بميزة عجيبة : هى إعزاز القلم ورفعه الى أشرف الدرجات : فإننا حين نقرأ نثره نجد أنفسنا أمام عظمة عقلية يخر لها الجبابرة ساجدين . وهو حين يكتب لا يطالعك بفنه، كما كان يفعل معاصروه، وانما يطالعك بقلبه وروحه وعقله بحيث تبدو كل كلمة من كلماته وكأنها قلب يخفق أو روح يثور . فليست الكتابة عند ابن العميد زخرفا براقا يلهو به ولا ثروة لغوية يكاثر بها الكتاب، ولكن الكتابة عنده ثورة عقلية أو وجدانية يرمى بها كما يرمى البركان بأقباس الهلاك ، وقد يرقّ فتحسب نثره نجوى حبيبين فى هدأة الليل، وهو فى رقته وجزالته ، وغضبه وحنانه، عبقرى لا يعبث برجع الحديث المعاد، وانما يجدّ بابداع الرأى الصائب والقول الرصين .

(١) يتيمة الدهر ج ٣ ص ٣

٢ — لم تصل إلينا مجموعة الرسائل التى حفظت عن ابن العميد ، ولكن بقيت منها شواهد تعطى عن نثره فكرة قريبة من الصواب . ونثره باعتبار موضوعاته يرجع الى فنين : الأول رسائله الرسمية التى كتبها بصفته وزيرا لركن الدولة ، والثانى رسائله الشخصية التى عبر فيها عن ذات نفسه وهو يراسل أصدقاءه وأحبابه . ولكل من الفنين فى نثره لون خاص . ولنسارع فنقرر أن الرسائل التى كتبها على لسان ركن الدولة ليست كالرسائل التى كتبها الصابى مثلا على لسان بعض الخلفاء والوزراء . لا ، فان ابن العميد حين يتكلم عن مليكه يتكلم بقوة وحرية ، ويعبر عن إرادته الذاتية أكثر مما يعبر عمن يكتب باسمه . ويرجع ذلك الى أن ابن العميد كان كل شىء فى الملك الذى يسيطر عليه باسم ركن الدولة ، وكان الى جانب هذا مخلصا إخلاصا قويا يحوّل مشاكل الحكم عند أمثاله من الوزراء الى معضلات شخصية تثور لها نفس الوزير قبل أن يحس بها صاحب التاج . ولننظر كيف يخاطب بعض الخوارج على ركن الدولة فلا تدرى أيرمى عن غضب أم يصدر عن عقل :

"كتابى وأنا مترجح بين طمع فيك، ويأس منك، وإقبال عليك، وإعراض عنك، فإنك تدل بسابق حرمة، وتمت بسالف خدمة، أيسرهما يوجب رعاية ، ويقتضى محافظة وعناية، ثم تشفعهما بحادث غلول وخيانة ، وتتبعهما بأنف خلاف ومعصية . وأدنى ذلك يحبط أعمالك، ويمحق كل ما يرعى لك ، ولا جرم أنى وقفت بين ميل إليك، وميل عليك ، أقدّم رجلا لصدمك، وأخرى عن قصدك ، وأبسط يدا لاصطلامك واجتياحك ، وأثنى ثانية لاستبقائك واستصلاحك ، فقد يغرب العقل ثم يؤوب، ويعزب اللب ثم يثوب ، ويذهب الحزم ثم يعود، ويفسد العزم ثم يصلح، ويضاع الرأى ثم يستدرك، ويسكر المرء ثم يصحو، ويكدر الماء ثم يصفو" .

وفى هذه المقدّمة يرى القارئ كيف يتلطف ابن العميد فيستدرج ذلك العاصى ويقفه موقف المتردّد بين يومه وأمسه، وحاضره وماضيه، ثم يعرض عليه وجوه حاليه فى الطاعة والعصيان فيقول :

” وزعمت أنك فى طرف من الطاعة بعد أن كنت متوسطها ، وإذا كنت كذلك فقد عرفت حاليها ، وحلبت شطريها ، فنشدتك الله إلا ما صدقتنى عما سألتك : كيف وجدت ما زُلت عنه، وكيف تجد ما صرت إليه؟ ألم تكن من الأول فى ظل ظليل، ونسيم عليل، وريح بليل، وغذاء غذىّ، وماء روىّ، ومهاد وطىّ، وكنّ كنين، ومكان مكين، وحصن حصين ، عززت به بعد الذِلة، وكثرت به بعد القلة ، وارتفعت بعد الضعة ، وأيسرت بعد المعسرة، وأثريت بعد المتربة ؟ ففيم أنت الآن من الأمر؟ وما العِوض عما عددت، والخلف مما وصفت ، وما استفدت حين أخرجت من الطاعة نفسك، ونفضت منها كفك، وغمست فى خلافها يدك؟ وماالذىأظلك بعد انحسار ظلها عنك؟ أظلٌّ ذو ثلاث شعب، لا ظليل ولا يغنى من اللهب ؟ قل نعم كذلك ! “.

وابن العميد يعرف قوّة نفسه ، وبأس قلمه ، ولذلك يقول وقد بلغ هذه النقطة من الخطاب : ”تأمّل حالك وقد بلغت هذا الفصل من كتابى فستنكرها، وآلمس جسدك وآنظر هل يحس ؟ وآجسس عرقك هل ينبض؟ وفتش ما حنا عليك هل تجد فى عرضها قلبك، وهل حلى بصدرك أن تظفر بفوت سريع، أو موت مريح (١) ؟ “ .

٣ — وهذا النمط من الكتابة القوية يمثل قدر البلاغة فى أنفس الناس لذلك العهد : فهم يرون رسائل التهديد والوعيد طلائع من الأقلام تتقدّم طلائع السيوف . وهذا فى الواقع متابعة موفّقة لذلك العرف الذى سنّه كتّاب الدولة الأموية وأقره كتّاب الدولة العباسية، وهو أسلوب فى الدعاية كان يجرى عن طريق الرسائل كما تجرى الدعاية اليوم عن طريق الصحف السياسية . والدنيا هى الدنيا والناس هم الناس، وإن تغيرت طرائق التخويف والترهيب وَفقا لتغير وسائل النشر والتبليغ .

٤ — أما رسائله الشخصية فهى فن من الشعر الوجدانى البليغ، هى قصائد منثورة فى موضوعات شعرية ما كان يصلح لها غير القصيد، وأظهر ما كتب فيه ابن العميد من

(١) راجع بقية الرسالة فى اليتيمة ج ٣ ص ١٢

الوجدانيات : هو العتاب . ولكن أى عتاب! ان الرجل يتحدث اليوم عن مشاعرنا وعواطفنا وبيننا وبينه عشرة قرون . لقد كان هـذا الرجل يفهم الصداقة فهما دقيقا جدا، والظاهر أنها كانت تتحول فى قلبه الى عشق، لأنه فى عتابه يتنفس عن قلب العاشق أضعاف ما يتنفس عن روح الصـديق . وهو فى عتابه مختلف الأشجان والنوازع : فله أوقات يثور فيها ثورة جارفة فيرمى بإخاء من يعاتب فى جحيم النسيان، كقوله وقد مزج بين العتب والهجاء :

"وقد ندمت ... ولكن أى ساعة مندم! بعد إفناء الزمان فى ابتدائك، وتصفحى حالات الدهر فى اختيارك، وبعـد تضييع ما غرسـته، ونقض ما أسسته، فان الوداد غرس اذا لم يصادف ثرى ثريا، وجوا غذيا، وماء رويا، لم يرج زكاؤه، ولم يجر ماؤه، ولم تتفتح أزهاره ولم تجن ثماره، وليت شعرى كيف ملك الضلال قيادى حتى أشكل علىّ ما يحتاج اليه المزوجان ولا يستغنى عنه المتآلفان، وهى ممازجة طبع، وموافقة شكل وخلق، ومطابقة خيم وخلق، وما وصلتنا حال جمعتنا على ائتـلاف، وحمتنا من اختلاف، ونحن فى طرفى ضـدين، وبين أمرين متباعدين . واذا حصلت الأمر وجدت ما بيننا من البعاد، أكثر مما بين الوهاد والنجاد، وأبعد مما بين البياض والسواد، وأيسر ما بيننا من النفار، وأقل ما بيننا من التضار، أكثر مما بين الليل والنهار، والإعلان والإسرار" (١) .

وهـذه قطعة من رسالة طويلة يعاتب بها أبا عبد الله الطبرى، ولا يتوهمن القارئ أن هـذه العبارات الجافيـة تدل على أن ابن العميد خاص قلبه من علاقات ذلك الصـديق : هيهات! فنحن نعرف ما تشـير اليه أمثال هـذه الثورات : فان المرء لا يغضب مثل هـذا الغضب الأسود إلا حين يهاجم من لا يستطيع الخلاص من أسر وداده، ودليل ذلك أننا نراه يعاتبه فى الرسالة نفسها معاتبة المغلوب فيقول :

" ولو بقيتْ من الصـبر بقية لسلوت ، ولو وجدت فى أثناء وجدى مخرجا يتخلله تجـلد لأمسكت، فقديما لبست الصديق على علاته، وصفحت له عن هناته، ولكنى مغلوب على العزاء

(١) زهر الآداب ج ٣ ص ٢٣٨

مأخوذ على عاداتى فى الاغضاء، فقد سلّ من جفائك ما ترك احتمالى جفاء، وذهب فى نفسى من ظلمك ما أنزف حلمى بجعله هباء، وتولى علىّ قبح فعلك فى هجر يستمر على نسق، وصد مطرد متسق، ما لو فض على الورى وأفيض على البشر لأمتلأت صدورهم ... الخ "(١) .

وكان ابن العميد فيما يظهر موصول القلب بأبى عبد الله الطبرى هذا، وقد غالب نفسه فى وداده أعنف مغالبة، واستطاع أخيرا أن يتوهم أنه تعزى عنه فكتب اليه فى جواب خطاب:

" وصل كتابك فصادفنى قريب العهد بانطلاق، من عنت الفراق، ووافقنى مستريح الأعضاء والجوانح من جوى الاشتياق : فإن الدهر جرى على حكمه المألوف فى تحويل الأحوال، ومضى على رسمه المعروف فى تبديل الأشكال، وأعتقنى من مخالّتك عتقا لا تستحق به ولاء، وأبرأنى من عهدتك براءة لا تستوجب دركا ولا استثناء، ونزع من عنق ربقة الذل فى إخائك، بيدى جفائك، ورش على ما كان يضطرم فى ضميرى من نيران الشوق بالسلو وشن على ما كان يلتهب فى صدرى من الوجد ماء اليأس ، ومسح أعشار قلبى فلاءم فُطورى بجميل الصبر، وشعب أفلاذ كبدى فلاحم صدوعها بحسن العزاء، وتغلغل فى مسالك أنفاسى فعوّض عن النزاع اليك نزوعا عنك ، ومن الذهاب فيك رجوعا دونك ، وكشف عن عينى ضبابات ما ألقاه الهوى على بصرى ، ورفع عنى غيابات ما سدله الشك دون نظرى ، حتى حدر النقاب عن صفحات شيمك، وسفر عن وجوه خليقتك، فلم أجد إلا منكرا، ولم ألق إلا مستنكرا ، فوليت منها فرارا وملئت رعبا . فآذهب فقد ألقيت حبلك على غاربك، ورددت إليك ذم عهدك(٢) ! » .

أليست هذه قصيدة رثاء يسكب دمعها على جدث الود المفقود ؟ إن الناقد ليرى ابن العميد آقتبس أكثر معانيه فى هذه الرسالة من روائع الشعر القديم، ولكن لينظر منصفا كيف اتصلت هذه المعانى بنفسه أشدّ آتصال، وكيف جرت على أسَلَة قلمه وكأنها فيض الفطرة وجَوْد الطبع، حتى ليخفى ما طرزت به حواشيها من آثار الاقتباس .

(١) زهر الآداب ج ٣ ص ٢٣٥ (٢) زهر الآداب ج ٣ ص ٢٣٤

٥ — ولكن ابن العميد لايستطيع فى كل مرة أن يلقى حبل من يود على غاربه ويرد اليه ذمم عهده، فليس القلب فى كل لحظة بمطواع حتى يزهد فى كل نافر صدوف، وكذلك نجد ابن العميد على قوة نفسه وسعة ماله ورفعة جاهه يقف وقفة الخاشع الذليل فيعاتب بعض إخوانه بمثل هذا الكلام :

”ما هذا التغالى بنفسك، والتعالى على صديقك؟ ولم نبذتنى نبذ النواة، وطرحتنى طرح القَذاة، ولم تلفظنى من فيك، وتمجنى من حلقك، وأنا الحلال الحلو والبارد العذب، وكيف لا تخطرنى ببالك خطرة، وتصيرنى من أشغالك مرة : فترسل سلاما إن لم تجشم مكاتبة، وتذكرنى فيمن تذكر إن لم تكن مخاطبة . وأحسب كتابى سيرد عليك فتنكره حتى تتثبت، ولا تجمع بين اسم كاتبه وتصوّر شخصه حتى تتذكر، فقد صرت عندك ممن محا النسيان صورته من صدرك، واسمه من صحيفة حفظك . ولعلك أيضا تتعجب من طمعى فيك وقد توليت، واستمالتى لك وقد تأبيت، ولا عجب فقد يتفجر الصخر بالماء الزلال، ويلين من هو أقسى منك قلبا فيعود الى الوصال . وآخر ما أقوله أن ودى وقفٌ عليك، وحبسٌ فى سبيلك، ومتى عدت اليه وجدته غضا طريا، فجربه فى المعاودة فإنه فى العود أحمد“ (١) .

ولعل القارئ يسأل : أتصدر أمثال هذه المكاتبات الرقيقة عن وزير؟ ونجيبه بأننا نرجح أنه كتب أمثال هذه الرسائل الغضة فى صباه . على أننا لا نستكثر أن تصدر عنه وهو وزير، فللوزراء كسائر الناس جوانب وجدانية تلقى على حياتهم ظلالا من الرفق والحنان، خصوصا إذا تذكرنا أن كلمة ”وزير“ كان يلحظ فيها دائما معنى ”كاتب“ وكان الإبداع فى الكتابة من المؤهلات الأساسية فى الوصول إلى مناصب الوزراء .

٦ — ومما يؤيد ما ذهبنا إليه أن ابن العميد كتب إلى عبد الله الطبرى كتاب نصح يدل على معرفة وبصر بالشئون السياسية، كتبه حتما بعد أن اتصل بالملوك والرؤساء . والطبرى

(١) زهر الآداب ج ٢ ص ٢٤٥

هـذا هو صديقه الذى حدّثناك آنفا عن معاتبته إياه فى نفحات وجدانية تنم عن ود رقيق ، وفى هذا ما يشعر بأنه ما كان يتورّع وهو فى أوج مجده عن بث نوازع القلب والوجدان .

وانه ليشرح لصديقه ما يجب أن يتحلى به فى الحياة الرسمية فيقول بعد تمهيد :

"وآركب فى الخـدمة طريقة تبعدك من المـلال ، وتوسطك فى الحضـور بين الإكثار والإقلال، ولا تسترسل إلى حسن القبول كل الاسترسال، فلأن تدعى من بعيـد خيرٌ من أن تُقصى من قريب . وليكن كلامك جوابا تحترز فيـه من الخَطل والإسهاب، ... ولا يستفزك طرب الكلام على ما يفسد تمييزك . والشفاعة لا تعرض لها فانها مخلقة للجاه، فان آضطررت اليها فلا تهجم عليها حتى تعرف موقعها ، وتحصـل وزنها، وتطالع موضعها ، فاف وجدت النفس بالإجابة سمحة ، وإلى الاسـعاف هشة، فأظهر مافى نفسك غير محقق، ولا توهم أن عليك فى الرد ما يوحشك ، ولا فى المنع ما يغيظك ، وليكن انطلاق وجهـك إذا دُفعت عن حاجتك أكثر منه عند نجاحها على يدك ، ليخف كلامك ولا يثقل على سامعه منك » (١) .

وهـذا الصديق الذى يوصيه ابن العميد بالرفق فى مصاحبة الأمراء والرؤساء هو نفسـه الذى وصفه بالبعد عن الأواصر الغريزية التى توجب المودة : من ممـازجة الطبع ، وموافقة الشكل ، ومطابقة الخلق . وتلك كما قلنا علالة يوهم بها ابن العميد قلبه أنه خلا من ودّ ذلك الصديق، وإلا فقد رأيناه فى كلمة ثانية يذكر أنه صنو نفسه فيقول :

" لكن ما بقى أن يصفو لى عيش مع بعدى عنك، ويخلو ذرعى مع خلوى منك، ويسوغ لى مطعم أو مشرب مع انفرادى دونك، وكيف أطمع فى ذلك وأنت جزء من نفسى ، ناظم لشمل أنسى، وقد عدمت رؤيتك ، وحرمت مشاهدتك . وهل تسكن نفس متشعبة ذات انقسام، وينفع أنس ميت بلا نظام؟ " (٢) .

٧ — ومما آمتاز به ابن العميد إجادة الرسائل الاخوانية، وهو فن برع فيه كتّاب القرن الرابع وصيروه سنة يجرى عليها الأصفياء والأُلاف. وقد تأملت فرأيت معانى ابن العميد صارت

(١) زهر الآداب ج ٤ ص ١٣٠ (٢) ص ١٨٠ ج ٤

وردا سائغا لمعاصريه كالميكالى والببغا و بديع الزمان . وليس غريبا أن يصير قدوة فى هذا الباب : فقد كان له بين ضلوعه قلب وفىّ أمين ، وكان يتحدّث فى الصداقات والمودات عن ود صادق ووفاء صريح . وقد كنا نعجب لخيال ابن زيدون إذ يقول :

يُدنى مزارك حين شط به النوى ... وهمٌ أكاد به أقبّل فاك

حتى رأيناه ممثلا أوضح تمثيل فى قول ابن العميد :

” قد قرب — أيدك الله — محلك على تراخيه ، وتصاقب مستقرك على تنائيه ، لأن الشوق يمثلك ، والذكر يخيّلك ، فنحن فى الظاهر على آفتراق ، وفى الباطن على تلاق ، وفى التسمية متباينون ، وفى المعنى متواصلون . ولئن تفارقت الأشباح ، لقد تعانقت الأرواح[1] “ .

وهو معنى جيد آنتهبه الببغا فى إحدى رسائله الاخوانية[2] .

ولا يقف آبن العميد فى ملاطفة إخوانه عند هذا الحدّ ، بل يتأنق فى وصف كتبهم اليه فيقرظها فى حنان هو أشبه بالنسيب ، كقوله فى وصف خطاب وصل اليه من أحد الأصدقاء :

” وصل كتابك الذى وصلت جناحه بفنون صِلاتك وتفقدك ، وضروب برك وتعهدك ، فآرتحت لكل ما أوليت ، وآبتهجت بجميع ما أهديت ، وأضفت إحسانك فى كل فصل الى نظائره التى وكلت بها ذكرى ، ووقفت عليها شكرى . وتأملت النظم فملكنى العجب به ، وبهرنى التعجب منه . وقد رمت أن أجرى على العادة : فى تشبيهه بمستحسن من زهر جنىّ ، وحلل وحلىّ ، وشذور الفرائد ، فى نحور الخرائد :

والعذارى غدون فى الحلل البيض ... وقد رحن فى الخطوط السودِ

فلم أره لشىء عدلًا ، ولا أرضى ماعددته له مِثلا ، والله يزيدك من فضله ، ولا يخليك من إحسانه ، ويلهمك من بر إخوانك ما تتم به صنيعك لديهم ، ويربّ معه إحسانك إليهم[3]“

(١) زهر الآداب ج ٣ ص ١٨٧ (٢) أنظر صبح الأعشى ج ٩ ص ١٤٤ (٣) ص ١١٢ ج ١

وقد يُغلَب على أمره فيختم خطابه بكلمة نعرف منها صراحه أن إعجابه بالمكتوب صورة لإعزازه للكاتب، كقوله فى خاتمة خطاب :

” وقد قرأت كتابك — جعلنى الله فداءك — فآمتلأت سرورا بملاحظة خطك، وتأمل تصرفك فى لفظك ، وما أقرظهما فكل خصالك مقرظ عندى، وما أمدحهما فكل أمرك ممدوح فى ضميرى وعقدى ، وأرجو أن تكون حقيقة أمرك موافقة لتقديرى فيك، فإن كان كذلك وإلا فقد غطى هواك وما ألقى على بصرى[1] “ .

هذا ولابن العميد رسائل فى الحب تضارع فى روعتها قصائد التشبيب وتتصل برسائله الإخوانية أوثق آتصال، وله فى التهانى رسائل تغلب عليها الصنعة، ولكنها كأكثر نثره قوية محكمة تدل على صاحبها وتذكر بأدبه البارع واطلاعه على ما أنشأ الأقدمون من أفانين البيان ، وما نحسب معاصريه أسرفوا فى مجاملته حين لقبوه بالأستاذ الرئيس .

(١) زهر الآداب ص ١٨٠ ج ٤

٣ – أبو حفص بن برد

١ – أبو حفص أحمد بن برد الأكبر كاتب أندلسى من أقطاب النثر الفنى فى القرن الرابع، توفى بسرقسطة سنة ٤١٨ كما فى الذخيرة(١) وإرشاد الأريب(٢)، لا سنة ٤٢٨ كما وقع خطأ فى كتاب الدكتور أحمد ضيف عن بلاغة العرب فى الأندلس . وقد عاش ابن برد نحو ثمانين سنة، ولكن أخباره ضاعت فلم يعرف منها إلا القليل ، مع أنه كان من أشهر الوزراء فى الأيام العامرية .

٢ – ولم نجد على كثرة البحث مايعيّن مذاهب ابن برد الأدبية . وقد اكتفى أكثر من عرضوا لترجمته بالعبارات الفضفاضة التى لا تحدّد شيئا : فذكر ياقوت أنه كان "كاتبا بليغا"(٣) وذكر ابن بسام أنه كان فى زمانه "واسطة السلك ،وقطب رحى الملك" وأنه "برز على نظرائه وأشكاله " وأنه "كتب عن عدّة من الأمراء فأسمع الصم بيانا ، واستنزل العُصْم إبداعا وإحسانا(٤)"وذكر صاحب المطمح أنه" غذى بالأدب، وعلا الى أسمى الرتب" وأنه " بديع الإحسان، بليغ القلم واللسان " وأنه" مايح الكتابة، فصيح الخطابة(٥) " وفخر حفيده ابن برد الأصغر بالانتساب اليه فقال :

من شاء خُبْرى فأنا ابن برد	حدّ حسامى قطعة من حدى
وأرفع الناس بناءً جدى	مَن نظم الألفاظ نظم العقد
ونقد الكلام حق النقد	وكف بالأقلام أيدى الأسد(٦)

وهذه كلها صفات تدل على عظمة ابن برد فى أنفس من قرأوا له ، وكتبوا عنه، ولكنها لا تعيّن منحاه فى مذاهب البيان .

(١) ج ١ ص ٤٩ (٢) ج ٢ ص ١٠٦ (٣) ج ٢ ص ١٠٦ (٤) ج ١ ص ٤٩
(٥) أنظر نفح الطيب ج ٢ ص ٣٦٧ (٦) الذخيرة ج ١ ص ٢٥٧

٣ — وعذر من ترجموا لابن برد أن معظم رسائله كان ضاع ، حتى أن مواطنه بن بسام على قرب عهده به صرّح بأنه لم يجد من رسائله إلا مالا يكاد يعرب عن فضائله (١) ، وربما كان ذلك هو السبب فيما وقع لبعض كتّاب التراجم من الخلط بين آثار ابن برد الأكبر وابن برد الأصغر . فانا نجد صاحب المطمح ينسب رسالة السيف والقلم الى ابن برد الأكبر (٢) ، وينسبها ياقوت الى ابن برد الأصغر (٣) — والأبيات الآتية :

لما بدا في لازورد ديّ الحرير وقد بهر
كبّرت من فرط الجما ل وقلت ما هذا بشر
فأجابني لا تنكرنْ ثوب السماء على القمر

نسبها صاحب المطمح الى ابن برد الأكبر (٤) . ونسبها ياقوت (٥) الى ابن برد الأصغر .

٤ — تولى ابن برد رياسة ديوان الإنشاء لمحمد بن عبد الرحمن المستكفي ، وكتب كذلك لعدد من الأمراء ، فكان لتوليه رياسة ديوان الإنشاء أثر قويّ في حرصه على أدوات الكتابة ، وكانت تلك الأدوات مما شغل كتّاب القرن الثالث والرابع : فكتب فريق منهم كتبا خاصة فيما يجب أن يراعيه الكاتب ، كما فعل ابن المدبر حين ألف "الرسالة العذراء" وإنا لنجد ابن برد يكتب عن المظفر بن أبي عامر رقعة وجهها الى القوّاد والكتّاب فيقول :

"ومن أعجب العجب ما يجترئ عليه بعض خدمتنا من نبذ عهودنا . ولا أحسب الذي غرهم بنا إلا ما وهب الله تعالى لنا مع القدرة من الحلم والكظم ، وقد كانت سجية غالبة ، وخليقة لازمة ، فرب شبع تحت مخيل النعماء ، وكم غصص في شهيّ الغذاء ، ومن شرق في نمير الماء ... ونصب أعينكم عهد المنصور صدره التوبيخ باستكتاب الجهلة ممن قلّتْ معرفته ، واتضعت همته ، ولم يبلغ أن يحكم الخط فيقوّم حروفه ، ويراعي المداد فيجيد صنعته ، ويميز الرق فيحسن اختياره ، وعزه العزم النافذ ، والحكم الصادع ، بأن تكون صدور كتب

(١) الذخيرة ج ١ ص ٤٩ (٢) راجع نفح الطيب ص ٣٦٧ ج ٢ (٣) ص ١٠٦ ج ٢
(٤) نفح الطيب ص ٣٦٨ ج ٢ (٥) ص ١٠٦ ج ٢

الاعتراضات وعنوانها وتواريخها والأعداد فى رؤوس غصونها بخطوط أيدى القوّاد والعمال ، من كان منهم كاتبا فليكتب بيده ، ومن لم يكتب فبخط كاتب معروف بالخط عنه ، وأن تكون تسمية طبقات الأجناد فيها قائمة الخطوط ، بينة الحروف ... على أنه إن ورد لأحد منهم بعد وصول العهد اليه كتاب اعتراض عمل فى رق ردىء ، أو خط فيه لحن ، أو كتاب على بشر فى عدد ، أو رسم مالم يخف أو يقع فى بشر الكتاب ... فيعاجل بعقوبة العزل[1]" .

ولم يكتف بذلك ، بل مضى يقول :

"وإن قوما منهم عادوا لما نُهُوا عنه : فكتبوا الخط الرقيق فى دنىّ الرقوق ، رقة من هممهم ودناءة فى اختيارهم ، وجهلا بأن الخط جاه الكتاب ، وسلك الكلام : به ينتظم منثوره وتفصل شذوره ، ونبله من نبل صاحبه ، وهجنته لاحقة بكاتبه ، إلى ما اقترفوه من العصيان ، وأقدموا عليه من خلاف السلطان ، وأنا أعطى الله عهدا لئن ارتفع إلىّ بعد بلوغ عهدى هذا أقصى حدود المملكة وانتهائه أبعد أقطار الطاعة كتاب على الصفات المذمومة : من رق أومداد أو خط لأفينّ لصاحبه بما قدّم اليه من الوعيد[2]" .

وهذه الفقرات تمثل رأى الكاتب قبل أن تمثل رأى من كتبت باسمه ، وهى مظهر من عناية ابن برد بأدوات الكتابة وأدب الكتاب .

٥ — وقد حفظت عن ابن برد رسائل تصوّر ما كان من النزاع بين العرب والبربر فى الأندلس . ودراسة ما كان بين هذين العنصرين من الفتن والمنازعات باب من أهم أبواب التاريخ الأندلسى ، ولها كذلك نفع فى تحديد الاتجاهات الأدبية فى تلك البلاد . والبربر يسمون «العبيد» أحيانا فى لغة ابن برد ، ولا نستطيع أن نفترض غير ذلك : لأنا لا نعرف عصبة ناوأت العرب فى الأندلس غير عصبة البربر ، وقد كتب ابن برد على لسان سليمان بن الحكم عدّة رسائل الى من سماهم ابن بسام "جماعة العبيد" جاء فى إحداها :

(١) الذخيرة ج ١ ص ٤٩ (٢) ص ٥٠

" ولم تزل الأئمة مقبلة على مواليها مختصة لعبيدها تقدّمهم فى الثقة، وتقرّبهم بالمودّة، وتعدّهم لحوادث الأمور، وتقذف بهم فى معضلات الخطوب، فيتولون من اجتهادهم لهم ما أوجب لهم منهم المحبة، حتى شرف القوم ونبلوا، وسما ذكرهم، ونسبوا الى مشهور أنسابهم، ومذكور بيوتاتهم ... وقد أفضى الأمر اليكم معشر الموالى، وهذا اسمكم وقد رفع الله عنكم العبودية به، وأخرجكم عن رق الملك، وصيركم منا، وخلطكم بنا، وأفضى بأنسابكم الينا، والولاء لحمة، ومولى القوم منهم، ملعون من انتمى لغير أبيه، أو ادّعى غير مواليه، هذا حكم الاسلام، على لسانه عليه السلام. وأما حكم الدنيا وسيرة أهل السداد والصلاح فيها فلا يجزئ أيضا، إلا أن يكون ضلعكم معنا، وميلكم إلينا وتعصبكم لنا، فنحن أحق الناس بكم، وأجدر أن نعمل عمل آبائنا فى أمثالكم من مواليهم، فان نقمتم حالا فرّقت الشمل، أو لقيتم أمرا صدع الجمع، فتلك الفتنة التى يعق فيها الابن أباه، ويقتل لها المسلم أخاه... ولعلنا فيما ساءكم من تلك الهنات، ونالكم من الفجعات، أوجع قلوبا، وأشدّ غموما، فسبحان من لو شاء لأطلعكم على غيبنا وعرفكم إشفاقنا عليكم. وكيف لا يكون ذلك كذلك، وما زلتم الشعار والدثار: لا نؤثر عليكم، ولا نثق إلا بكم، فان يكن الشيطان قد نزغ بما نزغ به بين ابنى آدم فمن بعدهما من ذرّيته فقد آن أن تثوب الحلوم: فتعود السيوف فى أغمادها، والنبال فى كنائنها. ونحن نعاهد الله أن لا نؤاخذ أحدا بذنب، ولا نناله بعقوبة، ولا نطوى على إحنة، بل نعفو ونصفح [١] ".

ونجد فى رسالة أخرى حديثا عن كتاب وجهه زعماء البربر الى سليمان يصرحون فيه بأن خلافة الأمويين مادامت إلا بطبقتهم، ولا عزت إلا بدعوتهم، ونجد ابن برد يمنّ عليهم باسم سليمان فيذكر أن طبقتهم لم تظفر إلا حديثا، وأن عددهم لم يكثر إلا قريبا، وأنه أدخلهم فى الدين واستنقذهم من الضلالة، وأخرجهم من الكفر، ثم اصطنعهم ونوه بهم بالتصرف فى الخدمة [٢]، الى أن يقول :

(١) الذخيرة ج ١ ص ٥٠ — ٥٣ (٢) راجع ص ٥٣

" وأقسمتم على أن من حبسناه من رؤسائكم كان أولى بالسياسة، فأنّى لكم ذلك ؟ وإنما أنتم مدبَّرون مسوسون، وأتباع مربوبون ، وبناء التدبير نازح عنكم، والسياسة القويمة محجوبة دونكم، ومتى بلغكم عن عبد ثرب على مولاه فأفلح، أو سمعتم بجند شغب على مدبريه فأنجح، والله تعالى ودينه وخلائفه فى غنى عمن عند عليه وحادّه ، وأنجر فى الاسلام وشاقه، وخرج عن الجماعة، وشق عصا الإمامة، وآستخف بحقوق الأئمة، ونازع الأمر أهله . ولولا أن أمير المؤمنين يعلم أن ملأكم لم يجتمع على هذا الكتاب ، وأن أهل السداد منكم لم يرضوا هذا الخطاب، لكان له فى ذلك نظر يقيم الأود، ويعدل الميل... وآعلموا أن السداد والحلم والكظم من أخلاقه، والرفق والأناة من شيمه، فآقبلوا أدبه ، وانتفعوا بموعظته ، فلو كشف لكم الغطاء، واجتلى عليكم الغيب ، لعلمتم أن أمير المؤمنين لا ينام عن مصالحكم ولا ينى فى منافعكم، ولا يسعى إلا فيما يردّ ألفتكم، ويجمع كلمتكم "[1] .

وهذا كله كلام طيب ، ولكن أين دلالته على قوة ابن برد النفسية ؟ إنه كلام كسائر ما يسطِّر كتّاب الدواوين، فليس فيه اتجاهات فلسفية ولا اجتماعية أكثر مما كان يكتب عادة على ألسنة الأمراء والسلاطين، وقد اتفق لابن برد أن يجهد نفسه فى الكلام عن معنى الرعية فلم يزد على أن قال :

" إن الرعية من السلطان بمكان الأشباح من الأرواح، وصلاحها وفسادها متصلان، ونماؤها ونقصانها منتظمان : إذ كانت الرعية عنصر المال، ومادّة الجباية، وفيهما قوام الملك وعز السلطان، ورزق الأجناد التى بها يقاتل العدوّ، وينصر الدين، وتحمى الحرم "[2] .

وهذا أيضا كلام طيب ولكنه أقل مما سُبِق اليه فى مثل هذه الشؤون .

٦ — وقد اقترن اسم ابن برد فى تاريخ الأندلس بكتابة العهد : عهد الخليفة المؤيد بالله هشام بن الحكم الأموى، وكان لهذا العهد صدى فى كتب المتقدّمين : فتحدّث عنه ابن بسام والمقّرى والقلقشندى وابن خلدون[3] . وليس لهذا العهد قيمة إلا من الوجهة التاريخية لما

(١) ج ١ ص ٥٣ (٢) ص ٥٤ (٣) يكفى ان تراجع نفح الطيب ص ٢٧٧ و ٢٧٨ ج ١

فيه من الدلالة على صولة العامريين وضعف الخلفاء ، ولكنه من الوجهة الأدبية والنفسية دليل على أن ابن برد كان من أتباع الغالب على أى حال . ألم يذكر على لسان هشام انه" بعد اطراح الهوى ، والتحرى للحق ... وبعد أن قطع الأواصر ، وأسخط الأقارب ، لم يجد أحدا أجدر أن يوليه عهده، ويفوّض اليه الخلافة بعده ، لفضل نفسه ، وكرم خيمه، وشرف مرتبته، وعلو منصبه، مع تقاه وعفافه ومعرفته وحزمه ونقاوته : من المأمون الغيب، الناصح الجيب، أبى المطرِّف عبد الرحمن بن المنصور " .

ولم يقف ابن برد عند هذا ، بل استرسل فزعم ان ذلك القحطانى المتسلط هو الذى أشار اليه الحديث النبوى الذى يقول " لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه " فكان ابن برد على هذا من أنصار " التهريج " فى الوضع والتأويل !

٧ — ومن أسوأ ما وقع لابن برد كتابه عن المظفر حين قتل وزيره عيسى بن سعيد (١) وهو كتاب فاجر جاءت فيه هذه الكلمات :

" أيها الناس ! ان من علم منكم حالة الخائن عيسى بن سعيد بالمشاهدة، ورأى النعمة عليه بالمحاضرة ، فقد اكتفى بما شاهد ، واجتزأ بما حاضر ، ومن غاب عنه ذلك من عوامكم : لانتزاح منزل ، أو لاتصال شغل ، فليعلم أننا أخذناه من الحضيض الأوهد ، وانتشلناه من شظف العيش الأنكد ، فرفعنا خسيسته ، وتممنا نقيصته، وخولناه صنوف الأموال، وصيرنا حاله فوق الأحوال، فلم يقم لله بحق، ولاقابل إحسانه بصدق، ولاعامل رعيتنا برفق، ولاتناول خدمتنا بحق ، بل أعلن بالمعاصى ، واستذل الأعزة وذوى المروءة ، ونافرهم ، وأنس بأضدادهم، ونبذ عهودنا، وخالف سُبلنا، وكدر على الناس صفونا ، حتى اذا ملكه الأشر ، وتمادى به البطر، وعلت به الأمور ، وغره بالله الغرور ، حاول شق عصا الأمة ، وهد ركن الخلافة والأمانة، بما احتجن من حرام المال، واستمال من طغام الرجال، فجحدْه نعمنا عنده، وخصمته عوارفنا لديه ، وكشف لنا سر نيته حتى صرعه بغيه ، وأسلمه غدره ، وأخذه الله بما اجترم، وأوبقه بما اكتسب، فأعجلناه عن تدبيره ، وصار الى نار الله وسعيره " .

(١) راجع الذخيرة ج ١ ص ٥٥ — ٥٩

وإنما وصفنا هـذا الكتّاب بالفجور لأن ذلك الوزير أُخِذ للقتل من مجلس شرابه وكان فيه أبو حفص بن برد، ولو صدقنا ابن بسام لكان ذلك الوزير من صرعى النمائم والوشايات.

٨ — وخلاصة ما سلف أن ابن برد كان قوّة أدبية ، وكان من كبار الكتّاب فى دولة العامريين ولكن أدبه ضاع فى الدفاع عن الحق حينا ، والتزلف الى الباطل أحيـانا . وكان لا يعرف ما يأتى وما يدع : لأنّ ظروف السياسة لعهده لم تكن تمكن كاتبا ولا شاعرا من أن يكون أدبه صدى لخالص النية وطاهر الوجدان . وكان ابن برد كاتبـا ووزيرا ، والكتابة والوزارة وسيلتان من وسائل الظلم والبغى عند من تغويهـم منافع العيش ، وتضلهم أباطيل هـذه الدنيا الغَرور .

٩ — وهـذا الجانب النفعى هو الذى عرفناه أو عرفنا رسومه من ابن برد، لأن من ترجموا له لم يجدوا فيما يظهر غير بقايا من رسائله الرسمية، أما اللون الجميـل من أدب الكتّاب الذى يتحدث عن الاخوانيات وعن أنفس الكاتبين فى صـدق و إخلاص فلم تبق منـه بقية شافية، لأن الأدب السياسى كان طغى على ما سواه من ألوان الأدب فى تلك الأيام ، ولأن الشعر كان استبد أو كاد بالحديث عن سرائر النفوس ، ودقائق الأحاسيس، وما كان الناس ينتظرون أن يحدثهـم النثر إلا عمـا يصدر عن الخلفاء والأمراء والوزراء من رقاع الإغراء والوعيـد . وكذلك آسـتذل الكتّاب حينا لأهواء المسـيطرين : فلم يكن أدبهـم صـورة لنفوسهم وقلوبهم وأذواقهم ، و إنما كان فى الأغلب صـدى لجلجلة الاستبداد والطغيان . وآفة الأدب أن يكون صدى لغير ما يجيش فى صدور الكرام من نوازع الصدق واليقين .

٤ – أبو المغيرة بن حزم

١ – فى الأصل الفرنسى فصل عن أبى عامر بن شهيد، وكان لذلك الفصل أثر طيب فى تقويم الكتاب، لأن ابن شهيد من الأعلام التى لم يتنبه اليها المستشرقون الفرنسيون. أما الرجل الذى أتحدث عنه فى هذا الفصل فهو شخصية قوية جذابة لم يتنبه اليها أحد من الباحثين، ولم يُعرف عنها كثير ولا قليل، وهو ابن حزم! وهنا يلتفت القارئ باسما بسمة السخرية: لأن ابن حزم معروف، طبّق صيته الشرق والغرب، فلنسارع إذن بتقرير ما هدانا اليه البحث من أن "ابن حزم" يطلق على شخصين أحدهما معروف وهو أبو محمد على بن أبى عمر أحمد بن سعيد الفقيه الأديب، وثانيهما مجهول وهو أبو المغيرة عبد الوهاب بن حزم الشاعر الكاتب، وهما من بيت واحد وابنا عم(١)، ويمكن الحكم بأن أولهما أفقه وأعلم، وثانيهما أكتب وأشعر.

٢ – لم أجد من المصادر ما يغنى فى تحديد الزمن الذى عاشه أبو المغيرة بن حزم، ولكن من المؤكد أنه شهد سِرار القرن الرابع وفجر القرن الخامس، ومن أخباره أنه تولى الوزارة للمستظهر بالله عبد الرحمن بن هشام(٢)، وربما كان السبب فى خموله أنه اعتبط(٣) شابا "ولو طال به مداه، لم يذكر معه سواه" كما قال ابن بسام، يضاف الى ذلك أن شخصية ابن عمه أبى محمد بن حزم طغت عليه فأغرقته فى لجج من النسيان. ومن عجيب المصادفات أن أبا محمد كان يتوقع له هذا الخمول، ذلك بأنه جرت بينهما مقارعات فكتب اليه أبو محمد يقول:

كفانى بذكرى الناس لى ومآثرى ... ومالك فيهم يا ابن عمىَ ذاكر

(١) أبو المغيرة بن حزم هو عبد الوهاب بن أحمد بن عبد الرحمن (نفح الطيب ج ٢ ص ١٠٨ طبع ليدن) وجاء فى النفح (ص ١٨٥ ج ١) أن أبا محمد بن حزم فارسى الأصل وليس من «بنى حزم» وهى أسرة عربية أندلسية.
(٢) قال المقرى فى الحديث عن المستظهر: "وكان قد رفع جماعة من الأتباع ذهب بهم العجب كل مذهب كأبى عامر ابن شهيد المنهمك فى بطالته، وأبى محمد بن حزم المشهور بالرد على العلماء فى مقالته، وابن عمه عبد الوهاب بن حزم الغزل المترف فى حالته" نفح الطيب ج ١ ص ٣١٩ (٣) اعتبط بالبناء للمجهول: مات.

عدوى وأشياعى كثير كذاك من — غدا وهو نفاع المساعى وضائر
ومالك فيهم من عدو فيتقى — ولا لك فيهم من صديق يكاثر
وقولىَ مسموع له ومصدّق — وقولك منبث مع الريح طائر
وانى وان آذيتنى وعققتنى — لمحتمل ما جاءنى منك صابر

وقد أجابه أبو المغيرة بقصيدة لاذعة نكتفى منها بهذه الأبيات :

وغاصب حق أو بقته المقادر — يذكرنى حاميم والرمح شاجر
غدا يستعير الفخر من خِيم خصمه — ويجهل أن الحق أبلج ظاهر
ألم تعلم يا أخا الظلم أننى — برغمك ناه منذ عشر وآمر
تذلل لى الأملاك حر نفوسها — وأركب ظهر النسر والنسر طائر
وأبعث فى أهل الزمان شواردا — تؤلفهم وهى الصعاب النوافر
فان أثو فى أرض فإنىَ سائر — وإن أنا عن قوم فانىَ حاضر

والذى يوازن بين هاتين القطعتين يتبين أن شعر أبى محمد يشبه شعر الفقهاء، وهو من رجال الفقه والأصول، وأن شعر أبى المغيرة يسمو به الى طبقات الفحول من الشعراء .

٣ — والواقع أن أبا المغيرة كان مفتونا بالدراسات الأدبية، ومصروفا عن الدراسات الفقهية، حتى لنجده يسخر من علوم ابن عمه فيقول :

” نسيت أبا محمد حاشيتك وشيعتك التى صرت رئيس مدارسهم ، وكبير أحراسهم ، تحدثهم عما كان فيهم من العبر، وتخبرهم بما تعاقب عليهم من الصفاء والكدر ، فتارة عن السامرى والعجل، وتارة عن القمل والنمل ، وطورا تبكيهم بحديث التيه، وطورا تضحكهم بقوم جالوت وذويه، حتى كأن التوراة مصحفك، وبيت الحزان معتكفك “ .

وهذا التعريض يذكرنا بما أخذ ابن شهيد على الجاحظ من الاهتمام بغرائب الزواحف والدواب [١] .

---

(١) راجع ص ٥٧ من هذا الجزء .

٤ — وليس هذا كل ما يميز ابنى حزم أحدهما عن الآخر فى اتجاه الأذواق، بل يحدّثنا ابن بسام بأن أبا المغيرة "كان أنبه من أبى محمد فى حضور شاهده، وذكاء خاطره، وحسن هيئته، وبراعة ظرفه، وجودة أدبه".

وتلك صفات كان يتميز بها الأديب على الفقيه فى أكثر الأحيان.

٥ — تدل أخبار أبى المغيرة ورسائله وقصائده على انه كان دقيق الحس فى اختيار أطايب الحياة، وفى كلامه فقرات فى الدعوة الى مجالس الأنس تذكر بأدباء الشرق كالميكالى وابن العميد، ولننظر كيف يقول:

"فالأرض قد نشرت ملاءها، وسحبت رداءها، ولبست جلبابها، وتقلدت سحابها، وبرز الورد من كمامه، واهتز الروض لتغريد حمامه، والأشجار قد نشرت شعورها، وهزت رؤوسها، والدنيا قد أبدت شموسها، وأماطت عبوسها، وكأنى بها قد أطلعت من كل ثمر ضروبا، وأبدت من جناها منظرا عجيبا، وان كنا لا نشارك فى تلك إلا باللسان لا بالعيان، وبالطرف لا بالكف، وللدهر قسم من أقسام اللذة، وصنف من أصناف الشهوة:

شهدنا إذ رأيناهم بأنا على اللذات فى الدنيا شهود"[1]

٦ — على أنه كان — كسائر من تغويهم شهوات الحواس — سيئ الظن بالناس، لأن الخلق لاتتكشف طبائعهم إلا لمن يأنس اليهم فى مجالس السلاف وملاعب الجمال، ومن أجل ذلك نراه ينظر الى العالم نظرة مُشرَبة بالتحفظ والكتمان، ويقرر أن فى الاحتماء حسم الداء، وأنْ لا عدوّ للانسان إلا نفسه، ولا حية ولا عقرب إلا جنسه، ثم يقول:

"وليس فى الحيوان أخبث من الانسان، فالاحتراس كل الاحتراس، والمعاشرة الجميلة للناس، لا تُلدَغنَّ من جحر مرتين، واذكر المثل السائر فى الملاعب بين وتدين، والعاقل من حمله كل بلد، ونفق عند كل أحد، وأعقل منه من عرف الناس، ولم يعرفوه، فاستراح من أجنبى متكلف، الى قريب غير منصف، ولم يفتقر إلا الى ربه، ولم يأنس إلا بنور لبه"[1].

(١) الذخيرة ج ١ ص ٧٤

وهـذه الفقرة تمثله كأحكم الحكماء لو كان الى السلامة من شر الناس سبيل . ولكنى ما أحسبه دعا تلك الدعوة الا بعد أن رأى وذاق كيف يكون الغدر والخيانة والعقوق ، لأن الحكماء لا يعظون إلا بعد أن تكوى أيديهم وتشتعل رؤوسهم وهم يقاسون ماتنطوى عليه صدور الأصحاب والألّاف والأصدقاء من مظلمات النيات ومنكرات الأغراض، والطبيعة الانسانية لئيمة تبيح كل شر، وتسـمح بكل بغيض من جنى اللؤم ممقوت، ويكاد الرجل لا يلقى الشر إلا من أصفيائه ولا يُجنى الشوك إلا حيث يغرس الأزهار والرياحين .

٧ — على أن له — مع سوء ظنه بالناس — كلمات تكشف عن تعلقه بأصدقائه، وحنينه اليهم، وعطفه عليهم، فنراه يقول فى بعض رسائله :

”وما أعلم نائبة كفراقك أهدّ لمتن، ولا نازلة كنأيك أجلب لحزن،وما كنت أريم ربعك لو كان لى الخيار، أو أبرح منزلك لو سامحتنى الأقدار[1]“ .

ويقول من رسالة ثانية :

” وان رأيت تأنيسى بكتاب أجتلى منه وجوه البدور، وجواهر النحور ، ودرر الثغور، وأجتنى ثمر السرور، وأرتع منه فى رياض العلوم، مابين منثور ومنظوم، نفّست خناق مشتاق، وأنست من وحشة الفراق ، منفردا غريبا بحيث لا أخ كريم ، ولا صديق حميم ، فقد صرت ولا أحيل على الأثر بعد العين ، كما قال أحمد بن الحسين :

ما مقامى بدار نخـلة إلا كمقام المسيح بين اليهود“

وللقـارئ أن يلاحظ أن ما اخترناه من الرسالة الثانيـة يصرح بضجر أبى المغيرة وتبرمه
حود، اذ يعيش منفردا غريبا بحيث لا أخ كريم، ولا صديق حميم . وتلك غاية فى البؤس
والعقوئـب لا غنى لروحه عن حلاوة المودة وعذوبة الوفاء .

يهجو ابن عمه . حمله ضجره على الاكثار من شكوى الزمان ، فتارة يشـكو غربة قومه

(١) الذخيرة ج ١ ب أهل الشرق عن علومهم وفنونهم وآدابهم فيقول :

القارئ إن شاء . ٧٥

"لقد نادينا لو أسمعنا، وطرنا لو وقعنا، وما أشبهنا بالغريبة التي خيرها يدفن، وشرها يعلن، يتعب أحدنا نفسه، ويذهب حسه، ويعارض السيف بفهمه، والبحر بعلمه، والنار بذكائه، والزمان بمضائه، ونتائج فكره محجوبة، وبنات صدره غير مخطوبة، إن يسمعوا ريبة طاروا بها فرحا، وان رأوا فضيلة وجموا لها ترحا"(١) .

وتارة يتحدث عن بلائه بالناس فيقول :

«بانعكاس الزمان، انعكست أمثال البيان، كما روى عن الفتى المدعى للكتابة عند عمرو ابن مسعدة أنه عاياه بكتاب من صاحب البريد بخبر بقرة ولدت غلاما فأنشأ خطبة مفتتحها "الحمد لله خالق الأنام، فى بطون الأنعام" فجذب الرقعة من يده وبالغ فى إجزال صفده . واذا تأملت انقلاب الزمان، وما وقع لى مع فلان انقلبت الخطبة فصارت "الحمد لله خالق الأنعام، فى بطون الأنام" وكم قد كشفت عن عوراته، وما زالت مكشوفة، وعرفت بسوآته، وما زالت معروفة، إخبارا عنه، وتحذيرا منه، واعلاما بما يستره ذيله، ويشتمل عليه ليله، من قبائح يجلبها العار، ويكتبها الليل والنهار» .

وأصرح من هذا قوله فى وصف غدرات الأيام :

"فحين شمخ بالظافر أنفى، واهتز لنيل الأمل عِطفى، والدهر يضحك سرا، ويتأبط شرا، وقد أذهلنى الجذل عن سوء ظنى به، وأوهمنى نزوعه عن ذميم مذهبه، أتت ألوانه، وفسا ظَرِبانه، ونادى ليقم من قعد، ويتنبه من رقد، انما فترتُ تلك الفترة، ليكون ما رأيت عليك حسرة، وسمحت لك مرة، لتذوق عليها كأسا مرة، فرأيت وقد غطى على بصرى، وعقلت وكنت فى عمياء من ظفرى، وقلت هو الذى أعهده من لؤمه، وأعرفه من شؤم من وهب الا سلب، ولا أعطى الا ساعة كابهام القطا، فياله من قادر ما ألأمه، فاستراح ما أحدّ شفرته" . إلا بنور لبه"(١).

---

(١) الذخيرة ج ١ ص ٦٥

٩ — وقد قاده هذا المزاج الى الإقذاع فى الهجاء. وله فى الذم فقرات مكشوفة يتقزز منها القارئ، وقد ختم إحدى أهاجيه بهذه العبارة "قبح الله زمانا يقرب الى اللئيم حصانا، والى الكريم أتانا" وربما كان أقبح أهاجيه ماقارع به ابن عمه أبا محمد بن حزم، كقوله يصف كتابا وصل اليه منه "معنى كصدأ الأسنان، ولفظ كنفحات الأكفان، وأعراض لا مدبّ فيها لسهم مقرطس، وأعلام لا وضح فيها لصبح متنفس، ورطانة تمجها الأسماع، وتخبو بها الطباع، فوقفت متبلدا، وعدت على نفسى وقريحتى مترددا، فقالتا أيها الانسان، لست بالنبى سليمان، متى وعدناك أن نفهمك كلام النحل، وسرار النمل؟ ألم نسلك بك شعاب الكلام فتغلغلت؟ ألم تسر فى صحرائه فأوغلت؟ ألم تجل فى ميدانه فسبقت؟ ألم تسر فى ظلمائه فأشرقت؟ هل أحسست بنكول جنان، أو قصور لسان، فيما نظمت كالعقود، على ترائب الفتاة الرّود، ونثرت كالنجوم، فى صفحة الليل البهيم، فقلت: بلى! قالتا: فأعرض عن رطانة الزط، وصفير البط، ولا تعج على طلل بائد، ودار قد أتى الله بنيانها من القواعد! فقلت: لقد أسرفتما طاعنين، إن كاتب الصحيفة لندرة الزمان، ولعالم نوع الإحسان. إلا أنه ربما كذب العنوان. فأعدت النظر فاذا بك — أبا محمد — صاحبه! كتاب بنى على الظلم العبقرى، والبهتان الجلى، ومكابرة العيان، ومدافعة البرهان، قد طمس الله أنواره، وأظهر عواره، فجاء كالفلاة القوراء: لا ماء ولا شجر، والليلة الظلماء: لا نجم ولا قمر»[(١)].

وهذا التهاجى بين أبناء العم لا غرابة فيه، فان الأدب العربى يزخر بهذا النوع من تظالم الأقرباء: لأنّ ثائرة الحقد أشدّ ما تكون تأججا واضطراما بين الأقربين وهى عند العرب من أقوى بواعث الطموح الى المجد، ومن أشدّ الحوافز لإيقاد ما خمد من جذوات النفوس والعقول. ومن هنا نرى أهاجى أبى المغيرة لأبن عمه أمر وأقسى من أهاجيه لغيره، فانه يهجو ابن عمه بحفيظة وحقد على حين لا يخرج هجاؤه لغيره عن المزاح الثقيل، كقوله فى التهكم

(١) الذخيرة ج ١ ص ٧٨ وفى نفح الطيب ج ١ ص ٥١٣ فقرات من تهاجى هذين الكاتبين، فليرجع اليهما القارئ إن شاء.

ببعض المتطببين : " وآشرح لى خبر فلان، وأين بلغ من تكسبه، وحيث آنتهى من تطببه، وكيف ظروفه وخزائنه، ولعوقاته ومعاجنه؟ وهل ينفذ طبه، وينفق حبه؟ وصف لى مايقوله على المـاء، ويبديه من الأدواء، وأهد الىّ ما ينقّه من المقال، على الكبد والطحال، ويرقشه من الكلام، فى الفالج والزكام، فالحمد لمن قرن له ذلك الى القيام، بشريعة الاسلام، والتمهر فى الأحكام، ومعرفة الحلال والحرام، والفلج عند الخصام[١] " .

١٠ — ومع أن أبا المغيرة من الشعراء الفحول فانا نراه يتخذ النثر أداة للتعبير عن الأبواب الخاصة بالشعر كالغزل والمديح وهو فى ذلك يحاكى بديع الزمان الذى يحرص أشدّ الحرص على أن يؤدّى بالنثر كل ما يؤدّى بالقصيد . وإنما خصصنا بديع الزمان بالذات لأنا نرى فى نثر أبى المغيرة نفحة همذانية . ويكاد الرجلان يتشابهان، لولا جزالة ابن حزم ورقة بديع الزمان . والظاهر أن رسائل الهمذانى كانت وصلت مسرعة الى الأندلس، وآطلع عليها المتأدّبون هناك، والى القارئ رسالة لأبى المغيرة تمثل روح الهمذانى أصدق تمثيل :

" فكم ليث كان فى غابة سمعت صريف أنيابه، وقفر أ نست فى يبابه، الى عواء ذئابه، لاأمر إلا بالنص المستلب، ولا ألق غير الخارب المنتهب، والشعار عندالنائبه ألقاها فأتخطاها، والنازلة أراها فأتعدّاها، قول أبى الطيب :

فان أسلم فـا أبقى ، ولكن سلمت من الحِمام الى الحِمام

وأنا أرقب من الزمان صنيعه، وأتوقع من الحمام وقوعه، وهو يذهب بى الى قبلة الآمال وأنا لا أصدّق، ويسوقنى الى محط الرحال وأنا لا أحقق ، ويؤم بى البحر الذى لا تحصى فرائده، والغيث الذى لا يجدب رائده، حتى أدانى الى الحضرة العلياء، والمحلة الشماء، فكبرت إكبارا لمـا صرت اليـه، وهللت إعظاما لمـا سقطت عليـه، وعلمت أنى فى الحرم الذى لا يضار جنابه، ولا يطار غرابه، ولا يخضد شجره، ولا يمنع ثمره، ولم ألبث ان نزلت باليفاع الخصيب ، وتمكنت من الرشاء والقليب[١] " .

---

(١) الذخيرة ج ١ ص ٧٤ و ٧٥ والرشاء الحبل ، والقليب البئر .

ولم يقف تأثره ببديع الزمان عند محاكاته فى المذهب والأسلوب ، بل تعدّاه الى معارضة ما اشتهر من رسائله ، فقد وضع الهمذانى رسالة شائقة فى إنسان جمع بين اللؤم والجمال ، ثم دالت دولة شبابه فعاد من الصاغرين ، وهى رسالة مشهورة اهتم بمعارضتها كثير من الكتاب آخرهم المرحوم الشيخ عبد العزيز شاويش ، والظاهر أنها بهرت أهل الأندلس فعارضها أبو المغيرة بن حزم برسالة طويلة نقتطف منها الفقرات الآتية :

" ورد كتابك ينشد ضالة ودّنا ، ويرقع خلَق عهدنا ، ويطلب ما أفاتته جريرتك الينا ، وذهبت به جنايتك علينا ، أيام غصنك ناضر ، وبدرك زاهر ، لا نجد رسولا اليك إلا نظرة تخرق حجاب الدموع ، ونفرة تقيم منآد الضلوع ، فان رمنا شكوى ينفث بها مصدورنا ، ويستريح اليها مهجورنا ، لقينا دونك أمنع سدّ ، وأقبح صدّ ، وأقدح زند ، وأبرح ردّ ، حتى إذا طفئت تلك النيران ، وانتصف لنا منك الزمان ، بشعرات أعشت هلالك كسوفا ، وقلبت ديباجتك صوفا ، وأعادت نهارك ليلا ، وناحت عليك تلهفا وويلا ، وأطار حمامك غرابك ، وحجب ضياك ضبابك ، فصار عرسك مأتما ، وعاد وصلك محرما :

وبت مداماً تسر النزيفا   فأصبحت تجرع خلا ثقيفا
وصرت مجازًا جديب المحل   وقد كنت للطالب الخصب ريفا

أقبلت تتسلل الينا لواذا ، وتطلب منا عواذا . قد أنساك ذل العزل عز الولاية ، وأولاك طمعا نسيانك تلك الجناية ، أيام ترشقنا بسهام لحاظك رشقا ، وتقتلنا بسيوف ألفاظك عشقا ، وتميس غصنا ، فتثير حزنا ، وتطلع شمسا ، وتغيب نفسا ، فالآن نلقاك بدمع قد جفّ ، ووجد قد كفّ . وعزاء قد أبّد ، وصبر قد غار وأنجد ، وننظر منك الى روض قد صوّح ، وسار قد أصبح ، وأعجم قد أفصح ، ومبهم قد صرح ... الخ "(١) .

١١ — نثر أبى المغيرة فى جملته متين رصين ، لولا ما يتطرق اليه أحيانا من قبح التعمل ، ودمامة التكلف ، وهو فى الأغلب مسجوع . وفى الذخيرة شواهد على تكلفه ، وهو تكلف ممضّ ، نكتفى بالاشارة إليه ، ولا نعرض له بتحليل ولا تلخيص ، ومن المرجح أن تلك الرسائل المتكلفة كانت مما كتبه قبل أن ينضج ويسلس له البيان .

(١) الذخيرة ج ١ ص ٦٧

٥ – أبو الفرج الببغا

١ – الببغا هو عبد الواحد بن نصر المخزومى . وانما لقب بالببغا للثغة ظريفة كانت تزين لسانه، نشأ فى نصيبين واتصل بسيف الدولة فى شبابه، فلما مات صاحبه تنقلت به الأحوال بين الموصل و بغداد، فنادم الملوك والرؤساء، وقضى حياته مقسم الحظ بين النجاح والإخفاق : ينعم تارة ويشقى أخرى، حتى وافاه حمامه لثلاث بقين من شعبان سنة ٣٩٨

قال الثعالبي : "وآخر ما بلغنى من خبره ما سمعت الأمير أبا الفضل عبد الله بن أحمد الميكالى يورده من ذكر التقائه معه عند صدَره من الحج وحصوله ببغداد فى سنة تسعين وثلثمائة ورؤيته بها شيخا عالى السن ، متطاول الأمد، نظيف اللبسة ، بهى الركبة، مليح اللثغة ، ظريف الجملة، قد أخذت الأيام من جسمه وقوته، ولم تأخذ من ظرفه وأدبه ... ثم عرض علىّ القاضى أبو بشر الفضل بن محمد بجرجان سنة إحدى وتسعين كتاب أبى الفرج الوارد عليه من بغداد مشتملا من النظم والنثر على ما أثر فيه حال من بلغ ساحل الحياة، ووقف على ثنية الوداع"[١] .

٢ – كان الببغا من أركان الحياة الأدبية فى زمانه، ولكن المؤلفين لم يتحدثوا عنه إلا قليلا، فكان من نتائج ذلك أن قلت المصادر التى تكفى لتعيين اتجاهاته الأدبية، وإقلال المؤلفين من الحديث عنه يعيّن بعض صفاته، لأن المؤلفين يهتمون فى الأغلب بتقييد مايصل اليهم من أخبار المشاغبين من الكتّاب والشعراء، فأكثر من عرفت حالهم من رجال الأدب كانوا فى حياتهم رجال دسائس ومكائد وسفاهات : وأكثر ما يكونون من طبقات الوزراء أو أمناء الملوك والوزراء .

فإن ظفرت بكاتب خامل الذكر أو شاعر مجهول القدر فلا تنس أن تلاحظ أن هذا لم يكن إلا لأن ذلك المغبون كان فى حياته هادئ النفس قليل المطامع محدود الآمال. ومجموعة

(١) ص ١٤٧ ج ١ يتيمة الدهر .

ما وصل الينا من شعر الببغا و رسائله وقصصه تدلنا على أنه لم يتصل بملوك زمانه على نحو ما كان يتصل الصاحب بن عباد أو أبو الفضل بن العميد .

وانما كانت صلاته بالملوك والرؤساء عند الحدود الضيقة حدود السمر والأنس حول بساط السلاف .

٣ — و إنا لنراه يدور حول شهواته وأغراضه النفسية فى أكثر ما أُثِر عنه من المقطوعات والرسائل والأقاصيص، بحيث نستطيع أن نقدّر أنه كان لا يرجو من صلات الملوك والوزراء والرؤساء أكثر من أن ينضو عن نفسه ثوب الفافه والإملاق ، وأن يكون فى يده من الذهب ما يقتنص به شوارد اللذات، وأوابد الأهواء :

وفى هذا الذى نقضى به تعليل لصفاء شعره الوجدانى، فقد كان شعر الببغا يُغَنَّى به وكان من مُتَع السامرين فى الشام والعراق، ولننظر كيف يقول فى محبوب رمدت عيناه :

بنفسىَ ما يشكوه من راح طرفه ونرجسه مما دهَى حسنه ورد
أراقت دمى ظلما محاسن وجهه فأضحى وفى عينيه آثاره تبدو
غدت عينه كالخد حتى كأنما سقى عينه من ماء توريده الخد
لئن أصبحت رمداء مقلة مالكى لقد طال ما آستشفت بها مُقَلٌ رمد (١)

ولننظر كذلك كيف يقول فى محبوب فصده مِبضع الطبيب :

بأبى الغائب الذى لم يغب عنى فأشكو اليه همّ المغيب
باشرتْه كف الطبيب فلو نلت الأمانى قبلت كف الطبيب
فعلتْ فى ذراعه ظبة المبضع أفعال لحظه بالقلوب
فأسالت دما كأن جفونى عصفرته بدمعها المسكوب
طاب جدا فلو به سمح الدهر لأمسى عطرى وأصبح طيبى (١)

وهذه معان دقيقة لا يحسنها إلا من يفرغ لأمثالها من شعراء الوجدان .

---

(١) ص ١٩٥ ج ١ يتيمه .

وإنا لنتأمل فى شعره فنجده يرتقب فرص زمانه فيقول مثلا فى الورد والربيع والشراب :

زمن الـــورد أظرف الأزمان وأوان الربيــع خير أوان
أدرك النرجس الجنىّ وفـــزنا منهما بالخـــدود والأجفان
أشرفُ الزهر زار فى أشرف الدهر فصِـــلْ فيـــه أشرف الاخوان
وٱجلُ شمس العقار فى يد بدر الـ ـحسن يخـــدمك منهما النيِّران
وأدرها عـــذراء وٱنتهـــز الامـ ـكان من قبـــل عائق الإمكان
فى كئوس كأنهـــا زهر الخشـ ـخاش ضمت شقائق النعمان
وٱختدعها عنـــد البزال بألفـــا ظ المثـــانى ومطربات الأغانى
فهى أولى من العـــرائس إن زفّـ ـت بعزف النايات والعيـــدان (١)

وللقارئ أن يتأمل ٱحتفاء الشاعر بالصهباء ودعوته الى ٱختداعها كما تختــدع العروس بالناى والعود .

٤ — وممـــا يؤكد أن أطماع الببغا من الاتصال بالملوك كانت طفيفة لا تعدو مطالب الرزق أن نراه يقول :

ما الذل إلا تحمـــل المنن فكن عزيزا إن شئت أو فهن
اذا اقتصرنا على اليسير فمـــا العلـ ـة فى عتبنـــا عـــلى الزمن (٢)

وفى هذا المعنى يقول من كلمة ثانية :

صحبت الدهر فى سهل وحَزن وجربت الأمور وجربتـــنى
فلم أر مذ عرفت محل نفسى بلوغ منًى يساوى حمل مَنّ
ولم تتضمن الدنيا لحظى منـــال مســـرة إلا بحـــزن
وليس عـــلىّ غير الجـــد فيما سعيت له لأســـتغنى وأغنى
فان أحرم فلم أحرم لعجـــز وإن أبلغ فنفسى بلغتنى (٢)

(١) ص ١٩٩ ج ١ يتيمه . (٢) ص ٢٠٠ ج ١ يتيمة .

وأدل من هذا على اهتمامه بالوجدانيات أن التنوخى يحدثنا أنه روى عنه قول سيف الدولة :

وقالوا يعود المـاء فى النهر بعدما ... عفت منه أيات وسُدت مشارعُ

فقلت الى أن يرجع المـاء جاريا ... وتعشب جنباه تموت الضـفادع (١)

وحرص الببغا على رواية مثل هذين البيتين يمثل حسرته على أيامه السوالف ولياليه الخوالى .

٥ — وخلوص الببغا من مشا كل دنياه مكنه من أن ينظر الى أهل الأدب نظر العطف والإخاء . ومن شواهد ذلك شوقه الى رؤية أبى اسحاق الصابى ، وقـد اتفق له أن زار بغداد والصابى معتقل منـذ مدة طويلة فلم يصبر عنـه فزاره فى محبسه ، ولكنه شغل عن معاودته فكتب اليه الصابى :

أبا الفـرج آسـلم وآبق وآنعم ولا تزل ... يزيدك صرف الدهر حظ اذا نقص

مضى زمن تستام وصـلي غاليـا ... فأرخصـته والبيـع غالٍ ومرتخص

وآنستـنى فى محبسى بـزيارة ... شفت كمدا من صاحب لك قد خلص

ولكنها كانت كحسـوة طائر ... فواقا كما يسـتفرص السارق الفـرص

وأحسبك آستوحشت من ضيق محبسى ... وأوجست خوفا من تذكرك القفص

كذا الكرز (٢) اللمـاح ينجو بنفسـه ... اذا عاين الأشراك تنصب للقنص

لحوشـيت ياقس الطيـور فصـاحة ... اذا أنشـد المنظوم أو درس القصص (٣)

وقد أجابه الببغا بأبيات جاء فيها قوله :

فان كنت بالببغاء قدما ملقبا ... فكم لقب بالجور لا العدل مخترص

وبعـد فمـا أخشى تقنص جارح ... وقلبـك لى وكر ورأيك لى قفص (٤)

٦ — وما أحب أن تشغلنى الرغبة فى الايجاز عن إثارة بعض ما دار بين الصابى والببغا من المراسلات ،ولأكتفِ بما كان بينهما من وصف "الببغاء" فإن صاحبنا أبا الفرج لمـا لقب

---

(١) ص ١٣٤ نشوار المحاضرة . (٢) الكرز، بضم الكاف، الصقر .

(٣) ص ١٨٧ ج ١ يتيمة . (٤) ص ١٨٨ ج ١ يتيمة .

بالببغا للثغته استطاع الصابى أن يحاوره محاورة طريفة فى وصف الببغاء فهو مثلا يعتذر عن إهماله الرجوع اليه لزيارته فى السجن بقوله :

وأحسبك آستوحشت من ضيق محبسى وأوجست خوفا من تذكرك القفص

وللننظر كيف يقول فى وصف الببغاء :

أنعتها صبيحةً مليحة ناطقةً باللغة الفصيحة
عُدَّتْ من الأطيار واللسانُ يوهمنى بأنها انسانُ
تُنهى الى صاحبها الأخبارا وتكشف الأسرار والأستارا
سكّاء إلا أنها سميعة تعيد ما تسمعه طبيعة
وربما لُقِّنت العضيهة فتغتدى بديهةً سفيهة
زارتك من بلادها البعيدة وآستوطنت عندك كالقعيدة
ضيفٌ قِراه الجوز والأرزُّ والضيف فى أبياتنا يعز
تراه فى منقارها الحلوق كلؤلؤ يلقط بالعقيق
تنظر من عينين كالفصّين فى النور والظلمة بصّاصين
تميس فى حلتها الخضراء مثل الفتاة الغادة العذراء
خريدةٌ خدورها الاقفاص ليس لها من حبسها خلاصُ
تحبسها ومالها من ذنب وإنما تحبسها للحب
تلك النى قلبى بها مشغوفُ كنيت عنها وآسمها معروف
نشرك فيها شاعر الزمان والكاتب المعروف بالبيان
وذاك عبد الواحد بن نصر تقيه نفسى عاديات الدهر (١)

وقد أجاب الببغاء على هذه الأرجوزة البديعة بأرجوزة أطول ولكنها تافهة لم يعجبنا منها إلا قوله فى الببغاء :

(١) ص ١٨٨ و١٧٩ ج ١ يتيمة .

تزهى بدوّاج من الزمرد[1] ومقـــلة كسبج فى عسجد
وحسن منقار أشمّ قانى كأنما صيغ من المرجان
صيّرها انفرادها فى الحبس بنطقها من فصحاء الانس
تميزت فى الطـــير بالبيـــان عن كل مخلوق سوى الانسان
تحكى الذى تسمعه بلا كذب من غير تغيير لجـد أو لعب
غذاؤها أزكى طعـام رغدا لاتشرب الماء ولاتخشى الصدى
ذات شُـعَى[2] تحسبه ياقـوتا لا ترتضى غير الأرزّ قـوتا
كأنما الحبـــة فى منقارها حبابة تطفو على عقـارها
إقـدامها بيأسها الشديد أسكنها فى قفص الحـــديد[3]

٧ — وهذا الوصف وصف الببغاء الذى أجاد فيه الشاعران أتاحته لنا لثغة أبى الفرج التى أبدع فى وصفها الصابى حين قال :

وما هجنتْ منـك المحاسن لثغـةٌ وليس سوى الانسان تلقاه ألثغا
أتعـــرفها فيما تقـدّم خاليـا لعـير اذا ما صاح أو جمـل رغا
فيالك حرفا زدت فضلا بنقصه فأصبحت منـه بالكمال مسوّغا[4]

واللثغة تكون أحيانا أملح من النطق الصحيح : فيكون النقص بها فضلا كما أشار الصابى وان كنا لا نرتضى بقية التمثيل .

٨ — ولا يفوتنا أن نقيـد هنا أن شعر أبى الفرج تغلب عليـه النزعة الوصفية وذلك يتصل بمذهبه فى النثر أشـد آتصال، وهو وإن لم يستطع مصاولة فحول القرن الرابع كالرضى والمتنبى وأبى فراس يبدع أحيانا ويروع حتى لنعده فى طليعة الشعراء . ولننظر كيف تتـدفق الحياة فى قوله يصف قتلى الحرب :

فتركتهم صرعى كأنك بالظُّبا عاطيتهم فى الروع كأس مُدام

(١) الدواج على وزن رمان وغراب اللحاف الذى يلبس (قاموس) . (٢) الشعى كهدى خصل الشعر المشعان، والشعوانة الجمة منه (قاموس) . (٣) ص ١٩٠ ج ١ يتيمة . (٤) ١٩١ ج ١ يتيمة .

متهاجرين على الدنو كأنما أنفتْ رؤوسهمو عن الأجسام (١)

وقوله يخاطب سيف الدولة و يذكر وقعة كانت له مع بنى كلاب وعفوه عنهم :

اذا آستلّك الجانون أغمدك الحلم وان كفك الإبقاء أنهضك العزم

ومن مختار هـذه القصيدة :

ومن لم يؤدبهُ لفرط عتوهِ — إذا ما جنى — الإنصافُ أدبه الظلم
إذا العرب لم تجز اصطناع ملوكها بشكر تعاوت فى سياستها العجم
اعدها الى عادات عفوك محسنا كما عودتْها قبل أباؤك الشُّم
فان ضاق عنها العذر عندك فى الذى جنته فما ضاق التفضل والحلم (٢)

وله أوصاف حية جدا تكاد تنطق بمعانى الموصوف، من ذلك قوله فى وصف معصرة :

ومعصرةٍ أنختُ بها وقرن الشمس لم يغبِ
نخلت قزازهآ بالرا ح بعض معادن الذهب
وقد ذرفتْ لفقد الكر م فيها أعين العنب
وجاش عباب واديها بمنهلّ ومنسكب
و يا قوت العصير بها يلاعب لؤلؤ الحبب
فيا عجبا لعاصرها وما يفنى به عجبى
وكيف يعيش وهو يخو ض فى بحرٍ من اللهب (٣)

وقوله فى وصف الخيل على صهواتها الفرسان :

وكل بعيد قرب الحين نحوه سلاهبك الجردَ الخفافَ قريبُ
تباشر أقطار البلاد كأنها رياح لها فى الخافقين هبوب
تماشى بفتيان كأن جسومهم لخفتها فوق السروج قلوب (٤)

---

(١) ص ١٦١ نشوار المحاضرة (٢) ص ٥٦ نشوار . (٣) ص ١٩٥ ج ١ يتيمة .
(٤) ص ٢٠٣ ج ١ يتيمة .

٦ - نثر أبي الفرج الببغا

١ — يمتاز نثر الببغا بعدة ميزات : أظهرها أنه يمثل عصره من الوجهة الفنية، ويمثل الكاتب فى ميوله الذوقية والوجدانية . فهو من جهة الصورة نثر مسجوع تغلب عليه الفطرة حينا ويسوده التكلف أحيانا . وهو من جهة الموضوع يتصل فى أكثر نواحيه بما يمس الكاتب من حيث هو رجل مودات ومجاملات، وقلّ أن يمثل صاحبه رجل فكرة اجتماعية أو فلسفية، على نحو ما نجد عند بعض كتاب القرن الرابع . ولذلك نقرأ نثر الببغا فى طمأنينة وسكون تتراءى أمام خيالنا أشباح المشاكل الطريفة التى تشغل بال الرجل المهذب الذى يحرص على مجاملة الأوداء والأصدقاء والرؤساء، بدون أن يعنى كثيرا بما تصطرع حوله الأفئدة وتتصاول فى حماه العقول .

٢ — وأول ما يطالعنا من نثر الببغا هو رسائله الإخوانية، كما كان يعبر القدماء، وهى الرسائل التى بث فيها شوقه الى أصحابه وألّافه وإخدانه ، بطريقة وجدانية تقرب فى روحها من قصائد النسيب، كأن يقول :

"شوق المملوك إليه شوق الظمآن الى القطر، والسارى الى غرة الفجر"[1] .

أو يقول :

"شوقى إليه شوق من فقد بالكره سكنه ، وفارق بالضرورة وطنه"[1] .

وقد يحاول تعليل صبره على بعد مودوده فيقول :

"ولولا أن المملوك يخمد نار الاشتياق، ويبرد أوار الفراق، بالتخيُّل الممثل لمن نأت محلته، والتفكر المصور لمن بعدت شقته، لألهبت أنفاسه، وأسعرت حواسه، وهَمَتْ دموعه ، وأنقضت ضلوعه . والله المحمود على ماوفق له من تمازج الأرواح، عند تباين الأشباح"[1] .

---

(١) صبح الأعشى ج ٩ ص ١٤٣

وله فى هذا المعنى الطريف كلمة مستجادة تهش لها النفس ، وتسكن إليها الروح ، وآنظر كيف يقول فى رفق أشبه بتناجى المحبين :

"إن تزايلت الأشباح ، فقد تواصلت الأرواح ، وإن نزحت الأشخاص وبعدت، فقد دنت الأنفس وتقاربت؛ فلا تُمِضُّ الفرقة وتؤلم ، وتنغص النوى وتكلم . وقد ينال بتناجى الضمائر، وتحاور السرائر، مالا تصل إليه الإشارة ، ولا تدل عليه العبارة ، إذ الأنفس البسيطة أرق مسرى ، وأبعد من الألسنة مرمى" (١) .

ونحن نفهم هذا : فقد نعيش على صلة الأرواح مع أصدقاء أقصتهم الليالى عيشا لانجده فى وجوه من نساكنهم ونلاقيهم صباح مساء . والودّ ود القلوب .

٣ — وفى رسائل الببغا تفسيرٌ لبعض الجوانب الاجتماعية، وتأكيدٌ لما عرف عن العرب من بعض الخلال، من ذلك رسالته فى التهنئة بمولودة : فهى تأكيد لما درج عليه العرب والهنود من بغض البنات . ولهذا نراه فى هذه الرسالة يقف موقف الواعظ لا موقف المهنىء، فيقول :

"لو كان الانسان متصرفا فى أمره بارادته ، قادرا على إدراك مشيئته ، لبطلت دلائل القدرة، وآستحالت حقائق الصنعة، ودرست معالم الآمال، وتساوى الناس ببلوغ الأحوال، غير أن الأمر لما كان بغير مشيئته مصنوعا، وعلى ما عنه ظهر فى الابتداء مطبوعا، كان المخرج له الى الوجود من العدم، فيما آرتضاه له غير متهم . ومولانا — أيده الله! — مع كمال فضله، وتناهى عقله ، وحدّة فطنته، وثاقب معرفته، أجل من أن يجهل مواقع النعم الواردة من الله تعالى عليه، أو يتسخط مواهبه الصادرة اليه، فيرمقها بنواظر الكفر، ويسلك بها غير مذاهب الشكر . وقد آتصل بى خبر المولودة، كرم الله غرتها وأطال مدّتها، وعرّف مولانا البركة بها، وبلغه أمله فيها، وما كان من تغيره عند آتضاح الخبر، وإنكار ما اختاره له سابق القدر، فعجب المملوك من ذلك وآستنكره، من مولانا وأنكره : لضيق العذر فى مثله عليه . وقد علم

(١) صبح الأعشى ج ٩ ص ١٤٤

مولانا أنهن أقرب الى القلوب، وأن الله تعالى بدأ بهن بالترتيب فقال جلّ من قائل ﴿ يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور ﴾ وما سماه الله هبة فهو بالشكر أولى، وبحسن التقبل أحرى، ولكم نسب أفدن، وشرف آستحدثن؛ من طرق الأصهار، والآتصال بالأخيار، والملتمس من الذكر نجابته، لا صورته وولادته، ولكم ذكرِ الأنثى أكرمُ منه طبعا، وأظهرُ منه نفعا، فمولانا يصوّر الحال بصورتها، ويجدّد الشكر على ما وهب منها، ويستأنف الأعتراف له تعالى بما هو الأشبه ببصيرته، والأولى بمثله، ان شاء الله تعالى[1] ".

ويظهر أن هذا النوع من التهانى كان من الموضوعات الملحوظة فى القرن الرابع، فقد عقد له الحصرى فصلا فى زهر الآداب . ومن طريف ما جاء فيه تفضيلا للأنثى على الذكر قول بعض الكتاب :

" الدنيا مؤنثة والرجال يخدمونها؛ والنار مؤنثة والذكور يعبدونها؛ والأرض مؤنثة ومنها خلقت البرية، وفيها كثرت الذرية؛ والسماء مؤنثة وقد حليت بالكواكب، وزينت بالنجوم الثواقب؛ والنفس مؤنثة وهى قوام الأبدان، وملاك الحيوان؛ والحياة مؤنثة ولولاها لم تتصرف الأجسام، ولا عرف الأنام؛ والجنة مؤنثة وبها وُعِدَ المتقون، وفيها ينعم المرسلون[2] ".

ويتصل بهذا المعنى ما آقترحه سيف الدولة على الببغا من الكتابة الى من تزوّجت أمه وكان العرب يكرهون أن تتزوج أمهاتهم كرها شديدا .وقد آتفق لعمرو بن مسعدة أن سأله سائل : كيف تكتب لمن تزوجت أمه![3] وهذا دليل على أن كتاب القرن الثانى كانوا يعدّون ذلك من فنون الانشاء . أما فى القرن الرابع فكان ذلك الفن ظاهرا أشد الظهور، وفصّل الكلام عنه مؤلف زهر الآداب : فذكر أن من الحق ما يستحسن تركه، ويستهجن عمله، وأشار الى أنه رأى من لا يحضر تزويج كريمته ويولى أمرها غير نفسه، وأنه عرف من تزوجت أمه

(١) صبح الأعشى ص ٦١ و ٦٢ ج ٩ (٢) زهر الآداب ج ٢ ص ٦٥ الطبعة الثانية .
(٣) صبح الأعشى ص ١٤٥ ج ١

فعظم لذلك همه، وآنفرد عن أودائه، وتوارى عن أصفيائه . حياءً من لقائهم، وكرها لتهنئتهم أو عزائهم . ثم بيّن نماذج ما يكتب فى مثل هذه الحال[1]. و إلى القارىء نص رسالة الببغا التى اقترحها سيف الدولة بن حمدان :

"من سلك اليك — أعزك الله! — سبيل الأنبساط، لم يستوعر مسلكا من المخاطبة فيما يحسن الأنقباض عن ذكر مثله . وآتصل بى ما كان من خبر الواجبة الحق عليك، المنسوبة بعد نسبك اليها اليك — وفّر الله صيانتها — فى آختيارها ما لولا أن الأنفس تتناكره، وشرع المروءة يحظره، لكنت فى مثله بالرضا أولى، و بالأعتداد بما جدده الله فى صيانتها أحرى، فلا يسخطنك من ذلك مارضيه وجوب الشرع، وحسّنه أدب الديانة، ومباح الله أحق أن يتبع وإياك أن تكون ممن لما عدم آختياره تسخط آختيار القدر له، والسلام"[2] .

ولا يفوتنا أن نذكر أن الببغا تأثر فى رسالته هذه خطوات ابن العميد فى نفس الغرض، ولكن رسالة آبن العميد أكثر وحشيةً وأدل على كره العرب لتزوج الأمهات . وأى وحشية أخشن وأغلظ من أن يخاطب من تزوجت أمه بمثل هذه اللهجة فيقول :

"وهَناك الله الذى شرح للتقوى صدرك، ووسّع فى البلوى صبرك، ما ألهمك من التسليم بمشيئته، والرضا بقضيته ... وجعل الله تعالى حده ما بجزعته من أَنَف، وكظمته من أسف معدودًا يعظم الله عليه أجرك، ويجزل به ذخرك، وقرن بالحاضر من آمتعاضك لفعلها، المنتظر من آرتماضك[3] لدفنها، وعوضك من أسرّة فرشها، أعواد نعشها، وجعل ما ينعم عليك بعدها من نعمة، معرّى من نقمة، وما يوليك بعد قبضها من منحة، مبرأ من محنة"[4] .

ونحن حين نصف ذلك بالوحشية متأثرون بروح العصر الذى نعيش فيه، ولو خلونا الى فطرتنا لرأينا ابن العميد يعبر عن نوازع إنسانية، ولا نقول شرقية، لأن الغيرة على الأمهات غيرة فطرية لا يسلم منها انسان ولا حيوان، فلنقف عند تدوين ما يدل عليه الأدب من مظاهر

(١) زهر الآداب ص ٦٢ و ٦٣ ج ٢ الطبعة الثانية . (٢) صبح الأعشى ج ٩ ص ٧٩

(٣) الارتماض : الحزن . (٤) زهر الآداب ج ٢ ص ٦٣

الاجتماع والأخلاق وقفة النزاهة والحياد . وما خصصنا العرب والهنود بكره البنات إلا لظهور ذلك فى أدبهم ظهورا قويا [١] ، وإلا فقد استجوبنا الناس من جميع الأجناس فرأيناهم يؤثرون البنين على البنات . وما نحن على الفطرة الانسانية بمسيطرين .

٤ — ومن النواحى الطريفة فى نثر الببغا رسائله فى استهداء الشراب . وكان هذا الفن من الكتابة مما يؤثره كتاب القرن الرابع ، ولهم فيه فقرات حسان تدل على فتوة القلوب ، وشباب الأرواح . وفى طى ذلك الاستهداء معنى لطيف : فقد كان المستهدى يشير غالبا إلى أن لديه "زائرين أعزاء" يسره أن يجمع شملهم حول بساط السلاف ، وقد يومىء إلى أن لديه (محبوبا) أسعده بزيارته وأنه يحب أن لايكون المجلس محروما من نفحة الصهباء . وانظر ماذا يقول أبو الفرج سامحه الله :

"من كان للفضل نسبا ، ولفلك الفتوة قطبا ، لم تفزع القلوب من الهم إلا إليه ، ولم تعوّل الأنفس فى استماحة المسارّ إلا عليه . وقد طرقنى من إخوانى من كان الدهر يماطلنى بزيارته ، وينفس [٢] علىّ بقربه ومشاهدته ، فصادفنى من المشروب معسرا ، ووجدت الانبساط فى التماسه من غيرك علىّ متعذرا ، والى تفضلك تفزع مروءتى فى الاسعاف منه بما يلم شعث الألفة ، ويجمع شمل المسرة . ويجعلنا لك فى رق الاعتداد بالمنة ، ويقضى عنى بتفضلك حقوق المودة [٣]".

وفى المعنى نفسه يقول من كلمة ثانية :

"ألطف المنن موضعا ، وأجلها من الأنفس موقعا ، ماعمر أوطان المسرة ، وطرد عوارض الهم والفكرة ، وجمع شمل المودّة والألفة ، وأدى الى اجتناء ثمرة اللذة . وبذخائرك من المشروب مع هذه الأوصاف مايسترقّ حُر الشكر ، ويحرز قصب السبق الى الثناء وجميل الذكر ، فإن رأيت أن تجد بالممكن منه مروءتى ، على قضاء حق مَن أوجب علىّ المنة بزيارتى ، فعلت [٤]".

(١) بغض العرب للبنات معروف وقد سجله القرآن ، أما بغض الهنود للبنات فيكفى فى بيانه قول مؤلف كليلة ودمنة "وكان يقال : إن العاقل يعد أبويه أصدقاء ، والأخوة رفقاء ، والأزواج ألفاء ، والبنين ذكرا ، والبنات خصماء ، والأقارب غرماء ، ويعد نفسه فريدا» . (٢) ينفس : يحسد . (٣) صبح الأعشى ج ٩ ص ١٢٣

(٤) صبح الأعشى ج ٩ ص ١٢٣

وعلام يدل هذا النوع من الآستهداء ؟ يدل أوّلا على أن الشراب كان إذ ذاك مما تفرضه المروءة — كما يعبر أبو الفرج — فى السهرات الاخوانية ، ويدل ثانيا على أن الشراب لم يكن من الكثرة بحيث يجده الراغب حيث شاء، كما يقع ذلك اليوم فى أكثر الحواضر الشرقيــة ، وانما كان مما يدّخره المترفون، حتى آستطعنا أن نرى أكثر الأدباء يستهدونه ويتمقون فى طلبه الرسائل الملاح . والآستهداء والآستجداء كلمتان متقاربتان فى الرسم والنطق المدلول (١) .

٥ — وهناك آستهداء أظرف وأشرف : وهو آستهداء الدواة والمداد، ونحن نعلم قيمة ذلك فى أنفس الكتّاب . وقد آستهدى الببغا دواة فقال :

” أنفس الذخائر وأشرف الآمال ما كان للفضــل نسبا ، وللصــناعة والحظوة سببا ، وبالدُّوِىّ تجتنى ثمرة الصــناعة، ويُحتلب دَرُّ الكتابة ، وقد أوحش المملوكَ الدهر ممــا كنت أقتنيه من نفائسها، وضايقه فى وجود الرضىّ على الحقيقة منها ، فإن رأى مولانا أن يميط ببعض ما يســتخدمه من حاليها أو عاطلها سمــة عطلة المملوك، ويســمح بإهدائها الى أهــل تصريفه، ويقابل بالنجح والتقبل رغبته، فعل، إن شاء الله تعالى (٢) “ .

واستهدى مدادًا فقال :

”التنافس — أيدك الله ! — فى أدوات الكتابة وآلات الصناعة بحسب التفاخر فى ظهور النعمة، والتخير لبيان الإمكان والقدرة . وإلا فسائر الدوىّ سواء فيما تصدره الأقلام عنهــا ، وتستمدّه بطون الكتب منها . وأولى آلاتها بأن تتوفر العناية عليه ، وينصرف التخير بالضرورة اليه ، المدادُ الذى هو ينبوع الآداب، وعتاد الكتّاب ، ومادة الافهام، وشرب الأقلام ... ولا معدل بى عن آستماحة خزائنك — عمرها الله ! — الممكن من جيده، فان رأيت أن تستنقذ دواتى من خمول العطلة ، وتنزه قلمى عن ظمأ الغلة ، وتكشف عنها سمــة النقصان والخلة ، فعلت إن شاء الله تعالى (٢) “ .

---

(١) فى هذه اللفتة شىء من الحق ، وكل ما بين الكلمتين من الفرق أن الاستجداء يكون فيما يحتاج اليه المعوزون كالطعام وأن الاستهداء يكون فيما يحتاج اليه المترفون فى أذواقهم وان كانوا فقراء . (٢) صبح الأعشى ج ٩ ص ١٢١

ولنلاحظ أن الببغا لا يستهدى دواة كيف وقعت، ولا مدادا كيف كان ، وانما يستهدى دواة (نفيسة) ولو كانت عاطلة، و يستهدى مدادا (جيدا) ينزه قلمه عن ظمأ الغلة ، وهذا تعبير يتنفس عن شعر بليغ . وآختيار الدواة والمداد كان ولا يزال من أوضح الدلائل على أذواق الكتاب . وللدواة النفيسة والمداد الجيد تأثير قوى جدا فى بعث نشاط الكاتب . وكذلك تفعل الأقلام الجيدة . وهذا كلام فصلناه فى المقدّمة الفرنسية التى صدرنا بها (الرسالة العذراء) فليرجع اليه القارئ هناك[1] .

٦ — وقد لاحظنا أن الببغا يكتب فى الموضوع الواحد غير مرة، وفقا للظروف . من ذلك رسائله فى التهنئة بالزواج[2] والتهنئة بولاية عمل[3] والتهنئة بالقدوم من سفر[4] والتهنئة بالمواسم والاعياد .

وهذا كله طبيعى ومقبول، ولكن الطريف أن يتكرر كلامه فى التهنئة بالصرف عن الولاية ، فقد نفهم أن يهنأ المرء بولاية عمل، ولكنا لا نفهم كيف يهنأ بالعزل، وما ننكر أن يقع ذلك، ولكنه فى رأينا من التكلف المجوج، و إن كان يدل على لباقة وذكاء . ولننظر كيف يحتال الببغا فى مثل هذه الحال :

" من حل محله — أيده الله تعالى! — من رتب الرياسة والنبل، كان معظما فى حالتى الولاية والعزل . لا يقدح فى قدره تغير الأحوال ، ولا ينقله عن موضعه من الفضل تنقل الأعمال، إذ كان استيحاشها للفائت من بركات نظره، بحسب أنسها — كان — بما أفادته من محمود أثره[5] " .

" لو كان لمستحدث الأعمال ومستجد الولايات زيادة على ما آختصك به من كمال الفضل، ومأثور النبل، لحاذرنا انتقال ذلك بانتقال ما كنت تتولاه بمحمود كفايتك، وتحوطه

(١) وللقارئ أن يراجع كذلك ما أثبته صاحب زهر الآداب من (أوصاف آلات الكتابة والدوى والأقلام) ص ٢٢٩ و ٢٣٠ الطبعة الثانية . (٢) أثبت له صاحب الصبح أربع رسائل ص ٥٤ و ٥٥ ج ٩
(٣) أثبت له مؤلف الصبح ثلاث رسائل ص ٢٢ و ٢٣ ج ٩ (٤) أثبت له أربع رسائل ٣٤ و ٣٥ ج ٩
(٥) الصبح ج ٩ ص ٧٧

بنواظر نزاهتك وصيانتك، ... فالأسف فيما تنظر فيه عليك لا منك، والفائدة فيما تتقلده بك لا لك : ولذلك كنت بالصرف مهنأ مسرورا، كما كنت فى الولاية محمودا مشكورا [(١)] ".

٧ — وهـذا الاستطراف لا يفارق الببغا : فقد كتب عدّة رسائل فى التهنئة بالشفاء من المرض، يدور أكثرها حول معنى واحد : هو أنه يشارك صـديقه فى العلة والشكوى . ويعجبنا من ذلك قوله :

" ما كنت أعلم أن عافيتى مقرونة بعافيتـك، ولا سلامتى مضافة لسـلامتك ، الى أن تحققت ذلك من مشاركتى إياك فى حالتى الألم والصحة ، والمرض والمحنة، فالحمـد لله الذى شرف طبعى بمناسبتك، وجمل خلقى بملاءمتك، فيما ساء وسر، وإياه تعالى أشكر على ماخصنى به من كمال عافيتك، وسبوغ سلامتك، وسرعة إقالتك [(٢)] ".

ولكنا نبتسم حين نراه يهنئ صديقا بالمرض فيقول :

" فى ذكر الله سيدى بهذا العارض — أماطه الله وصرفه ، وجعل صحة الأبد خلفه — ما دل على ملاحظته إياه بالعناية، إيقاظًا له من سـنة الغفلة ، إذ كان تعالى لا يذكّر بطروق الآلام، وتنبيـه العظات، غير الصفوة من عباده، الخـيرة من أوليائه، فهنأه الله الفوز بأجر ما يعانيه، وحمل عنه بألطافه ثقل ما هو فيه [(٣)] ".

ولكن لا عجب فالمرض والعزل من الطوارئ التى تحتـاج الى التلطف فى المواساة، وإخراجها مخرج التهنئة فيه طرافة تغرى بالعزاء .

٨ — وقد يتفق للببغا أن يكرر العبارات والألفاظ حين يعاود الكتابة فى موضـوع واحد كقوله فى التعزية :

" اتصـل بى خبر المصيبة : فجدد الحسرة ، وسكب العبرة، وأضرم الحرقة، وضاعف اللوعـــة [(٤)] "

---

(١) الصبح، ج ٩ ص ٧٧ (٢) ص ٦٥ (٣) ص ٧٦ (٤) ٩٦

فنراه يعيد هذه التعابير فى كلمة ثانية فيقول :

" اتصــل بى خبر المصيبة : فأضرم الحسرة ، وسكب العــبرة ، وقدح اللوعة ، وامترى الدمعــــة[١] " .

وله فى هذا عذره : فان اللغة محدودة ، وبعض المعانى يعسر الافتنان فى تلوينها أحيانا . على أنه اســتطاع أن يخفى فقره قليــلا حين قال (أضرم الحسرة) مقابل (جدد الحسرة) وقال (قدح اللوعة) مقابل (أضرم الحرقة) وان كان كرر (سكب العبرة) بلفظها فى الرسالتين .

وكذلك كرر المعنى والعبارة فى قوله تعزيةً لصديق :

" أحسن الله فى العزاء هدايته ، وحرس من فتن المصائب بصيرته[٢] " .

وقــوله :

" وحرس يقينك من آعتراض الشبهة ، وأحسن الى جميل الصــبر هدايتك ، وتولى من فتن المحن رعايتك[٣] " .

ويلاحظ مثل ذلك فيما كتب من رسائل الاعتذار[٤] والتهنئة بالمنزل الجديد[٥] ، وان كان فى هذا يكرر المعانى أكثر مما يكرر الألفاظ .

٩ — لقد ضاعت رسائل الببغا ولم يبق منها إلا القليــل ، وما حفظه منها القلقشندى غير موشح بالشــعر ، ولكن ما حفظه الثعالبي رصّع بالمستجاد من أبياته الحسان ، حتى نجده يترجم لرسائله فيقول :

" فصل فى بيان غرر من رسائله الموصولة بمحاسن شعره "

لهذا نرجح أن يكون القلقشندى آختصر ما آختار من رسائله فأسقــط ما وصلت به من الشعر البليغ ، ونرجح أن يكون الغالب على نثره أن يرصع بالشعر على عادة بعض الكتّاب من الشعراء . والى القارئ نموذجا من رسالة له فى مدح سيف الدولة[٦] .

(١) ٩٧ (٢) ٩٦ (٣) ص ٩٧ (٤) ١٧٠ ، ١٧١ (٥) ٧٢ ، ٧٣ صبح الأعشى ج ٩ (٦) راجع ما اختار صاحب اليتيمة من رسائله ص ١٨٢ — ١٩٢ ج ١

"الشجاعة أقل أدواته ، والبلاغة أصغر صفاته، يُطرق الدهرُ اذا نطق ، وينطق المجد اذا افتخر، فالآمال موقوفة عليه، والثناء أجمع مصروف اليه، نهض بما قعدت الملوك عن ثقله، وضعف الدهر عن معاناة مثله ، بهمم سيفية، وعزائم علوية، فرد شمل الدين جديدا، وذميم الأيام حميدا، بحق أوضحه، وخلل أصلحه، وهدى أعاده، وضلال أباده .

فلا انتزع الله الهدى عز بأسه ولا انتزع الله الوغى عز نصرهِ
وأحسن عن حفظ النبي وآله ورعْيِ سوام الدين توفير شكره
فما تدرك المدّاح أدنى حقوقه باغراق منظوم الكلام ونثره

لأن أدنى نعمة تستغرق جميع الشكر، وأيسر منة تفوت المبالغة فى جميل الذكر ... الخ .

١٠ — هذا ولا ننس أن نذكّر القارئ بأن فضل الببغا فى رسائله لا يقاس الى فضله و براعته فى نثره المرسل الذى دبج به قصصه الغرامية ، وقد حُفِظ له منها شاهد يعزّ على من رامه من أندى الكتّاب قلما وأسماهم بيانا[١] .

(١) تجد هذا الشاهد فى باب «الأخبار والأقاصيص» بالجزء الأول من هذا الكتاب .

٧ - الصاحب بن عباد

١ — فى ذى القعدة سنة ٣٢٦ (١) للهجرة ولد إسماعيل بن عباد فى الطالقان — وهى ولاية بين قزوين وأبهر — فى بيت معروف بالعلم والفضل، فهو ابن عباد بن العباس أحد المتفوّقين فى عصره فى علوم اللغة والدين . وكانت الطالقان فيما يظهر من كلام ياقوت فى معجم البلدان من البقاع التى غلب على أهلها العلم وعرفت بالسبق فى فنون الآداب . ولسنا نعرف من بداية ابن عباد شيئا كثيرا (٢) ، ولكن يظهر من المصير الذى انتهى إليه أنه كان شابا ذكيا أعدّ نفسه لمنازل العظمة والجبروت . حدّث عن نفسه قال: حضرت مجلس ابن العميد عشية من عشايا شهر رمضان وقد حضره الفقهاء والمتكلمون للمناظرة، وأنا إذ ذاك فى ريعان شبابى ، فلما تقوّض المجلس وانصرف القوم وقد حلّ الإفطار نكرت ذلك فيما بينى وبين نفسى واستقبحت إغفاله الأمر بتفطير الحاضرين مع وفور رياسته واتساع حاله ، واعتقدت أن لا أخلّ به إذا قمت يوما مقامه . وقد تم له ذلك فكان لا يدخل عليه فى شهر رمضان بعد العصر أحد كائنا من كان فيخرج من داره إلا بعد الإفطار عنده، وكانت داره لا تخلو فى كل ليلة من ليالى شهر رمضان من ألف نفس مفطرة فيها، وكانت صِلاته وصدقاته وقرباته فى هذا الشهر تبلغ مبلغ ما يطلق منها فى جميع شهور السنة (٣) .

٢ — وأوّل مانعرف من نباهة شأنه هو اتصاله بأبى الفضل بن العميد، فقد كان يخدمه خاصة، ثم ترقت به الحال إلى أن كتب لمؤيد الدولة بن ركن الدولة بن بويه، ومؤيد الدولة

---

(١) هكذا ذكر ياقوت فى معجم الأدباء، وفى بغية الوعاة سنة ٣٢٤ (ص ١٥٦). (٢) فى بغية الوعاة انه كان فى الصغر اذا أراد المضىّ الى المسجد ليقرأ تعطيه والدته دينارا فى كل يوم ودرهما وتقول له تصدّق بهذا على أول فقير تلقاه فكان هذا دأبه فى شبابه الى أن كبر وصار يقول للفراش كل ليلة : اطرح تحت المطرح دينارا ودرهما لئلا ننساه .

(٣) ص ٣٦ ج ٣ يتيمة الدهر .

يومئذ أمير، فلما مات ركن الدولة وولى مؤيد الدولة بلاده بالرى وأصبهان آستوزر ابن عباد وحكّمه فى أمواله، وكان لقّبه الصاحب فى حياة أبيه أنساً به . فلما مات مؤيد الدولة أحضر الصاحب فخر الدولة أخا مؤيد الدولة — وقد كان هرب من أخيه عضد الدولة والتجأ الى الساسانية بخراسان — وملكه البلاد، فأقرّ الصاحب بن عباد على أمره، فبقى الصاحب نافذ الحكم تقدّم كلمته على كلمة فخر الدولة الى أن مات فى ٢٤ صفر سنة ٣٨٥

قال السيوطى فى بغية الوعاة (١) : ولى الصاحب الوزارة ثمانى عشرة سنة وشهرا لمؤيد الدولة بن ركن الدولة ابن بويه وأخيه فخر الدولة ، وهو أوّل من سمى الصاحب من الوزراء لأنه صحب مؤيد الدولة من الصبا وسماه الصاحب فغلب عليه هذا اللقب، ولم يعظم وزيراً مخدومُه ما عظمه فخر الدولة .

ويظهر من كلام السيوطى أن فخر الدولة كان يعظم ابن عباد لفضله ، ونحن نرجح أنه كان يوقره آتقاء لشره !

٣ — كان تكوين الصاحب من الوجهة العلمية تكوينا جيدا ، فقد أخذ الأدب عن ابن فارس وابن العميد وسمع من أبيه ، وحدّث وقعد للإملاء ، وآزدحم الناس على درسه ، بحيث كان له ستة من المستملين (٢) . أرسل إليه فى السر نوح بن منصور ملك خراسان يدعوه ليلقى إليه مقاليد مملكته ويعتمده لوزارته ويحكمه فى ثمرات بلاده ، فكان فيما آعتذر به الصاحب أنّ نقل كتبه خاصة يحتاج الى أربعمائة جمل (٣) . وأشعاره ورسائله تدل على أنه كان أعجوبة من أعاجيب زمانه وأنه كان من أوفى الناس حظا فى دقة الفهم وبراعة القول وسعة الأطلاع .

٤ — أما أخلاق الصاحب فكانت مذبذبة بين الحسن والقبح : كان كريما ولكن كرمه كان فخا ينصب لشياطين الشعراء والكتّاب . قال التوحيدى : قلت لأبى السلم نجبة بن على

(١) ص ١٩٦ (٢) بغية الوعاة ١٩٦ (٣) ص ٣٥ ج ٣ من يتيمة الدهر .

القوطانى الشاعر : أين ابن العميد من ابن عباد ؟ فقال : زرتهما جميعا وكان ابن العميد أعقل وكان يدّعى الكرم، وابن عباد أكرم ويدّعى العقل، وهما فى دعواهما كاذبان[١] .

وكان الصاحب مفتونا بنفسه لا يرضيه أن يعترف لغيره بفضل أو يوفّق سواه الى حق. قال يوما لجلسائه : ما صدر قول الشاعر :

* والمورد العذب كثير الزحام *

فسكتت الجماعة، فقال ابن الدارى :

* يزدحـــم الناس على بابه *

فأقبل عليه بغيظ وقال : ما عرفتك إلا متعجرفا جاهلا، أما كان لك بالجماعة أسوة[٢] ! .

وورد إلى الصاحب رجل من أهل الشام فكان فيما آستخبره عنـه : رسائل مَن تُقـرأ عندكم ؟ فقال : رسائل آبن عبدكان . قال : ومن ؟ قال : رسائل الصابى . وغمزه أحد جلسائه ليقول رسائل الصاحب فلم يفطن، ورآه الصاحب فقال : تغمز حمارا لا يحس[٣] ! .

وكان الصاحب يحب الفخر وآنتحال الفضائل التى ربما قصرعنها، كذلك يقول ياقوت، ويذكر فى تأييد ذلك أن الصاحب حدّث أنه عند دخوله الى بغداد قصد القاضى أبا السائب عتبة بن عبيد لقضاء حقـه فتثاقل فى القيام له ، وتحفز تحفزا أراه به ضـعف حركته وقصور نهضـته ، فأخذ الصاحب بضُبعه وأقامه وقال : نعـين القاضى على قضـاء حقوق إخوانه ! فخجل أبو السائب وآعتذر إليه . والقصة وقعت لغير الصاحب ولكنه انتحلها لنفسه وحكاها فى مجلس أنسه فشاعت عنه[٤] .

وسُمع الصاحب يقول : ما بقى من أوطارى وأغراضى إلا أن أملك العراق وأتصـدّر ببغداد وأستكتب أبا إسحاق الصابى ويكتب عنى وأغيّر عليه[٥] . وهى شهوة قاهرة أن يسيطر على الصابى أحد أعلام ذلك الزمان. والشواهد على ضعف عقل الصاحب وخلقه كثيرة جدا

(١) ٣٠١ ج ٢ ياقوت . (٢) ص ٣٠٠ ج ٢ ياقوت . (٣) ص ٣١٥ ج ٢ ياقوت .
(٤) ص ٣٣٨ و ٣٣٩ ج ٢ يا قوت. (٥) ص ٣٣٧ ج ٢ ياقوت .

يراها القارئ مبثوثة فى معجم الأدباء ، ولكن أكثر ما أخذ عليه مكتوب بقلم أبى حيان التوحيدى ، والتوحيدى غير عدل فى هذا الباب لأن كلامه على الصاحب كلام موتور يحمله حقده على الكذب والافتراء، ومع هذا فقد قال التوحيدى عند ما قارب الفراغ من كتابه أخلاق الوزيرين الذى وضعه للحط من قدر ابن العميد وابن عباد : « ولولا أن هذين الرجلين كانا كبيرىْ زمانهما ، وإليهما انتهت الأمور ، وعليهما طلعت شمس الفضل، وبهما ازدانت الدنيا ، وكانا بحيث ينشر الحسن منهما نشرا ، والقبيح يؤثر عنهما أثرا ، لكنت لا أتسكع فى حديثهما هذا التسكع ، ولا أنحى عليهما بهذا الحدّ، ولكن النقص ممن يدعى التمام أشنع، والحرمان من السيد المأمول فاقرة، والجهل من العالم منكر، والكبيرة ممن يدعى العصمة جائحة، والبخل ممن يتبرأ منه بدعواه عجيب . ولو أردت مع هذا كله أن تجد لهما ثالثا فى جميع من كتب للجبل والديلم الى وقتك هذا المؤرخ فى الكتاب لم تجد»(١) .

٥ — وما اختلقه التوحيدى على ابن عباد يدل على أمرين : الأوّل أن ابن عباد كان شخصية بارزة جدّا ، شطرت الناس شطرين فشطر عدوّ وشطر صديق ، فاستطاع ابن عباد لذلك أن يذكر وهو مفتون انه مدح بمائة ألف قصيدة عربية وفارسية(٢) .

واستطاع التوحيدى وأضرابه من الطامعين الحاسدين أن يفتنّوا فى ذمه وثلبه وأن يجدوا آذانا تستطيب ما يقال فيه من الاثم والبهتان. الأمر الثانى تفوق أهل ذلك الزمان فى الهجاء. ففى ما كتبه التوحيدى شواهد كثيرة تدل على أنهم كانوا يعرفون كيف تكون السخرية وكيف يكون التعريض اللذاع . فمن ذلك ماعرضه التوحيدى فى التدليل على غرام الصاحب بالمدح وتهافت أصحابه فى إرضاء شهوته الى الثناء . قال : ولقد بلغ من ركاكته أنه كان عنده أبو طالب العلوى فكان اذا سمع منه كلاما يسجع فيه وخبرا يمقه يبلق عينيه وينشر منخريه ويرى أنه قد لحقه غشى حتى يرش على وجهه ماء الورد، فاذا أفاق قيل: ما أصابك؟ ما عراك ؟ ما الذى نالك وتغشاك ؟ فيقول : ما زال كلام مولاى يروقنى ويؤنقنى حتى

(١) ص ٣٠٢ و ٣٠٣ ج ٢ ياقوت . (٢) بغية الوعاة ١٩٦

فارقنى لبى، وزايلنى عقلى، وانشرحت مفاصلى، وتخاذلت عرى قلبى، وذهل ذهنى، وحيل بينى وبين رشدى . فيتهلل وجه ابن عباد عند ذلك ويتنفس ويضحك عُجبا وجهلا . ثم يأمر له بالحباء والتكرمة ويقدّمه على جميع بنى أبيه وعمه (١) .

والتوحيدى بعد أن يقص هذا يقول : " ومن ينخدع هكذا فهو بالنساء الرعن أشبه . وبالصبيان الضعاف أمثل " ونحن لانستبعد أن يقع ابن عباد فى مثل هذا الضعف الخلق ، فان الرؤساء كثيرا مايؤخذ عليهم انحلال الخلق من هذه الناحية، وهم يغارون غيرة شديدة على نفوذهم ومكانتهم الاجتماعيــة ، ويعملون خبثا أو جهلا على التحدّث بمواهبهم والإشادة بمـا يزعمون أنهم آنفردوا به من قوّة البأس وفصاحة المنطق وذكاء الجنان . ولكن العجيب حقا هو هذه الصورة التى وضعها التوحيدى للتملق السخيف المرذول الذى يقع فيه المفلسون من الأتباع السخفاء .

٦ — ومن الصور التى وضعها التوحيدى لغرور آبن عباد القصة الآتية :

" ناظر آبن عباد بالرى اليهودىّ رأس الجالوت فى إعجاز القرآن ، فراجعه اليهودى فيـه طويلا حتى آحتدّ وكاد يتقد، فآحتال اليهودى فى مخاتلته وقال :

أيهـا الصاحب ! لم تتقد وتستشيط وتلتهب وتختلط ؟ كيف يكون القرآن عنـدى آية ودلالة ومعجزة من جهة نظمه وتأليفه . فان كان النظم والتأليف بديعين وكان البلغاء فيما تدعى عنـه عاجزين وله مذعنين فهأنا أصـدق عن نفسى وأقول ما عندى : إن رسائلك وكلامك وفقرك وما تؤلفه وتباده به نظما ونثرا هو فوق ذلك، أو مثـل ذلك وقريب منـه، وعلى كل حال فليس يظهر لى أنه دونه، وأن ذلك يستعلى عليـه بوجه من وجوه الكلام أو بمرتبة من مراتب البلاغة .

فلما سمع ابن عباد هـذا فتر وخمد وسكن عن حركته وقال : ولا هكذا يا شيخ ! كلامنا حسن وبليغ وقد أخذ من الجزالة حظا وافرا، ومن البيان نصيبا ظاهرا، ولكن القرآن له

(١) ٣٠٤ ج ٢ ياقوت .

المزية التى لا تجهل، والشرف الذى لا يخمل ، وأين ماخلقه الله على أتم حسن وبهاء مما يخلقه العبد بطلب وتكلف .

وهـذا كله يقوله وقد خبا حميه وتراجع مزاجه وصارت ناره رمادا مع إعجاب شديد قد شاع فى أعطافه ، وفرح غالب قد دب فى أسارير وجهه لأنه رأى كلامه يبدو لليهود وأهـل الملل شبيها بالقرآن (١) .

فهذه أيضا صورة جميـلة من صور التوحيدى، وليس يضـيرها أن تكون مختلقة . فقد تكون صور الواقع أفظع من صور الأختلاق ، والمهم أن التوحيدى أعطانا على حساب ابن عباد صورة متقنة من صور الضعف واللؤم التى نراها غالبا فى الرؤساء المفتونين ، وربما كان الصاحب أقرب من غيره الى طهارة القلب لأنه ينخدع ، وقد ينخدع الكريم ، على حين نرى من الرؤساء من يطرب ويرقص لثناء أتباعه عليه، وفنائهم فيـه، ولكنه لا يزال يتشبث بأذيال التعقل فيدرك أنهـم يثنون عليـه راغبين أو راهبين، ويبيِّت لهم من الحقد والضغينة والكيد ماقد ينكشف عن قاصمة الظهر أو مُنـدية الجبين . وأمثال هؤلاء صغار فى أنفسهم، إذ يحدث أحيانا أن يمدحهم الناس صادقين، فيظنون لهوانهـم على سرائرهم أن مايوجه اليهم من المديح ليس إلا ضربا من ضروب الختل والخداع .

٧ — وللتوحيدى مفتريات كثيرة على ابن عباد تدل على حذق بالغ وخيال عجيب، وقد أراد التوحيـدى أن يدارى تحامله فأضاف الى ابن عباد بعض الأجوبة المفحمة، فى شـؤون كثيرة، بعضها مما لاتصلح روايته، ومنها الفكاهة الآتية :

” قال قوم من أصبهان لأبن عبـاد : لو كان القرآن مخلوقا لجـاز أن يموت ، ولو مات القرآن فى آخر شعبان بماذا كنا نصلى التراويح فى رمضان ؟ فقال ، لو مات القرآن كان رمضان يموت أيضا، ويقول : لا حياة لى بعدك، ولا نصلى التراويح ونستريح (٢) ! “ .

---

(١) ص ٢٩٧ بتصرف قليل . (٢) ص ٣٩٦ ج ٢ ياقوت .

وهـذه الفكاهة تمثـل روح الارتياب الذى كان يدب فى صـدور أهل ذلك العصر . والتوحيدى هنا متسامح مع الصاحب لأنه يريد أن يصـل عن طريقه الى نشر هـذه النكتة برفق ولطف ، ولا ينس القارئ دقة الخيـال فى كلمة : لو مات القرآن فى آخر شعبان بمـا ذا كنا نصـلى التراويح فى رمضان ! مع أن التراويح ليست كل شيء فى الاسـلام ، وانمـا أراد الكاتب أن يصل الى أن رمضان كان يموت ! ورمضان عند كتّاب القرن الرابع شيء ثقيل ، هجاه من بينهم بديع الزمان وأبو الفضل بن العميد .

٨ — ومن دلائل عظمة الصاحب أن المؤرخين أطالوا الخلاف فى تقرير فضله ، فبينما التوحيدى يلح فى ثلبـه وتنقصه والزراية به ، والإنحاء عليـه ، يقوم الثعالبى من جانب آخر فيقول فيه :

” ليست تحضرنى عبارة أرضاها للافصاح عن علوّ محله فى العـلم والأدب ، وجلال شأنه فى الجود والكرم ، وتفرده بغايات المحاسن ، وجمعه أشـتات المفاخر ، لأن همة قولى تنخفض عن بلوغ أدنى فضائله ومعاليـه ، وجهد وصفى يقصر عن أيسر فواضله ومساعيه ، ولكنى أقول هو صدر المشرق ، وتاريخ المجد وغرة الزمان ، وينبوع العدل والاحسان ، ومن لا حرج فى مدحه بكل مايمدح به مخـلوق ، ولولاه ماقامت للفضـل فى دهرنا سوق ، وكانت أيامه للعلوية والعلماء ، والأدباء والشعراء ، وحضرته محط رحالهم ، وموسم فضلائهم ، ومترع آمالهم ، وأمواله مصروفة اليهم ، وصنائعه مقصورة عليهم ، وهمته فى مجد يشيّده ، وإنعام يجدّده ، وفاضل يصطنعه ، وكلام حسن يصنعه أو يسمعه . ولمـا كان نادرة عطارد فى البلاغة ، وواسـطة عقد الدهر فى السماحة ، جلب إليـه من الآفاق وأقاصى البـلاد كل خطاب جزل ، وقول فصـل ، وصارت حضرته مشرعا لروائع الكلام ، وبدائع الأفهام ، وثمـار الخواطر ، ومجلسه مجمعا لصوب العقول ، وذوب العلوم ، ودرر القرائح ، فبلغ من البلاغة ما يعـدّ فى السحر ، ويكاد يدخل فى حدّ الإعجـاز ، وسار كلامه مسير الشمس ، ونظم ناحيتى الشرق والغرب ، واحتف به من نجوم الأرض ، وأفراد العصر ، وأبناء الفضل ، وفرسان الشعر ، من يربى عددهم

على شعراء الرشيد، ولا يقصرون عنهم فى الأخذ برقاب القوافى ، وملك رق المعانى ، فانه لم يجتمع بباب أحد من الخلفاء والملوك مثل ما اجتمع بباب الرشيد من فحول الشعراء المذكورين. الخ[1]".

وهنا مضى الثعالبى يسرد أسماء الشعراء والكتاب والخطباء الذين قدموا على الصاحب أو كاتبوه : كأبى الحسن السلامى، وأبى بكر الخوارزمى، وأبى طالب المأمونى، وأبى الحسن البديهى، وأبى سعيد الرستمى، وأبى القاسم الزعفرانى، وأبى العباس الضبى . الخ . الخ[2] .

٩ — ونحن لو تعقبنا من اتصلوا بالصاحب ممن ورد ذكرهم فى كتب الأدب لرأيناهم نحو المائة أو يزيدون من مشاهير الرجال الذين أثروا فى عصرهم وفيما تلاه من العصور أبلغ تأثير ، ولهؤلاء الذين عرفوا الصاحب فرضوا عنه، أو غضبوا عليه ، أثر كبير فيما نسب إليه من المناقب، أو حمل عليه من المثالب . ولهم كذلك أثر فيما عرف من طيشه، وغروره، وصلفه، وتحامله ، أو بره، وجوده ، وفضله ، وتطوله ، فان إقبال الرجال المشاهير على الرجل العبقرى يرهف حواسه ومشاعره، ويوقظ ما غفا فيه من كريم الشمائل، وسيئ الطباع . والانسان فى جملته مجموعة مختلفة من الحسن والقبح، والتسامى والإسفاف ، وإقبال الدهر وإدباره يكشفان عن أسرار الغرائز والميول، وقلما تظهر محاسن الناس ومساويهم إلا حين يرتفعون، أو حين ينخفضون، أما الرجل الذى يعيش عيشة وسطا لا مجال فيها للزهو أو الحقد فانه يظل مستور النحائز والخلال، وكذلك تأثر الصاحب بحاشيته فاولع بالاغراب، وكلف بالظهور على معاصريه من الكتاب والشعراء ، وجرت له مع قاصديه من أرباب الحاجات نكت سارت مسير الأمثال . فقد ذكروا أن بعض أصحابه كتب إليه رقعة فى حاجة، فوقع فيها ، ولما وردت إليه لم ير فيها توقيعا، وقد تواترت الأخبار بوقوع التوقيع فيها . فعرضها على أبى العباس الضبى فما زال يتصفحها حتى عثر بالتوقيع وهو ألف واحدة،وكان فى الرقعة: " فان رأى مولانا أن ينعم بكذا فعل " فأثبت الصاحب أمام « فعل » ألفا، يعنى « أفعل »[3] .

---

(١) ص ٣١ و ٣٢ ج ٣ يتيمة . (٢) انظر ص ٣٢ ج ٣ (٣) ص ٣٨ ج ٣ يتيمة .

وكتب بعض العمال رقعة اليه فى ٱلتماس شغل ، وفى الرقعة : "إن رأى مولانا أن يأمر بإشغالى ببعض أشغاله" فوقع تحتها : "من كتب إشغالى لا يصلح لأشغالى"(١) .

ورفع الضرّابون من دار الضرب قصة الى الصاحب فى ظلامة لهم مترجمة بالضرابين فوقع تحتها : "فى حديد بارد"(١) .

١٠ — وقد وصل به الإغراب الى أن يكتب فى معان بعيدة عما ألف الكتّابة فيه من شئون العقل والوجدان . قال الثعالبى : "سمعت أبا جعفر الطبيب المعروف بالبلاذرى يقول إن للصاحب رسالة فى الطب لو علمها ابن قرة وابن زكريا لما زاد عليها ، فسألته أن يعيرنيها إن كانت عنده ، فذكر أنها فى جملة ما غاب عنه من كتبه ، فٱستغربت وٱستبعدت ما حكاه من تطبب الصاحب ، ونسبته فى نفسى الى التزيد والتكثر الى أن ظفرت فى نسخة الرسائل المؤلفة المبوبة للصاحب برسالة قدّرتها تلك التى ذكرها أبو جعفر ووجدتها تجمع الى ملاحة البلاغة ، ورشاقة العبارة ، حسنَ التصرف فى لطائف الطب وخصائصه ، وتدل على التبحر فى علمه وقوة المعرفة بدقائقه"(٢) .

والمهم فى هذا هو ٱرتياب الثعالبى فيما نسب الى الصاحب من التطبب وظنه أن ذلك قد يكون من التزيد والتكثر . ففى هذا اشارة الى أن الصاحب كان مبتلى بحاشيته يتقوّلون عليه الأقاويل . أما أنا فارجح أن رسالة الصاحب فى التطبب لم تكتب الا معارضة للخوارزمى فى رسالة كتبها الى أحد تلامذته فى نفس المعنى ، وفى هـذا دليل على أن الصاحب تأثر بمن اتصل به من الكتّاب كما أثر فيهم .

١١ — وهنا ملاحظة لا بدّ منها : ذلك أن الخوارزمى والصاحب حين كتبا فى الطب استطاعا أن يقيما البرهان على أن الكاتب القدير يستطيع أن يضع المسائل الجافة فى لغة جميلة تفيض بالعذوبة واللين ، مع أن فى بعض الموضوعات خشونة طبيعية لا تألف لغة السجع والتورية والجناس ، واليك نموذجا من رسالة الصاحب الى صديق شكا اليه علة ألمت به :

(١) ص ٣٨ ج ٣ يتيمة . (٢) ص ٤٢ ج ٣ يتيمة .

"قد عرفت ماشرحه مولاى من أمره، وأنبأ عنه من أحوال جسمه، فدلتنى جملته على بقايا فى البدن يحتاج معها الى الصبر على التنقية، والرفق بالتصفية . فأما الذى يشكوه من ضعف معدته، وقلة شهوته، فلأمرين : أحدهما أن الجسم كما قلت آنفا لم ينق فتنفتق الشهوة الصادقة، وترجع العادة السابقة، والآخر أن المعدة اذا دامت عليها المطفيات ، ولزّت بها المبردات، قلت الشهوة، وضعف الهضم، ومع ذلك فلا بدّ مما يطفى ويغذى، ثم يمكن من بعد أن يتدارك ضعف المعدة بما يقوى منها، ويزيل العارض المكتسب عنها ... والأقراص فى آخر الحميات خير ما نقيت به المعـدة، وأصلحت به العروق ، وقوى به الطحال، ليتمكن من جذب العكر، لا سيما والذى وجده مولاى ليس الذنب فيه للحميات التى وجدها ، والبلدة التى وردها، فلو صادف الهواء المتغير جسدا نقيًّا من الفضول لمـا أثر هـذا التأثير، ولا طوّل هذا التطويل ... الخ . وهى رسالة طويلة"[1] .

واليك قطعة من رسالة الخوارزمى الى تلميذ له وقد ظهر عليه الجدرى :

"هذه العلة وان كانت موجعة، وفى رأى العين فظيعة شنعة، فإنها الى السلامة أقرب، وطريقها الى الحياة أقصد، لأن عين الطبيب تقع عليهـا ، ويد الممرض والمعالج تصل اليها، وإنمـا هى قرح نبهته الطبيعة، ودم أثارته الحرارة، وظاهر الداء أسلم من باطنه، وبارز الجرح أهون من كامنه ، وهذه بعد علة تعم الأبدان، وتشمل الصبيان، واذا كانت العلة عامة كانت أكثر طبا ودواء، وأخف على القلوب أعباء، لأن النفس تستريح الى المشاركة وتأنس بالجماعة كما تستوحش من الوحدة . ولعمرى إنها تورث ســواد اللون ، وتذهب من الوجه بديباجة الحسن، ولكن ذلك يسير فى جنب السلامة للروح اللطيفة، والنفس الشريفة، وفى الشر خيار، ومن المحنة الى المحنة صروف وأقدار ... الخ"[2] .

وللخوارزمى رسالة أخرى طويلة كتبها الى بعض الأمراء وقد ورد عليـه كتابه يشكو فيه الجرب، نقتبس منها الفقرات الاتية :

---

(١) أنظر الصفحات ٤٢ — ٤٤ ج ٣ يتيمة . (٢) ص ١٥٣ من رسائل الخوارزمى .

"... الجرب حكة مادتها يبوسة وحرارة ووقود والتهاب، زندهما الذى يقتبسان منه طعامٌ وشراب، وفضلة قذفتها الطبيعة الى ظاهر البدن، ودفع الله تعالى شرها عن الباطن ، وعسكر من عساكر البلاء تمدّه القذارة، وتهزمه الطهارة، وتنقص منه البرودة والرطوبة، كما تزيد فيه اليبوسة والحرارة . ومن داوى ظاهره وترك باطنه، فانما يبل حائطا وراءه النار الموقدة، ويرش على سطح بيت فيه الشرر المبثوثة، و يقعد تحت قول الأول :

خليلىّ داويتما ظاهرا   فمن ذا يداوى جوى باطنا

وكيف تقطع مادة نار تطفأ عن ظاهر الجسد ، وهى تتوقد فى باطن الكبد ... أرى لسيدى أن يصبر على الجوع مع مرارته ، وعلى العطش مع حرارته ، وأن يقتصر من الطعام على مايكون فى أوسط طبقات الرطوبة ،وفى أعدل موازين البرودة، ولابدّ من هجر اللحم والفاكهة ولا سبيل الى الحرافة . فأما البقول فيجب أن لا ترى ولو فى المنام، ولا تمس ولو بالأوهام، والسمك وما ناسبه بلية، واللبن وما خرج منه منية،... وهذه علة تكسب صاحبها خزاية وحياء، وثورثه خجلا واسترخاء، ينظر الى الناس بعين المريب، و يتستر عنهم كتستر المعيب، تنفر عنه الطباع، وتستقذره النفوس، وتنبو عن مؤاكلته العيون، ...ولولم يكن من دقائق آفاتها ، ومن عجيب هناتها، إلا أنها تشيخ الفتيان، وتمسخ الانسان، وتجعله أميا بعد أن كان غير أمى، وأعجميا وليس بأعجمى، تنفر من نفسه نفسه، وتهرب من فراشه عرسه، و يتباعد عنه أقرب الناس منه، لقد كانت جديرة أن يحتشد لدوائها، وتبذل الرغائب فى فنائها، ثم هى ربع من أرباع الخذلان، وقسم من أقسام الحرمان . قال الشاعر :

أعاذك الله من أشياء أربعة   الموت والعشق والافلاس والجرب (١)

١٢ — ولو أن تلك الرسائل أُرّخت لاستطعنا أن نعرف أى الكاتبين أسبق الى الكتابة فى المعانى الطبية التى ظنها الثعالبى بعيدة عن متناول الكتّاب . والصلة بين الصاحب والخوارزمى

(١) ص ١١٠ — ١١٢ رسائل الخوارزمى .

كانت قوية تسمح لأحدهما بأن يقف على ما يكتب الآخر ، وان كانت ضعفت بعد ذلك ، حتى كتب الخوارزمى الى الصاحب يعاتبه :

"...ولقد كانت أيامى بحضرة الوزير قصارا ، وكان ليلى بها نهارا ، وساعاتى فيها أسحارا ، كما أن أيام فراقه أيام طوال ، وليلة فراقه تعدّ بليال ، وانى بعد صبرى على فراقه بجلد على وقع سهام الهجر ، واسع المجال فى ميدان الصبر..." (١) الخ .

١٣ — ولم يقف الصاحب فى الإغراب عند حد معقول ، وانما مضى يغرب فى الصنعة شعرا ونثرًا ، فوضع قصيدة تبلغ سبعين بيتا خالية من الألف ، وهى أكثر الحروف دخولا فى المنظوم والمنثور ، مطلعها :

قد ظل يجرح صدرى ... من ليس يعدوه فكرى

وقد سارت هذه القصيدة ، واستمر الصاحب فعمل عدّة قصائد كل واحدة خالية من حرف من حروف الهجاء ، وبقيت عليه واحدة تكون معراة من الواو ، فانبرى أبو الحسين الهمذانى وقال قصيدة ليس فيها واو ، ومدح الصاحب فى أثنائها . وأولها :

برق ذكرت به الحبائب ... لما بدا فالدمع ساكب
أمدامعى منهلة ... هاتيك أم غزر السحائب
نثرت لآلئ أدمع ... لم يفترعها كف ثاقب (٢)

وقد أخطأ المسيو ميتس (Mez) حين ظن أن الهمذانى الذى صنع هذه القصيدة هو الهمذانى صاحب المقامات . كلا ، فهذا على بن الحسين ، وذاك بديع الزمان أحمد بن الحسين . (٣)

والصاحب مسبوق فى هذا النوع من الانشاء ، سبقه واصل بن عطاء الذى تجنب حرف الراء فى خطبه وأحاديثه مع كثرة دوران ذلك الحرف فى الكلام . لكن ابن عطاء كان مضطرا لذلك ، إذ كان ألثغ ، أما الصاحب فيمضى فى هذا الفن صنعة وتكلفا ليكاثر معاصريه من

(١) ص ١٥٢ رسائل . (٢) ص ٢٢٣ ج ٣ يتيمة .
(٣) ترجمة المسيو روش الفرنسية التى تفضل فأعطانا نسخة منها قبل أن تطبع .

الكتّاب والشعراء . ومن المحتمل أن يكون الصاحب هو الذى أثار فى أبى العلاء فكرة التزام مالا يلزم، وهو نوع من التكلف أثقل به ديوان اللزوميات .

١٤ — قلت إن الصاحب كان شديد الرغبة فى آستعباد الكتّاب والشعراء، وقد نال من ذلك مبتغاه . ولكن المتنبي استعصى عليه وترفع عن مدحه والانتساب اليه . فأسرها الصاحب فى نفسه وأخذ يؤلب النقاد والكتّاب ضده ويحملهم على مهاجمته والنيـل من قدره . ويمكن الحكم بان الحملات التى هوجم بهـا المتنبي وهو حى كان أكثرها بتحريض الصاحب والمهلبى، وكلاهما كان يطمع فى انحياز المتنبي اليـه . وقد اشترك الصاحب بنفسـه فى مهاجمة المتنبي فكتب رسالة نقد بها شعره . وهى رسالة يغلب فيها التحامل، ولكنها مع ذلك رسالة قيمة، تدل على فهمه للشعر وبصره بالنقد . ذكر فى مقـدّمتها أنه كان يذاكر بعض المتادبين فساله عن المتنبي، فأجاب الصاحب : انه بعيـد المرمى فى شعره، كثير الإصابة فى نظمه، إلا أنه ربمـا يأتى بالفقرة الغراء ، مشفوعة بالكلمة العوراء . فهاج محادثه وانزعج ، وآدعى أن شعر المتنبي مُمَـتز النظام، متناسب الأقسام، ولم يرض حتى تحداه فقال : ان كان الأمر كما زعمت فأثبت فى ورقة ما تنكره، وقيد بالخطبة ما تذكره، لتتصفحه العيون، وتسبكه العقول .

قال الصاحب : ففعلت، وإن لم يكن تطلّب العثرات من شيمتى ، ولا تتبع الزلات من طريقتى . وقد قيـل : أى عالم لا يهفو، وأى صارم لا ينبو ، وأى جواد لا يكبو، وانمـا فعلت ما فعلت لئلا يقدر هذا المعترض انى ممن يروى قبل أن يروّى، ويخبِر قبل أن يخبُرُ ، فآسمع وأنصت، وآعدل وأنصف، فما أوردت فيه إلا قليـلا، ولا ذكرت من عظيم عيوبه إلا يسـيرا . وقد بلينا بزمن يكاد المنسم فيـه يعلو الغارب ، ومنينا بأعيار أغمار اغتروا بمادح الجهال، لا يضرعون لمن حلب الأدب أفاويقه، والعلم أشطره، لا سيما على الشعر فهو فويق الثريا وهم دون الثرى ، وقـد يوهمون أنهم يعرفون فاذا حكموا رأيت بهـائم مرسنة، وانعاما مجفـلة[1] .

(١) ص ٢٢١ «الكشف عن مساوى المتنبي» .

وهـذه الفقرة تدل على أن الصاحب كان ضيق الصدر يؤذيه أن يذكر المتنبي بخير . فالمتنبي عنده رجل رفعه الزمن الجائر وأنصار المتنبي عنده أنعام لا يسمعون ولا يعقلون !

١٥ — وقد رأى الصاحب بعد ذلك أن يخبرنا أنه أعدّ للنقد عدّته : بجالس الشعراء، وكاثر الأدباء، وباحث الفضلاء، عشرين سنة، وأخذ عن رواة المبرد وكتب عن أصحاب ثعلب عشرين سنة أخرى . وذكر لنا بهذه المناسبة أنه لم يجد فيمن صحب من يفهم الشعر كما يفهمه أبو الفضل بن العميد "فانه يتجاوز نقد الأبيات الى نقد الحروف والكلمات، ولا يرضى بتهذيب المعنى حتى يطالب بتخير القافية والوزن" ثم مضى فى سرد الأحاديث التى وقعت بينه وبين ابن العميد فى نقد الشعر، الى أن قال : "وسمعته أيده الله يقول : إن أكثر الشعراء ليس يدرون كيف يجب أن يوضع الشعر ، ويبتدأ النسج، لأن حق الشاعر أن يتأمل الغرض الذى قصده، والمعنى الذى اعتمده، وينظر فى أى الأوزان يكون أحسن استمرارا، ومع أى القوافى يحصل أجمل اطراد، فيركب مركبا لا يخشى انقطاعه والتياثه عليه"(١) .

ونحن نستجيد رأى ابن العميد فى تجاوز نقد الأبيات الى نقد الحروف والكلمات ، ونرجح أن ابن شُهيد الأندلسى تأثر بهذا الرأى حين قال : " إن للحروف أنسابا وقرابات تبدو فى الكلام، فاذا جاور النسيب النسيب، ومازج القريب القريب، طابت الألفة، وحسنت الصحبة"(٢) .

١٦ — وليس يهمنا أن نلخص ذلك الكتاب ، فلنكتف بما قاله فى نقد قصيدة المتنبي فى رثاء أم سيف الدولة ليكون نموذجا لبقية المآخذ . قال الصاحب :

" ولقد مررت على مرثية له فى أم سيف الدولة تدل مع فساد الحس ، على سوء أدب النفس، وما ظنك بمن يخاطب ملكا فى أمه بقوله :

* رواقُ العز فوقك مسبطرٌ *

(١) ص ٨ (٢) ص ١١٨ ج ١ من الذخيرة لابن بسام . مخطوط .

ولعل لفظة الأسطرار فى مراثى النساء من الخذلان الصفيق الدقيق . نعم هذه القصيدة يظن المتعصبون له أنها من شعره بمثابة «وقيـل يا أرض ٱبلعى ماءك» من القرآن و «ٱصدع بمـا تؤمر» من الفرقان . وفيها يقول :

وهــذا أول الناعين طرًّا لأول ميتــة فى ذا الجـلال

ومن سمع باسم الشعر، عرف تردّده فى ٱنتهاك الستر .

ولمـا أبدع فى هذه المرثية واخترع قال :

صــلاة الله خالقنا حنــوط على الوجه المكفن بالجمـال

وقد قال بعض من يغلو فيه : هذه ٱستعارة . فقلت : صدقت؟ ولكنها استعارة حداد فى عرس!

ولمـا أحب تقريظ المتوفاة والإفصاح عن أنها من الكريمـات أعمل دقائق فكره ، واستخرج زبد شعره، فقال :

ولا من فى جنازتهـا تجـار يكون وداعهم خفق النعال

ولعل هذا البيت عنده وعند كثير ممن يقول بإمامته احسن من قول الشاعر :

أرادوا ليخفوا قـبره عن عدوه فطِيبُ تراب القبر دل على القبر

وكان الناس يستبشعون قول مسلم :

* شلت وشلت ثم شل شليلها *

حتى جاء هذا المبدع بقوله :

وأفجع من فقدنا من وجدنا قبيل الفقد مفقود المثـال

فالمصيبة فى الراثى أعظم منها فى المرثى[1] .

١٧ — وخلاصة القول أن الصاحب بن عباد كان من أعاجيب دهره، وأكتب أهل زمانه . وقد بقى من رسائله جزء فى المكتبة الأهلية بباريس[2] . وفى زهر الآداب ونهاية الأرب

(١) ص ١٢ (٢) فى دار الكتب المصرية نسخة فتوغرافية من هذا الكتاب .

ويتيمة الدهر ومعجم الأدباء قطع مختارة من رسائله . وهو يلتزم السجع أو يكاد ، وفى أكثر الأحيان يبدو نثره دون شهرته : لأن غرامه بالصنعة والزخرف يستهلك معانيه ويهوى به فى حضيض الغموض والتعقيد . وشعره وسط بين الجيد والردىء . ومهما احتال خصومه فى الحط من عقله وأدبه فلا يمكن نكران أنه كان من أظهر الشخصيات فى القرن الرابع ، وأنه رفع بجاهه ونفوذه وعبقريته طوائف كثيرة من المتأدبين كانت تمضى طعمة الفقر والخمول لولم يمسها يمنه وإقباله ولم تعتمد على بره الوافر وساعده المتين[1] .

(١) هذا الفصل أقصر من أن يحيط بأدب الصاحب بن عباد . وقارئ كتابنا يجد فى غير هذا الفصل جوانب أخرى من الصاحب تتم شخصيته التاريخية التى كانت من أظهر الشخصيات فى القرن الرابع .

٨ - أبو بكر الخوارزمى

١ — وهذه أيضا شخصية عظيمة من الشخصيات التى نهضت بالأدب العربى وشغلت الناس عدّة أجيال. والكاتب صاحب الشخصية فيما نريد هو الكاتب الذى يمتاز أسلوبه وتفكيره بخصائص ومميزات لا يمثلها كاتب سواه. وكذلك كان الخوارزمى فهو فى نثره عقل قوى يمتاز من العقول التى سبقته أو عاصرته. وليس معنى ذلك انه يفوقها جميعا. فهو دون ابن العميد فى سمو الغرض، ودون بديع الزمان فى حلاوة التعبير، ودون التوحيدى فى وفرة المحصول، ولكننا نريد أن نقول إن له بلاغة خاصة تضمن له التفرد والاستقلال — والنبوغ الأدبى هو ذلك: فليس يطلب من الكاتب أو الشاعر أن يفوق جميع معاصريه ليوصف بالنبوغ. ولكن يكفيه أن يكون ينبوعا مستقلا يشعر الناس بوجوده الخاص ويحسون فقده إن حجب عنهم فيضُه النمير. وقد كان الخوارزمى شاعرا، ولكن ديوانه ضاع. ولم يبق من شعره إلا القليل، فمن الصعب أن نعطى القارىء فكرة عن حياته الشعرية، وان كان من السهل أن نجزم بأن خموله فى الشعر كان أمرا مقضيا، لأنه عاصر جماعة من الشعراء الذين لا يشق لهم غبار، منهم الشريف الرضى والمتنبى والمعرى وأبو فراس. على أن ما أثر عنه من الشعر يدل على أن كتابته خير من شعره، وأن شعره ليس بجيد وان لم يكن بردىء، من ذلك قوله فى بعض الأصدقاء:

رأيتك إن أيسرت خيمت عندنا مقيما وان أعسرت زرت لماما
فما أنت إلا البدر إن قل ضوءه أغبّ وان زاد الضياء أقاما

وقوله فيمن يطلب الصهباء وهو بخيل:

يامن يحاول صرف الراح يشربها ولا يفك لما يلقاه قرطاسا
الكاس والكيس لم يقض امتلاؤهما ففرّغ الكيس حتى تملأ الكاسا (١)

(١) أنظر بقية شعره فى اليتيمة ج ٤ ص ١٢٧ — ١٤٨

فليس لدينا إذن ما يمثل شخصية الخوارزمى غير رسائله فلنكتف بها فى درس ماله من قوة التفكير ودقة الأسلوب .

٢ — لا نعرف بالضبط متى ولد محمد بن العباس الخوارزمى، أما موته ففيه خلاف، فمن قائل انه توفى سنة ٣٨٣ ومن قائل انه توفى سنة ٣٩٣ (١) وسمى الخوارزمى لأن أباه من خوارزم. وقد أقام بالشام مدة وسكن بنواحى حلب ثم انتقل الى نيسابور فأقام بها الى أن مات. وكان الخوارزمى معروفا بقوة الحفظ . يشهد له بذلك أصدقاؤه وأعداؤه معا ، وانهم ليذكرون انه قصد الصاحب بن عباد وهو بأرجان فلما وصل الى بابه قال لأحد حجابه قل للصاحب : على الباب أحد الأدباء وهو يستأذن فى الدخول، فدخل الحاجب فأعلمه فقال الصاحب قل له : قد ألزمت نفسى أن لا يدخل علىّ أحد من الأدباء إلا من يحفظ عشرين ألف بيت من شعر العرب، فخرج اليه الحاجب وأعلمه بذلك . فقال له أبو بكر: ارجع اليه وقل له : هذا القدر من شعر الرجال، أم من شعر النساء ؟ فدخل الحاجب فأعاد عليه ما قال : فقال الصاحب : هذا يكون أبا بكر الخوارزمى (٢) .

٣ — ومن الواجب أن نقف قليلا عند هذه الكلمة إذ كانت تحتاج الى نقد : أفكان ممكنا حقا أن يجد الخوارزمى عشرين ألف بيت من شعر النساء ؟ أم هو غلو وإغراق من رجل عُرف بكثرة المحفوظ ؟ الظاهر ان فى هذه الكلمة شيئا من المبالغة فقد وجه نظرنا أستاذنا المرحوم محمد بك المهدى فى محاضراته بالجامعة المصرية (سنة ١٩١٦) الى أن علماء اللغة ورواتها لم يهتموا بأشعار النساء ، حتى ان الذين تخيروا الشعر الجيد منهم وجمعوه فى ديوان ليحفظ لم يريدوا أن يختاروا قصيدة لامرأة لتكون بجانب قصائد الرجال ، وهذا أبو زيد القرشى قد اختار تسعا وأربعين قصيدة من القصائد الطوال ولم يجئ فيها بواحدة لامرأة، لا من الجاهلية ولا من الاسلام ، وهذه المفضليات مائة وعشرون قصيدة وقطعة ليس فيها إلا خمسة أبيات لامرأة مجهولة من بنى حنيفة . غير أن أستاذنا رحمه الله أشار فى الوقت نفسه الى أن

(١) ابن خلكان ص ٣٥٦ ج ٢ (٢) ابن خلكان ص ٣٥٥ ج ٢

المرزبانى جمع أشعار النساء فى كتاب حافل يوجد منـه الجزء الثالث فى دار الكتب المصرية بخط أندلسى قديم مضى عليه نحو ثمانمائة سـنة . وفى هـذا دليل على أن الرواة شُـغلوا أيضا بجمع أشعار النساء ، وان كان لا ينكر ان حظ المرأة فى الشعر العربى ضئيل، حتى ليمكن القول بأن المرأة العربية لم تسم يوما الى منافسة الرجل فى الشعر، وها نحن أولاء نعيش فى عصر من عصور النهضة فى اللغة وفى الأدب، فأين الشواعر المجيدات، وكم عددهنّ فى هذا الجيل ؟

ومهما يكن من شىء فقـد كان لمـا حفظه الخوارزمى أثر كبير فى أدبه فقوى أسـلوبه وتلون خياله وصار من أقدر الكتاب على الوصف ، ومن أعرفهم بضرب الأمثال .

٤ — أما حياته فأظهر مافيها حادثان : أولها اتصاله بالصاحب بن عباد وثانيهما مناظرته بديع الزمان .

واتصاله بالصاحب بن عباد يفسر لنـا غرامه بالنيـل من المتنبي والغض من شعره ، فهجومه على المتنبي لم يكن إذن صادرا عن نزعة فنية تحدوه الى كشف عيوب المتنبي ومساويه . ولكنه اندفع فى ذلك ترضية للصاحب ابن عباد الذى كان يحقد على المتنبي لترفُّعه عن مدحه ولإشادته بابن العميد . وأشـد ما عرف من هجاء الخوارزمى للمتنبي قوله فى الرسالة التى كتبها الى الحاجب أبى إسحق لمـا نكبه الوزير ابن عباد :

"ونظرت الى أبى الطيب والى تناقض حكمته ، وتفاوت طرفَىْ فعلتـه ، حيث قال فى سيف الدولة :

لا تطلبنّ كريما بعد رؤيته إن الكرام بأسخاهم يدا ختموا

ثم قال فى كافور الإخشيدى :

قواصـد كافور توارك غيره ومن قصد البحر آستقل السواقيا

فلقد باع من الوفاء عِلقا خطيرا ، واعتاض من الطمع ثمنا يسيرا ، وحال ضباب الحرص والرجاء، بينه وبين العهد والوفاء، وكان يضايق نفسـه فى اختبار المتاع ، ويسامحها فى اختيار

المبتاع، ويخلع خلعة من نظمه تساوى بدرة، على عرض من لا يساوى بعرة، ويزن كريمة من كرائم شعره، الى من لم تقم عنده كريمة، ولم تعرف له قيمة، لو رأى الطمع فى جحر فأر لدخله، ولو أتاه الدرهم من آست كلب لما غسله، فلا جرم أن الناس كما استحسنوا قوله، استقبحوا فعله، وكما أعجبوا بشعره، تعجبوا من غدره، يشكر ثم يشكو، ويمدح ثم يهجو، ويشهد ثم يجرح شهادته، ويعطى ثم يسترجع عطيته. وكم من حر فضّله ثم ثلبه؟ وكم من عرض كساه ثم سلبه؟ وكم من صحفة أكل منها ثم بصق فيها (١).

٥ — وهذه الكلمة نص فى أن الخوارزمى كان يعجب بشعر المتنبي ولا يعيب عليه إلا أخلاقه وتنقله من حال الى حال، وقد جرّه ذلك الى التغنى بخلقه هو، واحتفاظه بالود، ووفائه بالعهد، فقال „ ولكن فى قميص أبى بكر رجلا اذا أعطى لم يرتجع، واذا طلق لم يراجع، واذا بنى لم يعد على بنائه بالهدم، واذا مدح لم يطأ على عقب مديحه بالذم، وإذا طيب فكيه بالمدح لكريم، لم يلطخهما بمدح للئيم، واذا زوج كرائمه كفؤا حجبهن أن يتبرّجن إلالديه، ويجتليهن غير عينيه، وإنما الغدر من أخلاق النساء، فمن تعلق بطرف منه فقد رغب بنفسه عن كمال الذكران، وجذبها الى شق النسوان (٢).

فالمتنبي مؤنث الخلق لأنه غادر، والخوارزمى مذكر الطبع لأنه وفى!

هكذا حكم الخوارزمى لنفسه بالنبل، وحكم على المتنبي بالخساسة، لأن المتنبي يتغير ويتبدّل، أما الخوارزمى فلا يتلون ولا يحول.

ولكن القدر شاء أن يعاقب الخوارزمى على بغيه الأثيم: فساءت الصلات بينه وبين آبن عباد فتحوّل عنه وشغل بذمه وقدحه بعد أن شغل بتمجيده والثناء عليه، وآستطاع أن يرمى ممدوحه بمثل هذا السهم المسموم:

لاتحمدنّ آبن عباد وإن هطلت ... يداه بالجود حتى أخجل الديما
فإنها خطرات من وساوسه ... يعطى ويمنع لا بخلا ولا كرما

(١) ص ٦ رسائل. (٢) ص ٧

وجرى فى النـاس ذكر الخوارزمى بالتقلب والتحوّل حتى قال فيه أحمد بن شهيب :

أبو بكر له أدب وفضل ولكن لا يدوم على الوفاء
مودته اذا دامت لخل فمن وقت الصباح الى المساء

وأنشد الصاحب حين بلغه خبر موته :

أقول لركب من خراسان قافل أمات خوارزميكم قيل لى نعم
فقلت اكتبوا بالجص من فوق قبره ألا لعن الرحمن من كفر النعم!

وقد اتصل الخوارزمى بكثير من الرؤساء، ولكنا لا نعرف تفاصيل ما وقع بينه وبينهم ، وإن كانت طبيعة ذلك العصر تشير الى أن ٱستقامة الخلق كانت نادرة ، وأن تبادل الضغائن والأحقاد كان من الظواهر الكثيرة الوقوع .

٦ — أما الحادث الثانى فهو مناظرته لبديع الزمان ، وهو حادث مشئوم قضى عليه ، ويرجع السر فيه الى دسيسة بعض الرؤساء المستوحشين منه، والراغبين فى إسقاطه (١) والى مكر بديع الزمان ودهائه مع أنه كان لا يزال فى غرارة الصبا ، وغفلة الحداثة ، وذلك أنه فطن الى جانب الضعف فيمن يقودون الجماهير فى ذلك الحين، وهو غلوهم فى التشيع فٱنطلق يبكى القتلى من أهل البيت، ويستمطر الغضب والسخط على أعداء آل الرسول ، وكذلك ٱجتمع على الخوارزمى كيد أعدائه فى نيسابور ولؤم مناظره ومكره ، فعاد وهو مقهور "وٱنخذل انخذالا شديدا وانكسف باله وٱنخفض طرفه ولم يحل عليه الحول حتى خانه عمره" كما قال ياقوت (٢) .

وقد سُبقت تلك المناظرة بطائفة من الرسائل جرت بين الكاتبين مجرى العتاب ، وهى رسائل جيده تستحق الدرس ، كان بديع الزمان فيها يعدّ الحملة ويتأهب للنزال ، وكان الخوارزمى يقابل عتبه بأرق من النسيم فى بعض الأحيان ، وربما راجعه فذكر أن عتابه قبيح ولكنه حسن، وكلامه لين ولكنه خشن "أما قبحه فلأنه عاتب بريئا، ونسب الى الإساءة

(١) ياقوت ص ١٠٤ ج ١ . (٢) ١٠٦ ج ١

من لم يكن مسيئا، وأما حسنه فلألفاظه الغرر، ومعانيه التى هى كالدرر، فهى كالدنيا ظاهرها يغر، وباطنها يضر، وكالمرعى على دمن الثرى، منظره بهى، ومخبره وبى" وربما أنشده :

يابديع القول حاشا   لك من هجو بديع
وبحسن القول عوّذ   تك من سوء الصنيع
لا يعبْ بعضك بعضا   كن مليحا فى الجميع

وقد مضى الخوارزمى يلاين بديع الزمان فيذكر أن شريعة وده اذا وردها صافية، وأن ثياب بره اذا قبلها ضافية «هذا ما لم يكدر الشريعة بتعنته وتعصبه، ولم يخترق الثياب بتجنبه وتسحبه» وهنالك يذكر الخوارزمى أنه لا يقول :

وانى لمشتاق الى ظل صاحب   يرق ويصفو إن كدرت عليه

فان قائل هذا البيت قاله والزمان زمان، والاخوان اخوان، وحسن العشرة سلطان، ولكنه يقول : وانى لمشتاق الى ظل :

رجل يوازنك المودة جاهدا   يعطى ويأخذ منك بالميزان
فاذا رأى رجحان حبة خردل   مالت مودته مع الرجحان

٧ — على أننا اذا تجاوزنا هذين الحادثين وأخذنا نتلمس شعور ذلك الرجل باعباء الحياة وجدناه يمشى مثقل الظهر بطائفة من التكاليف تذل لها نفسه ويجرح بها كبرياءه، ألسنا نراه يزور أبا الحسن عبد العزيز صاحب ديوان الرسائل طمعا فى بره، فيكون هذا عند ظنه، فيكتب اليه رسالة تجئ فيها هذه الفقرة التى تمثل بؤسه أبشع تمثيل :

"ومن أنقذ انسانا من الفقر، وانتشله من مخالب الدهر، وفكه من إسار العسر، فقد أعتقه من الرق الأكبر، ونجاه من الموت الأحمر، والرق رقان : رق الملك ورق الهوان، والأسر أسران : أسر العدو وأسر الزمان(١)" .

(١) ص ١٠٢ رسائل .

وقد ورد عليه كتاب من أحد تلاميذه ينبئه فيه بأنه عليل، فكتب الخوارزمى كتابا جاء فيه :

"وأظن أنى لو لقيتك عليلا لانصرفت عنك ، وأنا أعلّ منك ، فانى بحمد الله تعالى جلد على أوجاع اعضائى، غير جلد على أوجاع أصدقائى، ينبو عنى سهم الدهر اذا رمانى، وينفذ فىّ اذا رمى اخوانى، فأقرب سهامه منى، أبعد سهامه عنى، كما أن أبعدها عنى، أقربها منى" [1]

وهذه الفقرة تمثله جَلْدا صبورا ، ولكن الصبر والجلد لا يطلبان الا حين تشتد الكوارث وتقسو الخطوب .

وهذا الشعور باعباء الحياة أنطقه بالحكمة فى تعليل الحزن ، فهو من أسبق الكتّاب الى الإفصاح عن علل العواطف والشهوات ، وانه ليحدّثنا بأن الانسان حين يحزن للصيبة تحل بغيره ، انما يحزن لأنه يرى بعينة أن سيكون له مثل ذلك المصير، اذ كانت المآسى الانسانية كأسا تدور على الجميع . ولننظر كيف يقول وهو يعزى بعض الرؤساء فى شقيق له :

"ورد علىّ خبر وفاة فلان فدارت بى الأرض حيرة، وأظلمت فى عينى الدنيا حسرة، وملأ الوله والوهل قلبي وسواسا وفكرة، وتذكرت ما كان يجمعنى واياه من سكرى الشباب والشراب، فعلمت أنه شرب بكاس انا شارب من شرابها ، ورمى بقوس سوف ارمى بها، فبكيت عليه بكاء لى نصفه، وحزنت له حزنا لنفسى شطره" [2] .

٨ — وهذه الحيرة المطبقة التى كان يعانيها الخوارزمى بين احداث زمانه جعلته يتشاءم من صحبة من يقاسون إدبار الأيام ، ويتفاءل بالتعرف الى من ينعمون باقبال الزمان ، وهو يرى "أن من تعلق بذيل المقبل أقبل" [3] ويرى كذلك أن "أيام المحنة موج من تطاطا له تخطاه، ومن وقف على طريقه أرداه، ومن قابل أيام الإدبار بوجهه صدمته ، ومن قاتل عساكر الإقبال فى أيام كرها هزمته" [4] وعنده أن "الاقبال يستر العيوب، والدولة تجعل البعيد قريبا ، والجد يرى المخطئ مصيبا، والمجدود يمس بيديه ، ما لا يراه المحدود بعينيه" وكلمتا الإقبال والإدبار

(١) ١٠٥ رسائل . (٢) ص ١٥ (٣) ص ١٠٣ (٤) ص ٩٨

يجدهما القارئ فى رسائله هنا وهناك : بحيث يمكن الحكم بأنه كان موسوسا من هذه الناحية . وفى هذا الوسواس شيء من الحق والصدق ، فكم من عقل ضاع ، وكم من عبقرية أخمدت وأفلت، بانصراف المفكر العبقرى الى مناصرة فئة تحتضر، أو الدفاع عن فكرة تهم بالأفول . وفهم الخوارزمى للحياة على هذا النحو الدقيق أملى عليه الحرص على الحكمة يسديها الى أصدقائه من حين الى حين، من ذلك قوله فى سياسة النفس : "ومن غلبت شهوته على رأيه شهد على نفسه بالبهيمية،وانخلع عن ربقة الانسانية، وحق على العاقل أن يأكل ليعيش، لا أن يعيش ليأكل، وكفى بالمرء عارا أن يكون صريع مآكله ، وقتيل أنامله ، وأن يجنى ببعضه على كله ، و يعين فرعه على أصله ، فكم من لقمة أتلفت نفس حر، وكم من أكلة منعت أكلات دهر ، وكم من حلاوة تحتها مرارة الموت ، وكم من عذوبة خلفها بشاعة الفوت . وكم من شهوة ذهبت بنفس لا تقوى لها العساكر، وقطعت جسدا كانت تنبو عنه السيوف البواتر، وهدمت عمرا هدمت به أعمار، وخربت بخرابه بيوت بل أمصار ... والمشتهى غاش لنفسه، قليل البقيا على روحه ، وكيف يحفظ اصدقاءه ، من لا يحفظ اعضاءه، وكيف يبقى على غيره ، من لا يبقى على نفسه ، وكيف يؤتمن على من لا يتمايز عنه ، من لا يؤتمن على بعض منه"[(١)] .

٩ — ولننتقل بعد أن ألممنا بشيء من حياة الخوارزمى ووقفنا على شيء من مطوى صدره ومكنون سره ، الى فنه الذى عرف به فى اجادة الانشاء ، ولنذكر أولا أنه دلنا على فهمه لسر البيان، اذ قال فى احدى رسائله فى هجاء بعض معاصريه :

"واذا أردت أن تعلم أنى فى ذمك جادّ، وفى مدحك لاعب ، وأنى فى الشهادة عليك صادق، وفى الشهادة لك كاذب ، فانظر الى تهافت قولى اذ لاينتك وجاملتك، والى اصابتى الغرض وحزّى المفصل اذ كاشفتك وصدقتك ، وذلك أن الصادق مُعانٌ ومأخوذ بيديه، والكاذب مخذول مغضوب عليه"[(٢)] .

---

(١) ١١١ و ١١٢ (٢) ص ١٩٢

فسر البلاغة عنـد الخوارزمى يرجع الى الصدق، وهـذا دليل على أنه كان مأخوذا بفنه مفتونا به، فلن يكون للشاعر أو الكاتب وصول الى سحر البلاغة وسر البيان الا اذا صـدق، وفى الصدق وحده سر العبقريه والنبوغ، ومن هنا سقطت آثار المتكلفين من الكتّاب والشعراء الذين سخروا أقلامهم وعقولهم، وباعوا ضمائرهم ونفوسهم، ورضـوا بأن يكونوا أبواقا تردد أصوات الآمرين والناهين من أرباب الملك وأصحاب الجاه . وحين يصدق القلب والحس والعقل يصبح الأدب جذوة خالدة تلهب ما تمس من أوتار المشاعر والعواطف والأحاسيس على مر القرون وتتابع الأجيال، واذ ذاك لا يقوَّم الأدب بالأحجام والأوزان والمقادير كما يتوهم من يقيسون القصائد والرسائل والمؤلفات بالعرض والطول من أهل هذا الجيل، وانما يقاس نبوغ الكاتب وتوزن عبقرية الشاعر بما فيها من نار ونور، وما تحمل من عناصر القوة الخالدة التى تجعل ربها أبا وأخا وأستاذا وزميلا لكل من يمرون بعده بهذه الأرض مهما باعدت بينه وبينهم ظروف الزمان والمكان . فالصدق هو الهادى الأمين الذى يسير بنـا فى اودية الغرائز الانسانية، فلا نعرف شر الزيغ ولا نقاسى ضر الضلال، وحين نصدق ونفنى فى الصدق نتغنى وادعين بأحلام الانسانية المبثوثه فى ضمير الوجود، فلا يغلق عنا سمع، ولا يعـزف عن أغانينا أحد من الموفَّقين، وانمـا تفتح لنا صـدور الناس وقلوبهم وأرواحهم فنسكب فيهـا ما صدقنا فى الإيمـان به من أصول الشر والخير، والظلمات والنور، والبر والفجور . فان الحياة كما تعلم، مجموعة من حلم الانسان وجهله، وضلاله وهداه، والكاتب الانسانى هو الذى يصدق ويفنى فى صـدقه حين يواجه ما فى الانسانية من مشاكل عقلية، وأزمات روحية، وثورات نفسية، ثم يتغنى بمـا فى الطبيعة الانسانية من نبل وسماحة ورفق وجمال، أو يصرخ ممـا فيها من شح ولؤم وجور وطغيان .

فانا لا أريد إذن بصدق الكاتب أن يكون مشغولا بالخـير وحده لا يتغنى إلا به، ولا يتحدث إلا عنـه، وإنما أريد أن لا يتكلم الكاتب أو الشاعر إلا صادقا، يتغنى بالخير حين يؤخذ به، ويتغنى بالشر حين يفتن به، وفى صـدقه السر كل السر فى فتح ما أُغلق من

سرائر النفوس وضمائر القلوب ، فليصدق الفنان : إن خيرا فخير، و إن شرا فشر، فإن الصدق أساس النبوغ . أما الكاتب المنافق فمصيره الى فناء، لأن النفاق أكبر مظهر من مظاهر الإخفـاق، ولا ينافق إلا الضعيف المخبول الذى لا يشعر لنفسه بوجود خاص، ومن فقـد شخصيته وآطمأن إلى الاعتماد على سـواه لجدير به أن ييأس من أن يروى له قول، أو يوزن له رأى، أو يرجى لبهرجه بقاء .

١٠ — ونعود فنذكر أن الخوارزمى يضعف حينا و يقوى أحيـانا ، يسمو ويحلّق حين يصـدق، و يهوى و يسفّ حين يمين . وليس ضـعفه بمحتمل ولا مقبول، لأنه يلتزم الصنعة والزخرف والسـجع، فيبدو نثره الضعيف ثقيلا ممجوجا كالمرأة الفانية حين تتزين وتختال . ومن ذا الذى يسيغ قوله فى وصف رجل :

”إذا ناظره العربى صار أعجميا، و إذا ناظره الأعجمى صار عربيـا ، و إذا رآه المعجب بنفسه طلق كبره، وفارق فخره، فهو رفيق الجود وخليله ، و زميل الكرم ونزيله ، وغرة الدهر وتحجيله ، حضرته حضرة الآجال والأموال ، لابل حضرة الاقوال والأفعال، لا بل حضرة الرجال، تنصب إليها موارد الرغبات، وتنشد فيها خيول الطلبات“ (١) .

وأثقل من هذا و رود الجناس فى قوله من كتاب إلى محمد العلوى :

” أذكره و إن كنت لا أنساه، وألقاه بقلبي و إن كنت لا ألقاه، وأسأل الله تعـالى أن يرينا سلامته سليمة ، وآستقامة أحواله مستقيمة ، فلا شئ أحوج من السلامة إلى السلامة، ولا إلى الاستقامة من الاستقامة“ (٢) .

والحرص على السجع فى مثل قوله : ”لا تؤخر عمل اليوم إلى غد، ولا تمهل نفسك فى شغل السبت إلى الاحد“ (٣) فان كلمتى السبت والأحد لم تقعا هنا إلا آبتغاء السجع .

والقارئ يجد أمثال هذه الفقرات الضعيفة فى مواضع كثيرة من رسائله . وعذر الخوارزمى أنه حمل نفسه ما لا يطيق من التزام الصنعة والسجع فى جميع رسائله ، حتى فى الموضوعات التى لا تحتمل التكلف، فكان من الحتم أن يقع فى مهاوى الضعف والإسفاف .

---

(١) ص ١٠٠ (٢) ص ٩ (٣) ص ٤٤

١١ — والخوارزمى حين يجيد يسمو سموا عظيما، ويقدم من صور الجد والهزل ما يمتع النفس ويطرب الروح . وقد نراه يمزح فيستخفنا الطرب ونقبل عليه بنفس لعوب . وله كلمة ما قرأتها إلا تذكرت الصديق القديم الشيخ محمد عبد المطلب حين كان يخترق شوارع القاهرة على ظهر حمار، فقد اتفق للخوارزمى أن شكا وروده إلى بعض النواحى بعد ماقاس السير والسرى وخاض غمار المهالك والردى ونظر الى الآخرة وهو فى الدنيا. قال "وأول مامر بى سوء الدخول على ظهر الحمار، ومعاشرة الحمّار، على أن الحمّار أيضا حمار، إلا أنه قصير الأذنين، يمشى على رجلين، وكأنى كنت بين حمارين، إلا أنى كنت بين جنسين" (١) .

وله رسالة عن بستان ذكر أنه مرتع ناظره ، ومتنفس خاطره ، ومجال بصره ، ومدار فكره، إذ ليست فيه زاوية إلا وقد صب عليه فيها كأس، ونام فى حافتها وجه صبيح، وتقلب فى أطرافها قدٌّ مليح . الى هنا يمضى الكلام فنتذكر به بعض ما قصه فرانك هاريس عن أوسكار ويلد، ولكن الخوارزمى يفاجئنا بأن بستانه ليس بذاك، ثم يقول "وإنما أذكر بُقَيعةً طولها باع، وعرضها ذراع، أعنى باع البقة، وذراع الذرة، وأقل من لا، وأصغر من الجزء الذى لا يتجزأ (٢) ، لو طارت عليها ذبابة لغطتها، أو دخلتها نملة لسدتها ، تسقى بالمسعط صباحا، وتنكت بالخلال مساء ، أشجارها مائة إلا تسعة وتسعين ، وأنهارها خمسون إلا تسعة وأربعين" (٣) .

١٢ — ولكن أمثال هذه الفكاهات تمرّ كالطيف فيما ترك ذلك الكاتب المجيد، فتلك فقرات تصيدناها من رسائله ، وهيهات أن يكون لمثله طبع مرح وهو الذى قضى حياته يتعثر بين أحداث البؤس والهوان، فالفكاهة حين تقع تحت سنّ قلمه لا تزيد عن عبث الالفاظ، وتظل نفسه خامدة لا تطرب ولا تجذل ولا تعرف سرّ الدعابة ولا روح المزاح . ألسنا

(١) ص ١٠٣ (٢) ورد ما يشبه هذا فى كلام أبى الفتح بن العميد إذ قال : « وردت رقعة الشيخ أصغر من عنفقة بقه، وأقصر من أنملة نملة» (ص ٣٣٥ ج ٥ ياقوت و ٣٤٦ ثمار القلوب) . وقال الميكالى : كتابك أقصر من نبقة، وأصغر من بقة، وأخون من درة، وأخفى من ذرة (ص ٢٥٥ ج ٤ يتيمة). (٣) ص ١١

نستق أدبنا مما نرد من موارد الحياة ونقدّم لقرائنا صورا من أنفسنا وعواطفنا ومشاعرنا وأشجاننا وأحزاننا؟ وهذا لا يمنع أن لبعض المحزونين فكاهة ودعابة ، غير أن الخوارزمى لم يكن من هؤلاء، فقد وقع بين قوتين تحولان دون حلاوة المزاح : الأولى عيشه الضيّق، والثانية مهنة التعليم . أما ضيق عيشه فقد عرفناه من تقلبه وحيرته بين أبواب الوزراء والرؤساء، وأما مهنة التعليم التى احترفها واكتوى بنارها وكابد ما تقضى به من التجمل والتوقر والاستحياء فقد عرفنا أخبارها من رسائله الكثيرة التى جرت بينه و بين تلاميذه . ومن عسى أن يكون أولئك التلاميذ ؟ إنهم فى الأغلب قوم ممن بسط الله لهم فى الرزق، واستطاعوا أن يغلّوا عنق ذلك الرجل بشىء من المال يقدّمونه اليه ثمنا لعلمه وفضله . وتلك محنة نتصوّرها خطرة بشعة ونكاد نحكم بأن لأوزارها وأثقالها أثرا فى كبت ذلك الروح وحبسه فى حدود الجدّ والرزانة، وحرمانه من نسمات اللهو المباح .

١٣ — فاذا تركنا تلك الصور الفكاهية القليلة وانتقلنا الى جدّ الخوارزمى وجدناه جدّا رصينا ينبئ عن نفس سامتها الأيام سوء العذاب ، وأوّل ما يطالعنا منه غيرته على الأدب وتوجعه لأن يراه مما ينال اللئام، وإنه ليذكر أن "البخل بالعلم على غير أهله قضاء لحقه ، ومعرفة لفضله" وأنه يغار على الأدب الكريم، من المتأدّب اللئيم، وينشد فى ذلك :

وأرثى له من موقف السوء عنده كمرثيتى للطرف والعلج راكبه

ويودّ أن يكون الأدب فى جبهة الأسد ولو أصبحت الدفاتر فى أنياب الأسود، ويتمنى لو بيعت الورقة بدينار، أو كتب الدفتر بقنطار، فلا يتأدب إلا شجاع كمى، ولا يحرز الدفاتر إلا جواد سخىّ (١) .

وفى مثل هذه الصرخة دليل على أن الرجل كان يعانى آلاما كثيرة من معاصريه ، ويستكثر على فريق منهم أن يوسم بالأدب أو تصل يده الى كتاب نفيس ، وفيها كذلك إشارة الى قلقه من بعض الطبائع الدنيئة التى يورثها العلم والأدب ألوانا من العظمة البغيضة والكبرياء الممقوت ،

(١) ص ١٠١

وهذا الصنف من المخلوقات هو الذى حمل بعض الناس على أن ينسب الى الرسول هذا الحديث الذى نراه يدور على ألسنة الجماهير «لا تعلموا أولاد السفلة العلم» وكذلك كان طلاب الشهرة فى عصر الخوارزمى يلجأون الى التحرّش بالشخصيات الكبيرة ليتم لهم ما يبتغون من الظهور كما يفعل الخاملون فى عصرنا هذا حين يهاجمون النابغين والعبقريين طمعا فى أن تذيع أسماؤهم ويعرفوا بصحة الفهم، وقوّة النقد، وسعة الاطلاع .

١٤ — ويظهر أن الخوارزمى ما زال يهاجم حتى وقع فى رُوعه أنه مغلوب . فله فقرات تشعر بجذله وجنونه من إقبال بعض الناس عليه، فقد طلب منه أحد معاصريه نسخة من رسائله فكتب اليه فى الجواب :

” طلب الشيخ نسخة من رسائلى فمرحبا بأنجح طالب ، وأكرم خاطب ، ومن سعادة الصهر كرم أختانه، ومن إقبال الكاتب والشاعر شرف من نظر فى ديوانه . ولو قدرت لجعلت الورق من جلدى ، بل من صحن خدّى، والقلم من بنانى، والمداد من ماء أجفانى، ولأمليت هذه النسخة على السفرة البررة، ليكتبوه بيد العصمة، ويخلدوه فى بيت الحكمة، بل لو علمت أن مثل الشيخ يطلبه، وأن مثل يد الشيخ بسطها الله بالخيرات تكتبه، لحاسبت عليه بقلبى ولسانى أدق حساب، وطالبت شيطانى بتهذيبه وتنقيحه أشدّ طلاب، ولقلت لخاطرى دقق طرزك، وجود بزك، فان المبتاع كريم، والثمن عظيم، وقد قيل : الراوية أحد الشاعرين، وأنا أقول الراوية أحد الشعرين“[1] .

ويمكن أن يقال إن التواضع فى مثل هذه الفقرة مقصود لأنه أرسل ذلك الجواب الى رجل يرجو بره وهو أبو العباس كاتب محمد بن ابراهيم ، ولأنه فى مواطن أخرى يتعالى فيقول فى عتاب أبى محمد العلوى : ” إن قوما أنا أصغرهم لكبار ، وإن أمة أبو ذرّ شرُّها لخيار“[2] . ولكننا مهما قلبنا وجوه الرأى انتهينا الى أن الخوارزمى كان مضطرب القول فى تقدير أدبه

(١) ص ١٠٢ (٢) ص ٩٩

ووزن فضله ؛ وهو فى ذلك معـذور لأنه كان يعيش من فيض قلمـه وهى حالة جعلتنا نرى المتنبي فى عظمته وكبريائه يبدو فى بعض الأحيـان وكأنه تابع ذلول .

١٥ — وللخوارزمى صور فنية يعرض بها الظالمين من أهل زمانه عرضا بشـعا رهيبا ، مثال ذلك قوله فى وصف بعض الولاة :

”ورد علينا فلان ونحن نيام نوم الأمنة ، وسكارى سكر الثروة ، ومتكئون على فراش العدل والنصفة ، فما زال يفتح علينا أبواب المظالم ، ويحتلب فينا ضرعى الدنانير والدراهم ، ويسير فى بلادنا سـيرة لا يسيرها السِّنور فى الفار ، ولا يستخيرها المسلمون فى الكفار ، حتى ٱفتقر الأغنياء ، وٱنكشف الفقراء ، وحتى ترك الدهقان ضيعته ، وجحد صاحب الغلة غلته ، وحتى نشف الزرع والضرع ، وأهلك الحرث والنسـل ، وحتى أخرب البـلاد ، بل أخرب العباد ، وحتى شوّق الى الآخرة أهل الدنيا ، وحبب الفقر الى أهل الغنى ، وحتى لقب بالجراد ، وكنى أبا الفساد ، وحتى صار الدرهم فى أيامه ، أقل من الصدق فى كلامه ، وصار الأمن فى أعماله أعز من السداد فى أفعاله . فليته إذ أوحش الرجال ، حصّل المـال ، وليته إذ ضيع المـال ، أرضى الرجال ، ولكنه حرم الأثنين ، فأفلس من الجهتين . ووالله ما الذئب فى الغنم بالقياس اليه إلا من المصلحين ، ولا السوس فى الخز فى الصيف عنده إلا من المحسنين ، ولا الحجاج بن يوسف الثقفى فى أهل العراق إلا أوّل العادلين ، ولا يزدجرد الأثيم فى أهل فارس بالإضافة اليـه إلا من النبيين والصدّيقين ، ولا فرعون فى بنى إسرائيـل إذا قابلته به إلا من الملائكة المقرّبين“[1] .

١٦ — وفن الخوارزمى يظهر جيدا فى هذه الصورة ، فقد وازن بين الحالين : حال الأمن وحال الخوف ، وقابل بين الخطتين : خطة العـدل وخطة العسف ، فأشار الى أنهم كانوا قبـل ورود ذلك الوالى فى سكر الغنى وغفوة الأمان ، وأنهم كانوا على فراش العدل متكئين ، فلما قدم ذلك الوالى أذلهم وأذاقهم لباس الجوع والخوف . وفى قول الخوارزمى ”حتى افتقر

(١) ص ١٠٧ و ١٠٨

الأغنياء، وانكشف الفقراء" دقة بالغة، فان انكشاف الفقراء غاية ما تصل اليه البأساء والضراء، إذ كان الفقر المحتمل يداوى بالتجمل والتستر، وتسدل عليه أثواب الحياء. وحين تصبح الهيئة الاجتماعية مقسمة الى غنيّ افتقر، وإلى فقير ذل وخنع، فهنالك البؤس الجائر، والهول المبين. وكلمات السوس والجراد والسنور والفأر تذكر بقول بديع الزمان فى الشكوى من قاض ظالم "وما رأيك فى سوس لايقع إلا فى صوف الأيتام، وجراد لايسقط إلا على الزرع الحرام، وذئب لا يفترس عباد الله إلا بين الركوع والسجود" (١). وفى مثل هـذا التوافق دليل على أن كتاب ذلك العصر يبالغون فى بعض التعابير، وأنهم كانوا يميلون الى التمثيل بعوالم الحشرات والنبات والحيوان. وقوله "حتى صار الدرهم فى أيامه أقل من الصدق فى كلامه، وصار الأمن فى أعماله أعز من السداد فى أفعاله" من العبارات الجميلة لولا أنه ترديد لما وقع من مثل هـذه المقابلة فى شعر الهجاء. وذكر الحجاج و يزدجرد وفرعون فى الحـديث عن الظالمين ليس بجديد، ولكنه ورد فى صورة مقبولة تشعر بأنه كان يحسن آستغلال ما ورد على ألسنة الأقدمين.

١٧ — وللخوارزمى رسائل نحس فيها طيب النفس وخفة الروح، ولكنا نجـد فيها كلمات قلقة نابية هى أثر الصنعة والتكلف والتزام السجع، كقوله فى خطاب تلميذ له :

"كتابى هـذا ولو آستقبلت من أمرى ما آستدبرت، وقدّمت من رأيى ما أخرت، لما أمضى فينا الفراق حكمه، ولا أنفذ فينا سهمه، ولأقمنا جميعا أو رحلنا معا. وانى لأظلم الفراق اذا شكوته، وأتعنف الدهر اذا هجوته، و بيدىّ ضربانى، ومن سهمىّ رميانى. فأنا كالقاطع يده بيده، والفاجع نفسه بنفسه، ومطرق الفراق الى قلبه، ومتجرّع غصص البين وكربه" (٢)

والفقرتان الأخيرتان تكرار ثقيـل. والمعنى كله مأخوذ من أبيات حوّرها الخوارزمى. وهى فى الأصل الذى أثبته القالى :

تطوى المراحل عن حبيبك دائبا	وتظـل تبكيه بدمع ساجم
كذبتك نفسك لست من أهل الهوى	تشكو الفراق وأنت عين الظالم

---

(١) ١٦٩ رسائل بديع الزمان. (٢) ص ١٠ رسائل الخوارزمى.

ألّا أقمت ولو على جمر الغضـا قلّبت أو حد الحسـام الصـارم

ويقول الخوارزمى فى هـذه الرسالة يصف الأيام المـاضية : " كانت أرق من حاشية البرد، وأحسن من طلوع السعد، وأحلى من إنجاز الوعد، وأعذب من القند(١)، بل من النقد، وأعبق من الورد، وما أردت إلا ورد الخد، بل من المسك والند، وأطيب من القرب بعد البعد، ومن الوصل فى أثر الصـدّ، بل كانت أرق من نسيم الزهَر، فى السحَر، ومن قضاء الوطر، على الخطر، بل كانت أقصر من ليل السكارى، أو نهار الحيارى(٢) " .

وهذه تعابير كانت تجمل وتظفر بالقبول لو لم يرم بها كاتبها على هذا النحو من الإسراف .

١٨ — بقى أن نسأل هذا السؤال : هل للخوارزمى فى جدّه وهزله فلسفة خاصة يقف عندها الباحثون ؟ .

الظاهر أن فهـم الخوارزمى للحياة كان واقفا عنـد حدود أغراضـه ومآربه ومطالبـه الشخصية . وكان فنه وقفا على حسن السفارة بينه وبين أولى الأمر من معاصريه، فليسـت رسائله فى جملتها إلا شـذرات من المديح والعتاب والاستعطاف والهجاء . وهذا أخطر مقتل فى تلك الرسائل التى تعدّ من ذخائر الأدب العربى، وهو من أجل ذلك لا يصلح أستاذا لكثير من المتأدّبين، فانه لم يهب شطرا من منثوره فى الدفاع عن فكرة فلسفية، أو نزعة وجدانيـة ، ولم يرفع الأدب الى أفق من آفاق الحب والمجد والإخلاص ، ولم يسم به الى سماء من سموات الفن الخالص الذى ينسينا آصار المـادة وينقلنا الى عالم الأرواح . وكل ما نجح فيه الخوارزمى أنه أشـعرنا بوجوده، ووقفنا بجـدّه أمام شخصية قوية لها فى الحيـاة مطامع وأهواء، ولهـا فى عصرها وجود ظاهر يحسب له حساب . ونحن لا نستقل هذا ، ولكننا لا نكتفى به . فان الزعامة الأدبيـة مهما دلت على أخطار الزعماء لا ترضى وحدها عشاق الخير والحق والجمـال .

(١) القند : عسل قصب السكر . (٢) ص ١١

١٩ — ولقد انحاز الخوارزمى الى مذهب الشيعة، وهو مذهب له خصائصه ومزاياه. وفى صفّ هذا المذهب وقف وقفة مخيفة دلتنا على أنه رجل جِلاد ونضال، ولكنه لم يشعرنا بحب ذلك المذهب، ولم يسكب فى روحنا قطرة من الحنان نحو من بكاهم من الشهداء: لأنه كان يشوب تشيعه بالحقد الأسود على بنى أمية و بنى العباس. ونستطيع أن نقول إنه فى هذا الموضوع كان داعيا صادقا الى فكرة لها قيمتها فى الحياة الاسلامية، وأنه استطاع بالدفاع عنها أن يحشَر فى زمرة المجاهدين فى الحياة السياسية، لولا أنه بسط لسانه بطائفة من العورات والهنات حين عرض للخلفاء فى ألفاظ منكرة أخفها الحكم بأنهم جاءوا من نطف السكارى فى أرحام القيان[1].

ومن الحق أن نقرر أن الرسالة المطولة التى بعث بها الى الشيعة فى نيسابور تبدو لمن يقرؤها وكأنها صاعقة تصب على رءوس من عادى من الرؤساء، وفى هذه الرسالة يبدو الخوارزمى وهو أزرق الناب مسموم اللعاب، كالحية النضناض. وفيها كذلك يبدو طيبه وخبثه، وكرمه ولؤمه، وشهده وصابه، فهو تارة مؤمن متبتل خاشع صبور حين يقول: "فان أصابتنا نكبة فذلك ما قد تعوّدناه، وان رجعت لنا دولة فذلك ما قد انتظرناه، وعندنا بحمد الله تعالى لكل حالة آلة، ولكل مقامة مقالة: فعند المحن الصبر، وعند النعم الشكر"[2]. وهو تارة متحزب حقود يعدّد آثام الخلفاء من بنى أمية و بنى العباس ويذكر ما اقترفوا من الجرائم فى تقريب المغنين، وإقصاء الفاطميين، وله فى ذلك لذعات مسمومة يعفّ قلمنا عن تفصيل ما انطوت عليه من خبيث الذم وفاحش الهجاء.

٢٠ — ولا يفوتنا أن نشير الى أن فى تلك الرسالة إشارات الى نواح من الأدب لها أهمية عظيمة: فقد لوّح الى إن هناك أشعارا وضعت بعد الاسلام على ألسنة الجاهلية معارضة لأشعار المسلمين، و رواها مثل الواقدى و وهب بن منبه التميمى ومثل الكلبى والشرقى بن القطامى والهيثم بن عدىّ، وهو بهذا ينص على أن أشعارا وضعت للحط من علىّ بن أبى طالب، وعرفنا

(١) ص ١٣٣ من رسائل الخوارزمى. (٢) ص ١٣٠

منه كذلك أن من شعراء الشيعة مَن قُطع لسانه ومُزق ديوانه فضاع شعره وهو عبد الله بن عمار البرقى فصار لذلك من الشخصيات المجهولة فى تاريخ الآداب . وعرفنا منه أيضا أن عبد الله بن مصعب ووهب بن وهب البخترى ومروان بن أبى حفصة الأموى وعبد الملك ابن قُرَيب الأصمعى وبكار بن عبد الله الزبيرى وأبا السمط بن أبى الجون الأموى وابن أبى الشوارب العبشمى، هؤلاء جميعا كانوا متهمين بالتحامل على آل أبى طالب[1] .

وهذا كلام ليس جديدا فى ذاته فقد أشار الى مثله كتاب التراجم ،ولكن وروده على لسان الخوارزمى مضافا الى ما أفاض فيه من عيوب الخلفاء يوضح أشياء كثيرة لها أهميتها فى تحديد الاتجاهات الفكرية والأدبية عند الكتاب والشعراء والمؤلفين ، ويدعو الى الاحتراس مما نسب الى كثير من المتقدمين .

(١) ص ١٢٩ و ١٣٠

٩ – قابوس بن وشمكير

١ – فى سنة ١٣٤١ هـ، نشرت المطبعة السلفية كتابا صغيرا اسمه كمال البلاغة على نفقة المكتبة العربيـة ببغداد، فمن الواجب فى رأس هـذا البحث أن نسدى الشكر لحضرتى الفاضلين نعمان الأعظمى ومحب الدين الخطيب على عنايتهما بإحياء هذا السفر النفيس .

وكمال البلاغة هـذا مجموعة صغيرة من رسائل شمس المعـالى قابوس بن وشمكير المتوفى سنة ٤٠٣ – أما قابوس بن وشمكير فشخصية جذابة شغلت أرفع مكان بين كتاب القرن الرابع، وسار ذكرها بين أدباء الأندلس حتى عدّه ابن شهيد ضريبا لبديع الزمان . وهو ملك من ملوك الديلم على جرجان وطبرستان . قام بأعباء الملك سنة ٣٦٦ ولقبه الخليفة الطائع لله "شمس المعالى". ولكن فتنـة نشأت فى الشرق بين عضد الدولة بن بويه وأخيـه فخر الدولة فى السنة الأولى من حكم قابوس كان من نتائجها أن انهزم فخر الدولة ولجأ الى قابوس فأكرمه ورعاه، فأحفظ ذلك عضـد الدولة الذى أغار على مملكة قابوس فاستولى عليها سنة ٣٧١ وفرّ قابوس لاجئـا الى خراسان . وبعد سنتين استطاع فخر الدولة أن يعود الى ملكه وكانت بلاد قابوس فى جملته، ففكر قابوس فى الاستفادة من هذا الظرف، ولكنه موطِل لنية كان يخفيها الوزير ابن عباد . فلما توفى فخر الدولة سنة ٣٨٧ أعدّ قابوس حملتين عسكريتين واسترد ملكه سنة ٣٨٨، ولكن عصره كان مملوءا بالقلاقل والاضطرابات فانتهى الأمر بخلعه وتولية ابنـه . وكانت له نهاية محزنة نشأت عن ثورة الشعب الذى أكرهه على الفرار الى بسطام حيث قضى نحبه هناك .

٢ – كان قابوس من الملوك الأدباء، وكان للظروف القاسـية التى عاناها فى حياته السياسـية أثر بليغ فى طبع مواهبه الأدبية بذلك الطابع المحزن الذى يغلب على شعره ونثره . وهو يذكّر بالمعتمد بن عبـاد الأندلسى، فكلاهمـا بكى ملكه وحظه ومجده، ولننظر كيف يقول قابوس حين استولى ابن بويه على بلاده وأخرجه منها حائرا كاسف البال :

لئن زال أملاكى وفات ذخائرى   وأصبح جمعى فى ضمان التفـرّق
فقـد بقيت لى همـة ما وراءها   منـال لراج أو بلوغ لمــرتقى
ولى نفس حر تأنف الضيم مركبا   وتكــره ورد المنهــل المترنق
فان تلفت نفسى فلله درّهـا   وإن بلغت ما أرتجيــه فأخلق

وله هـذه الأبيات التى يحفظها أكثر المتأدبين وقد وصلت الى أغلب الجماهير لعنـاية المؤلفين بآختيارها فى المجموعات الأدبية :

قل للذى بصروف الدهر عيّرنا   هل حارب الدهر إلا من له خطر
أما ترى البحر تعلو فوقه جيفٌ   وتســتقر بأقصى قاعه الدرر
فان تكن نشبت أيدى الزمان بنا   ونالنـا من تمادى بؤسه الضرر
ففى السماء نجــوم ما لهـا عدد   وليس يكسف إلا الشمس والقمر

وله أيضا هذه القطعة يعرّض بمن رفعتهم الأيام بعد خفض وأعزتهم بعد هوان :

بالله لا تنهضى يا دولة الســفل   وقصرى فضــل ما أرخيت من طِوَل
أسرفت فآقتصدى، جاوزت فآنصرفى   عن التهور ، ثم آمشى على مهــل
مخدمون ولم تخــدم أوائلهــم   مخوّلون وكانوا أرذل الخــول

وبمناسبة شعر قابوس نذكر له هذين البيتين وهما من أروع ما قيل فى التشبيب :

خطرات ذكرك تستثير مودتى   فأحس منهـا فى الفؤاد دبيبـا
لا عضو لى إلا وفيــه صبابة   فكأن أعضائى خلقن قلوبا

٣ — أما نثر قابوس فأعجوبة من أعاجيب فن الانشاء . هو نثر مصنوع صنعة دقيقـة جدا لا يدرك كنهها إلا الفحول . وقد عنى بدراسته من المتقدّمين عبد الرحمن اليزدادى الذى اختار من رسائله ماسماه "كمال البلاغة" ودراسـة اليزدادى لنثر قابوس جديرة بأن يعود اليها الأدباء بالنقد والتمحيص، لأنها مكملة لأنواع البديع : فقد استخرج منها أنواعا لم يكن وجدها

قدامة بن جعفر فيما فتش من كلام الفصحاء، ثم تولى تسميتها بما شاكلها من النعوت، وهى أربعة عشر نوعا . منها المجنَّح كقوله :

” صام عن جواب ما نفذ اليه، ونام عما لزمه فى حق الاعتماد عليه “ .

وسماه مجنحا لأنه شبهه بشىء له جناحان من قِبَل أن فى أوّله سجعا وفى آخره سجعا وبينهما واسطة . فكلمة (صام) فى أوّل القرينة الأولى تقابل كلمة (نام) فى أول القرينة الثانية .

ومنها الممثل كقوله :

” ولا يعجبنى أن يكسو ضوء مكارمه كلف الخمول، و يأذن لطوالع معاليه بالأفول “ .

وسماه كذلك لكثرة ما فيه من التمثيلات .

ومنها المجانس كقوله :

” أين الطبع الذى هو للصُّدود صَدود، وللتألف ألوُف ودود “ .

وسماه كذلك لأن اسمه مشتق من الجنس ولأن بعض الكلام منه جنس لبعض، فالصدود وصدود من جنس واحد، والتألف وألوف من جنس واحد .

ومنها مشابهة الصور كقوله :

” اذا حالف، فأحسبه قد خالف، واذا أعار، فأحسبه قد أغار “ .

وسماه كذلك لتشابه صور الكلمات فى الخط : لحالف وخالف فى صورة واحدة ، وكذلك أعار وأغار .

واليزدادى مفتون فتنة مطبقة بنثر قابوس، وانظر كيف علّق على قوله :

” قد خلد ذلك فى بدائع الأخبار، وكتب بسواد الليل على بياض النهار “ .

فانه يقول : (هذا كلام لا أعرف فى جودة صنعته وغرابة معناه كلاما : لأنه مثّل سواد الليل بالمداد، وبياض النهار بالقرطاس، وهما شيئان ليس لهما نظيران فى البقاء، وهذه القرينة الثانية نتيجة طبع كالماء رقيق، وصنع فى تأليف الكلام دقيق، وليس مما يسمح به

طبع الكتّاب وتفى به قرائحهم ، فإنى قد أجلت الفكر فى عدّة ألفاظ رائية الأواخر فلم أجد منها ما يقع موقعه فى الوفاق . وكان ما أتى وحضر فى غاية النفور منه والشذوذ عنه ، ولا يعرف ما أقوله إلا من يعالج التسجيع [1] .

وفى مكان آخر يقول :

” وأنا إن رمت العبارة عن بدائع هذه الرسائل عييت به لإعجازها ، ولأنه كلام مباين ، فى الفصاحه والعذوبة والبدعة والإيجاز ، للكلام المعهود الجارى على ألسـنة الناس ... ليس ذا من كلام البشر ، ولا من المعرفة البشرية ، والادراك الطباعى ، بل هو إفاضة القوّة العلوية [2] “ .

٤ — أما نحن فقد راجعنا هـذه الرسائل غير مرة ، ورأيناها حقا من الذخائر النادرة ، ولكننا لا نوافق اليزدادى على تقرير أن هذه الأربعـة عشر نوعا من البديع لا توجد فى كلام غير كلام قابوس . فهى فى جملتها ترديد للصنعة التى عرف بهـا المتقدّمون . وكل ما تمتاز به هو شدّة الأسر ، وٱطراد الفن فى جميع أجزائها بحيث يمكن إن يقال إن هذا الرجل كان ينحت الكلام كما ينحت المثّال الصخر ليخلق منه غرائب التماثيل .

٥ — وهنا نقطة يحسن الكلام عليها : هى أن نقاد الغرب اليوم يأخذون على كتّاب اللغة العربية أنهم يجمعون بين الصور المختلفة فى الجملة الواحدة بدون أن يلاحظوا مايجب أن يكون بين تلك الصور من الروابط المعنوية . من ذلك مثلا قول الثعالبى فى الزوزنى الكاتب :

” يغرس الدر فى أرض القراطيس ، وينشر عليه أجنحة الطواويس “ .

فان هذه أخيلة متنافرة لا جامع بينها ولا رباط . ولو حللت مافيها من ٱستعارة لأعياك الأمر وضاق بك المجال . وهى فى جملتها شعوذة عقلية ، وإن بدت لبعض الناس نهاية فى الحسن والرواء .

وقول الثعالبى أيضا فى أبى الفرج الببغا :

” له كلام ، بل مدام ، بل نظام من الياقوت ، بل حب الغمام “ .

---

(١) ص ٢٦ و ٢٧ من كمال البلاغة . (٢) ص ٣٢

فان الانتقال من هـذه الصور مضلل للخيال . وكل ما عنـد الكاتب أنه عرض ما مرّ بذهنه من مختلف الأشكال .

٦ — ونحن إذا أردنا أن ننقـد رسائل قابوس من هـذه الناحية وجدناه يحلِّق أحيانا ويسـفّ حينا . فمن المستجاد له هذه العبارة :

"ولا يعجبنى أن يكسو ضوء مكارمه كلف الخمول ، و يأذن لطوالع معاليه بالأفول" .

فان الصور هنا متقاربة والربط بينها موجود . ولكن آنظر قوله فى وصف نثر ابن العميد :

"ولو كنت عرفت تفاضل الكلام ، وميزت بين المنسم والسنام ، لما قابلت بصفيرى زئيره، وما ساجلت ببعيثى جريره" (١) .

فان الربط بين هـذه الصور صعب، لأنه قابل بين المنسم والسنام، ثم آنتقل فقابل بين الصفير والزئير، وأبعد من هذا انتقاله فى قوله "وما ساجلت ببعيثى جريره" فان القارئ يحتاج إلى تأمل وتفكير فى تصور هـذه القرينة الأخيرة، الى أن يتاح له من يفهمه أنهـا إشارة إلى البعيث وجرير من بين الشعراء .

و يستجاد قوله :

"حتى يثمر ما أزهر من القول، و يمطر ما أنشأ من سحاب الفضل" (٢) .

لأن الزهر والثمر والمطر والسحاب مما يغلب الجمع بينه فى عالم الوجود. ولكن آنظر قوله :

"الدنيا شجرة ثمرتها النوائب، و بيضة مضمنها العجائب" .

فان الآنتقال من الشجرة إلى البيضة شطط غير مقبول .

و يستجاد قوله :

"أمن صخر تدمر قلبـه فليس يلينه العتاب، أم من الحديد جانبه فلا يميّله الإعتاب، أم من صفاقة الدهر مجنّ نُبوِّه فقد نبا عنـه غَرب كل حِجَاج، أم من قساوته مزاج إبائه فقـد أبى على كل علاج" (٣) .

(١) ص ٤٢ (٢) ص ٤٧ (٣) ص ٥٣

فإن الأواصر وثيقة بين هذه التمثيلات، ولكن أنظر قوله :

"فأما ذلك المهم فما أحراه بأن يلجم فيه مسرج وعده، وينتج بالنجح ماضمنه نسج يده"(١) .

فان هذه الأخيلة قليلة الأئتلاف .

٧ — ومن الحق أن أقرر أنني أجد صعوبة فى البحث عن مَقاتل هذا الكاتب الفنان، فأكثر صوره وأخيلته وتمثيلاته يسود فيها روح التآلف والاتساق . ويعجبنى قوله :

"فمن أين للضباب، صوب السحاب، وللغراب، هُوِىّ العقاب"(٢) .

وقـــوله :

"ولم لا يســترد عازب الرأى فيعلم أنه ما لم يعاود الصـلة مأفون ، ويستعيد غائب الفكر فيفهم أنه ما دام على الفرقة مغبون، أظنه يقدّر الاستغناء عنى هو الغنى والغَناء، ولا يدرى أن الألتواء علىّ هو البِلى والبلاء، ويخال أنه مكتف بجاهه وعرضه، ولا يشعر أنى كلٌّ لبعضه، وطول فى عرضه، وأن قوّة الجناح بالقوادم والخوافى، وعمل الرماح بالأسنة والعوالى"(٣) .

وله أحيانا مبالغات يظهر فيهـا الغلو والإسراف ، ولكن حلاوة أسلوبه تسحب عليهـا نسمة من القبول . وإليك قوله :

"بل كيف يهوّن من لو شاء عقد الهواء، وجسّم الهباء، وفصّل تراكيب السماء ، وألف بين النار والمـاء ، وأكمد ضياء الشمس والقمر، وكفاهما عناء السـير والسفر ، وسد مناخر الرياح الزعازع ، وطبق أجفان البروق اللوامع ، وقطع ألســنة الرعود بسيف الوعيد ، ونظم صوب الغمام نظم الفريد ، ورفع عن الأرض سطوة الزلازل ، وقضى بما يراه على القضاء النازل، وعرض الشـيطان بمعرض الانسان ، وكحل(٤) الحور العين بصـور الغيلان ، وأنبت العشب على البحار، وألبس الليل ضوء النهار"(٥) .

(١) ص ٨١ (٢) ص ٧٧ (٣) ص ٥٦ (٤) لعل الصواب (مثل) بالتشديد .
(٥) ص ٥٥

٨ — وهذه القطعة التى نعدها من المبالغات والتهويلات، ألا تدلنا على شىء؟ إنها لتدلنا على أن الانسان كان يحلم منذ أجيال بالتحكم فى الأرض والسماء، والماء والهواء . إن هذا الكلام الذى نراه مبالغة لو قاله امبراطور ألمانيا بالأمس، أو قاله ملك انجلترا اليوم، لما رأى الناس فيه شيئا من الغلو والاسراف . فقد آستطاع الانسان فى هذا الجيل آن يكمد ضوء الشمس والقمر، وأن يسخر الهواء، وأن يؤلف بين النار والماء، وأن يسد مناخر الرياح، وأن يطبق أجفان البروق، وأن يبدل الطبائع من حال إلى حال . وقد ألبس الليل ضوء النهار، ولم يبق إلا أن ينبت العشب على البحار .

إن دراسة الآداب القديمة تعطينا صورا عجيبة من أحلام الانسانية . فهذا الطيران الذى أصبح قوّة القُوَى فى هذا العصر كان حلما يتردّد كثيرا فى أخيلة الأقدمين؛ فقد تصوروا لسليمان بساط الريح، وقدّروا أنْ سيكون فى الجنة طيارون، ولم يتمثلوا الملائكة إلا مجنّحين، لأنهم كانوا يرون القوّة الكاملة فى أن يطير الانسان من أفق إلى أفق، ومن قطر إلى قطر، كلما بعثته الدواعى وأهابت به الظروف .

فما نراه مبالغة فى كلام قابوس بن وشمكير ليس إلا وثبة من وثبات الخيال الانسانى الذى قدّر ما ينتظر له من البأس والقوة فى عالم الوجود . ولننظر كيف يقول فى نفس الرسالة التى اقتطفنا منها القطعة السالفة :

”كيف يُزَهد فيمن ملك عنان الدهر فهو طوع قياده، وتبع مراده، ينظر أمره ليمتثل، ويرقب نهيه فيعتزل؟ وكيف يُهجَر من تضاءلت الأرض تحت قدمه، وصارت فى الانقياد له نخدمه؟ إذا رأت منه هشاشة أعشبت، وإن أحست منه بجفوة أجدبت؟ وكيف يستغنى عمن خيله العزمات والأوهام، وأنصاره الليالى والأيام، فمن هرب منه أدركه بمكايدها، ومن طلبه وجده فى مراصدها؟ وكيف يُعرَض عمن تُعرِض رفاهة العيش بإعراضه، وتنقبض الأرزاق بآنقباضه، وأضاء نجم الإقبال إذا أقبل، وأهلّ هلال الجد إذا تهلل؟ وكيف يزهَى على من تحقر فى عينه الدنيا، ويرى تحته السماء العليا، قد ركب عنق الفلك، وآستوى على

ذات الحبُك، فتبرجت له البروج، وتكوكبت لعبادته الكواكب، واستجارت بعزته المجرة، وأثرت بمآثره أوضاح الثرى" (١) .

وإنى لأنتظر أن يحقق الانسان الحاضر جميع الخيالات التى مرت بذهن الانسان الغابر، فقد كان الانسان يضيف إلى الجن جميع القوى التى تعجز عن إدراكها وسائله المادية، ونظرةٌ فى كتاب ألف ليلة وليلة، أو ما شاكله من كتب الخرافات والأساطير، ترينا أن الانسان كان يضيف إلى الجن أعمالا غريبة معقدة هى اليوم أيسر ما يأتى به الانسان فى أعوام الحروب . وستتبدل تبعا لتطورات الاختراع أوضاع كثيرة من مصطلحات البلاغة والبيان، فتصبح أكثر المجازات حقائق، وتمسى أكثر المبالغات تعابير عادية لا شطط فيها ولا جموح . وسينتظر أن يكون للانسان الحاضر أوهام جديدة، وخيالات طريفة، بالقياس إلى ما حققه من أوهام أسلافه الماضين، وستكون الأجيال المقبلة مشغولة بتحقيق الأحلام الجديدة التى يتصورها الإنسان الحديث . ولا يعلم إلا الله ما سيكون من مصير الحلم الأعظم حلم الخلود، فقد تشبث الانسان بهذا الحلم فى جميع أدواره التاريخية، وعز عليه أن تكون أيامه فى هذه الدنيا هى كل ما يملك من حظوظ الحياة، وليس مذهب تناسخ الأرواح الذى تعلق بأهدابه الأقدمون إلا تعزية لهذا الانسان الفانى الذى يزعجه أن يقصر وجوده على سنوات معدودات . وقد راعت جميع الديانات هذه الأمنية الانسانية فقررت فى ثقة مصحوبة بالرفق والعطف أنْ سيكون للانسان حياة أخرى هى أعلى وأبقى من حياته الدنيا، وأنْ سيكون له جنة ونعيم، ورَوح وريحان . ولا أكتم القارئ أنى أعجب كيف يعيش الناس فى بعض أنحاء الصين فى ظلال المعتقدات الجافة التى تنذر بأنْ لا حياة بعد الموت، وأنْ لا رجعة للانسان بعد فراق دنياه .

إن الانسان ليسعى للخلود بوسائل شتى، منها هذه الآثار المادية والمعنوية التى يفنى الناس فيها أعمارهم ليكون لهم بعد الموت لون من ألوان الوجود . والذين لا يستطيعون أن يسمعوا

(١) ص ٥٤

التاريخ صوتهم ، وأن يفرضوا بقاءهم فى أذهان الأحياء ، يأملون أن يصلوا بطريق الخير والبر الى ملكوت السموات، علّهم يعيشون خالدين بين المتقين والأبرار .

إنى لأذكر ، وأنا أكتب هـذا، أن دنونزيو شاعر ايطاليا كاد يمس بالجنون حين رأى لأول مرة طيارة تحلق فى الأجواء ، ولم ذلك؟ لأن الشاعر الذى يحس الحياة ويفهمها ويتذوقها بأكثر مما يتذوقها سائر الناس يدرك القيمة المعنوية لهذه البراعة الانسانية التى حولت الأحلام الى حقائق،ومكنت الرجال من ناصية السماء . ولا ندرى كيف يكون شعور الانسان حين يكشف له الغطاء عن عالم الأرواح . فهذه هى الأمنية الباقية التى يحلم بتحقيقها الأحياء إن طائفــة من المخترعات التى يتمتع بها الناس والتى صارت مألوفة لا غرابة فيها ، كانت لأول ظهورها من الغرائب والأعاجيب. وان كشف أسرار الكهرباء ليبشر بمستقبل عظيم جدا للانسانية، فقد يكون ما وصلنا اليه قشورًا من المعارف الأولية فى هذا الباب . فليت شعرى كيف يحيا الناس بعدنا؟ بل ليت شعرى كيف عاش الناس قبلنا،وكيف كانت علوم الفراعنة يوم بنوا الاهرام ؟ ؟ .

فى اللحظة التى أكتب فيها هذه الملاحظات أقاسى بعض الألم فى الأمعاء،ومع هذا الضعف أشعر بوحشة شديدة كلما فكرت فى قِصَر حياتى على طائفة من الأعمال الأدبيــة التى لا تقدّم الانسانية إلا بمقدار ضئيل،وتزيد وحشتى كلما ذكرت أن الإنسان سيحتاج الى أجيال طويلة حتى يبرأ من وحشيته وبداوته،ويعرف كيف فضل السلام،وكيف تكون ثمرات العالم أدوات إحياء، لا قذائف إفناء . وليس أمامى إلا هـذا الأمل الصغير : وهو أنى سأعود الى العالم عن طريق الذكريات، كما عاد قابوس بن وشمكير فشغلنى به ، وشغل معى جماعة من الأساتذة بجامعة باريس بعد أن فارق العالم بعشرة قرون .

٩ — ونعود بعد هذا فنذكر أن قابوس بن وشمكير يلتزم الصنعة فى أكثر ما يكتب، حتى فى الموضوعات الفلسفية .

وللقارئ أن يسأل : أكان لهذا الملك الأديب فلسفة يكتب عنها بلغة مثقلة بالسجع والموازنة والجناس ؟ .

نعم ! كان لهذا الرجل فلسفة ، منها رأيه فى العالم، وهو يرى من الممكن أن يغير الله هذا النظام الحاضر الذى يفضى بالانسان الى الفناء، وليس من المستغرب عنده أن يحول الله هذا العالم الفانى الى عالم خلود . وآنظر كيف يقول :

”إنا لا نقدر على علم الأشياء الغائبة إلا بما نشاهده من الأشياء الحاضرة ... ... ولو لم يكن لنا هذا التدرب والممارسة للمشاهدات ،ثم القياس بها على المغيبات ،لكنا نأبى قبول قول واصف لحيوان مّا على صورة مخالفة لمعهودنا ومعلومنا من جملة الحيوانات التى شاهدناها . ولكنا نعلم بهذا القياس المعمول عليه ان كون ما وصفه جائز، وغير مدفوع ان تأتى القدرة من البارى بحيوان لم نشاهده فى صورته الخاصة به . فجائز على هذا القياس أن تحدث قدرة البارى جل جلاله صنعا آخر زائدا على الصنع الأول فى الشرف والكمال ،فلا توجد فى شىء من أحواله حال تنافى الاستقامة، وتباين الحكمة، فيكون العالم حينئذ عالم الخلود والبقاء، منزها عن الزوال والانقضاء[(١)]“ .

وفى رأى قابوس أن هذا سيكون أظهر لقدرة البارى عز شأنه ،و لا ينبغى أن يقال : لماذا لم يخلق الله العالم كذلك منذ البداية ، لأنه لا يقال لقادر حكيم تظهر منه القدرة بعد القدرة ، والبدعة بعد البدعة ، وكان لكل متأخر منها على متقدم مزية وشرف، وفضيلة كمال : ” هلّا فعل ذلك فى الأول ؟ “ لأن الفعل كلما كان المستأنَف منه أشرف مما سلف، والأخير خيرا مما سبق، كان أدّل على قدرة الصانع، وحكمة المبدع .

١٠ — وقد أتاحت لنا هذه الأمانى أن نعود فنتأمل تقلبات العوالم المختلفة منذ نشأتها البعيدة الى وجودها الحاضر . ولكن رويدا، فأنا أكتب هذا فى غرفة مغلقة النوافذ، مسدولة

(١) ص ٩٢

الستائر، لا يهديني فيها غير الكتّاب والمصباح، وليس لديّ من وسائل التحقيق غير الخيال . ومع هذا فليسمع القارئ ان شاء :

إن علماء طبقات الأرض ، علماء الجيولوجيا ، يقولون مثلا : إن جزيرة مدغشقر أكبر من أن تكون جزيرة ، إنما هى قارة، ولكنها مع ذلك ليست مستقلة منذ خلقت، فان هناك دلائل جيولوجية تدل على أنها آنفصلت من أفريقا فى عهود ما قبل التاريخ ، فهل يدرى القارئ فى كم مليون من السنين كونت الطبيعة بوغاز موزنبيق؟ وهل يعرف فى كم أمد من الآماد آستطاعت الطبيعة أن تكوّن لمدغشقر وجودا خاصا بحيث تفترق فى حيوانها ونباتها عن أفريقا بعض الأفتراق ! إن مدغشقر تختص بنوع فذّ من أنواع الغربان ، ففيها وحدها يكون الغراب أسود الظهر، أبيض الصدر، كأنه يستعد لحفلة ساهرة! ففى كم جيل شاب ذلك الغراب الذى جهل الشاعر وجوده حين قال :

إذا شاب الغراب أتيت أهلى وصار القار كاللبن الحليب

ألا يمكن أن يكون هذا التطوّر البطئ جدا الذى يتناسب بطؤه مع خطورة هذا العالم المترامى الأطراف، ألا يمكن أن يكون سنة مطردة من سنن الطبيعة تتحوّل بها الموجودات من وضع إلى وضع ،ومن حال إلى حال، فى مدى مالا نعرف ولا نفرض من طوال الأجيال .

اذن فلنسمح للانسانيــة أن تحلم بأنْ سيكون من نتائج هذا التطوّر أن تظفر بوضع آخر من أوضاع العالم : هو الخلود، وما ذلك على الله بعزيز .

١١ — وهناك نظرة أخرى فلسفية من نظرات قابوس هى تقديره لنفس الحيوان، فعنده أن قوّة الفكر والتمييز كامنة فى جميع الحيوانات، وما من أجناس الحيوان جنس الا وقد أعطى منها قدر ما كفاه فى طلب المعاش، والاحتراز من المضار والآفات. وأشرف الحيوان عنده ما كانت معرفته من آبتداء كونه إلى آنتهاء سنه معرفة غريزية ، ولم يكن محتاجا الى إرشاد وهداية ، وتعليم ورياضة، ثم ما كان مكتفيا بحوله وقوته فى دفع المضار عن نفسه وحريمه، ومستغنيا فى تحصيل مطالبه ومآربه عن مشارك ومعين، ثم ما كان أصدق وفاء وخُلة لما عرفه

وشاهده، وألفه وآعتاده، ثم ما كان بجبلّته وخلقته نظيفا لا يحتاج إلى الاغتسال بالماء، ولا الى التزين بزينة متخذة من خارج ، وانما يغنيه حسن شعره فى مختلف ألوانه، وأنوار ريشه فى صنوف أصباغه، عن الحسن المكتسب والجمال المجلوب ، ثم ما كان من ابتداء مولده إلى منتهى أمده على طبع واحد: لا يتبدّل حالا بحال، ولا يتغير بين غدوّ وآصال ... وما أبعد نظر قابوس اذ يقول :

"كل هذا الذى ذكرته من الأوصاف الجميلة، والخصال المرضية، فى سائر الحيوان موجود، وفى الانسان — بحمد الله — مفقود . وماذا يضرهم إن فاتهم علم الفلسفة والهندسة ، ومعرفة أفلاطون وأرسطاليس ، وفيثاغورس وانبذقليس ، وأرشميدس و بطلميوس ، وهرمس و واليس، فلا العالم به ينال من العمر مزيدا، ولا الشقّ يصير به سعيدا، وكفى شرفا وفضلا بالبهائم ، أن بعر الظباء طب لهذا الحكيم العالم ، وما يتولد فى أحشاء بعضها من الحجر، دواء وشفاء لأدواء البشر ... ولكن الجاهل ظلوم، والإنصاف فى الناس معدوم" (١) .

ولقابوس آراء فى الفلك والنجوم هى صورة لمعارف أهل عصره فى هذا العلم ، يضيق عن نقدها المجال ، وحسبنا أن نذكر أن بعض ما سماه أوهاما من تأثير الكواكب هو اليوم موضع عناية علماء الفلك ، والعلم يمضى بأقدام راسخة فى تحقيق أوهام الأولين ، وفوق كل ذى علم عليم (٢) .

---

(١) أنظر ص ٩٧ و ٩٨ (٢) من أغرب ما فى آراء قابوس إنكاره للتكنية : فهى عنده منقصة للآباء . ومن رأيه أن التكنية رسم حدث فى أيام ملوك العجم إذ كانت عندهم رهائن العرب فكان يقال اذا زار أحد الآباء آبنه : جاء أبو فلان وأبو فلان، أى أن هذا والد فلان وذاك والد فلان (ليعرف ولد كل رجل بأبيه، فلا يعترض الاشتباه فيه ؛ فلما دارت الأيام على ذلك، صارت هذه النسبة رتبة لأولئك) ويضيف قابوس الى هذا أن التكنى "ترتب برتبة أهل الذمة، واستعمال لرسوم تلك الأمة . وقبيح سمج بالمسلمين، أن يكونوا بسماتهم متسمين" أنظر ص ١٠٩ و ١١٠ والتكنية — كما يرى قارئ كتابنا هذا — صارت من الأمور الشائعة عند رجال القرن الرابع حتى نكاد نجزم بأن لكل كاتب كنية ، والكنية هى التى ميزت بين الحسن بن عبد الله العسكرى والحسن بن عبد الله العسكرى فهما متساويان فى التسمية وتفرق بينهما الكنية : فأحدهما أبو أحمد ، وثانيهما أبو هلال .

= ومن المحتمل أن يكون رأى قابوس صحيحا فى أصل التكنية ، ولكن لامرية فى أنها صارت عادة عربية . فان الجاحظ يحدّثنا أن كل من اسمه علىّ صار يكنى بأبى الحسن وكل من اسمه عمر صار يكنى بأبى حفص (الحيوان ص ١٥٩ ج ١) ويحدّثنا ابن النديم أن عبد الله بن المقفع كان قبل إسلامه يكنى أبا عمرو، فلما أسلم اكتنى بأبى محمد (الفهرست ص ١٧٢) وابن أبى الحديد يخبرنا أن التكنية كانت عند العرب وعند الفرس وأن ملوك بنى ساسان لم يكنها أحد من رعاياها قط ولا سماها فى شعر ولا خطبة و إنما حدث هذا فى ملوك الحيرة وأن جفاة العرب لسوء أدبها وغلظ تركيبها كانوا اذا أتوا النبي صلى الله عليه وآله خاطبوه باسمه وكنيته . (راجع شرح نهج البلاغة ص ٤٢٩ و ٤٣٠ ج ٤) .

والكنية مألوفة فى شعر العرب . قال الفرزدق :

وقد تلتقى الأسماء فى النـاس والكنى ... كثيرا ولكن ميزوا فى الخـلائق

والظاهر أنها كانت مطردة فيمن ليس له ولد . من ذلك قول أبى صخر الهذلى :

أبى القـلب إلا حبـها عامرية ... لها كنية عمرو وليس لها عمرو

والكنية من تقاليد النـاس فى العصر الحـاضر ، وأهل مصر يكنون الرجل أحيـانا باسم أبيـه لا باسم ابنـه فيقال (أبو عبد السلام) لأن الوالد اسمه (عبد السلام) .

وجرت التكنية مجرى التشريف فى مصر : فكان السيد أحمـد عبد الخالق السادات رحمه الله يكنى مريديه فى ليلة من ليالى رمضان فى غرفة خاصة تسمى (أم الأفراح) وكان المريدون يفرحون بكناهم أبلغ الفـرح ، وهو تقليد يدل على أن الكنية كان لها فى ذلك البيت معنى من معانى التشريف .

فان صح ما ذكره قابوس من أن التكنية كانت رتبة من رتب أهل الذمة فان انتقالها الى الجو الاسلامى فى هذا الوضع الشريف دليل على أن التطور قادر على قلب المعانى فى كل شيء . وما أكثر ما تتلون الألفاظ والأوضاع باختلاف الأجيـال !

١٠ - أبو اسحاق الصابى

١ — تلك شخصية جذابة آمتُحنت بالحوادث، وعرفت أسرار الناس وصروف الزمان. فقد كان من حظ الصابى أن رأى الأيام فى إقبالها و إدبارها وشهد من ألوان البؤس أضعاف ما شهد من ألوان النعيم : فكان لذلك أثر فى صفاء نفسه، ودقة حسه . والحظ الذى يعطى ثم يأخذ بالشمال ما أعطى باليمين أجدى على الكاتب والشاعر من الحظ المواتى الذى تتواتر ألطافه وعطاياه . وكذلك عرف الصابى صفو الحياة حين تولى الانشاء ببغداد عن الخليفة وعن عز الدولة بختيار بن معز الدولة بن بويه سنة ٣٤٩ ، ثم واجه بأساء الحياة حين ملك عضد الدولة بغداد واعتقله فى سنة ٣٦٧ وعزم على إلقائه تحت أيدى الفيلة لولا شفاعة الشافعين، وظل يعانى أحداث الأيام الى أن توفى فى شوّال سنة ٣٨٤ ببغداد وعمره ٧١ سنة .

٢ — وأوّل ما يلفت النظر من أخلاق الصابى انه كان رجلا ألوفا حلو الشمائل بليغ التأثير فى أنفس معاصريه . كان صابئيا ، وعرض عليه عز الدولة أن يسلم فآمتنع، وقيل بذل له ألف دينار على أن يأكل الفول فلم يفعل — والصابئون يحرمون الفول والحمام[1] — ولكن حرصه على دينه لم يحل بينه و بين التحلى بأكرم الخصال فى رعاية الاسلام : فقد كان يصوم رمضان مساعدة وموافقة للسلمين وحسن عشرة منه لهم، ويحفظ القرآن حفظا يدور على طرف لسانه وسن قلمه[2]. وفى هذا أصدق الدلالة على أن الرجل كان سليم الذوق، كريم الطبع، تجافت نفسه عن معاداة الاسلام وترفّع قلبه عن إضمار البغض للسلمين . وفى حفظه القرآن كفايةٌ لعصمة روحه من وَضَر الشرك وقبح الزيغ، فان القرآن أقوى ما عرفنا من الآثار الأدبية فى حمل حافظه على الأنس به والخضوع له والتسليم بما يدعو اليه من صدق الايمان . والصداقة الروحية أقوى الصداقات : فقد نجد عند أنصار اللغة العربية من مختلف الديانات

---

(١) ص ٣٢٤ ج ١ ياقوت . (٢) ص ٣٢٦ ج ١ ياقوت .

روحا إسلاميا عاليا يسمو بلطفه وكرم جوهره عن أرواح كثير ممن وقع إسلامهم فى ظل الأوضاع والتقاليد . وقد يظن أن لا حاجة الى مثل هذه الوقفة عند الكلام عن مجاملة الصابى للسلمين ، لولا أنى أرى فيها مظهرا كبيرا من نبل النفس، وعظمة الروح . فليس باليسير أن يسمو الرجل عن الأحقاد الصغيرة التى يوجبها آختلاف العقائد، وليس من السهل أن يصل الرجل الى حقيقة العظمة الروحية حين يرى القرآن أجلّ من أن يعادَى ويراه لذلك جديرا بالحفظ والإجلال .

٣ — وقد جوزى الصابى على هذا الرفق أجمل جزاء، فصحت له صداقة الشريف الرضى إمام الأشراف فى عصره، وأصدق شاعر أفصح عن نوازع الوجدان . ومهما قدّرنا الظروف التى جمعت بين الشريف الرضى وبين الصابى وآفترضنا ما شئنا من أسباب الوفاق السياسى الذى جعل من الصابى نصيرا للشريف (١) فلن نستطيع أن ننكر أن لوفاء الصابى وكرم نحيزته وطهارة قلبه أكبر الأثر فى التوفيق بين تينك النفسين العاليتين ، ويكفى أن يعرف القارئ أن الشريف الرضى بكى الصابى حين مات بقصيدة تعد من روائع شعره، قصيدة طويلة بلغت ٨٢ بيتا، وهى فى طولها محكمة النسج، جيدة السبك، تنبئ عن لوعة صادقة وحزن عميق .

ومن الخير أن نشير الى أن الرضى صور فى تلك القصيدة جانبين من أهم الجوانب فى بكاء مثل ذلك الفقيد : الأول حزنه لفقده ، والثانى نكبة الأدب فى ذلك القلم البليغ . ولننظر كيف صوّر حزنه وتفجعه فى قوله :

بُعْدًا ليومك فى الزمان فإنه ... أقذى العيون وفتّ فى الأعضادِ
لا ينفد الدمع الذى يبكى به ... ان القلوب له من الأمداد
أعزِزْ علىّ بأن أراك وقد خلت ... من جانبيك مقاعد العواد
أعزز علىّ بأن يفارق ناظرى ... لمعان ذاك الكوكب الوقاد
أعزز علىّ بأن نزلت بمنزل ... متشابه الأمجاد والأوغاد

(١) ص ٣ من مقدّمة الديوان .

الى أن يقول :

ياليت أنى ما آقتنيتك صاحبا كم قُنيــة جلبت أسى لفـؤادى
برد القــلوب لمن تحب بقـاءه ممـا يجـر حرارة الأكباد
ويقول من لم يدركنهك إنهـم نقصـوا به عددا من الأعداد
هيهات أدرج بين برديك الردى رجـل الرجال وأوحـد الاحاد

ويقول فى تعليل ما كان بينهما من الود، على بعد ما بينهما من الأصول والأنساب :

الفضـل ناسب بيننا ان لم يكن شرفى مناسـبه ولا ميـلادى
ان لم تكن من أسرتى وعشـيرتى فلأنت أعلقهـم يدا بودادى
لو لم يكن عالى الأصول فقد وفى شرف الجدود بسـؤدد الأجداد

ويقول فى الحنين الى أيامهما الخوالى، وضيق الأرض بالباكى بعد ذهاب الأليف :

ليس التنـافث بيننـا بمعـاود أبـدا وليس زماننـا بمعـاد
ضاقت علىّ الأرض بعدك كلها وتركتَ أضـيقها علىّ بلادى
لك فى الحشا قبر وإن لم تأوه ومن الدمـوع روائح وغـوادى
سلّوا من الأبراد جسمك وآنثنى جسمى يسل عليـك فى الأبراد
إن الدموع عليـك غير بخيـلة والقلب بالسـلوان غير جـواد
سوّدت ما بين الفضاء وناظـرى وغسلت من عينىّ كل سـواد
رىّ الخـدود من المدامع شاهد أن القـلوب من الغليـل صواد
ما كنت أخشى أن تضن بلفظة لتقـوم بعـدك لى مقام الزاد (١)

وفى هذه القطع التى آخترناها بيان لتلك الألفـة الوثيقـة التى كانت بين ذينك الرجلين، وقد عوتب الشريف على هذه القصيدة (٢)، وآستكثر الناس عليه فى دينه وجاهه أن يبكى رجلا

(١) تجد بقية القصيدة فى الصفحات ٢٩٤ — ٢٩٨ من ديوان الشريف الرضى ج ١

(٢) ص ٢١ ج ١ ابن خلكان .

صابئا بمثل هذا الشعر الحزين، ولكنه أجاب بأنه إنما بكاه لفضله . وأى فضل هذا الذى ينسى الشريف الرضى منزلته الدينية والاجتماعية ؟ إنه فضل ذلك الرجل المهذب الذى رأى من حسن العشرة أن يصوم رمضان ويحفظ القرآن .

أما القطعة التى وقعت فى هذه القصيدة وصفا لبلاغة الصابى فهى غاية فى الجودة ، وهى شاهد على احترام الشريف لأسلوبه وإعجابه ببراعته، ولننظر كيف يقول :

وصحائف فيها الأراقم كُمَّنٌ مرهوبة الإصدار والايراد
تدمى طوائفها اذا استعرضتها من شدّة التحذير والإيعاد
حمر على نظر العدو كأنما بدم يخط بهن لا بمداد
يقدمن إقدام الجيوش وباطلٌ أن ينهزمن هزائم الأجناد
وتكون سوطا للحرون إذا ونى وعنان عنق الجامح المتمادى
ترقى وتلدغ فى القلوب وان يشأ حط النجوم بها من الأبعاد

٤ — ومما يتصل بنبل الصابى وسموه ورغبته فى حسن الأحدوثة ورفعة شأنه بين النابهين من معاصريه ما وقع بينه وبين المتنبي . ذلك انه راسل أبا الطيب فى أن يمدحه بقصيدتين ووسط بينه وبينه رجلا من وجوه التجار، فقال أبو الطيب :

” قل : والله ما رأيت بالعراق من يستحق المدح غيرك، ولا أوجب علىّ فى هذه البلاد أحد من الحق ما أوجبته، وأنا ان مدحتك تنكّر لك الوزير — يعنى المهلبى — وتغير عليك، لأننى لم أمدحه ، فان كنت لا تبالى هذه الحال فأنا أجيبك الى ما التمست ، وما أريد منك منالا، ولا عن شعرى عوضا“ .

وكان الصابى عرض عليه خمسة آلاف درهم (١)، فكان المتنبي بذلك أعرف منه بمقتضيات الأحوال . وفى هذا الخبر بيان لمنزلة الصابى فى صدر رجل كالمتنبي وإشارة الى ما كان يسمو إليه من التطلع الى حظوظ الوزراء والملوك الذين ظفروا بمدائح ذلك الشاعر العظيم .

(١) ص ٣٤٦ ج ١ ياقوت .

٥ — وقد نالت الدنيا من الصابى ما نالت، وطمع الصاحب ابن عباد فى استقدامه إليه تشوّقا أو تشرفا، ولكن الصابى آحتمل عدوان زمانه وظلم أيامه، ولم يتواضع للاتصال بالصاحب صلة التابع بالمتبوع بعد أن كان من نظرائه فى أيام الإقبال (١).

ومن العجيب أن هذا الإباء لم يغير الصاحب الذى عُرف عنه الطمع المفرط فى استعباد الكتّاب والشعراء، فظل يحنو عليه ويبره ويعترف بأنه أحد أربعة من كتّاب الدنيا فى عصره. وفى أخبار الصاحب (٢) آعتذار رقيق من الصابى عن تخلفه عن حضرة الصاحب.

تلك الجوانب المشرقة من نفس ذلك الكاتب جعلت منـه قيثارة إنسانيـة كثيرة الرجع والحنين. لقد عرف حلو العيش ومره، فكان له بذلك أصدقاء أدناهم منه النعيم وأقصاهم عنه البؤس، وتلك أزمة يعانيها كل رجل كريم النفس عرف بأساء الحياة ولينها ورأى كيف تتغير الأخلاق وتتبدل النفوس. ولننظر كيف يقول فى خطاب بعض الأصدقاء:

„ لو حملت نفسى على الآستشـفاع والسؤال، لضاق علىّ فيـه المرتكض والمجال، لأن الناس عندنا، ما خلا الأعيان الشواذ الذين أنت بحمد الله أولهم، طائفتان: طائفة مجاملة ترى أنها قد وفتك خيرها، إذا كفتك شرها، وأجزلت لك رفدها، إذا أجنبتك كيدها، ومكاشفة تنزو إلى القبيح نزو الجنادب، أو تدب دبيب العقارب، فان عوتبوا حسروا قناع الشقاق، وإن غولطوا تلثموا بلثام النفاق، والفريقان فى ذلك كما قلت منذ أيام:

أيارب كل النـاس أبنـاء علة ... أما تعثر الدنيا لنـا بصـديق!
وجوهٌ بها من مضمَر الغل شاهدٌ ... ذوات أديم فى النفاق صـفيق
إذا اعترضوا عند اللقاء فانهـم ... قذى لعيـون أو شجا لحـلوق
وإن أظهروا برد الوداد وظله ... أسروا من الشـحناء حر حريق
اخو وحدة قد آنسـتنى كأننى ... بهـا نازل فى معشر ورفيـق
فذلك خير للفـتى من ثوائه ... بمسبعة من صاحب وصـديق (٣)

(١) ص ٧٣٧ ج ١ ياقوت. (٢) ص ٣٣٥ و ٣٣٦ ج ٢ (٣) ص ٣٤٠ و ٣٤١ ج ١ ياقوت.

٦ — وبمناسبة هذا الشعر نقرر أن الصابى يمتاز بين معاصريه من الكتّاب برقة الشعر وعذوبته، ويكاد يمر على أنه شاعر لحل، ولهذا أهميته فى تقدير كفايته النثرية، إذا لاحظنا أن النثر الفنى الذى أُغرم به معاصروه «و نثر شعرى» ، لا يختلف عن الشعر إلا فى الوزن وفى بعض الأغراض .

ومن جيد شعره قوله فى القد الرشيق يشبّه بالغصن الرطيب :

إن نحن قسناك بالغصن الرطيب فقد ... خفنا عليك به ظلما وعدوانا
الغصن أحسن ما نلقاه مكتسيا ... وأنت أحسن ما نلقاك عريانا

وقوله فى أثر العناق :

الى الله أشكو ما لقيت من الهوى ... بجارية أمسى بها القلب يلهجُ
اذا آمترجت أنفاسنا بالترامنا ... توهمت أن الروح بالروح يمزج
كأنى وقد قبلتها بعد هجعة ... ووجدىَ ما بين الجوانح يلعج
أضفت الى النفس التى بين أضلعى ... بأنفاسها نفسا الى الصدر تولج
فان قيل لى آختر أيما شئت منهما ... فإنى الى النفس الجديدة أحوج

وبديع الزمان فى المقامة الجاحظية يدلنا على فهم أهل ذلك العصر للرجل البليغ، فهو عندهم : ” من لم يقصر نظمه عن نثره ، ولم يزر كلامه بشعره “ (١) وكذلك كان الصابى : فهو يجيد فى الصناعتين إجادة لم تتفق لغيره إلا قليلا .

---

(١) راجع المقامة الجاحظية ص ٧٧

١١ - رسائل الصابى

١ — أما نثر الصابى فهو فى الأغلب موضوعىّ، لأنه فى أكثر الأحيان يتكلم عن شئون خاصة بالدولة التى يخدمها، ويندر أن يتحدّث عن نفسه . وهى مهمة دقيقة لا يوفّق الى أدائها على الوجه الأكمل إلا الكتّاب الفحول . وأوّل ما يروعنا من نثر الصابى فناء روحه فى البيئة الاسلامية التى يعيش فيها، فهو مع بعده عن الإسلام يتحدّث بلغته ، وتجرى تعابيره وأخيلته وكأنما تستمد وحيها من القرآن ، وهو فى هذا الباب مسلم أكثر من المسلمين . وإنه ليصف الله عز شأنه فيقول : „لا تحده الصفات، ولا تحوزه الجهات، ولا تحصره قرارة مكان، ولا يغيره مرور زمان، ولا تتمثله العيون بنواظرها ، ولا تتخيله القلوب بخواطرها، فاطر السموات وما تظلّ، وخالق الأرض وما تقلّ، الذى دل بلطيف صنعته، على جليل حكمته، وبين بجلىّ برهانه ، عن خفىّ وجدانه، وٱستغنى بالقدرة عن الأعوان، وٱستعلى بالعزة عن الأقران ، البعيد عن كل معادل ومضارع، الممتنع على كل مطاول ومقارع، الدائم الذى لا يزول ولا يحول، العادل الذى لا يظلم ولا يجور ، الكريم الذى لا يضن ولا يبخل، الحليم الذى لا يعجل ولا يجهل، ذلكم الله ربكم فٱدعوه مخلصين له الدين(١)» .

٢ — ولو أننا قارنا هذه العبارات بأمثالها مما تكلم به الشريف الرضى على لسان على بن أبى طالب لرأينا الصابى يستقى من نفس المنبع الذى ٱستقى منه الشريف ، ويمكننا بهذه المناسبة أن نقرر أن كتّاب ذلك العصر كانوا يميلون الى الكلام عن ذات الله وصفاته وعن رسله وأنبيائه خصوصا فى المواطن التى يخاطبون فيها الجماهير . وفى ذلك دلالة على أن الروح الدينى كان لا يزال حافظا لبعض سحره الأول يوم كان يفعل ما يشاء بألباب الرجال .

(١) ص ٨٢ مختار رسائل الصابى . وانظر مثل هذه الفقرة فى ص ٤٣ و ٤٤

٣ — وورود نثر الصابى فى شئون ادارية ومشا كل يومية جعله غير صالح للبقاء، وكذلك نرى أكثر رسائله وعهوده مما تنبو عنه ميول القراء فى العصر الحديث . فان الكتابات التى تعنى بمشا كل اليوم الحاضر وتشغل بالمنازعات اليومية يكون حظها فى الأغلب حظ مقالات الصحف التى تصف الأزمات الوقتية ثم لا تصلح بعد ذلك لأن تكون أثرا فنيا ، وانما يقف نفعها على المشتغلين بالتاريخ . ورسائل الصابى كذلك لا تنفع فى جملتها إلا من يهتمون بتاريخ ذلك العهد من عهود الدولة العباسية . وهى صريحة فى أن الخلفاء كانوا لا يملكون شيئا ، وانما يستبد بالأمر من يملك باسمهم من الأمراء والوزراء . وأى أثر أدل على ضعف الخلفاء من هذه العبارة التى وردت على لسان الخليفة الى أهل البصرة :

”وأمير المؤمنين يعلمكم أن عز الدولة يده التى يبطش بها ، وعدّته التى يعوّل عليها ، ويأمركم بالجهاد معه ، والنصر له ، والكون على كل مخالف عليه ومنازع له . وقد قرن أمير المؤمنين العهد فى ذلك عليكم بعهد البيعة الحاصلة فى أعناقكم ، وجعلكم فى أضيق حرج من التقصير أو التعذير أو المراقبة أو المخاتلة ، وليس لكم صلاة ولا زكاة ولا عقد ولا مناكحة ولا معاملة إلا مع طاعته والاخلاص له سرا وجهرا وقولا وفعلا ، فاعلموا ذلك من رأى أمير المؤمنين وآعملوا عليه واعتمدوه وانتهوا اليه“ (١) .

٤ — فاذا تركنا ما تنبئ عنه العهود التى كتبها الصابى على ألسنة الخلفاء من غلبة الديلم واستبدادهم بمصالح الدولة ، وأقبلنا نتلمس الحقائق الباقية من آراء الصابى وجدناها قليلة ، ورأينا شهرة الرجل قائمة على أنه كان آلة ماضية فى يد من كتب لهم من الخلفاء والوزراء ، والظاهر أن تأثيره من هذه الناحية كان قويا جدا ، حتى استباح لنفسه أن يقول :

وقد علم السلطان أنى أمينهُ ... وكاتبه الكافى السديد الموفقُ
أؤازره فيما عرا وأمده ... برأى يريه الشمس والليل أغسق
يجدد بى نهج العلا وهو دارس ... ويفتح بى باب الهدى وهو مغلق

(١) ص ٢٠٨

فيمناى يمناه ولفظىَ لفظه وعينى له عين بها الدهر يرمق
ولى فِقَر تضحى الملوك فقيرة اليها لدى أحداثها حين تطرق
أردّ بها رأس الجموح فينثنى وأجعلها سوط الحرون فيعنق
فإن حاولتْ لطفا فماء مروّق وإن حاولت عنفا فنار تألق (١)

وقد أشار الرضى فى رثائه له الى هذه الناحية من قوته فقال :

من للملوك يحز فى أعدائها بظبىً من القول البليغ حِداد
من للممالك لا يزال يلمها بسداد أمر ضائع وسداد
من للجحافل يستزل رماحها ويرد رعلتها (٢) بغير جلاد
من للبوارق يسترد قلوبها بزلازل الإبراق والإرعاد (٣)

٦ — وفى الحق أننا لا نجد فى رسائل الصابى ما يلفت النفس اليه إلا بعض الفقرات الوصفية التى تمثله لنا رجلا فنانا يحكم القول، ويجيد الوصف، وهذه الفقرات قليلة أيضا، وهى غريقة فى لجج إسهابه وتطويله هنا وهناك، فمن ذلك ما جاء فى رسالته عن المعركة التى دارت فى آمد آخر رمضان سنة ٣٦٢ بين المسلمين وبين الروم :

"وتلوّم أصحابنا بها (أى بآمد) يريحون، والكفرة على مسافة يوم منهم مقيمون، مرة تقدم بهم الآجال، ومرة تحجم بهم الأوجال، ثم تدانى الفريقان، والتقت حلقتا البطان (٤) ... فثبت الطغاة اغترارا بوفور عددهم، ومحاماة عن صاحبهم وعظيم كفرهم، وأخذ الأولياء منهم بالمخنق، وصدقوهم القتال فى المعترك الضيق، فلما استعرت الملحمة، وعلت الغمغمة، ودارت رحى الحرب، واستحرّ الطعن والضرب، واشتجرت سمر الرماح، وتصافحت بيض الصفاح، تداعى الأولياء بشعار أمير المؤمنين المنصور، وتنادى الكفار بالويل والثبور، فنكصوا على أقدامهم مجدين

(١) اليتيمة ص ٥٠ ج ٢ (٢) الرعلة : الجيش الكثير . (٣) ص ٢٩٦ ج ١ ديوان الشريف الرضى . (٤) البطان الحزام يجعل تحت بطن البعير، ويقال التقت حلقتا البطان للامر اذا اشتد .

فى الهزيمة، وآعتدّوا الحشاشات لو سلمت لهم من أعظم الغنيمة، وآستلحمتهم السيوف، واحتكمت فيهم الحتوف، وأخذ المسلمون منهم الثار، وعجل الله بأرواحهم الى النار"(١).

٧ — وقد تصفحنا رسائله غير مرة لنرى أثر الحكمة فيها فوجدناه ضئيلا، ولم يستقر رأينا فيه إلا على فكرة واحدة: هى أنه كان خبيرا بنفوس أهل عصره، وكان لذلك موفقا فى الوصول الى مرضاة من يخدمهم من الرؤساء، وإرهاب من يكتب فى زجرهم من العصاة والثائرين، وكان يعرف مايصح أن يسمى "سياسة القول" يدل على ذلك قوله فيما يجب أن تكون عليه "لغة المنشورات الرسمية" فيما كتب عن المطيع لله الى الوزير المهلبى سنة ٣٥١ :

"واذا عرض من ذلك ما تعلمه الخاصة بوفور ألبابها، وتجهله العامة بقصور أذهانها. وكانت أوامره — يريد أمير المؤمنين — فيه خارجة اليك والى أمثالك من أعيان رجاله وأماثل عماله، والذين يكتفون بالإشارة، ويجتزئون بيسير الإبانة والعبارة، لم يدع أن يبلغ من تلخيص اللفظ وإيضاح المعنى الى الحد الذى يلحق المتأخر بالمتقدّم، ويجمع بين العالم والمتعلم، ولا سيما اذا كان ذلك مما يتعلق بعمالات الرعية، ومن لا يعرف إلا الظواهر الجلية، دون البواطن الخفية، ولايسهل عليه الانتقال من العادات المتكررة، الى الرسوم المتغيرة، ليكون القول المشروح لمن برز فى المعرفة مذكّرا، ولمن تأخر فيها مبصّرا، ولأنه ليس فى الحق أن تمنع هذه الطبقة من برد اليقين فى صدورها، ولا أن يقتصر على اللمحة الدالة فى مخاطبة جمهورها، حتى اذا آستوت الاقدام بطوائف الناس فى فهم ما أمروا به، وفقه ما دُعُوا اليه، وصاروا فيه، على كلمة سواء، لا يعترضهم شك الشاكين، ولا آسترابة المستريبين، اطمأنت قلوبهم، وآنشرحت صدورهم، وسقط الخلاف بينهم، وآستمر الاتفاق فيهم، وآستيقنوا أنهم مسوسون على استقامة فى المنهاج، ومحروسون من جرائر الزيغ والأعوجاج، فكان الانقياد منهم وهم دارون عالمون، لا مقلّدون مسلّمون، وطائعون مختارون، لا مكرهون مجبرون(٢).

(١) ص ٥٠ (٢) ص ٢٠٩ و ٢١٠

٨ — على أن فى الرسائل التى كتبها عن الخلفاء فقرات تنحو منحى الرسائل الاخوانية، وتجرى فيها المعانى طلقة رقيقة كأنفاس العتاب، فقد كتب عن الطائع لله الى عضد الدولة يقول :

"أما بعد فإنك من المنزلة العالية عند أمير المؤمنين بحيث يقتضيه تأهيله إياك لها، وإنافته بك إليها، ألّا يصبر منك على حدوث قطيعة، ولا يغضى لك على اعتراض جفوة، ولكنه يوجب فى الحقوق بينه وبينك، والأواصر المتهدة عنده لك، أن يجم صفوة الحال عما يشوبها، وينفيها مما يعيبها، ويتأناك الى أن تعود من ذاتك الى ملازمة طبعك السليم، وسننك المستقيم، ويعتقد أنك منه كالعين الناظرة التى تصان عما يقذيها، واليد الباطشة التى تحفظ عما يدويها (١) " .

غير أنى ألاحظ أن هذه الفقرة استغلال لقول ابن الرومى فى العتاب :

لا أجازيك من غرورك إيا ... ى غرورا وقيت سوء الجزاء

بل أرى صدقك الحديث وما ذا ... ك لبخل عليك بالإغضاء

أنت عينى وليس من حق عينى ... غض أجفانها على الأقذاء

ومن المعانى الوجدانية قوله على لسان عز الدولة وقد نقلت ابنته المزوّجة بعدة الدولة أبى تغلب إليه بالموصل :

" قد توجه أبو النجم بدر الحرمى وهو الأمين على ما يلحظه، الوفى بما يحفظه، نحوك ياسيدى ومولاى أدام الله عزك بالوديعة، وإنما نقلتُ من وطن الى سكن، ومن مغرس إلى معرس، ومن مأوى برّ وانعطاف، إلى مثوى كرامة وإلطاف، ومن منبت درّت لها نعماؤه، إلى منشأ يجود عليها سماؤه، وهى بضعة منى انفصلت إليك، وثمرة من جَنَى قلبى حصلت لديك، وما بان عنى من وصلتُ حبله بحبلك، وتخيرت له بارع فضلك، وبوأته المنزل الرحب من جميل خلائقك، وأسكنته الكنف الفسيح من كرم شيمك وطرائقك، ولا ضياع على ماتضمه أمانتك، ويشتمل عليه حفظك ورعايتك (٢) " .

---

(١) ص ٢٠١ (٢) ص ١٩١ ج ١ يتيمة .

وقد لاحظ مؤلف اليتيمة أن الصابى استمدّ روح هذا الخطاب مما كتبه جعفر بن محمد ابن ثوابة عن المعتضد الى ابن طولون فى ذكر ابنته قطر الندى المنقولة إليه[(١)] .

٩ — ومما لاحظناه على الفقرة السالفة وما لاحظه الثعالبى على الفقرة الأخيرة يظهر بوضوح أن الصابى كان يجتهد فى آستغلال ما ترك الأولون من بديع المنظوم والمنثور بطريقة ساحرة خفى بها على أكثر معاصريه ما أخذه من روائع الأدب القديم .

١٠ — وبالرغم من المؤاخذات التى واجهنا بها نثر الصابى فإننا نعترف بأنه نجح فى ناحيتين :

الأولى — ظهوره بمظهر التفوّق فى لغته الفنية الزاخرة التى وسعت ما وسعت من ضروب التعابير والأخيلة والصور فى الموضوعات الكثيرة التى جرى فيها قلمه ، فاننا لا نكاد نجده يكرر معنى أو يعيد لفظا إلا فى أحوال قليلة تغتفر لكاتب يحمل على القول ويساق الى البيان، وكتابته مع مافيها من التزام السجع سهلة مقبولة يقل فيها التكلف ويغلب عليها الطبع .

الثانيــة — سعة حيلته فى التوفيق بين الخلفاء والأمراء والوزراء، فقد كان عصره عصر اضطراب وفوضى، وكان من العسير تحديد مايصلح فى التخاطب بين تلك القوى المختلفة التى كانت تتنازع الجاه والسلطان وتعرف كيف تحاك الدسائس وتنصب الأشراك ، وكان يزيد فى حرج الصابى ودقة موقفه أنه كان مسئولا عما يصدر من ديوان الرسائل ، فكان لذلك الحرج وتلك المسئولية أثر قوىّ فى رياضة نفسه وتوجيهها الى حسن التدبير فيما تقضى به تكاليف منصبه الخطير . على أن ذلك الحزم لم يلازمه فى جميع الظروف : فقد وقعت فى إحدى رسائله لفظة عدّها عضد الدولة تعريضا به، وأسرّها فى نفسه إلى أن ملك العراق فحبسه وآستصفى أمواله[(٢)] . وقضى لذلك بقيــة أيامه فى عسر دائم أنساه ما مرّ به من طيبات الحيــاة .

---

(١) ص ١٩١ و ١٩٢ ج ١ يتيمة . (٢) ص ٣٢٧ ج ١ ياقوت .

١٢ – أبو عامر بن شهيد

آل شهيد — حياة أبى عامر وصبواته — ضجره من المرض — وصاياه المحزنة

١ — "ابن شهيد" اسم يطلق على عدّة رجال من أعلام الأندلس ، ينتسبون الى شهيد بن عيسى بن شهيد، مولى معاوية بن مروان بن الحكم، وكان من سبى البرابر، وقيل إنه رومى[١]. وأشهر بنى شهيد أبو عامر أحمد بن عبد الملك، وهو حفيد ابن شهيد وزير الناصر عبد الرحمن الأموى، وكان ابن شهيد الوزير معروفا بالدهاء وحسن التدبير[٢]، وكان كذلك من أبرع الشعراء، وهو الذى يقول :

ترى البــدر منها طالعا فكأنما ... يجول وشاحاها على لؤلؤ رطب
بعيدة مهوَى القرط مخطفة الحشى ... ومفعمــة الخلخال مقعمة القلب[٣]
من اللائى لم يرحلن فوق رواحل ... ولاسرن يوما فى ركاب ولا ركب
ولا أبرزتهن المدام لنشوة ... وشدو كما تشدو القيان على الشرب[٤]

٢ — ولد أبو عامر سنة ٣٨٢ هـ ، وقد ورث عن أجداده الغرام بمظاهر الصبوة والفتوة ، والشغف بملاعب الحسن والجمال ، ولم يقدّر له أن يظفر بما ظفر به أجداده من أسباب الجاه والمال والملك، لأن ثقل سمعه حجبه عن الاتصال بالملوك والوزراء[٥] ؛ ولكنه انقاد لشبابه وهواه، وأسلم زمامه لفطرته وطبعه، فجاء شعره ونثره فى أعلى درجات البيان .

(١) نفح الطيب ص ٣١ ج ٢ طبع ليدن . (٢) نفح الطيب ص ٢٤٦ ج ١

(٣) القلب بالضم سوار المرأة ، والمقعم بالقاف من القعم بالتحريك ، وهو كما نص الفيروزابادى ميل وارتفاع فى الأليتين، والمراد هنا وصف السوار بالضيق لامتلاء المعاصم . (٤) فى هذا البيت إشارة الى أن الحرائر ما كنّ يجتمعن على الشراب . (٥) أنظر الذخيرة ص ١٢٣ ج ١

٣ — كان همّ أبي عامر أن "يعيش" ولذلك أجمع من عرضوا لذكره على وصفه بالتهتك[١] .

والعيش فى عرف أبي عامر بن شهيد، هو مجموعة من الحسن والخمر والأدب، فالحياة عنده وجه أصبح ، أوكأس مترعة، أو رسالة أنيقة ، أو قصيدة بديعة ، فان خلت الدنيا من بعض ذلك فهى لغو وفضول، وعيش الأديب فيها عبء ثقيل .

وماظنّ القارئ برجل يبيت فى الكأس لينعم بما فيها من الخمر العتيق والحسن الطريف، ثم يقول فى وصف القسيس والدير والرهبان :

ولرب حانٍ قد شممت بديره ... خمر الصبا مزجت بصرف عصيره
فى فتية جعلوا السرور شعارهم ... متصاغرين تخشعًا لكبيره
والقَس مما شاء طول مقامنا ... يدعو بعود حولنا بزبوره
يهدى لنا بالراح كل مخفّر ... كالخشف[٢] خفّره التماح خفيره
يتناول الظرفاء فيه وشربهم ... لسلافه[٣] والأكل من خنزيره

أو يتعرض لجارية من أهل قرطبة ذهبت للصلاة (وأمامها طفل لها كأنه غصن آس أو ظبي يمرح فى كناس) فتنصرف مروعة خشية أن يفضحها بشعره، فيتبعها ويقول :

وناظرة تحت طيّ القناع ... دعاها إلى الله بالخير داعى
سعت خفية تبتغى منزلا ... لوصل التبتل والانقطاع
فجاءت تهادى كمثل الرءوم[٤] ... تناغى غزالا بروض اليفاع[٥]
وجالت بموضعنا جولة ... فحلّ الربيع بتلك البقاع

---

(١) وصفه صاحب نفح الطيب (بالمنهمك فى بطالته) ص ٣١٩ ج ١ وتحدّث عنه صاحب الذخيرة فقال : (أبو عامر ابن شهيد فتى الطرائف ، كان بقرطبة فى رقته و براعة ظرفه خليعها المنهمك فى بطالته ، وأعجب الناس تفاوتا بين قوله وفعله ، وأحطهم فى هوى نفسه ، وأهتكهم لعرضه ، وأجرأهم على خالقه) ص ٢٦ ج ١ (٢) المخفر : الممنوع ، والخشف بالتثليث ولد الظبي . (٣) راجع نفح الطيب ص ٣٤٥ ج ١ (٤) الرءوم : الظبية الألوف .

(٥) واليفاع ما ارتفع من الأرض .

أتتنا تبختر فى مشيها ... فحلت بواد كثير السباع
وريعتْ حذارا على طفلها ... فناديت يا هذه لا تُراعى
غزالك تفرّق منه الليوث ... وتنصاع منه كماة المصاع (١)
فولت وللمسك فى ذيلها ... على الأرض خط كذيل الشجاع (٢)

٤ — وكان مع تهتكه كريم النفس محمود الخلال حتى لتراه أشرف الناس إذ يقول :

إن الكريم إذا نالته مخمصةٌ ... أبدى الى الناس شبعا وهو طيان (٣)
يحنى الضلوع على مثل اللظى حرقا ... والوجه غمرٌ بماء البشر ملآن

أو حين يقول :

ألمتُ بالحب (٤) حتى لو دنا أجلى ... لما وجدت لطعم الموت من ألم
كلا الندى والهوى قدما ولعتُ به (٥) ... ويلى من الحب أو ويلى من الكرم

وذكر ابن حيان أن أبا عامر (كان من أصح الناس رأيا لمن آستشاره ، وأضلهم عنه فى ذاته ، وأشدّهم جناية على حاله ونصابه ، وكان له فى الكرم والجود آنهماك مع شرب وبطالة حتى شارف الإملاق (٦)) .

ومن العجيب فى تشابه الحظوظ أن النقاد الفرنسيين يصفون (لافونتين) بهذا الوصف ؛ فيذكرون (أنه كان من أصح الناس رأيا لمن آستشاره ، وأضلهم عنه فى ذاته (٧)) ، وما أكثر ما يتشابه رجال الأدب فى سوء الحال !

---

(١) الكماة جمع كمىّ وهو الشجاع ، والمصاع الضرب بالسيف . (٢) الشجاع : الذكر من الحيات .

(٣) طيان : من الطوى وهو الجوع . وفى رواية أخرى (ريا وهو ظمآن) : أنظر هامش النفح ص ٤١٠ ج ١

(٤) وفى رواية : أخرى « كلفت بالحب » . (٥) وفى رواية أخرى « وذادنى كرمى عمن ولعت به » وهى أفصح من الرواية الثالثة «وعاقنى كرمى» . (٦) الذخيرة ص ٢٩٤ ج ١

(٧) استطاع La Fontaine أن يكون أحكم الناس ، وأن يفرض حكمته فى شعره على الفرنسيين من شباب وكهول ، وأن يظل فى طليعة الحكماء على اختلاف الأجيال ، ولكنه عجز عن الظفر باستقامة الخلق فى حياته الشخصية : فلم يكن لزوجته ولا ولده من رعايته نصيب . وسبحان من تفرّد بالكمال !

٥ — قلت : إن أبا عامر بن شهيد كان يحب الحياة حبا شديدا، وكان يرى العيش كل العيش فى معاقرة الجمال والصهباء ؛ فلنذكر الآن أنه كان لذلك من أشدّ الناس إحساسا بكراهة الموت ، وقد بلغ من تفزعه أن شعر معاصروه جميعا بألمه وآمتعاضه وتهالكه على التشبث بأذيال الحياة .

قال آبن بسام : " ولما طال بأبى عامر ألمه ، وتزايد سقمه ، وغلب عليه الفالج الذى عرض له فى مستهل ذى القعدة سنة خمس وعشرين وأربعمائة ، لم يعد له حركة ولا تقلب ، وكان يمشى الى حاجته على عصا مرة ، وآعتمادا على انسان مرة ، الى قبل وفاته بعشرين يوما فانه صار حجرا لا يبرح ولا يتقلب ، ولا يحتمل أن يحرّك لعظيم الأوجاع مع ضغط الأنفاس وعدم الصبر حتى هم بقتل نفسه (١) " .

فلنتصوّر قسوة المرض التى تحمل رجلا كابن شهيد على التفكير فى الانتحار ، ولنقرأ محزونين قوله فى ذلك :

أنوح على نفسى وأندب نبلها ... إذا أنا فى الضراء أزمعت قتلها
رضيت قضاء الله فى كل حالة ... علىّ وأحكاما تيقنت عدلها
أظل قعيد الداء تجنبنى العصا ... على ضعف ساق أوهن السقم رجلها
ألا رب خصم قد كفيت وكربة ... كشفت ودار كنت فى المحل وبلها
ورب قريض كالجريض (٢) بعثته ... الى خطبة لا ينكر الجمع فضلها
فمن مبلغ الفتيان أن أخاهمو ... أخو فتكة شنعاء ما كان شكلها
عليكم سلامٌ من فتى عضه الردى ... فلم ينس عينا ثبّتت فيه نبلها
يبين وكف الموت يخلع نفسه ... وداخلها حب يهوّن ثكلها

ولم يفت ابن شهيد أن يظل على عنف المرض ظريف الحس والروح ، فقد حدث أبو بكر المصحفى قال :

---

(١) الذخيرة ص ١٦٥ ج ١ (٢) الجريض بالجيم الريق ، وهى فى نسخة الذخيرة بالحاء المهملة .

دخلت يوما على أبى عامر بن شهيد، وقد آبتدأت علته التى مات منها، فأنس بى وجرى الحديث الى أن شكوت له تجنى بعض إخوانى علىّ ونفاره عنى، فقال : سأسعى لإصلاح ذات البين . فآتفق لقائى لذلك المتجنى مع بعض إخوانى وأعزهم علىّ ، فلما رآنى موليا عن ذلك الصديق أنكر علىّ وسأل عن السبب الموجب . فأخبره وزادا فى مشيهما حتى لحقانى، وعزم علىَّ فى تكليم صاحبى، وتعاتبنا عتابا أرق من الهوى، وأشهى من الماء على الظما، حتى جئنا دار أبى عامر، فلما رآنا جميعا ضحك وقال : من كان تولى إصلاح ما سررنا بفساده؟ قلنا : قد كان ما كان! فأطرق مليا ثم أنشد :

من لا أسمى ولا أبوح به   أصلح بينى وبين من أهوى
أرسلت من كبدى الهوى فدرى   كيف تداوَى مواضع البلوى
ولى حقوق فى الحب ظاهرة   لكن إلفى يعدها دعوى (١)

وحدّث المصحفى أيضا قال : دخلت عليه يوما فى تلك العلة ومعى غلام وسيم من إخواننا، وكان أبو عامر قبل ذلك يحب ممازحته فينافره ، حتى خاطب أبو عامر بعض إخوانه بشعر مسه فيه بطرف لسانه ، فقال له ذلك الغلام : هجوتنى يا أبا عامر دون أن تتثبت فى أمرى ، ولا تعلم من سرى ما يوجب ذلك، فقال : علىّ تكفيره بما يحوه من القراطيس والصدور . وكان ذلك إثر صلاة العشاء الأولى، فطفنا بالجامع ثم انصرفنا اليه فأنشدنا :

ألا بأبى زائر فى العتم   بوجه يجلِّى سواد الظُّلم
تكتَّم بالليل فى ظله   وهل يمكن الصبح أن يكتتم
أتى يستجير الينا به   كما جاور البان رطب العنم (٢)

وقد أخذ ابن شهيد يخاطب بالشعر أحبابه وأصدقاءه خطاب الوداع فأرسل الى أبى محمد ابن حزم هذه الأبيات :

---

(١) الذخيرة ص ١٦٣ ج ١ (٢) للقصيدة بقية طويلة يجدها القارئ فى الذخيرة ص ١٦٤ ج ١

ولما رأيت العيش ولّى برأسه ... وأيقنت أن الموت لاشك لاحق
تمنيت أنى ساكن فى عباءة ... بأعلى مهب الريح فى رأس شاهق
خليلىّ من ذاق المنية مرة ... فقد ذقتها خمسين قولة صادق
كأنى وقد حان آرتحالى ولم أفز ... قديما من الدنيا بلمحة بارق
فمن مبلغٌ عنى ابن حزم وكان لى ... يدا فى ملماتى وعند مضايقى
عليك سلام الله إنى مفارق ... وحسبك زادا من حبيب مفارق
فلا تنس تأبينى اذا ما فقدتنى ... وتذكار أيامى وفضل خلائقى (١)

٦ — وكان ابن شهيد يشعر أنه أهلٌ لأن يُبكَى حين يموت، ويقول فى ذلك :

سقى الله فتيانا كأن وجوههم ... وجوه مصابيح النجوم الزواهر
اذا ذكرونى والثرى فوق أعظمى ... بكوا بعيون كالسحاب المواطر
يقولون : قد أودى أبو عامر العلى ... أقلوا فقدما مات أبناء عامر
هو الموت لم يُصرف بأجراس خاطب (٢) ... بليغ ولم يُعطف بأنفاس شاعر
ولم يجتنب للبطش مهجة قادر ... قوىّ ولا للضعف مهجة صابر
يحل عُرى الجبار فى دار ملكه ... ويهفو بنفس الشارب المتساكر
وليس عجيبا أن تدانت منيتى ... يصدق فيها أوّلى أمر آخرى
ولكن عجيب أن بين جوانحى ... هوى كشرار الجمرة المتطاير
يحركنى والموت يحفر همتى (٣) ... ويهتاجنى والنفس عند حناجرى

وهذا حقًّا عجيب، فان ابن شهيد ظل يتلهف فى أيام علته المهلكة الى محبوب له اسمه عمرو، وكان حبه له مشهورا يعرفه القريب والبعيد، ولننظر كيف يتوجع وهو يخاطبه خطاب المفارق المشتاق :

(١) انظر جواب ابن حزم على هذه الابيات فى ص ١٦٦ ج ١ من الذخيرة . (٢) الخاطب : الخطيب وهى لفظة قليلة الاستعمال وأذكر أنى رأيتها فى كلام الجاحظ ، وهى أكثر موازنة لكلمة كاتب وكلمة شاعر .

(٣) يحفر : يقطع .

إقر السلام على الأصحاب أجمعهم وخُصّ عمـرًا بأزكى نور تسـليم
وقـل له يا أعز النـاس كلهـم شخصا علىّ وأولاهم بتكريم
الله جارك من ذى منعـة ظفرت منـه الليالى "بإلف" غير مظلوم
ما كان حبـك إلا صـوب غادية طيبـا وحاشا بحـبى فيـك للوم
إن شاء صرف الردى تقديم أطوعنا فقد رضيت حمـاك الله تقـديمى
عشـنا رفيقين فى بر الهوى زمنـا حـتى زقا بنوانا طـائر الشـوم
فشتتت نـوب الأيام ألفتنـا قسرا ولم يغنهـا طـبى وتنجيمى

وحسب القارئ أن يعلم أن آخر شـعر قاله ابن شهيد هو هذه الأبيات ، وفيهـا ودّع إخوانه ومحبوبه آخر وداع :

أستودعُ الله إخوانى وعشرتهـم وكل خِرق(١) الى العليـاء سـبّاق
وفتيـة كنجـوم الغـرب نيّرهم يهـدى وصابهمو يردى باحراق
وكوكبًا لىَ منهم كان مغـربه قلبى ومشرقه ما بين أطـواقى
الله يعـلم أنى ما أفارقـه إلا وفى الصـدر منى حر مشتـاق
فان أعش فلعل الدهر يجمعنا وإن أمت فسيسقيه الردى الساقى
لا ضيع الله إلا من يضـيعه ومن تخلّق فيـه غير أخلاق!
قـد كان بردى إذا ما مسنى كلف لا يشـلم الحب آدابى وأعراقى
إنى لأرمقـه والموت يضـغطنى فأقتضى فرجـة ترتـدّ أرماقى

ثم أوصى أن يدفن بجنب صـديقه أبى الوليد الزجالى، ويكتب على قـبره فى لوح رخام هذه الكلمة :

"بسم الله الرحمن الرحيم. قل هو نبأٌ عظيم أنتم عنه معرضون. هذا قبر أحمد بن عبد الملك ابن شهيـد المذنب، مات وهو يشهـد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبـده

(١) الخرق بالكسر : السخىّ أو الظريف فى سخاوة ، والفتى الحسن الكريم الخليقة .

ورسوله ، وأن الجنة حق ، والنار حق ، والبعث حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور . ومات فى شهر كذا من عام كذا " .

ويكتب تحت هذا النثر هذه الأبيات وهو يخاطب بها صديقه المدفون :

يا صاحبى قم فقد أطلنا　　أنحن طول المدى هجود!
فقال لى : لن نقوم منها　　ما دام من فوقنا الصعيد
تذكر كم ليلة نعمنا　　فى ظلها والزمان عيد
وكم سرور همى علينا　　سحابه ثرة تجود
كل كأن لم يكن تقضى　　وشؤمه حاضر عتيد
حصله كاتب حفيظ　　وضمه صادق شهيد
يا ويلنا إن تنكبتنا　　رحمة من بطشه شديد
يارب عفوا فأنت مولى　　قصر فى شكره العبيد

قال ابن بسام : وكان أبو عامر كثيرا ما يخشى صعوبة الموت ، وشدة السوق ، فيسر الله عليه ، وما زال يتكلم ويرغب الى الله أن يرفق به ، ويكثر من ذكره ، وقد أيقن بفراق الدنيا ، الى أن ذهبت نفسه رحمه الله يوم الجمعة آخر يوم من جمادى الأولى سنة ست وعشرين وأربعمائة . ولم يشهد على قبر أحد ما شهد على قبره من البكاء والعويل .

١٣ – نثر ابن شهيد

١ – اتفق من ترجموا لابن شهيد على وصفه بالبراعة فى الانشاء، فقال ابن حيان : " كان أبو عامر يبلغ المعنى ولا يطيل سفر الكلام . وإذا تأملته ولسنه ، وكيف يجرى فى البلاغة رسنه ، قلت عبد الحميد فى أوانه ، والجاحظ فى إبانه ، والعجب منه أنه كان يدعو قريحته لما شاء نظمه ونثره فى بديهته ورويته ، فيقود الكلام كما يريد من غير اقتناء لكتب ، ولا اعتناء بالطلب ، ولا رسوخ فى الأدب ، فانه لم يوجد له – رحمه الله – فيما بلغنى بعد موته – كتابٌ يستعين به على صنعته ، ويشحذ من طبعه إلا ما لا قدر له ، فزاد ذلك فى عجائبه ، وإعجاز بدائعه ، وكان فى تميق الهزل والنادرة الحادّة أقدر منه على سائر ذلك . وشعره عند أهل النقد تصرف فيه تصرف المطبوعين فلم يقصر عن غايتهم . وله رسائل كثيرة فى فنون الفكاهة وأنواع التعريض والأهزال ، قصار وطوال ، برز فيها شأوه ، وأبقاها فى الناس خالدة . وكان فى سرعة البديهة وحضور الجواب وحدّته مع رقة حواشى كلامه ، وسهولة ألفاظه ، وبراعة أوصافه ، ونزاهة شمائله وأخلاقه ، آية من آيات خالقه[(١)] " .

وقال الثعالبى : " فنثره فى غاية الملاحة ، وشعره فى غاية الفصاحة[(٢)] " .

وقال ابن بسام : " وقد أخرجت أنا من أشعاره الشاردة ، ورسائله الباقية الخالدة ، ونوادره القصار والطوال ، وتعريضاته السائرة الأمثال ، ما يحل له الوقور حُباه ، ويحن معه الكبير إلى صباه[(٣)] " .

وقال الحناط وهو يهاجمه : " الإسهاب كلفة ، والايجاز حكمة ، وخواطر الألباب سهام يصاب بها أغراض الكلام . وأخونا أبو عامر يسهب نثرا ، ويطيل نظمًا ، شامخا بأنفه ،

(١) الذخيرة ص ٩٤ ج ١ (٢) اليتيمة ص ٣٩٤ ج ١ (٣) الذخيرة ص ٩٤ ج ١

ثانيا من عِطفه، مخيلا أنه أحرز السبق فى الآداب ، وأوتى فصل الخطاب، فهو يستصغر أساتيذ الأدباء، ويستجهل شيوخ العلماء .

وابن اللبون اذا ما لُزَّ فى قَرَن لم يستطع صولة البزل القناعيس"[1]

وهذه الآراء التى نقلناها عن ابن حيان والثعالبي والحناط تمثل رأى جمهور الناقدين فى ابن شهيد، وتدلنا على أنه شغل الناس حينا من الزمان. ولو انتقلنا الى رأيه فى نفسه لرأيناه مفتونا أشنع الفتون بما اعتقده من إجادة النظيم والنثير ، والتفوّق البالغ على كتّاب المشرق والمغرب . وقد آن أن يوزن نثره بمعيار النقد ليعرف مافيه من الزائف والصحيح .

٢ — سئل أبو العلاء المعرى رأيه فى شعر ابن هانئ الأندلسى فأجاب : "رحًى تطحن قرونا" وهو جواب حِذق وذكاء، فضلا عما فيه من روعة التصوير . وأخشى أن يكون الأمر كذلك فى نثر ابن شهيد ، فهو فى الأكثر جعجعة وقعقعة وقلقلة فى غير نفع ولا غَناء . ويسوءنا والله أن يكون ذلك مانراه فى نثر ذلك الرجل الذى نعتقد فيه دقة الفهم، ورقة الطبع، وسلامة الذوق، ولكن ماالحيلة وقد قلبنا نثره على وجوهه، وراجعنا مابقى منه أكثر من عشرين مرة، فلم نزدد إلا اقتناعا بأنه كان فى إنشائه من المتكلفين .

٣ — وربما كان من أسباب الالتواء الذى نشهده فى نثر ابن شهيد غرام الرجل — كان — بمقارعة كتّاب المشرق ، ومواجهة كتّاب المغرب بألوان من الفنّ كان لها فى زمانه بريق يعشى العيون . وكان النثر فى ذلك العصر قد أخذ ينافس الشعر منافسة جدية، واستطاع ابن شهيد أن يناضل معاصريه برسائل محبرة موشاة ، تؤدّى فى عالم النثر ما كانت تؤدّى النقائض فى عالم الشعر ، فوقع له مع الافليلى والحناط وغيرهما منافرات كان لها فى مجالس المغرب دوىّ شديد . هذا مع أن الرجل كان من فحول الشعراء ، وكان يستطيع أن يقارع خصومه بالشعر، وأن يقيم من المعارك الشعرية ما يعيد به عهد الأخطل والفرزدق وجرير

(١) الذخيرة ص ٢٣٢ — والبزل جمع بازل وهو البعير يبلغ تسع سنين ، والقناعيس جمع قنعاس بالكسر وهو العظيم من الإبل ، ومن الرجال الشديد المنيع .

من شعراء الهجاء ، ولكنه أراد أن يحيي فى بلاده معارك نثرية كالمعارك التى كانت تقع فى الشرق بين أمثال الخوارزمى وبديع الزمان . وفى هذا إغناء للنثر وسعيٌ الى إمداده بمختلف المعانى والأغراض، ولكنه انحدار بالنثر الى موضوعات لا يصلح لهـا إلا قليلا، فان الهجاء كما تسيغه الطبيعة العربية لا يؤدَّى إلا بالبيت السائر أو الكلمة الشرود .

٤ — ومع ما فى نثر ابن شهيد من القلق والغموض والاضطراب فانه يغرى القـارئ بالبحث عما فيـه من نتاج الفكر والذكاء ، وهو يشبه بعض التلال التى يوقن المتطلع بأن فيها كنوزا ، فلا يزال يقلب أكداس الخزف والتراب حتى يصل الى بعض ما ينشُد من الذهب الدفين .

ومن أمثـلة ذلك أنه اندفع مرة يشتم نحاة قرطبـة ، ويقرع أبا القاسم الافليلى فلم يقل شيئا ذا بال، ولكنه ختم رسالته بهذه الكلمات الخبيثة فى وصف الافليلى :

” ليست مشيته مشية أديب، ولا وجهه وجه أريب، ولا جلسته جلسة عالم، ولا أنفه أنف كاتب، ولا نغمته نغمة شاعر[1] “ .

٥ — غير أن ابن شهيد لا يظل فى جميع أحواله أسير القلق والغموض ، فإن له أحيانا يفصح فيها و يبين ، كقوله يخاطب أحد الأمراء :

” من عز بز، ومن ريش طار ، ومن سارت به الأيام سار، جَدٌّ كبا ، وحسامٌ نبـا ، وآمال تفرّقت أيدى سـبا . كلمات أنثرها عليك، وآمال أصرفها إليك . كنا قبل أن ترمى بنا النوى مراميها، وتلق علينا الخطوب مراسيها ، وتمخضنا الأيام مخضا ، وتركض بنـا الليالى ركضا ، تِربَىْ صحبة، وحليفَىْ صـبوة، قد تخلينا عن الأنساب، وانتسبنا الى الآداب، والدار إذ ذاك صقب، والملتقى كثب، والزمان غِر، وحواصلنا صُفر، نترنم ترنم الحمـام، على زرق الجمـام[2]، ثم ألقت الأيام علينا بكلكل ... ... فنشرنا بكل فج عميق، وأفق سحيق، ونفحت

(١) الذخيرة ص ١٢٣ ج ١ (٢) الجمام : المياه الكثيرة، والمفرد جم، وهو فى الأصل الكثير من كل شىء .

عليك رياح السد ، وجادتك المنى من تهامة ونجد ، وامتطيت ظهر الجوزاء، وافترشت لبدة العواء[١]، وكلما دعيت للنزال والعراك ، تترست بالثريا وطعنت بالسِّماك ، فزحمت منكب الدهر ، وقضيت أربك منه على قصر ، فكان أول حيصتك عن الوفاء، وحيدتك عن رعاية قديم الإخاء، أن تركت المخاطبة، وأضربت عن المكاتبة، خشية أن يكون كلنا عليك، ورغبتنا فيما لديك، وهيهات! يأبى ذلك كرم محض، وهمة علياء نالها خفض، ثم قلت : الحمل على حسن الظن أجمل، والقضاء بأكرم العهد أقبل، قد يشغل بالرؤساء، ويجاذب العظماء، وعينه مع ذاك راعية ، وأذنه واعية ، وإنما الوصل بالفؤاد ، لا بالمداد، والالتقاء بالحلوم ، لا بالجسوم، فانطويت على ود، وثبتّ على صحة عهد ... ... الخ »[٢] .

وهذا نثر مقبول، لا يؤخذ عليه إلا شيء من التوعر قليل . وأوضح منه وأفصح قوله يصف إحدى المنافرات :

« لما قدم زهير الصقلبي فتى بنى عامر، حضرة قرطبة من المرية، وجه أبو جعفر عباس وزيره عن لمة من أصحابنا منهم ابن برد وأبو بكر المروانى وابن الحناط والطبنى ، فسألهم عنى وقال : وجهوا عنه، فوافانى رسوله مع دابة له بسرج محلًّى ثقيل فسرت إليه ودخلت المجلس وأبو جعفر غائب، فتحرك المجلس لدخولى وقاموا جميعا إلىّ، حتى طلع أبو جعفر علينا، ساحبا لذيل لم ير أحد سحبه قبله، وهو يترنم، فسلمت عليه سلام من يعرف حق الرجال، فرد رد الطغيان، فعلمت أن فى أنفه نعرة لا تخرج إلا بسعوط الكلام، ولا تراض إلا بمستحكم النظام، فرأيت أصحابى يصيخون إلى ترنمه ، فسألتهم عن ذلك فقال الحناط — وكان كثير الإنحاء علىّ، جالبا فى المحافل ما يسوء إلىّ — : الوزير حضره قسيم من الشعر، وهو يسألنا عن إجازته، فعلمت أنى المراد، فأنشده، وهو :

مرضُ الجفون ولثغةٌ فى المنطقِ

فأخذت القلم وكتبت بديها :

(١) العواء : من منازل القمر .
(٢) الذخيرة ص ١١٥ ج ١

مرض الجفون ولثغة فى المنطق　　شيئان جرا عشق من لم يعشــق
من لى بألثغ لا يزال حديثـــه　　يذكى على الأكباد جمرة محـرق
ينبى فينبـو فى الكلام لســانه　　فكأنه من خمـر عينيه ســـقى
لا ينعش الألفــاظ من عثراتها　　ولو آنها كتبت له فى مُهـــرق

ثم قمت عنهم فلم ألبث أن وردوا علىّ، وأخبرونى أن أبا جعفر لم يرض بمـا جئنا به من البديه : وسألونى أن أحمل مكاوى الكلام على اختباره، وذكروا أن إدريس هجاه وأفحش، فلم أستحسن الإفحاش، فقلت فيه معرضا إذ التعريض من محاسن القول(١) .

٦ — وهناك رسائل رضى عنها ابن شهيد، وحدّثنا فى " التوابع والزوابع " أنه قرأها على شعراء الجن فاستجادوها، وهى رسالته فى صفة البرد والنار والحطب، ورسالته فى الحلواء، وكلمـاته فى وصف جارية ، ونعت المـاء والثعلب والبرغوث والبعوض . وهـذه الرسائل فى جملتها تدل على غنى فى اللغة وبراعة فى الصنعة، ولكنها خالية من الروح . ويظهر أن الجن الذين آستجادوها لم يكونوا من أصحاب الأذواق فى نقـد الكلام، مع أنهـم كانوا من أقطار مختلفة، وصاحبوا الأفذاذ من شعراء الحجاز والشام والعراق !

وأجود ما وقع له فى تلك الرسائل "المستجادة" قوله فى وصف ماء صاف :

" كأنه عصير صباح، أو ذوب قمر لياح "

وقوله فى وصف البعوض :

" تنقض العزائم وهى منقوضة، وتعجز القوى وهى بعوضة، ليرينا الله عجائب قدرته، وضعفنا عن أضعف خليقته(٢) " .

ورسالته فى وصف الحلواء قالها تحقيرا لفقيـه نهم لقيه فى المسجد الجامع، فلمـا طالعوا الحلواء « آضطرب به الألم، وآستخفه الشره، فدار فى ثيابه، وأسال من لعابه، وآزورّ جانبه،

(١) ما سماه ابن شهيد تعريضا هو أيضا إفحاش لم نر روايته لأننا لا نسـتجيز رواية الهجاء القبيح الذى يجرح الأدب والذوق . وبقية هذا الحديث فى ص ١٥٤ من الذخيرة ج ١　　(٢) اليتيمة ص ٣٩٢ ج ١

وخفق شاربه » ثم أخذ يدور حول صنوف الحلوى ويصفها واحدا واحدا ، فالفالوذج "مجاجة الزنابير خالطها لباب الحبة ، فجاءت أطيب من ريق الأحبة " والخبيص "جليد سماء الرحمة ، تمخضت به فأبرزت منه زبد النعمة ، تجرحه اللحظة ، وتدميه اللفظة "، ثم يقول ابن شهيد بعد كلام : " فأمرت الغلام بابتياع أرطال تجمع أنواعها التى أنطقته ، وتحتوى على ضروبها التى صرعته ، فجاء بها فوضعها بين يديه ، فلما عاينها انحنى عليها بلبانه ، وألقى عليها بجرانه ، وجعل يركل برجليه ، ويحاحش بفخذيه ، مانعا عنها ومدافعا ، فصحت به لا عليك حكمها ، فجعل يقطع ويبلع ، ويوجر فاه ويدفع ، وعيناه تبصان ، كأنهما جمرتان ، وقد برزتا عن وجهه كأنهما خصيتان . وأنا أقول على رسلك يا فلان ! البطنة تذهب الفطنة ! وهو يقول : أكلها دائم وظلها ، حتى التقم جماهرها ، وألحق أولها بآخرها ، فهبت منه ريح عقيم ، قرن إقبالها بالعذاب الأليم ، نثرتنا شذر مذر ، وفرقتنا فى كل شعب شغر بغر ، فالتحنا منه الظربان ، وصدق فيه الخبر العيان " [(١)] .

وعندى أن ابن شهيد فى رسالة الحلواء عارض بديع الزمان فى المقامة البغدادية ، والنكتة فى الرسالتين متشابهة ، فهى عند ابن شهيد سخرية من فقيه أكول ، وعند بديع الزمان استهزاء بفلاح منهوم ؛ ولكن بديع الزمان كان أكثر إصابة لغرضه من ابن شهيد ؛ ولننظر كيف يقول وقد استدرج سواديا بالكرخ [(٢)] :

" فقلت : فهلم الى البيت نصب غداء ، أو الى السوق نشترى شواء ، والسوق أقرب ، وطعامه أطيب ، فاستفزته حمة القرم ، وعطفته عطفة النهم ، وطمع ، ولم يعلم أنه وقع ، ثم أتيت شواء يتقاطر شواؤه عرقا ، ويتسايل جوذابه مرقا [(٣)] ، فقلت : أبرز لأبى زيد من هذا الشواء ، ثم زن له من تلك الحلواء ، واختر من تلك الأطباق ، وانضد عليها أوراق الرقاق ،

---

(١) وردت رسالة الحلواء فى الذخيرة ص ١٣٦ و١٣٧ ج ١ وفى اليتيمة ص ٣٩٢ و٣٩٣ ج ١ ، وفى النسختين اختلاف شديد ، وفيهما كذلك كثير من التحريف . والفقرات التى اخترناها مأخوذة مما صح لدينا نظمه على اختلاف النسختين .

(٢) الكرخ محلة كانت فى الجانب الغربى من بغداد .

(٣) الجوذاب : خبز يوضع فى التنور ومعه طائر أو لحم .

وشيئا من ماء السماق(١)، ليأكله أبو زيد هنيئا، فانحى الشواء بساطوره، على زبدة تنوره، فجعلها كالكحل سحقا، وكالطين دقا، ثم جاس وجلست، ولا انبس ولا نبست، حتى استوفيناه وقلت لصاحب الحلواء : زن لأبي زيد من اللوزينج رطلين، فانه أجرى في الحلوق، وأسرى في العروق، وليكن ليليّ العمر، يوميّ النشر، رقيق القشر، كثيف الحشو، لؤلؤيّ الدهن، كوكبيّ اللون، يذوب كالصمغ، قبل المضغ، ليأكله أبو زيد هنيئا . ثم قعد وقعدت، وجرد وجردت، واستوفيناه . ثم قلت : يا أبا زيد ! ما أحوجنا إلى ماء يشعشع بالثلج، ليقمع هذه الصارة(٢)، ويفثأ(٣) هذه اللقم الحارة ! إجلس، أبا زيد، حتى آتيك بسقاء، يحيينا بشربة من ماء . ثم خرجت، وجلست بحيث أراه ولا يراني، أنظر ما يصنع به، فلما أبطأت عليه قام السوادى الى حماره، فاعتلق الشواء بإزاره، وقال : أين ثمن ما أكلت ؟ فقال : ما أكلته إلا ضيفا . فقال الشواء : هاك وآك، متى دعوناك ؟ زن يا أخا القحبة عشرين، وإلا أكلت ثلاثا وتسعين ! فجعل السوادى يبكى ويمسح دموعه بأردانه، ويحل عقده بأسنانه، ويقول : كم قلت لذلك القُرَيد، أنا أبو عبيد، وهو يقول : أنت أبو زيد ! " .

وإنما افترضنا ان ابن شهيد عارض بديع الزمان وحاكاه، لأنه كان مشغوفا بأدبه ومعنيا بمعارضته، فقد حدّثنا في " التوابع والزوابع " أنه قابل بأرض الجنّ (زبدة الحقب) صاحب بديع الزمان، وجرت بينهما مصاولة انتصر فيها ابن شهيد . وهذا يدل على أن رسائل بديع الزمان كانت وصلت كاملة الى الأندلس، وفعلت فعلها في أنفس الأدباء هناك، وأن ابن شهيد كان بها من المعجبين .

٧ — أما وصف الجارية الذى رضى عنه ابن شهيد، وقدّمه كذلك الى شعراء الجنّ فاستجادوه، فهو رسالة فيها فقرات تنم عن قلب غزل ونفس طروب، وفيها كذلك كلمات تُليح بمغامز الفتك والمجون، وكانت جاريته " أخت نِعمة، وربيبة نَعمة، كأن شعرها على

(١) السماق : حب أحمر صغير شديد الحموضة شجره يشبه الرمان . (٢) الصارة : العطش .
(٣) يفثأ : يسكن .

غرّتها الغرّاء، غراب يسفد حمامة بيضاء ... تكلّمك بألحاظها ، وتأسوك بألفاظها ، تقابلك من خدّها بوردة، ومن عينها بنرجسة ، كأنما ثغرها من جوهر، وشفتها خيط حرير أحمر ، تقبل عليك بقضيب بان، ثمرته رمانتان ، وتنفتل عليك بكفل مائج ، كأنه كثيب عالج ... المنظر منظر غلام، والمخبر مخبر فتاة، إن علوتها تدفعت اليك ، أو عانتك تداركت عليك ، وإن أعطشك فراشها سقتك من شراب، ان شئت قلت خمرة أو رضاب، أو أجاعك عراكها أطعمتك من لسان، يصل اليك وصول الإيمان (١) " .

٨ — ورسالته عن النار والحطب تمثل فزع أهل الأندلس من البرد ، ولكنها، كأكثر ما كتب، مثقلة بالصنعة، خالية من الروح . وهى رسالة مهداة الى صديق نفحه بأحمال من الحطب الجزل — والحطب مما يهدى فى تلك البلاد لما يعانى أهلها من قسوة الشتاء — ولننظر كيف يصوّر آصطدام النار بالوقود :

" حبستنا اليوم خيل البرد مغيرة ... فجعلتُ مجنّى حطبا دل على نفسه، وتشظى من يبسه، فسلطت عليه صاحب الشرر ، ورميته منها ببنات الحديد والحجر ، فواقعه قليلا ، وعاركه طويلا ، فكان لها عجيج ، وله من حرها ضجيج، ثم خر لها صريعا ، وآستولت عليه صعبا منيعا، فبدّدت شمله وألفت شملها ، وآستحالت حية لا نستلذ قتلها، ترمي بألوان، وتتهدّد بلسان، فلذعت البرد لذعة، ونكزته على فؤاده نكزة، خرّ لها على جبينه، ومات بها من حينه (٢) " .

٩ — وبعد فان نثر آبن شهيد — على ما فيه من مآخذ وعيوب — دليل على أن الرجل كان يتناول اللغة بعزائم الفحول، وليس يعيبه أن نراه نحن أقل من شهرته، فانا نحكم على أدبه بأذواق تختلف عن أذواق معاصيره أشدّ الآختلاف . والنثر الفنى كالشعر، له دقائق قلما يتفق فى تذوّقها الناقدون . وكان للرجل فى حياته نجاح مرموق، فقد وصل نثره وشعره الى الشرق على عسر الوصول ، وتداوله المؤلفون، وكان لا يزال من الأحياء ؛ وفى هذا برهان على أن الرجل أمدّ عصره بروحه وآستولى بقوّة على عرش البيان .

---

(١) اليتيمة ص ٣٩٤ ج ١ (٢) اليتيمة ص ٣٩٠ ج ١

ولا ننس أن نثر ابن شهيد لم يصـل الينا منه إلا شىء قليـل ، ولم يدوّن منه إلا الجانب البراق ، الذى طرب له كتاب الصنعة فى المشرق والمغرب ؛ وللفن البراق أعمار قد تقصر وقد تطول . ولو وصلت الينا جمـلة صالحة من نثره الذى جرى فيـه على سليقته وفطرته ، وانحاز فيه الى فيض عقله و روحه ، لرجونا أن يكون لنا فيه رأى غير هذا الرأى ، وخاصة اذا لاحظنا أن رسائله فى صناعة النقد والبيان تدل على أنه كان من أصفى الناس ديباجة ، وأسدهم رأيا ، وأصدقهم فراسة ، اذا مضى يشرح مزالق الأفكار ومزلات العقول .

ولا ننس أيضا أن ابن شهيد كان يمتح من قليب فكره ، ولم تكن له مراجع للثقافة الأدبيـة ، إلا ما لا قدر له من الكتب كما حدّث ابن حيان ، وذلك كان فى عصر مضطرب أشنع اضطراب ، يقاسى شـعراؤه وكتابه ومتأدبوه أهوالا من الفتن قل أن يصفو معها فكر أو ينضج بيان .

فلنحمد إذن ما أسداه ابن شهيد ، فان جهد المقل غير قليل ، ولنذكر أننا ننقد وننقض ، فى سلامة وعافية لم يحلم بهما أولئك الأسلاف الذين نازلوا الأقدار ، ورفعوا أعلامهم بين أمم الصليب فوق هامات الأسود .

فعلى ذكراهم تحيةٌ وسلام !

١٤ – أبو الفضل الميكالى

١ – أسرة الميكالى أسرة قديمة العهد بالمجد فى المدنية الإسلامية، وكان لهذه الأسرة كرامة وسلطان فى القرن الثالث والرابع والخامس . فقد مدحهم البحترى وخدمهم ابن دريد، وتفيأ ظلالهم أبو بكر الخوارزمى، وبديع الزمان الهمذانى، وغيرهم من أعيان الكتّاب والشعراء .

وأشهر أعلام هذه الأسرة فى الأدب الأمير أبو الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالى المتوفى سنة ٤٣٦ . وكانت له آثار كثيرة لم يبق منها إلا شذرات متفرقة فى يتيمة الدهر وزهر الاداب وثمار القلوب . وهو يلتزم السجع والازدواج فى رشاقة وعذوبة واتساق . وفيه يقول الثعالبى فى مقدّمة فقه اللغة :

"ومن أراد أن يسمع سر النظم، وسحر النثر، ورقية الدهر، ويرى صوب العقل، وذوب الظرف، ونتيجة الفضل، فليستنشد ما أسفر عنه طبع مجده، وأثمره عالى فكره، من مُلَح تمتزج بأجزاء النفوس لنفاستها، وتشرب القلوب لسلاستها، ... وايم الله ما من يوم أسعفنى فيه الزمان بمواجهة وجهه، وأسعدنى بالاقتباس من نوره، والاغتراف من بحره، فشاهدت ثمار المجد والسؤدد تنتثر من شمائله، ورأيت فضائل أفراد الدهر عيالا على فضائله، وقرأت نسخة الكرم والفضل من ألحاظه، وانتهبت فرائد الفوائد من ألفاظه، إلا تذكرت ما أنشدنيه أدام الله تأييده لابن الرومى :

لولا عجائب صنع الله ما نبتت　　　تلك الفضائل فى لحم ولا عصب

وما أنس لا أنس أيامى عنده بفيروزأباد، سقاها الله ما يحكى أخلاق صاحبها من سَبَل القطر ! فانها كانت بطلعته البدرية، وعشرته العطرية، وألفاظه اللؤلؤية، ومحاسن أقواله وأفعاله التى يعيا بها الواصفون، أنموذجات من الجنة التى وعد المتقون، فاذا تذكرتها فى تلك المرابع التى هى مراتع النواظر، والمصانع التى هى مطالع العيش الناضر، والبساتين التى إذا

أخذت بدائع زخارفها، ونشرت طرائف مطارفها، طُوِىَ لها الديباج الخسروانى، ونُفِىَ معها الوشى الصنعانى، فلم تشبَّه إلا بشيمه، وآثار قلمه، وأزهار كلمه، تذكرت سحرا وسيما، وخيرا عميما، وارتياحا مقيما، ورَوْحا وريحانا ونعيما ".

٢ — وأظهر الفنون التى كان يجيـدها الميكالى هو فن الإخوانيـات، ورسائله إلى أصدقائه مشربة بأنفاس الحنين، حتى لتحسبها رسائل عاشق لا رسائل صديق ...

وإليك قوله من رسالة :

" أيامَ ظلُّ العيشِ رطب ، وكفّ الهوى رحب ، وشرب الصبـا عذب، وما لشرق الأنس غرب (١) ".

وقوله من رسالة ثانية :

"إنمـا أشكو اليك زمانا سلب ضعف ما وهب، وفجع بأكثر ممـا متع، وأوحش فوق ما أنس، وعنف فى نزع ما ألبس، فإنه لم يذقنا حلاوة الاجتماع، حتى جرعنا مرارة الفراق، ولم يمتعنا بأنس التلاق، حتى غادرنا رَهن التلهف والاشتياق (٢) ".

وليتأمل القارئ رقة الحنين فى قوله من كلمة ثالثة :

"أنا اسأل الله تعالى أن يرد علىّ برد العيش الذى فقدته، وفسحة السرور الذى عهدته، فيقصر من الفراق أمده، ويعلو للقاء حكمه ويده ، ويرجع ذلك العيش الذى رقّت غلائله ، وصفت من الأقذاء مناهله، فلم أهنأ بعده بأنس مقيم، ولا تعلقت يوما إلا بعيش بهيم .

فان ترجع الأيام بعـد الذى مضى بذى الأثل صيفا مثل صيفى ومربعى
شددت بأعناق النوى بعـد هذه مرائر إن جاذبتهـا لم تقطّع

وما على الله بعزيز أن يقرب بعيدا، ويهب طالعا سعيدا، ويسهل عسيرا، ويفك من رق الاشتياق أسيرا (٣) ".

---

(١) ص ٢٥١ ج ٤ يتيمة (٢) ص ٩٣ ج ٤ زهر الآداب (٣) ص ٩٣ و ٩٤ ج ٤

ومع أن صلته بأبى منصور الثعالبى كانت صلة الأمير المفضِل بالصاحب الأمين فانا نجده يكتب إليه بأجمل ما يوحى الرفق والحنان فيقول :

" كتابى، وأنا أشكو إليك شوقا لو عالجه الأعرابىّ لما صبا إلى رمل عالج، أو كابده الخلىّ لانثنى على كبد ذات حرق ولواعج، وأذم زمانا يفرق فلا يحسن جمعا، ويخرق فلا ينوى رقعا، ويوجع القلب بتفريق شمل ذوى الوداد، ثم يخل عليهم بما يشفى الصدور والأكباد، قاسى القلب فلا يلين لاستعطاف، جائر الحكم فلا يميل إلى إنصاف، وكم أستعدى على صروفه وأستنجد، وأتلظى غيظا عليه وأنشد :

متى وعسى يثنى الزمان عنانهُ بعـــثرة حال والزمان عَثـورُ
فتدرَك آمالٌ وتقضى مآربٌ وتحدث من بعد الأمور أمورُ

وكلا ! فما على الدهر عتب، ولا له على أهله ذنب، وإنما هى أقدار تجرى كما شاء مجريها، وتنفذ كالسهام إلى مراميها، فهى تدور بالمكروه والمحبوب، على الحكم المقدور المكتوب، لا على شهوات النفوس، وإرادات القلوب، وإذا أراد الله تعالى أذن فى تقريب البعيد النازح، وتسهيل الصعب الجامح، فيعود الأنس للقاء الإخوان كأتمّ مالم يزل معهودا، ويجدّد للمذاكرة والمؤانسة رسوما وعهودا، إنه الملىّ به والقادر عليه"(١) .

٣ — وقد كان الميكالى يعيش أطيب العيش بين نعمة الجاه والمال، ولكنه كان يشكو زمانه على غير ما كان يشكو البائسون من الكتّاب والشعراء، فنراه يقول :

" يأبى الدهر إلا ولوعا بشمل وصل يشرّده، ونظام أنس يبدّده، ومخلب ظلم يحدده . ولو انبسطت فيه يدى لكسرت جناحه، وخفضت جماحه، ولكنه الحية الصماء لاتستجيب لراقى، والداء العضال لايشفى منه طبيب ولا واقى(٢) " .

ولننظر قوله يتوجع لرفيق عليل :

" لو استطعت لخلعت عليه سلامتى سربالا، وأعرته من جسمى صحة وإقبالا، فلست أتهنأ بالعافية مع سقمه، ولا أتمتع بنضارة عيشى مع شحوب جسمه(٣)" .

(١) زهر الآداب ج ٢ ص ١٨٩ (٢) ص ٢٥٥ ج ٤ يتيمة . (٣) ص ٢٥٦ ج ٤ يتيمه .

ولسنا نعرف إلى من كتب العبارات الآتية :

" أنا فى مقاساة حرّ الشوق إليك كما اعتاد محموم بخيبر صالب[1] ، وتذكر الاجتماع معك كما اهتز من صرف المدامة شارب ، وفى تكلف الصبر عنك كطالب جدوى خُلة لا تواصل وفى القلق لفراقك كطائر جوّ أعلقته الحبائل . كتبت هذه الأحرف وأنا أودّ أن مدادها سواد طرفى ، وبياضها جلدة بين عينى وأنفى ، وحاملها دون سائر الناس كفى . لولا التعلل باللقاء لتصدعت أكباد وقلوب ، وكانت بينى وبين النوى شئون وخطوب . أنا فى مفارقتك كبنات الماء نضب عنها الغدير ، ونبات الأرض أخطأه النوء المطير . لا تفارق نفسى فيك أشواقها ، حتى تفارق الحمائم أطواقها " .

٤ — واهتمام الميكالى بهذا النوع من الكتابة غرس فيه الحرص على وصف ما يرد عليه من رسائل إخوانه ، فكان قلمه من أفصح الأقلام فى وصف الكتب يتهاداها الأصدقاء ، ومن أمثلة ذلك قوله :

"وصل كتاب مولاى وسيدى أبدع الكتب هوادى وأعجازا ، وأبرعها بلاغة وإعجازا ، فحسبت ألفاظه در السحاب ، أو أصفى قطرا و ديمة ، ومعانيه در السخاب ، بل أوفى قدرا وقيمة ، وتأملت الأبيات فوجدتها فائقة النظم والرصف ، عبقة النسيم والعَرف ، فائزة بقداح الحسن والظَّرف ، مالكة لزمام القلب والطرف ؛ ولا غرو أن يصدر مثلها عن ذلك الخاطر وهو هدف الفقر والنوادر ، وصدف الدرر والجواهر . والله يمتعه بما منحه من هذه الغرر والأوضاح ، كما أطلق فيها ألسنة الثناء والامتداح " .

٥ — وبجانب هذه البراعة كان الميكالى كريم الأخلاق ، وما ألطف ما يقول الثعالبى فيه :

"وكثيرا ما أحكى للإخوان أنى استغرقت أربعة أشهر بحضرته ، وتوفرت على خدمته ، ولازمت فى أكثر أوقاتى عالى مجلسه ، وتعطرت بغبار موكبه ، فبالله يمينا كنت غنيا عنها لو خفت إثمها أنى ما أنكرت طرفا من أخلاقه ، ولم أشاهد إلا مجدا وشرفا من أحواله ، وما رأيته اغتاب غائبا ، أو سب حاضرا ، أو حرم سائلا ، أو خيب آملا ، أو أطاع سلطان

(١) صلبت الحمى دامت واشتدت .

الغضب فى الحضر، أو تصلى بنار الضجر فى السفر، أو بطش بطش المتجبر، ولا وجدت المآثر إلا ما يتعطاه، والمآثم إلا ما يتخطاه" .

٦ — ونعود فنذكر أن صلة الميكالى بأصدقائه وألّافه آتتهبت أجزاء نفسه بحيث يمكن رجع أدبه الى المعانى النفسية التى توحى بها الصداقة والألفة والحب ، فأدبه مقسّم بين كتاب شوق، أو رسالة عتب، أو كلمة توجع، أو خطاب آقتضاء، أو مألكة تهنئة، أو نميقة ثناء .

والظاهر من كلام عمر المطوعى فى كتابه عن الشعراء أن الميكالى كان بليغ الأثر فى أنفس معاصريه، وأن فريقا منهم كان يؤلف الكتب بارشاده وفى ضوء فكره . وهذا شبيه بالحق: لأن الميكالى فيما يظهر من شعره ونثره كان قوة عظيمة من القوى الأدبيـة ، ولكن ينبغى الآحتياط فى فهم هـذه الفكرة : فقد كان الميكالى غنيا ، وكان بيته ملجأ الشـعراء والكتاب والمؤلفين، فلا مفر من أن يحسب لمجاملته حساب، وأن يقدر الناقد أنه قد ينسب اليه ما ليس له لمكانه من العلم والغنى والجاه .

٧ — صنعة الميكالى فى شعره أظهر منها فى نثره ، فهو حين ينثر سهل الخليقة، فاذا نظم تكلف، وهو يؤثر الجناس على سائر أنواع البديع، والى القارئ قوله :

شـافهَ كفى رشأٌ بقبـلة ما شفتِ
فقـلت إذ قبَّلها ياليت كفى شفتى

وقـوله :

مـن لى بشـمل الأنس أجمعـهُ بشادن حلَّ فيـه الأنس اجمعـهُ
ما زال يعرض عن وصلى فأخدعه فالآن لى لانَ بعد الصـد أخدعه (١)

وهذا كما نرى تكلف ثقيل ممجوج .

وقد يترك الصنعة ويمضى على سجيته فيجيد، من ذلك قوله :

عمر الفتى ذِكرُهُ لا طول مدتهِ وموته خزيه لا يومـه الدانى

(١) الأخدع : شعبة من الوريد ، والجمع أخادع .

وقـــوله :

كم والد يحـــرم أولادهُ   وخيره يحظى به الأبعـدُ
كالعين لاتبصرما حولها   ولحظها يدرك ما يبـعد

وجمـلة القول أن الجيد من نثره أكثر من جيد شعره ، وهو فى كلا الفنين صـناع اليد ذكى الجنان .

٨ — وسـلطانه على معاصريه له قيمته على أى حال ، فليس الغنى ولا العـلم مما يكفى لأن يكون للرجل حاشية وأنصار أوفياء . وإنمـا يرجع ذلك الى رقة القلب وقوة العقل وخفة الروح، وهى المقومات الأساسية لحياة المفكر والأديب . وكذلك آستطاع الميكالى أن يستعبد طائفة من أحرار القـلوب والعقول بمـا كان له من صـفاء الذهن ، وقوّة القريحة ، وطهارة الوجدان .

١٥ - بديع الزمان

١ — ولد أبوالفضل أحمد بن الحسين فى همذان نحو سنة ٣٥٨، درس اللغة والأدب وتعمق فيهما تعمقا ظهر أثره فى نثره وشعره . وكان فى صباه جميلا فتانا خفيف الروح، وكان لجماله وحلاوة لسانه أثر كبير فى النصر الذى أحرزه فى حياته الأدبية ، فقد آنتقل الى نيسابور سنة ٣٨٢، وكانت يومئذ موطنا لأبى بكر الخوارزمى أعلم أهل عصره باللغة والأدب، وأقربهم مكانة من الملوك والأمراء . فبدا لبديع الزمان أن يناظره علنا عند بعض الأمراء، فقبل الخوارزمى بعد تردّد، ثم دارت المناقشة يوما أو بعض يوم فى موضوعات أدبية مختلفة فآستطاع بديع الزمان بسرعة بديهته ونضارة صباه أن يجذب اليه أنظار الحاضرين ، فغُلب الخوارزمى وظهرت عليه دلائل الضعف، وسرى فى الأقطار الاسلامية يومئذ أن بديع الزمان أجمل منه شعرا ، وأحلى نثرا، وأقوى حجة، ثم مرض الخوارزمى حزنا ومات قبل أن ينقضى الحول سنة ٣٨٣

و بموت الخوارزمى خلا الجو لبديع الزمان عند الملوك والأمراء والوزراء، وصار يتنقل فى الحواضر الاسلامية بالشرق الى أن آستقرّ فى هراة، وصاهر أحد علمائها الأعلام، وحسنت حاله ، وأقبلت عليه الدنيا، ولكن المنية عاجلته وهو فى سن الأربعين سنة ٣٩٨ وقد آستيقظ فى قبره بعد الدفن فظل يصرخ و يطلب الغوث ، ولكن الناس لم يتنبهوا اليه الا بعد مدّة ففتحوا قبره فوجدوه مضطجعا وقد أمسك لحيته بيده ومزق كفنه، ولكنه مات من الرعب والفزع حين يئس من النجاة .

٢ — اهتم كتاب التراجم بحياة بديع الزمان ، وأجمل ما قرأناه فى ترجمته قول الثعالبى فى يتيمة الدهر: ”بديع الزمان، ومعجزة همذان، ونادرة الفلك، وبكر عطارد، وفرد الدهر،

وغرة العصر، ومن لم يلق نظيره فى ذكاء القريحة ، وسرعة الخاطر، وشرف الطبع، وصفاء الذهن ، وقوّة النفس ، ومن لم يدرك قرينه فى ظرف النثر وملحه ، وغرر النظم ونكته، ومن لم ير ولم يرو أن أحدا بلغ ما بلغه من لب الأدب وسره، وجاء بمثل إعجازه وسحره ، فانه كان صاحب عجائب ، وبدائع وغرائب : فمنها أنه كان ينشَد القصيدة التى لم يسمعها قط وهى أكثر من خمسين بيتا فيحفظها كلها ويؤديها من أولها الى آخرها لا يخرم حرفا ولا يخل معنى، وينظر فى الأربعة والخمسة أوراق من كتاب لم يعرفه ولم يره نظرةً واحدة خفيفة ثم يهذّ بها عن ظهر قلبه هذا، ويسردها سردا ... وكان يقترح عليه عمل قصيدة أو إنشاء رسالة فى معنى بديع وباب غريب فيفرغ منها فى الوقت والساعة ، والجواب عنها فيها. وكان ربما يكتب الكتاب المقترح عليه فيبتدئ بآخر سطر منه ثم هلم جرا الى الأول ويخرجه كأحسن شيء وأملحه[1]، ويوشح القصيدة الفريدة من قوله بالرسالة الشريفة من إنشائه فيقرأ من النظم والنثر، ويروى من النثر والنظم، ويعطى القوافى الكثيرة فيصل بها الأبيات الرشيقة، ويقترح عليه كل عويص وعسير من النظم والنثر فيرتجله فى أسرع من الطرف، على ريق لا يبلعه، ونفَس لا يقطعه، وكلامه كله عفو الساعة، وفيض البديهة، ومسارقة القلم، ومسابقة اليد، وجمرات الحدّة، وثمرات المدّة، ومجاراة الخاطر للناظر، ومباراة الطبع للسمع . وكان يترجم مايقترح عليه من الأبيات الفارسية المشتملة على المعانى الغريبة بالأبيات العربية فيجمع فيها بين الإبداع والإسراع، الى عجائب كثيرة لا تحصى، ولطائف تطول أن تستقصى. وكان مع هذا كله مقبول الصورة، خفيف الروح، حسن العشرة، ناصع الظرف، عظيم الخلق ، شريف النفس ، كريم العهد، خالص الودّ، حلو الصداقة، مر العداوة . وفارق همذان سنة ٣٨٠ وهو مقتبل الشبيبة، غض الحداثة ، وقد درس على أبى الحسين بن فارس وأخذ عنه جميع ماعنده، وآستنفد علمه، وآستنزف بحره . وورد حضرة الصاحب فتزود من ثمارها، وحسن آثارها. ثم قدم جرجان وأقام بها مدة على مداخلة الاسماعيلية والتعيش فى أكنافهم، والاقتباس

---

(١) انظر شاهد هذا فيما سيعرض من نص المناظرة (ص ٣٤٨) .

من أنوارهم، وآختص بأبى سعد محمد بن منصور ونفقت بضائعه لديه، وتوفر حظه من عادته المعروفة فى إسداء المعروف والإفضال على الأفاضل . ولما آستقرت عزيمته على قصد نيسابور أعانه على حركته، وأزاح علله فى سفرته، فوافاها فى سنة ٣٨٢ ونشر بها بزّه، وأظهر طرزه، وأملى أربعمائة مقامة[1] نحلها أبا الفتح الاسكندرى فى الكدية وغيرها، وضمنها ما تشتهى الأنفس، وتلذ الأعين، من لفظ أنيق قريب المأخذ، بعيد المرام، وسجع رشيق المطلع والمقطع كسجع الحمام، وجِدّ يروق فيملك القلوب، وهزل يشوق فيسحر العقول . ثم شجر بينه وبين أبى بكر الخوارزمى ما كان سببا لهبوب ريح الهمذانى وعلو أمره، وقرب نجحه، وبعد صيته، إذ لم يكن فى الحسبان والحساب أن أحدا من الأدباء والكتّاب والشعراء ينبرى لمباراته، ويجترئ على مجاراته، فلما تصدّى الهمذانى لمساجلته وتعرض للتحكك به وجرت بينهما مكاتبات ومباهلات ومناظرات ومناضلات وأفضى السنان الى العنان، وقرع النبع بالنبع، وغلّب هذا قوم وذاك آخرون، وجرى من الترجيح بينهما ما يجرى بين الخصمين المتحاكمين، والقرنين المتصاولين، طار ذكر الهمذانى فى الآفاق، وآرتفع مقداره عند الملوك والرؤساء، وظهرت أمارات الإقبال على أموره، وأدرّ له أخلاف الرزق وأركبه أكتاف العز . وأجاب الخوارزمى داعى ربه فخلا الجو للهمذانى وتصرفت به أحوال جميلة، وأسفار كثيرة، ولم يبق فى بلاد خراسان وسجستان وغزنة بلدة الا دخلها، وجنى ثمرتها، وآستفاد خيرها وميرها، ولا ملك ولا أمير ولا وزير ولا رئيس الا آستمطر منه بنوء، وسرى معه فى ضوء، ففاز برغائب النعم، وحصل على غرائب القسم، وألقى عصاه بهراة وآتخذها دار قراره، وجمع أسبابه ... وخار الله له فى مصاهرة أبى على الحسين بن محمد الخشنامى ... فانتظمت أحوال أبى الفضل بصهره، وتعرفت القرة فى عينه، والقوة فى ظهره، وآقتنى بمعونته ومشورته ضياعا فاخرة، وعاش عيشة راضية . وحين بلغ أشدّه وأربى على أربعين سنة ناداه الله فلباه، وفارق دنياه فى سنة ٣٩٨ فقامت عليه نوادب الأدب، وآنثلم حد القلم ... الخ[2]» .

---

(١) راجع ما حققناه من عدد المقامات فى الجزء الأول ص ٢٠٦ - (٢) اليتيمة ج ٤ ص ١٦٧ — ٣٦٩

٣ — وقد نقلنا كلام الثعالبي على طوله لأنه يعطى صورة من طرائق كتاب القرن الرابع فى كتابة التراجم ، ولأن الثعالبي كان من معاصرى البديع ، ولأنه أعطانا فوائد تاريخية على قلة مايفعل ذلك ، فقد عرفنا أن البديع أنشأ المقامات فى نيسابور بعد أن حل بها سنة ٣٨٢ وعرفنا أنه ناظر الخوارزمى فى ذلك الحين ، وهذا يعين أن الخوارزمى مات سنة ٣٨٣ لا سنة ٣٩٣ كما توهم بعض من نقل عنهم ابن خلكان[1] .

وتاريخ إنشاء المقامات الذى نص عليه الثعالبي ظاهر الصحة ، لأن البديع يذكر تواريخ سبقت ذلك ، كقوله فى المقالة القزوينية "غزوت الثغر بقزوين ، سنة خمس وسبعين" .

٤ — أما المناظرة التى أشار اليها الثعالبي والتى آستفاض ذكرها فى كتب الأدب فقد حررها بديع الزمان بقلمه ، وهى وثيقة أدبية تمثل زهوه وأخلاقه ، وتبين تهافت الناس اذ ذاك على شهود المناظرات ، وكانت من الفنون الظاهرة فى القرن الرابع ، ومن أشهر من آهتم بتدوين مناظرات ذلك العهد أبو حيان التوحيدى ، غير أن التوحيدى كان يهتم بتدوين المناظرات الفلسفية والفقهية .

ابتدأ بديع الزمان فحدثنا أن تقييد تلك المناظرة كان مما آقترح عليه ، وأنه سيسوق صدر حديثه مع الخوارزمى الى العجز ، كما يساق المـاء الى الأرض الجُرُز . ثم قال بعد كلام فى الثناء على من وجه اليه الحديث :

" نعود للقصة نسوقها ، وأولها أنا وطئنا خراسان فما آخترنا الا نيسابور دارا ، وإلا جوار السادة جوارا ، لا جرم أنا حططنا بها الرحل ، ومددنا عليها الطنب ، وقديما كنا نسمع بحديث هذا الفاضل فنتشوقه ، ونخبره على المغيب فنتعشقه ، ونقدر أنا لو وطئنا أرضه ، ووردنا بلده ، يخرج لنـا فى العشرة ، عن القشرة ، وفى المودة ، عن الجلدة ، فقد كانت لحمة الأدب جمعتنا ، وكلمة الغربة نظمتنا ، وقد قال شاعر العرب غير مدافَع :

أجارتنـا إنا غريبان ههنـا   وكل غريب للغريب نسيبُ

(١) انظر وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٥٦

فأخلف ذلك الظن كل الإخلاف، وآختلف ذلك التقدير كل الآختلاف، وقد كان آتفق علينا فى الطريق من العرب آتفاق، لم يوجبه آستحقاق، من بزة بزُّوها، وفضة فضُّوها، وذهب ذهبوا به، ووردنا نيسابور براحة أنق من الراحة، وكيس أخلى من جوف حمار، وزىّ أوحش من طلعة المعلم(١) بل آطلاعة الرقيب، فما حللنا إلا قصبة جواره، ولا وطئنا إلا عتبة داره. وهذا بعد رقعة كتبناها، وأحوال أنس نظمناها. فلما أخذنا لحظ عينه سقانا الدردىّ من أول دنه، وأجنانا سوء العشرة من باكورة فنه، من طرف نظر بشطره، وقيام دفع فى صدره، وصديق آستهان بقدره، وضيف آستخف بأمره. لكنا أقطعناه جانب أخلاقه، وقاربناه إذ جانب، وواصلناه إذ جاذب، وشربناه على كدورته، ولبسناه على خشونته، ورددنا الأمر فى ذلك الى زىّ آستغثه، ولباس آسترثه، وكاتبناه نستمد وداده، ونسلس قياده، ونستميل فؤاده، ونقيم منآده".

٥ — وخلاصة ما سلف أن بديع الزمان بعد أن أعانه محمد بن منصور وأزاح علله فى سفرته الى نيسابور خرج عليه اللصوص فى الطريق — وهو يسميهم «العرب» — فسلبوا ما كان معه من فضة وذهب ودخل نيسابور على أسوأ حال، وفكر عند وصوله فى الآتصال بأبى بكر الخوارزمى، ولكن الخوارزمى لم يكرم زيارته، وظن بديع الزمان أن تلك الجفوة لم تكن إلا لأنه ورد فى زىّ غث، ولباس رث.

أما المراسلات التى سبقت المناظرة فهى خطاب من البديع وجواب من الخوارزمى.

ولننظر كيف بدأ البديع يغرس بذور الشحناء :

" الأستاذ أبو بكر — والله يطيل بقاءه! — أزرى بضيفه أن وجده يضرب إليه آباط القلة، فى أطمار الغربة، فأعمل فى رتبته أنواع المصارفة، وفى الآهتزاز له أنواع المضايقة، من إيماء بنصف الطرف، وإشارة بشطر الكف، ودفع فى صدر القيام، عن التمام،

(١) يريد أن طلعة المعلم توحش الطفل لأنها تنقله من اللعب الى الدرس، ومعاذ الله أن تكون «طلعة المعلم وحشة» فى جميع الأحوال ! !

ومضغ الكلام، وتكلف لرد السلام . وقد قبلت تربيته صعرا، وآحتملته وزرا ، وآحتضنته نكرا، وتأبطته شرا، ولم آله عذرا، فان المرء بالمال، وثياب الجمال، ولست مع هذه الحال، وفى هذه الأسمال، أتقزز صف النعال، فلو صدقته العتاب ، وناقشته الحساب، لقلت إن بوادينا ثاغية صباح، وراغية رواح، وناسا يجرون المطارف، ولا يمنعون المعارف .

وفيهم مقاماتٌ حسان وجوههم وأنديةٌ ينتابها القول والفعلُ

ولو طوّحتْ بأبى بكر أيده الله طوائح الغربة ، لوجد مغنى البِشر قريبا ، ومحط الرحل رحيبا، ووجه المضيف خصيبا . ووجه الأستاذ أبى بكر أيده الله فى الوقوف على هذا العتاب الذى معناه ود، والمر الذى يتلوه شهد، موفقٌ ان شاء الله تعالى " .

فأجاب الخوارزمى :

" وصلت رقعة سيدى ومولاى ورئيسى أطال الله بقاءه الى آخر السكباج ، وعرفت ما تضمنه من خشن خطابه ، ومؤلم عتابه ، وصرفت ذلك منه الى الضجر الذى لا يخلو منه من مسه عسر، ونبا به دهر، والحمد لله الذى جعلنى موضع أنسه، ومظنة مشتكى ما فى نفسه! أما ماشكاه سيدى ورئيسى من مضايقتى إياه فى القيام فقد وفيته حقه أيده الله سلاما وقياما، على قدر ما قدرت عليه، ووصلت إليه، ولم أرفع عليه الا السيد أبا البركات العلوى أدام الله عزه، وما كنت لأرفع أحدا على من جدّه الرسول، وأمه البتول، وشاهداه التوراة والانجيل، وناصراه التأويل والتنزيل، والبشير به جبرائيل وميكائيل . فأما القوم الذين صدر سيدى عنهم فكما وصف حسن عِشرة ، وسداد طريقة ، وكمال تفصيل وجملة ، ولقد جاورتهم فأحمدت المَراد، ونلت المُراد :

فان كنت قد فارقت نجدا وأهلهُ فما عهد نجد عندنا بذميمِ

والله يعلم نيتى للاخوان كافة، ولسيدى من بينهم خاصة، فان أعانى الدهر على ما فى نفسى بلغت إليه ما فى الفكرة، وجاوزت مسافة القدرة ، وإن قطع علىّ طريق عشرتى بالمعارضة، وسوء المؤاخذة، صرفت عنانى عن طريق الاختيار، بيد الاضطرار :

فما النفس إلا نطفة بقرارة   اذا لم تكدّر كان صفوا معينها

وبعد فحبذا عتاب سيدى اذا آستوجبنا عتبا، وآقترفنا ذنبا ، فاما أن يسلفنا العربدة فنحن نصونه عن ذلك ونصون أنفسنا عن آحتماله . ولست أسومه أن يقول استغفر لنا إنا كنا خاطئين ، ولكنى أسأله أن يقول لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين " .

٦ — وبهذين الخطابين بدأت البغضاء، وآنقطع بديع الزمان عن زيارة الخوارزمى « ومضى على ذلك الأسبوع ، ودبت الأيام، ودرجت الليالى، وتطاولت المدة » ومشى الواشون بالسوء ، ودعا ناس الى مناظرة تقوم بين الرجلين، فتردد الخوارزمى وهش بديع الزمان، ثم ركب الخوارزمى فى جمع من أصحابه وتلامذته ، وبعد لحظات ابتدأ النضال، ولنترك البديع يصف ذلك الموقف المشهود .

صورة المناظرة (١)

" ... فتركناه على غلوائه، حتى إذا نفض ما فى رأسه، وفرغ جعبة وسواسه ، عطفنا عليه فقلنا : ياعافاك الله! دعوناك وغرضنا غير المهارشة ، وآستزرناك وقصدنا غير المناوشة، فلتهدأ ضلوعك، وليفرخ روعك، وما آجتمعنا إلا لخير فلتسكن سورتك، ولتلن فورتك، ولا ترقص لغير طرب، ولا تحم لغير سبب ! وإنما ذكرناك لتملأ المجلس فوائد، وتذكر أبياتا شوارد ، وأمثالا فرائد، ونباحثك فنسعد بما عندك، وتسألنا فتسر بما عندنا، ويقف كل واحد منا موقفه من صاحبه، وقديما كنت أسمع بحديثك فيعجبنى الالتقاء بك ، والاجتماع معك ، والآن إذ سهل الله ذلك فهلم الى الأدب ننفق يومنا عليه ، وإلى الجدل نتجاذب طرفيه ،

(١) أثبتنا هذا الشاهد على طوله لطرافته ولدلالته على عقلية فريق من كتاب ذلك العهد ، ولنبين كيف آستطاعت اللغة المثقلة بالزخرف والسجع أن تؤدى نوعا من القصص فى تدوين المناظرات . وقد أسقطنا جزءا من صورة هذه الوثيقة الأدبية فرارا من التطويل .

وللقارئ أن يرجع الى رسائل بديع الزمان ص ٢٨ — ٨٣

فاسمع خيرا وأسمعنا مثله، ولتبدأ بالفن الذى ملكت به زمانك ، وفُقت به أقرانك ، وملكت به عنانك ، وأخذت منـه مكانك ، فطار به آسمك بعـد وقوعه ، وآرتفع له ذكرك عقب خضوعه، وأفحمت به الرجال حتى أذعن العالم، وقلد الجاهل ... فجارنا بفرسـك ، وجُدْ لنـا بنفســـك .

فقال : وما هو ؟

فقلت : الحفظ إن شئت ، والنظم إن أردت ، والنثر إن آخترت ، والبديهة إن نشطت . فهذه أبوابك التى أنت فيها آبن دعواك ، تملأ منها فاك .

فأخم عن الحفظ رأسا ، ولم يجل فى النثر قِدْحا . وقال :

أبادهك .

فقلت : أنت وذاك !

فمـال الى السيد أبى الحسين يسأله بيتا ليجيز . فقلت : يا هذا أنا أكفيك ، ثم تناولت جزأ فيه أشعاره وقلت لمن حضر :

هذا شعر أبى بكر الذى كد به طبعه، وأسهر له جفنـه ، وأجال فيه فكره، وأنفق عليـه عمره، وآستنزف فيه يومه، ودوّنه فى صحيفة مآثره، وجعله ترجمان محاسنه، وعبر به عن باطنه ، وأخذ مكانه وهو ثلاثون بيتا ، وسأقرن كل بيت بوفقـه ، وأنظم كل معنى الى لِفقه ، بحيث أصيب أغراضـه، ولا أعيـد ألفاظه ، وشريطتى أن لا أقطع النفَس ، فان تهيأ لواحد ، أو أمكن لناقد ، ممن حضر ، يريد النظـر ، أن يميز قوله من قولى ، ويحكم على البيت أنه له أو لى ، أو يرجح ما نظمه بنار الروية ، على ما أمليته على لسان النفس فله يد السبق ، أو يكون غيرها فإعفاء عن هـذه المقاومة ، ويتنحى لنـا عن أرض المماثلة ، ويخلى الطريق لمن يبنى المنـار به .

فقال أبو بكر : ما الذي يؤمننا من أن تكون نظمت من قبل ما تريد إنشاءه الان ؟

فقلت : اقترح لكل بيت قافية لا أسوقه إلا إليها ، ولا أقف به إلا عليها ، ومثال ذلك أن تقول (حشر) فأقول بيتا آخره (حشر) ثم (عشر) فأنظم بيتا قافيته (عشر) ثم هلم جرا الى حيث يتضح الحق ، ويفتضح الزرق[١] ، وتستقر الحجة ، وتستقل الشبهة ، وتنطرد فيعرف الحالى من العاطل ، ويفرق بين الحق والباطل .

فأبى أبو بكر أن يشاركنا فى هذا العنان ، ومال الى السيد أبى الحسين يسأله بيتا ليجيز فتبعنا رأيه فيما رآه ، ولم نرض إلا رضاه ، وأعمل كل منا لسانه وفمه ، وأخذ دواته وقلمه ، فأجزنا البيت الذى قاله ، وكلما أجزناه إجازة جارى القلم فيها الطبع ، وبارى اللسان بها السمع ، وسارق الخاطر بها الناظر ، وسابق الجنان بها البنان ، إذ قلنا :

هذا الأديب على تعسف فتكهِ ... وبروكه عند القريض ببركهِ[٢]
متسرع فى كل ما يعتادهُ ... من نظمه متباطئ عن تركهِ
والشعر أبعد مذهبا ومصاعدا ... من أن يكون مطيعَه فى فكه
والنظم بحرٌ والخواطر معبَرٌ ... فانظر الى بحر القريض وفُلكه
فمتى توانى فى القريض مقصِّر ... عرّضت أذن الامتحان بعركه
هذا الشريف على تقدّم بيتهِ ... فى المكرمات ورفعه فى سمكه
قد رام منى أن أقارن مثله ... وأنا القرين السوء إن لم أَنْكه[٣]
واذا نظمت قصمت ظهر مناظرى ... وحطمت جارحة القرين بدكه
ودبغت منه أديمه وتركته ... نهج الأديم بدبغه وبدلكه
أصغو الى الشعر الذى نظّمته ... كالدرّ رصّع فى مجرّة سلكه
فمتى عجزت عن القريض بديهة ... فدمى الحرام له إراقةُ سفكه

وقال أبو بكر أبياتا جهدنا به أن يخرجها من الغلاف ، ويبرزها من اللحاف ، فلم يفعل دون أن طواها وجعل يعركها ويفركها ، فقلت : إن البيت لقائله ، كالولد لناجله ، فما لك

(١) الزرق جمع أزرق ويراد به الأعمى . وفى القرآن (ونحشر المجرمين يومئذ زرقا) أى عميا .

(٢) البرك بفتح فسكون : الصدر . (٣) من النكاية وهى الإهانة .

تعق ابنك وتضيمه ؟ أبرزها للعيون ، وخلصها من الظنون . فكره أبو بكر أيده الله أن تكون الهزة أعقل منه لأنها تحدث فتغطى ، فلم يستجرئ أن يظهر ثم مسح جبينه وبسط يمينه للبديهة نفسا دون أن يكتب . فقلنا : أنت وذاك . واقترح علينا أن نقول على وزن قول أبي الطيب المتنبي حيث يقول :

أرق على أرق ومثلى يأرقُ   وجوًى يزيد وعَبرةٌ تترقرقُ

وابتدر أبو بكر أيده الله الى الإجازة ولم يزل الى الغايات سباقا فقال :

وإذا ابتدهت بديهة يا سيدى   فأراك عند بديهتى تتقلقُ
وإذا قرضت الشعر فى ميدانه   لا شك أنك يا أخى تتشقق
إنى إذا قلت البديهة قلتها   عجلا وطبعك عند طبعى يرتق
مالى أراك ولست مثلى عندها   متموها بالترهات تمخرق
إنى أجيز على البديهة مثل ما   تريانه وإذا نطقت أصدق
لو كنت من صخر أصمٍّ لهاله   منى البديهة واغتدى يتفلق
أو كنت ليثا فى البديهة خادرا   لرئيت يا مسكين منى تفرَق
وبديهة قد قلتها متنفسا   فعل الذى قد قلت يا ذا الأخرق

ثم وقف يعتذر ويقول : إن هذا كما يجىء لا كما يجب . فقلت : قبل الله عذرك لكنى أراك بين قواف مكروهة وقافات خشنة كل قاف كجبل قاف ، منها تتقلق وتتشقق وتمخرق وتخرق وتطلق وتعلق وتبرق وتفرق وأحمق وأخرى إلى أشياء لا أكثر بها العدد ، فخذ الآن جزاء عن قرضك ، وأداء لفرضك ، وقلت :

مهلا أبا بكر فزندك أضيق   فاخرس فإن أخاك حىٌّ يرزق
دعنى أعرك إذا سكتَ سلامةً   فالقول ينجد فى ذويك ويعرق
ولفاتك فتكاتُ سوء فيكمُ   فدع الستور وراءها لا تخرق
وانظر لأشنع ما أقول وأدعى   الله إلى أعراضكم متسلِّق
يا أحمقا وكفاك ذلك خزية   جربت نار معرتى هل تحرق

فلما أصابه حر الكلام، ومسه لفح هذا النظام، قطع علينا فقال : يا أحمقا لا يجوز فإن أحمق لا ينصرف . فقلنا : ياهذا لا تقطع فإن شعرك إن لم يكن عَيبة عيب فليس بظرف ظرف، ولو شئنا لقطعنا عليك، ولوجد الطعن سبيلا اليك . وأما أحمق فلا يزال يصفعك لتصفعه حتى ينصرف وتنصرف معه! وعرفناه أن للشاعر أن يردّ ما لا ينصرف الى الصرف، كما أن له رأيه فى القصر والحذف، وأنشدناه حاضر الوقت من أشعار العرب فقال : يجوز للعرب ما لا يجوز لك . فلم يدر كيف يجيب عن هذا الموقف وهذه المواقفة، وكيف يسلم من هذه المصارفة، لكنا قلنا : أخبرنا عن بيتك الأول أمدحت أم قدحت، وزكيت أم جرحت ؟ ففيه شيئان متفاوتان، ومعنيان متباينان، منها أنك بدأت نخاطبت بيا سيدى، والثانية أنك عطفت فقلت تتقلق وهما لا يركضان فى حلبة ولا يخطان فى خطة . ثم قلت له : خذ وزنا من الشعر حتى أسكت عليك فتستوفى من القول حظك وأسكت علينا حتى نستوفى حظنا ، ثم إنى أحفظ عليك أنفاسك وأوافقك عليها وأحفظ علىّ أنفاسي ووافقنى عليها فإن عجزتُ عن اختلافها حفظتها لك، فسلنى عنها بعد ذلك . وأخذنا بيت أبى الطيب المتنبى :

أهلا بدارٍ سباك أغيدها أبعدَ ما بان عنك خرّدها

فقلت :

يا نعمة لا تزال تجحدها ومنة لا تزال تكندها

فأخذ بمخنق البيت قبل تمامه، ومضيق الشعر قبل نظامه، فقال : ما معنى تكندها ؟ فقلت : يا هذا، كند النعمة كفرها . فرفع يديه ورأسه وقال : معاذ الله بأن يكون كند بمعنى جحد ، وإنما الكنود القليل الخير . فأقبلت الجماعة عليه يوسعونه بريا وفريا ويتلون له قول الله تعالى (إن الإنسان لربه لكنود) وقلت له : أليس الشرط أملك؟ والعهد بيننا أن تسكت ونسكت حتى تم وتم، ثم نبحث ونفحص، فنبذ الأدب وراء ظهره وصار الى السخف يكيلنا بصاعه ومُده ، وينفض فيه جُمة جهده، وأفضى الى السفه يغرف علينا غرفا ، ويستقى من جرفه جرفا . فقلت : يا هذا إن الأدب غير سوء الأدب وللمناظرة حضرنا لا للمنافرة، فان نفضت من هذا السخف يدك، وثنيت عن هذا السفه قصدك، وإلا تركت مكالمتك . ولو كان

فى باب الاستخفاف شىء أعظم من الاحتقار، وإنكار أبلغ من ترك الإنكار، لبلغته منك . فأخذ يمضى على غُلَوائه، ويمعن فى هرائه وهذائه . فاستندت الى المسند، ووضعت اليد على اليد، وقلت استغفر الله من مقالتك ونفضتها قائمة معه . وسكت حتى عرف الناس، وأيقن الجلاس، أنى أملك من نفسى ما لا يملكه، وأسلك من طريق الحلم ما لا يسلكه، ثم عطفت عليه وقلت : يا أبا بكر إن الحاضرين قد عجبوا من حلمى، وتعجبوا من فضلى، وبقى الآن أن يعلموا أن هذا السكوت ليس عن عىّ، وأن تكلفى للسفه أشدّ آستمرارا من طبعك، وغربى فى السخف أمتن عودا من نبعك، وسنقرع باب السخف معك، ونفترع من ظهر السفه مفترعك . فتكلم الآن . فقال لى : أنا قد كسبت بهذا العقل دية أهل همذان مع قلته فما الذى أفدت أنت بعقلك مع غزارته ؟ فقلت أما قولك أهل همذان فما أولانى أن أجيب عنه ولكن هذا الذى تتمدح به وتتبجح وتتشرف وتتصلف من أنك شحذت فأخذت، وسألت فحصلت، وآجتديت فآقتنيت، فهذا عندنا صفة ذم يا عافاك الله ! ولأن يقال للرجل يا فاعل يا صانع أحبُّ اليه من أن يقال يا شحاذ ويا مكدى ! وقد صدقت، أنت فى هذه الحلبة أسبق، وفى هذه الحرفة أعرق، ولعمرك أنت أشحذ، وفى الكدية أنفذ، وأنا قريب العهد بهذه الصنعة، حديث الوِرد لهذه الشِّرعة، مرمل اليد فى هذه الرقعة . فأما مالك فعندنا يهودىّ يمائلك فى مذهبه، ويزيدك بذهبه، ومع ذلك لا يطرفنى إلا بعين الرهبة، ولا يمد الىّ إلّا يد الرغبة، ولو كان الغنى حظا لأخطأه مثل هذا العقل، ولو كان المال غُنما لما أُدركَ بهذا السعى . ولكن عرفنى هل كنت فيما سلف من زمانك، ونبت من أسنانك، إلا هاربا بذمائك، مضرجا بدمائك، مرتهنا بقولك بين وجنة موشومة، وجوارح مهشومة، ودار مهدومة، وخدود ملطومة . ومتى صفتْ مشارعك، وأخصبت مرابعك، إلا فى هذه الأيام القذرة؟ وستعرف غدك من بعد، وتنكر أمسك، وتعلم قدرك فى غد، وتعرف نفسك . وما أضيع وقتا أنطقته بذكرك، ولسانا دنسته باسمك ! وملت الى القوال فقلت أسمعنا خيرا فدُفع القوال وغنى أبياتا منها :

وشبَّهنا بنفسج عارضيهِ ... بقايا اللطم فى الخد الرقيقِ

فقال أبو بكر : أحسن ما فى الأمر أنى أحفظ هذه القصيدة وهو لا يعرفها، فقلت : يا عافاك الله أعرفها وإن أنشدتكها ساءك مسموعها، ولم يسرك مصنوعها، فقال : أنشد ! فقلت : أنشد ولكن روايتى تخالف هذه الرواية وأنشدت :

وشبهنا بنفسج عارضيه بقايا الوشم فى الوجه الصفيق

فأتته السكتة، وأضجرته النكتة، وآنطفأت تلك الوقدة، وآنحلت تلك العقدة. وأطرق مليا وقال : والله لأضربنك وإن ضُربت، ولأشتمنك وإن شُتمت، ولتعلمن نبأه بعد حين، ولتعلمن أينا الضارب وأينا المضروب! فقلت : ياأبا بكر مهلا فانك بين ثلاثة فصول لم تتخطها من عمرك وثلاث أحوال لم تتعدها فى أمرك، وأنت فى جميع الثلاثة ظالم فى وعيدك، متعدّ فى تهديدك، لأنك كهل وأنت شاعر، وكنت شابا وأنت مقامر، وكنت صبيا وأنت مؤاجر، فنطاق القدرة فى الفصول الثلاثة ضيقٌ عن هذا الوعيد، لكنا نصفعك الآن وتضربنا فيما بعد، فقد قيل اليوم قصف، وغدًا خسف، وقيل اليوم خمر، وغدًا أمر! فقال أبو بكر والله لو دخلت الجنة، واتخذت السندس والإستبرق جُنة، لصفعت! فقلت : والله لو أن قفاك غدا فى درج فى خرج فى برج لأخذك من النعال ما قدم وما حدث، وشملك من الصفع ماطاب وخبث، وأنشدت قول آبن الرومى :

إن كان شيخا سفيها يفوق كل سفيه
فقد أصاب شبيها له وفوق الشبيه

ثم لما آبت نفس العقل وزال سكر الغيظ تمثلت بقول القائل :

وأنزلنى طول النوى دار غربة إذا شئت لاقيت آمرءا لا أشاكله
أحامقه حتى يقال سجية ولو كان ذا عقل لكنت أعاقله

ودُفع القوال فبدأ بأبيات ، ولحن بأصوات، وجعل النعاس يثنى الرؤوس، ويمنع الجلوس، فقمنا عن الليل وهو بحره مائل الذقن الى ما وُطِّئ من مضجع، ومُهِّد من مهجع ، ولم يكن النوم ملء الجفون، ولا شغل العيون، حتى أقبل وفد الصباح، وحيعل المؤذن بالفلاح،

وندب الى النهوض، بالمفروض، فأجبنا . فلما قضينا الفرض، فارقنا الأرض، فأوى الى أم مثواه وأويت الى الحجرة وظنى أن هذا الفاضل يأكل يده ندما، ويبكى على ماجرى دمعا ودما، فانه إذا سمع بحديث همذان قال : الهاء هم والميم موت، والذال ذل ، والألف آفة، والنون ندامة، وأنه إذا نام هاله منا طَيف، واذا آنتبه راعه منا سيف، وأخذ الناس يترامزون بما جرى ويتغامزون، وراب هذا الفاضل غمزاتهم مثل ماراب المريض تغامز العواد فجعل يحلف للناس بالعتق، وتحرير الرق، والمكتوب فى الرقّ، إنه أخذ قصب السبق، وإنه ينطق عن الحق، والناس أكياس لا يقنعهم عن المدعى يمين دون شاهدين! وسعوا بيننا بالصلح يحكمون قواعده ومعاقده، وعرفنا له فضل السن فقصدناه معتذرين اليه فأومأ إيماءة مهيضة، وآهتز آهتزازة مغيضة، وأشار إشارة مريضة، بكف سحبها على الهواء سحبا، وبسطها فى الجو بسطا، وعلمنا أن للمقمور أن يستخف ويستهين، وللقامر أن يحتمل ويلين، فقلنا إن بعد الكدر صفوا ، كما أن عقب المطر صحوا، فهل لك فى أخلاق فى العشرة نستأنفها، وطرق فى الخلطة نسلكها، فان ثمرة الخلاف ماقد بلوتها؟ فقال ظهر الوفاق لفظا كما ذكرت، والجميل أجمل كما علمت، وسنشترك هذا العنان. وعرض علينا الإقامة عنده سحابة ذلك اليوم، فاعتللنا بالصوم، فلم يقبل العذر وألح فقلت : أنت وذاك فطعمنا عنده، وأخذنا دندانُ مزده ، وخرجنا والنية على الجميل موفورة، وبقعة الود معمورة، وصرنا لا نتعلل إلا بمدحه، ولا نتنقل إلا بذكره، ولا نعتد إلا بوده، لا بل ملأنا البلد شكرا، والأسماع نشرا، وبتنا نحن من الحال فى أعذبها شِرعة ، ومن الثقة فى أطيبها جرعة ، ومن الظنون فى أملحها فرعة، ومن المودة فى أعزها بقعة، وأوسعها رقعة، حتى طرأ علينا رسولان متحملان لمقالته، مؤدّيان لرسالته، ذاكران أن أبا بكر يقول قد تواترت الأخبار، وتظاهرت الآثار، فى أنك قَهرت وأنى قُهرت ولا شك أن ذلك التواتر عنك صدرت أوائله . والخبر إذا تواتر به النقل، قبله العقل. ولا بد أن نجتمع فى مجلس بعض الرؤساء فنتناظر بمشهد الخاصة والعامة، فانك متى لم تفعل ذلك لم آمن عليك تلامذتى أو تقر بعجزك وقصورك عن بلوغك أمدى وما أبدى . فعجبت كل العجب مما سمعت، وأجبته فقلت: أما قولك قد تواتر الخبر بأنك قُهرت وأن ذلك عن

جهتى صدر ومن لسانى سمع فبالله ما أتمدح بقهرك، ولا أتبجح بقسرك . و إن لنفسك عندك لشأنا إن ظننتنى أقف هـذا الموقف ، أنا ان شاء الله تعالى أبعـد مرتقى همة ومصعد نفس أسأل الله سترا يمتد ووجها لا يسودّ! فأما التواتر من الناس والتظاهر على أنى قهرتك فلو قدرت على الناس لخطتُ أفواههم، ولقبضت شفاههم ، فما الحيلة وهل الى ذلك سبيل فأتوسل ، أم ذريعة فأتوصل؟ ثم هذا التواتر، ثمرة ذلك التناظر ، مع ذلك التساتر، فان كان قد ساءك فأحرى أن يسوءك عند مجتمع الناس ومحتفل أولى الفضل، ولأن يترك الأمر مختلَفا فيـه خيرٌ لك من أن يُتفق عليه . و إن أحببت أن تطير هذا الواقع وتهيج هذا الساكن فرأيك موفقا. فأما هذا الوعيد فقد عرضته على جوانحى أجمع وجوارحى كلها فلم تنشد الا بيت القائل :

وعيدٌ تخرج الآرام منهُ وتكره نيـة الغنم الذئابُ

فكم تتكوكب تلامذتك و يتعسكرون، و يتجيش أصحابك و يتجمعون، ولست أراك إلا بين ثنتين : إحداهما تروح الى أنثى وتغـدو الى طفل ، والأخرى تجيب دعوة المضطر إذا دعاك بمسلفات . فان كان الله قد قضى أن القتل بأخس السلاح، فلا مفرّ من القدر المتاح، رزقنا الله عقلا به نعيش ! ونعوذ بالله من راى بنا بطيش! وقلنا من بعد إن رسالتك هذه وردت موردا لم نحتسـبه، ووصلت موقفا لم نرتقبـه، فلذلك خرج الجواب عن البصل ثوما، وعن البخل لوما . فلما ورد الجواب عليه وسِـع من الغيظ فوق ملئه، وحمل من الحقد فوق عبئه، وقال : قد بلغ السيل الزبا ، وعلت الوهاد الربا ، فى أمرك . وستُرى فى يومك ، وتُعرَف فى قومك ! ثم مضت على ذلك أيام ونحن منتظرون لفاضل ينشط لهذا الفصل، وينظر بيننا بالعـدل ، فاتفقت الآراء على أن يعقد هذا المجلس فى دار الشيخ أبى القاسم الوزير وآستدعيت فسرحت الطرف من ذلك السيد فى عالَم أُفرغ فى عالِم وملك فى درع ملك ورجل نظم الى التنبل تبذلا والى الترفع تواضعا، ونطق فودت الأعضاء لو أنهـا أسماع مصغية وآستمع فتمنت الجوارح لو أنها ألسن ناطقة فقلت : الحمد لله أن عقد هذا المجلس فى دار من يفرق بين من يُحق ومن يزرِق(١) وكنت أول من حضر وآنتظرت مليا حضور من ينظر وقدوم من يناظر، وطلع الإمام

(١) من زرق الطائر اذا أخرج ما فى أمعائه .

أبو الطيب وأخذ من المجلس موضعه، والامام أبو الطيب بنفسه أمة ووحده عالَم . ثم حضر السيد أبو الحسين وهو ابن الرسالة والإمامة ، وعامر أرض الوحى والمحتبى بفناء النبوة والضارب فى الأدب بعرقه ، وفى النطق بحذقه، وفى الإنصاف بحسن خلقه، فجشم الى المجالس قَدَم سيفه وجعل يضرب عن هذا الفاضل بسيفين لأمر كان قد موِّه عليه، وحديث كان شبِّه لديه، وفطنت لذلك فقلت: أيها السيد أنا إذا سار غيرى فى التشيع برجلين، طرت بجناحين، وإذا متّ سواى فى موالاة أهل البيت بلمحة دالة توسلت بغُرة لائحة ، فإن كنت أبلغت غير الواجب فلا يحملنك على ترك الواجب . ثم إن لى فى آل الرسول صلى الله عليه وسلم قصائد قد نظمت حاشيتى البر والبحر، وركبت الأفواه، ووردت المياه، وسارت فى البلاد، ولم تسر بزاد ، وطارت فى الآفاق، ولم تسر على ساق ، ولكنى أتسوّق بها لديكم ولا أتنفق بها عليكم، وللآخرة قلتها لا للحاضرة، وللدين آدخرتها لا للدنيا . فقال أنشدنى بعضها فقلت :

يا لمـةً ضـرب الزما ... ن على مُعـرَّسها خيامهْ
لله درك من خُزا ... مَى روضة عادت ثَغامه
لرزيـة قامت بها ... للدين أشراط القيامه
لمضـرَّج بدم النبـو ... ة ضارب بيـد الإمامه
متقسم بظبا السيـو ... ف مجـرَّع منها حمـامه
مُنِـع الورودَ وماؤهُ ... منه على طَرَف الثمـامه
نصب آبن هنـد رأسـهُ ... فوق الورى نصب العلامه
ومقبَّـل كان النـبىُّ ... بلثمـه يشفى غرامه
قرع آبن هنـد بالقضيب ... عِذابه فـرط آستضامه
وشـدا بنغمتـه عليـ ... ـه وصبّ بالفضلات جامه
والدين أبلج سـاطع ... والعـدل ذو خال وشامـه
يا ويح من ولّى الكتا ... ب قفاه والدنيا أمامه
ليضرسنّ يـد النـدا ... مة حين لا تغنى النـدامه

وليدركنّ على الغرا مة سوء عاقبه الغرامه
وحمى أباح بنو أميـ ـة من طوائلهم حرامه
حتى آشتفوا من يوم بد رٍ وآستبدوا بالزعامه
لعنوا أمير المؤمنيـ ـن بمثل إعلان الإقامه
لم لا تخرّى يا سما ءُ ولم تصبي يا غمامه
لم لا تزولى يا جبا ل ولم تشولى يا نعامه
يا لعنةً صارت على أعناقهم طوق الحمامه
إن العمامة لم تكن للئيم ما تحت العمامه
من سبط هند وآبنها دون البتول ولا كرامه
يا عين جودى للبقيـ ـع وزرّعى بدم رغامه
جودى بمذخور الدمو ع وأرسلى بَدَدًا نظامه
جودى بمكنون الدمو ع أجُدْ بما جاد آبن مامه

فلما أنشدت ما أنشدت، وسردت ما سردت. وكشفت له الحال فيما آعتقدت، انحلت له العقدة وصار سلما يوسعنا حلما. وحضر بعد ذلك الشيخ أبو عمر البسطامى وناهيك من حاكم يفصل، وناظر يعدل، يسمع فيفهم، و يقول فيعلم. ثم حضر بعد ذلك القاضى أبو نصر والأدب أدنى فضائله، وأيسر فواضله، والعدل شيمة من شيمه، والصدق مقتضى هممه. وحضر بعده الشيخ أبو سعيد محمد بن ارمك أيده الله وهو الرجل الذى يحميه لألأوه ولوذعيته من أن يذال بمن أو ممن الرجل، وهو الفاضل الذى يحطب فى حبل الكتابة ما شاء، و يركض فى حلبة العلم ما أراد. وحضر بعده أبو القاسم بن حبيب وله فى الأدب عينه وفِراره، وفى العلم شعلته وناره. وحضره بعده الفقيه أبو الهيثم و رائد الفضل يقدمه، وقائد العقل يخدمه. وحضر بعده الشيخ أبو نصر بن المرز بان والفضل منه بدأ واليه يعود. وحضر بعده أصحاب الإمام أبى الطيب الأستاذ أيده الله.

" وما منهمُ إلا أغر نجيبُ " .

وحضر بعدهم أصحاب الأستاذ الفاضل أبى الحسن الماسرجسى :

" وكلٌّ إذا عدّ الرجال مقدّمُ "

وحضر بعدهم أصحاب الأستاذ أبى عمر البسطامى وهم فى الفضل كأسنان المشط ومنه بأعلى مناط العقد . وحضر بعدهم الشيخ أبو سعيد الهمذانى وله فى الفضل قِدحه المعلى، وفى الأدب حظه الأعلى . وحضر بعد الجماعة أصحاب الأسبلة المسبلة، والأسوكة المرسلة، رجال يلعن بعضهم بعضا فصاروا الى قلب المجلس وصدره حتى رد كيدهم فى نحرهم وأقيموا بالنعال الى صف النعال، فقلت لمن حضر : من هؤلاء؟ فقالوا : أصحاب الخوارزمى، فلما أخذ المجلس زخرفه ممن حضر، وآنتُظِر أبو بكر فتأخر، اقترحوا علىّ قوافى أثبتوها واقتراحات كانوا بيتوها، فما ظنك بالحلْفاء أدنيت لها النار من لفظ الى المعنى نسقته ، و بيت الى القافية سقته ، على ريق لم أبلعه، ونفَس لم أقطعه، وصار الحاضرون بين إعجاب بما أوردت، وتعجب مما أنشدت . وقال أحدهم بل أوحدهم وهو الإمام أبو الطيب لن نؤمن لك حتى نقترح القوافى ونعيِّن المعانى وننص على بحر فإن قلت حينئذ على الروى الذى أسومه، وذكرت المعنى الذى أرومه ، فأنت حىّ القلب كما عهدناك ، منشرح الصدر كما شاهدناك ، شجاع الطبع كما وجدناك، وشهدنا أنك قد أحسنت، وأن لا فتى إلا أنت . فما خرجت من عهدة هذا التكليف حتى آرتفعت الأصوات بالهيللة من جانب والحوقلة من آخر وتعجبوا إذ أرتهم الأيام، ما لم ترهم الأحلام، وجادهم العيان بما بخل به السماع، وأنجزهم الفهم ما أخلفهم الوهم، ثم التفتّ فوجدت الأعناق تلتفت وما شعرت إلا بهذا الفاضل وقد طلع فى شملته وهبّ بجملته، بأوداج ما يسعها الزران، وعينين فى رأسه تزران، ومشى الى فوق أعناق الناس وجعل يدس نفسه بين الصدور يريد الصدر وقد أخذ المجلس أهله فقلت : يا أبا بكر تزحزح عن الصدر قليلا الى مقابلة أخيك . فقال : لست برب الدار، فتأمر على الزوار ! فقلت : يا عافاك الله حضرت لتناظرنى والمناظرة آشتقت إما من النظر أو من النظير، فإن كان

اشتقاقها من النظر فمن حسن النظر أن يكون مقعدنا واحدا حتى يتبين الفاضل من المفضول ثم يتطاول السابق ويتقاصر المسبوق . فقضت الجماعة بما قضيت ، وغص هذا الفاضل من تلك الحكمة ، وآنحط عن تلك العظمة ، وقابلني بوجهه فقلت : أراك أيها الفاضل حريصا على اللقاء، سريعا الى الهجاء .

" ولو زبنتك الحرب لم تترمرم " .

ففى أى علم تريد أن نتناظر؟ فأومأ الى النحو، فقلت : يا هذا إن اليوم قد متع، والنهار قد آرتفع، والظهر قد أزف، ولئن قرعنا باب النحو أضعنا اليوم فيه، فما ذا يخرج الناس، فعلا هتاف الناس أيهما رد الجواب هناك ما يدرى المجيب . فإن شئت أن أناظرك فى النحو فسلم الآن لى ما كنت تدعيه من سرعة فى البديهة وجودة فى الروية ، وقدرة على الحفظ ونفاذ فى الترسل . ثم أنا أجاريك فى هذا، فقال : لا أسلم ذلك ولا أناظر فى غير هذا، وآرتفعت المضاجّة وآستمرت الملاحاة حتى بلغ الأستاذ الفاضل أبو عمر اليه فقال : أيها الأستاذ انت أديب خراسان وشيخ هذه الديار وبهذه الأبواب التى قد عدها هذا الشاب ، كنا نعتقد لك السبق والحذق، وتثاقلك عن مجاراته فيها مما يتهم ويوهم، وآضطره الى منازلة أو نزول عنها ومقارّة فيها أو إقرار بها . فقال : سلمت الحفظ، فأنشدت قول القائل :

ومستلئم كشفت بالرمح ذيلهُ   أقمت بعضب ذى شقاشق ميلهُ
فجعت به فى ملتقى الحى خيله   تركت عتاق الطير تحجل حولهُ

وقلت : يا أبا بكر خفف الله عنا فى الحفظ فقد كفيتنا مؤونة الامتحان، ولم نضع وقتا من الزمان، فلو تفضلت وسلمت البديهة أيضا مع الترسل حتى نفرغ للنحو الذى أنت عليه أكبر واللغة التى أنت بها أعرف والعروض الذى أنت عليه أجرأ، والأمثال التى لك فيها السبق والقدم والأشعار التى أنت فيها تقدم، فقال : ما كنت لأسلم الترسل ولا سلمت الحفظ، فقلت : الراجع فى شيئه، كالراجع فى قيئه، لكنا نقيلك عن ذلك السماح فهات أنشدنا خمسين بيتا من قبلك مرتين حتى أنشدك عشرين بيتا من قبلى عشرين مرة، فعلم أن دون ذلك خرط القتاد

تهاب شوكتها اليد فسلمه ثانيا، كما سلمه باديا، وصرنا الى البديهة، فقال أحد الحاضرين هاتوا على شعر أبى الشيص فى قوله :

أبقى الزمان به ندوب عِضاضِ ورمى سـواد قرونه ببيـاضِ

فأخذ أبو بكر يخضد، ويحصد، مقدّرا أنا نغفل عن أنفاسه، أو نوليه جانب وسواسه، ولم يعلم أنا نحفظ عليه الكلم ثم نوافقه عليها، فقال :

يا قاضـيا ما مثـلهُ من قاضِ أنا بالذى تقضى علينـا راض

فلقـد لبست ضـفية ملمومـة من نسج ذاك البارق الفضفاض

لا تغضبنّ إذا نظمت تنفسا إن الغضا فى مثـل ذاك تغاض

فلقـد بليت بشـاعر متقادر ولقد بليت بنـاب ذئب غاض

ولقد قرضت الشعر فاسمع وآستمع لنشـيد شـعر طائعـا وقِراض

فلأغلبنّ بديهـة ببـديهتى ولأرمينّ سـواده ببيـاض

فقلت : يا أبا بكر ما معنى قولك ضفية ملمومة وما الذى أردت بالبارق الفضفاض فأنكر أن يكون قاله قافية ، فواقفـه على ذلك أهل المجلس وقالوا : قد قلت! ثم قلتُ : فما معنى قولك ذئب غاض؟ فقال : هو الذى يأكل الغضا، فقلت : استنوق الجمل يا أبا بكر وآنقلبت القوس ركوة وصار الذئب جملا يأكل الغضا، فما معنى قولك إن الغضا فى مثـل ذاك تغاض فإن الغضا لا أعرفه بمعنى الإغضاء، فقال : لم أقل الغضا ، فقلت : ما قلت ؟ فأنكر البيت جملة، فقلت : ياويحك ما أغناك عن بيت تهرب منه وهو يتبعك، وتتبرأ منه وهو يلحق بك فقل لى : ما معنى قراض فلم أسمعه مصدرا من قرضت الشعر ولكن هلا قلت كما قلت وسقت الحشو الى القافيـة كما سقته؟ فقال : هذه طريقة لم تسلكها العرب فلا أسلكها . ثم دخل الرئيس أبو جعفر والقاضى أبو بكر الحربى والشيخ أبو زكريا الحيرى وطبقة من الأفاضل مع عدّة من الأراذل فيهم أبو رشيدة، فقلت : ما أحوج هذه الجماعة الى واحد يصرف عنهم عين

الكمال[1] ! وأخذ الرئيس مكانه من الصدر والدست وله فى الفضل قَدم وقِدم وفى الأدب هم وهمم وفى العلم قديم وحديث فتم المجلس وظهر الحق بنظره وقال : قد آدعيت عليه أبياتا أنكرها فدعونى من البديهة على النفس وآكتبوا ما تقولون وقولوا على هذه، فقلت :

برز الربيع لنا برونق مائه ... فانظر لروعة أرضه وسمائه
فالترب بين ممسّك ومعنبر ... من نوره بل مائه وروائه
والماء بين مصندل ومكفَّر ... فى حسن كدرته ولون صفائه
والطير مثل المحصنات صوادح ... مثل المغنى شاديا بغنائه
والورد ليس بممسك رياه إذ ... يهدى لنا نفحاته من مائه
زمن الربيع جلبت أزكى متجر ... وجلوت للرائين خير جلائه
فكأنه هذا الرئيس إذا بدا ... فى خلقه وصفائه وعطائه
يجمى أعز محجَّر وندى أغر ... محجل فى خلقه ووفائه
يعشو اليه المختوى والمجتدى ... والمجتوى هو هارب بذَمائه
ما البحر فى تزخاره والغيث فى ... إمطاره والجو فى أنوائه
بأجل منه مواهبا و رغائبا ... لا زال هذا المجد حاف فنائه
والسادة الباقون سادة عصرهم ... متمدحون بمدحه وثنائه

فقال أبو بكر تسعة أبيات قد غابت عن حفظنا لكنه جمع فيها بين إقواء و إكفاء، وإيطاء، فرددنا عليه بعد ذلك عشرين ردا ونقدنا عليه فيها كذا نقدا ، ثم قلت لمن حضر من وزير ورئيس وفقيه وأديب : أرأيتم لو أن رجلا حاف بالطلاق الثلاث لا أنشد شعرا قط ثم أنشد هذه الأبيات فقط هل كنتم تطلقون آمرأته عليه ؟ ! فقالت الجماعة : لا يقع بهذا طلاق ! ثم قلت : آنقدْ علىّ فيما نظمت، وآحكم عليه كما حكمت . فأخذ الأبيات وقال : لا يقال نظرت لكذا و إنما يقال: نظرت اليه، فكفتنى الجماعة إجابته، ثم قال : شبهت الطير

(١) تهكم يذكر بقول الشاعر :
ما كان أحوج ذا الكمال الى ... عيب يوقيه من العين

بالمحصنات وأى شبه بينهما؟ فقلت : يا رقيع ، إذا جاء الربيع ، كانت شوادى الأطيار ، تحت ورق الأشجار ، فيكنّ كأنهنّ المخدرات تحت الأستار . ثم قال لى : لم قلت مثل المحصنات مثل المغنى ، فقلت : هن فى الخدر كالمحصنات وكالمغنى فى ترجيع الأصوات . ثم قال : لم قلت زمن الربيع جلبت أزكى متجر وهلا قلت أربح متجر؟ فقلت : ليس الربيع بتاجر يجلب البضائع المربحة . ثم قال : ما معنى قولك الغيث فى إمطاره والغيث هو المطر نفسه فكيف يكون له مطر؟ فقلت : لا سقى الله الغيث أديبا لا يعرف الغيث ! وقلت له : إن الغيث هو المطر وهو السحاب كما أن السماء هو المطر وهو السحاب . وقال الجماعة : قد علمنا أى الرجلين أشعر ، وأى الخصمين أقدر ، وأى البديهتين أسرع ، وأى الرويتين أصنع . فقال أبو بكر : فأسقونى على الظفر . فقالوا : كفاك ما سقاك ! ثم ملنا الى الترسل ، فقلت : اقترح علىّ غاية ما فى طوقك ، ونهاية ما فى وسعك ، وآختر ما تبلغه بذرعك حتى أقترح عليك أربعمائة صنف فى الترسل فان سرت فيها برجلين ولم أطر بجناحين ، بل إن أحسنت القيام بواحد من هذه الأصناف ولم تخالف كل الإخلاف فلك يد السبق وقصبه ومثال ذلك أن قول لك : اكتب كتابا يقرأ منه جوابه هل يمكنك أن تكتب؟ أو أقول لك : اكتب كتابا على المعنى الذى أقترح لك وآنظم شعرا فى المعنى الذى أقترح وآفرغ منهما فراغا واحدا ، هل كنت تمد له ساعدا؟ أو أقول لك اكتب كتابا فى المعنى الذى أقول وأنص عليه ، وأنشد من القصائد ما أريده من غير تثاقل ولا تغافل حتى إذا كتبت ذلك قرئ من آخره الى أوله وآنتظمت معانيه إذا قرئ من أسفله ، هل كنت تفوّق لهذا الغرض سهما ، أو تجيل قِدحا ، أو تصيب نجحا؟ أو قلت لك : اكتب كتابا إذا قرئ من أوله الى آخره كان كتابا ، فان عكست سطوره مخالفة كان جوابا . هل كنت فى هذا العمل وارى الزند ، قاصد القصد ؟ أو قلت لك : اكتب كتابا فى المعنى الذى يقترح ولا يوجد فيه حرف منفصل من راء يتقدّم الكلمة أو دال ينفصل عن الكلمة بديهة ولا يجمّ فيها قلمك ، هل كنت تفعل ؟ أو قلت لك : اكتب كتابا خاليا من الألف واللام تصبّ معانيه على قالب ألفاظه ولا تخرجه عن جهة أغراضه ، هل كنت تقف من ذلك موقفا ممدوحا أو يبعثك ربك مقاما محمودا؟ أو قلت لك : اكتب كتابا يخلو من الحروف العواطل ،

هل كنت تحظى منه بطائل، أو تبل لهاتك بناطل؟أو قلت لك : اكتب كتابا أوائل سطوره كلها ميم وآخرها جيم، على المعنى الذى يقترح، هل كنت تغلو فى قوسه غلوة ، أو تخطو فى أرضه خطوة؟ أو أقول لك : اكتب كتابا إذا قرئ معرّجا وسرد معوّجا كان شعرا هل كنت تقطّع فى ذلك شعرا؟ بلى والله تصيب ولكن من بدنك، وتقطّع ولكن من ذقنك! أو أقول لك : اكتب كتابا إذا فسر على وجه كان مدحا و إذا فسر على وجه كان قدحا. هل كنت تخرج من هذه العهدة؟ أو قلت لك : اكتب كتابا إذا كتبته تكون قد حفظته، من دون أن لحظته ، هل كنت تثق من نفسك به الى مالا أطاولك بعده، بل ألست البائن أعلم ؟! فقال أبو بكر هذه الأبواب شعبذة ، فقلت : وهذا القول طرمذة! فما الذى تحسن أنت من الكتابة وفنونها، حتى أباحثك على مكنونها ، وأكاثرك بمخزونها، وأشبر فيها قلمك، وأسبر فيها لسانك وفمك، فقال : الكتابة التى يتعاطاها أهل الزمان المتعارفة بين الناس ، فقلت أليس لا تحسن من الكتابة إلا هذه الطريقة الساذجة وهذا النوع الواحد المتداول لكل قلم،المتناول بكل يد وفم، ولا تحسن هذه الشعبذة ؟ فقال نعم . فقلت : هات الآن حتى أطاولك بهذا الحبل وأناضلك بهذا النبل، ثم تقاس ألفاظى بألفاظك، ويعارض إنشائى بإنشائك. واقترح كتاب يكتب فى النقود وفسادها والتجارات ووقوفها والبضاعات وانقطاعها والأسعار وغلائها .

فكتب أبو بكر بما نسخته :

بسم الله الرحمن الرحيم

"الدرهم والدينار ثمن الدنيا والآخرة، بهما يتوصل الى جنات النعيم، ويخلد فى نار الجحيم، قال الله تبارك وتعالى: خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصلّ عليهم . وقد بلغنا من فساد النقود ماأكبرناه أشدّ الإكبار،وأنكرناه أعظم الإنكار، لما نراه من الصلاح للعباد،وننويه من الخير للبلاد، وتعرفنا فى ذلك مايربح للناس فى الزرع والضرع ،ويعود اليه أمر الضر والنفع".

الى كلمات لم تعلق بحفظنا .

فقلت : إن الإبكار والإنكار والعباد والبلاد وجنات النعيم ونار الجحيم والزرع والضرع أسجاع قد نبتت فى المعد ، ولم تزل فى اليد ، وقد كتبت وكتبت ، ولا أطالبك بمثل ما أنشأت فأقرأ ولك اليد . وناولته الرقعة فبقى و بقيت الجماعة وبهت وبهتت الكافة وقالوالى : اقرأه ، فجعلت أقرؤه منكوسا وأسرده معكوسا والعيون تزرق وتحار وكانت نسخة ما أنشأناه .

بسم الله الرحمن الرحيم

الله شاء إن المحاضر ، صدور بها وتملأ المنابر ، ظهور لها وتفرع الدفاتر ، وجوه بها وتمشق المحابر ، بطون لها ترشق ، آثارا كانت فيه آمالنا مقتضى على أياديه ، فى تأييده الله أدام الأمير جرى فإذا المسلمين ظهور عن الثقل ، هذا و يرفع الدين ، أهل عن الكل ، هذا يحط أن فى اليه نتضرع ونحن واقفة ، والتجارب زائفة ، والنقود صيارفة ، أجمع الناس صار فقد كريما نظرا لينظر شيمه ، مصاب وانتجعنا كرمه ، بارقة وشمناهممه على آمالنا رقاب وعلقنا أموالنا ، وجوه له وكشفنا آمالنا وفود اليه بعثنا فقد نظره بجميل يتداركنا أن ونعماءه تأييده وأدام بقاءه الله أطال الجليل الأمير رأى إن وصلى الله على محمد وآله الأخيار (١) .

فلما فرغت من قراءتها انقطع ظهر أحد الخصمين وقال الناس قد عرفنا الترسل أيضا فملنا الى اللغة ، فقلت : يا أبا بكر هذه اللغة التى هددتنا بها وحدثتنا عنها وهذى كتبها وتلك مؤلفاتها فخذ غريب المصنف إن شئت و إصلاح المنطق إن أردت وألفاظ ابن السكيت ان نشطت ومجمل اللغة إن اخترت فهو ألف و رقة وأدب الكاتب إن أردت ، وآقترح علىّ أى

(١) هذا الخطاب فى ظاهره مغلق ، ولكنه يقرأ من عكسه بسهولة فيقال :

« إن رأى الأمير أطال الله بقاءه ، وأدام تأييده ونعماءه ، أن يتداركنا بجميل نظره ، فقد بعثنا إليه وفود آمالنا ، وكشفنا له وجوه أحوالنا ، وعلقنا رقاب آمالنا على همه ، وشمنا بارقة كرمه ، وانتجعنا مصاب شيمه ، لينظر نظرا كريما ، فقد صار الناس أجمع صيارفة ، والنقود زائفة ، والتجارات واقفة ، ونحن نتضرع اليه فى أن يحط هذا الكل عن أهل الدين و يرفع هذا الثقل عن ظهور المسلمين ، فاذا جرى الأمير أدام الله تأييده فى أياديه ، على مقتضى آمالنا فيه ، كانت آثارا ترشق لها بطون المحابر ، وتمشق بها وجوه الدفاتر ، وتفرع لها ظهور المنابر ، وتملأ بها صدور المحاضر ان شاء الله .

باب شئت من هـذه الكتب حتى أجعله لك نقدا، وأسرده عليك سردا ، فقال : اقرأ من غريب المصنف رجل ماس ، خفيف على مثال مال وما أمساه! فاندفعت فى الباب حتى قرأته فلم أتردد فيه ، وأتيت على الباب الذى يليه ثم قلت آقترح غيره ، فقالوا : كفى ذلك فقلت له : اقرأ الآن باب المصادر من أخبار فصيح الكلام ولا أطالبك بسواه ولا أسألك عمـا عداه ، فوقف حماره ، وخمـدت ناره ، وقال الناس اللغـة مسلمة لك أيضـا فهاتوا غيره ، فقلت : يا أبا بكر هات العروض فهو أحد أبواب الأدب وسردت منه خمسة أبحر بألقابها وأبياتها وعللها وزحافها ، فقلت : هات الآن فاسرده كما سردته فلما برد ضجر الناس وقاموا عن المجلس يفدوننى بالأمهات والأب ، ويشيعونه باللعن والسب ، وقام أبو بكر فغشى عليه وقمت اليه فقلت :

يعـز علىّ فى الميـدان أنى قتلت مناسبى جلدا وقهـرا
ولكـن رمت شيئا لم يرمهُ سواك فلم أطق ياليث صبرا

وقبلت عينيه ومسحت وجهه وقلت : أشهد أن الغلبة له فهلا يا أبا بكر جئتنا من باب الخلطة وفى باب العشرة؟ وتفرق الناس وحبسنا للطعام ، مع أفاضل ذلك المقام ، ولمـا حلقنا على الخوان ، كرعت فى الجفان ، وأسرعت الى الرغفان ، وأمعنت فى الألوان ، وجعل هذا الفاضـل يتناول الطعام بأطراف الأظفار ، فلا يأكل إلا قضما ، ولا ينال إلا شما ، وهو مع ذلك ينطق عن كبد حرّى ويفيض عن نفس ملاى ، فقلت : يا أبا بكر بقيت لك مُنـة وفيك مسكة :

يا قوم انى أرى الأموات قد نشروا والأرض تلفـظ موتاكم إذا قبروا

فأخبرنى يا أبا بكر لم غُشِّى عليك؟ فقال : لحمى الطبع وحمى الفرو ، فقلت : أين أنت من السجع ، هلا قلت حمى الطبع وحمى الصفع! وقال السيد أبو القاسم : أيها الأسـتاذ أنت مع الجد والهزل تغلبه ، فقلت : لا تظلموه ولا تطعموه طعاما يصير فى بطنه مغصا ، وفى عينـه رمصا ، وفى جلده برصا ، وفى حلقه غصصا ! فقال أبو بكر : هذه أسجاع كنت حفظتها فقل كما أقوله : يصير فى عينك قذى ، وفى حلقك أذى ، وفى صدرك شجى ! فقلت : يا أبا بكر على

الألف تريد؟ خد الآن : بفيك البرا ، وعلى هامك الثرى ، ولا أطعمك الحـ ... إلا من ورا ، كما ترى فقال : أيها الأستاذ السكوت أولى بك ومالوا الىّ وقالوا : ملكت فأسجح ! فأبى أبو بكر أن يبقى لنفسه حمة لم ينفضها ، أو يدخر علينا كلمة لم يعرضها ، فقال : والله لأتركك بين الميمات ، فقلت : ما معنى الميمات ؟ فقال : بين مهزوم ومهـذوم ومهشوم ومغموم ومحموم ومرجوم ، فقلت ، وأتركك بين الميمات أيضا بين الهيام والصدام والجذام والحمام والزكام والسام والبرسام والهام والسقام وبين السينات فقد علمتنا طريقـة بين منحوس منخوس منكوس معكوس متعوس محسوس معروس وبين الخاآت فقـد فتحت علينا بابا بين مطبوخ مشدوخ منسوخ ممسوخ مفسوخ وبين الباآت فقـد علمتنى الطعن وكنت ناسيا بين مغلوب ومسلوب ومرعوب ومصلوب ومركوب ومنكوب ومنهوب ومغضوب . وإن شئنا كلنا بهذا الصاع ، وطاولنا بهذا الذراع ، وعرضنا عليك من هـذا المتاع ، وكاثرناك بهذه الأنواع ، ثم خرجت واحتجر فقد كان اجتمع الناس. وغلت الكروش ، ولما خرجت لم يلقونى إلا بالشفاه تقبيلا ، وبالأفواه تبجيلا ، وانتظروا خروجه الى أن غابت الشمس ولم يظهر أبو بكر حتى حضره الليل بجنوده وخلع الظلام عليه فروته .

فهذا ما علقناه عن المجلس وأديناه ، والسيد أطال الله بقاءه يقف عليه إن شاء الله .

١٦ - نثر بديع الزمان

١ — أول ميزة لبديع الزمان أنه يشعرك بفهمه للحياة ، فهو يتحدث عن أشجان وأغراض هي في صميمها ألوان للنفوس الانسانية . واذا كان هناك كتّاب يخاطبونك بما لا تفهم لأنهم يتحدثون عن نفس بعيدة عن نفسك ، وقلب أجنبيّ عن قلبك ، فان بديع الزمان يطالعك بطائفة من الأزمات النفسية والروحية هي أزماتك أنت لو درست نفسك وتطلعت الى وجدانك ، وهذا هو السر في أن بديع الزمان لا يزال أدبه حيا ، ولا تزال آراؤه وأفكاره قريبة منا على بعد العهد وتعاقب الأجيال . ومن العجب أننا نتقبل منه الزهو والخيلاء لأننا نشعر أنه في زهوه وخيلائه لا يكذب ولا يمين . ولننظر كيف يقول :

” فاني و إن كنت في مقتبل السن والعمر ، قد حلبت شطرى الدهر ، وركبت ظهرى البر والبحر ، ولقيت وفدى الخير والشر ، وصافحت يدى النفع والضر ، وضربت إبطى العسر واليسر ، و بلوت طعمى الحلو والمر ، و رضعت ضرعى العرف والنكر ، فما تكاد الأيام تريني من أفعالها غريبا ، أو تسمعني من أحوالها عجيبا . ولقيت الأفراد ، وطرحت الآحاد ، فما رأيت أحدا الا ملأت حاقتي سمعه و بصره ، وشغلت حيزى فكره ونظره “ (١) .

٢ — وهذه الفقرة تمثل شعوره بأرزاء الدهر ونكبات الحياة ، وتمثل حرصه على أن يشغل البارزين من معاصريه . وقد كانت لبديع الزمان غضبات تظهر فيها فورات نفسه وهى مضطرمة متأججة ، فنرى في كتاباته صورة نفسه وهى تتوثب كما تتوثب ألسنة الجحيم ، كقوله في خليفة أبي نصر الميكالي بهراة :

«وحدثت عن هذا الخليفة ، بل الجيفة ، أنه قال : قضيت لفلان خمسين حاجة منذ ورد ، هذا البلد ، وليس يقنع ، فما أصنع ؟ فقلت يا أحمق إن استطعت أن تراني محتاجا فاستطع

(١) ص ١٠١ ، ١٠٢ رسائل بديع الزمان .

أن أراك محتاجا اليك، أف لقولك وفعلك ، ولدهر أحوج لمثلك (١) ! » وليتأمل القارئ « ان استطعت أن ترانى محتاجا فاستطع أن أراك محتاجا اليك » فانه غاية فى التهكم اللذاع .

وفى مثل هذا المعنى يقول من كلمة ثانية :

« هذا الخليفة يزعم أنى طعام ، فلا والله إن لحمى حرام ، وفيه عروق وعظام ، ولو كنت طعاما لكنت الأكلة التى تمنع الأكلات ... ومن شتمنى من خلف ، فجزاؤه مائة ألف ، واذا انتهت الدعوة الىّ فقد عزل عزرائيل ، ولم يبق فى ولايته إلا قليل ،والله مايصلح لحمى للقديد ، ولا يحسن فوق الثريد ، و إنه ليأبى فى المضغ ، وينشب فى الحلق ، و يقلق فى البطن ، ولا يخرج من المعى إلا مع الأمعاء . وكانوا لا يصيدون ابن آوى ، وان كانوا شهاوى (٣) » .

٣ — وكان بديع الزمان شديد الحقد على أبى بكر الخوارزمى ، وكان لذلك مغرما بالنيل منه والوقوع فيه . ومرض الخوارزمى ، فكتب أحد أصدقاء بديع الزمان يهنئه بمرض عدوه فغضب لذلك و رأى فى هــذه التهنئة لؤما لا يرضى عنه كرمه ، ولا يغفر مثله نبــله ، وقذف صديقه ذاك بالكلمة الآتية :

«الحر، أطال الله بقاك ، لا سيما اذا عرف الدهر معرفتى ، ووصف أحواله صفتى ، اذا نظر علم أن نعم الدهر ما دامت معــدومة فهى أمانى ، فان وجدت فهى عوارى ، وأن محن الزمان و إن مطلت فستفد ، وان لم تصب فكأن قد ، فكيف يشمت بالمحنة من لا يأمنها فى نفسه ، ولا يعدمها فى جنسه؟ والشامت إن أفلت فليس يفوت ، و إن لم يمت فسيموت ، وما أقبح الشماتة ، بمن أمن الإماتة ، فكيف بمن يتوقعها بعد كل لحظة ، وعقب كل لفظة . والدهر غرثان طعمه الخيار ، وظمآن شربه الأحرار ، فهــل يشمت المرء بأنياب آكله ، أم يسر العاقل بسلاح قاتله ؟ وهذا الفاضل شفاه الله وان ظاهرناه بالعداوة قليلا ، فقد باطناه ودا جميلا ، والحر عنــد الحمية لا يصطاد ، ولكنه عنــد الكرم ينقاد ، وعنــد الشدائد تذهب

---

(١) ص ٥٤ (٢) ص ٣٣٩ رسائل . (٣) ص ٣٣٩

الأحقاد، فلا تتصور حالى إلا بصورتها من التوجع لعلته، والتحزن لمرضته، وقاه الله المكروه، ووقانى سماع السوء فيه، بحوله ولطفه» .

وهذه الرسالة من أعلى الرسائل فى أسلوبها، وموضوعها، وله رسالة تشبهها كتبها الى أبى عامر الضبي يعزيه فى بعض أقاربه وفيها يقول :

" أحسن ما فى الدهر عمومه بالنوائب، وخصوصه بالرغائب، فهو يدعو الجفَلى اذا ساء، ويختص بالنعمة اذا شاء، فلينظر الشامت فان كان أفلت ، فله أن يشمت، ولينظر الانسان فى الدهر وصروفه، والموت وصنوفه، من فاتحة أمره، الى خاتمة عمره، هل يجد لنفسه، أثرا فى نفسه، أم لتدبيره، عونا على تصويره، أم لعمله تقديما لأمله، أم لحيله، تأخيرا لأجله ؟ كلا بل هو العبد لم يكن شيئا مذكورا، خلق مقهورا، ورزق مقدورا، فهو يحيا جبرا، ويهلك صبرا . وليتأمل المرء كيف كان قبلا، فان كان العدم أصلا، والوجود فضلا ، فليعلم الموت عدلا . والعاقل من رفع من حوائل الدهر ماساء ليذهب ماضر بما نفع، وإن أحب أن لا يحزن فلينظر يمنة، هل يرى إلا محنة، ثم ليعطف يسرة، هل يرى إلا حسرة؟ ومثل الشيخ الرئيس من تفطن لهذه الأسرار، وعرف هذه الدار، فأعد لنعيمها صدرا لا يملؤه فرحا، ولبؤسها قلبا لا يطيره جزعا ، وصحب الدهر برأى من يعلم أن للمتعة حدا، وللعارية ردا . ولقد نعى الىّ أبو قبيصة قدس الله روحه، وبرد ضريحه، فعرضت علىّ آمالى قعودا، وأمانىّ سودا، وبكيت والسخى بما يملك، وضحكت وشر الشدائد ما يضحك، وعضضت الإصبع حتى أدميته، وذممت الموت حتى تمنيته، والموت خطب قد عظم حتى هان، وأمر قد خشن حتى لان، ونكر قد عم حتى عاد عرفا، والدنيا قد تنكرت حتى صار الموت أخف خطوبها، وجنت حتى صار أصغر ذنوبها وأضمرت حتى صار أيسر غيوبها، وأبهمت حتى صار أظهر عيوبها . الخ " .

٤ — وهــذه الرسالة تعطينا صورة من نفس ذلك الرجل الحساس . فهو هنا يدرس قيمــة الانسان وينتهى بالدرس الى أنه أثر ضئيل بين آثار الوجود ، فقــد خلق من حيث لا يريد ، ورزق من حيث لا يحتسب . فهو بهذا ألعوبة صغيرة فى يد القدر يرفعها حين يشاء، ويرمى بها فى الفناء حين يشاء .

ولا يقف بديع الزمان عند هذا الحد، وانما يمضى فيدعوك الى سياسة نفسك، فيحدثك بأن من العقل أن تجسم حسنات الدهر لتضؤل بجانبها سيئاته، ويروضك على أن تنظر حواليك لترى أن لكل إنسان نصيبه من بأساء الحياة، ويدعوك الى أن تعد لنعم الدنيا صدرا لا يملؤه الفرح، وقلبا لا يطيره الجزع، وتلك هى السياسة الرشيدة عند من يفقهون .

وقد أعطانا البديع فى هذه الرسالة أجمل صورة للجزع عند فقد الأعزاء، فقد أضحكه الحزن وأبكاه، وحدثنا بأنه بكى لأن البكاء غاية ما يملك الحر فى رد العزيز المفقود، وأنه ضحك لأن الشدائد المرة ترمى المحزون بقهقهة المجانين . وقد وصل البديع الى قرار الحكمة حين حدّثنا بأن الموت خطب قد عظم حتى هان، ووصل الى أسمى غايات الخيال حين حدثنا بأن الدنيا أبهمت حتى صار الموت أظهر مافيها من العيوب . وهو بهذا ينظر الى الوجود وكأنه عدو فاجر لا ينتهى ما لديه من الشؤم المبيّت والشر المستطير .

٥ — لكن هذه السماحة النفسية ليست سمة غالبة فى بديع الزمان، فهو فى أكثر الأحوال رجل ماكر خبيث، ومقاماته تنتهى الى فلسفة واحدة هى السخرية من العالم واقتناص ما يملكون بشتى الحيل والمداورات من غير تورع ولا استحياء . ففى المقامة الأصفهانية يحتال أبو الفتح الاسكندرى فيحتجز المصلين فى المسجد ولا يزال بهم حتى يملأ جيبه ثم يقول فى السخر من أولئك المتصدقين :

الناس خُمْرٌ بخِزّ ... وآبرز عليهم وبرز
حتى اذا نلت منهم ... ما تشتهيه ففروز

وفى المقامة المكفوفية ينشد أبو الفتح بعد أن يصل الى بغيته وقد تعامى طلبا للمال :

أنا أبو قلمون[1] ... فى كل لون أكونُ
إختر من الكسب دونا ... فان دهرك دون
زجّ الزمان بحمق ... إن الزمان زبون[2]

(١) أبو قلمون ثوب رومى من الأبريسم يظهر للعين فى ألوان مختلفة بصناعته . (٢) الزبون : الناقة التى تدفع بثفنات رجلها عند الحلب .

لا تكذبنّ بعقــل ما العقــل إلا جنــون

وفى المقامة القزوينية يعترف أبو الفتح بأن النسبة صورة من صور المنافع و يقول :

أنا حالى من الزما ن كحالى من النسب
نسبي فى يد الزما ن اذا سامــه ٱنقلب
أنا أمسى من النبيـ ط وأضحى من العرب

وفى المقامة الساسانية يقول :

هــذا الزمان مشوم كما تراه غشــومُ
الحمق فيــه مليــحٌ والعقــل عيب ولُومُ
والمــال طيف ولكن حول اللئــام يحــوم

وهذه الأبيات تمثل حقده على الأغنياء، ورميه الى أن كل غنى لئيم ، ومثل هــذا قوله فى المقامة البصرية :

الفقر فى زمن اللئــا م لكل ذى كرم علامــهْ
رغب الكرام الى اللئــا م وتلك أشراط القيامــهْ (١)

٦ — والذى يتصفح رسائل بديع الزمان ومقاماته يراه فى أكثرها يحارب معاصريه من الكتّاب والرؤساء، ولا يقع نظره على الجوانب الطيبة من حياة الناس إلا قليلا . ولايمكن أن تكون لبــديع الزمان سياسة نفسية غير تلك الخطة الصاخبة التى ألفها فى حياته وهى العنف المطبق فى البحث عن أســباب الغنى والجــاه . ومن دلائل حقده وبغيــه أن واليــا عزل وكتب اليه بعد عزله يستميل فؤاده، فكتب اليه البديع يؤنبه ويصوره بصورة المعشوق الذى انقضت أيام حسنه ولم تبق منه بقية يحتمل معها الدلال . فمن تلك الرسالة قوله :

(١) وقد تهكم بديع الزمان بالأدب وأهله غيرمرة . راجع ص ٣٩٦ حيث ترى أنه يرى الأدب واللغة والتفسير ضروبا من الحمــق «لا يبيع بها ذو عقل باقة بقل» وفى ص ٢٢٢ يرى أنه لا قرابة بين الأدب والذهب وأن الأدب لا يمكن ثرده فى قصعة ، ولا صرفه فى ثمن سلعة ، الخ .

"تناسيت أيامك إذ تكلمنا نزرا، وتلحظنا شزرا، وتجالس من حضر، ونسترق اليك النظر، ونهتز لكلامك، ونهش لسلامك . فاقصد الآن فانه سوق كسد، ومتاع فسد، ودوله عرضت، وأيام انقضت :

وعهـد نَفاق مضى ... وخطب كساد نزل
وخـدٌّ كأن لم يكن ... وخـطٌّ كأن لم يزل

ويوم صار أمس، وحسرة بقيت فى النفس، وثغر فاض ماؤه فلا يرشف، وريق خدع فلا ينشف، وتمايل لا يعجب، وتثن لا يطرب، ومقلة لا تجرح ألحاظها، وشفة لا تفتن ألفاظها! وقد بلغنى الان ماأنت متعاطيه من تمويه يجوز بعد الفلق، فى الغسق... و إفنانك لتلك الشعرات حفا وحصا . وسيكفينا الدهر مؤونة الانكار عليك، بما يزف من بنات الشعر وأمهاته اليك .

ما يفعـل الله باليهود ... ولا بعـاد ولا ثمـود
ولا بفرعون إذ عصاه ... مايعفل الشعر بالخدود (١)

وهى رسالة طويلة اكتفينا منها بهذه الفقرات، وقد تأثر بهذه الرسالة وحاكاها فى أسلوبها وموضوعها جماعة من الكتاب أشهرهم فى المتقدمين أبو المغيرة الوزير عبد الرحمن بن حزم الأندلسى (٢) وأشهرهم فى المتاخرين المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش .

٧ — ولو كان لبديع الزمان غرض يرمى اليه فى مجموع كتاباته لوصل الى أبعد حدّ من حدود النجاح لأنه أبرع من حمل القلم بين أهل عصره، ولا نعرف كاتبا التزم السجع ووفق الى الدقة والرشاقة والعذوبة كما وفق بديع الزمان . والقاعدة التى اختارها أساسا لفلسفته وهى سوء الظن بالناس تلاشى أثرها فى مقاماته لأنه أعطى لبطل تلك المقامات صورة مشوهة هى صورة الاستجداء، ثم التزم منهجا واحدا لا يختلف إلا قليلا بحيث لا يبدأ القارئ إلا وهو يعلم ما ستنتهى اليه المقامة .

ومهما يكن من شىء فلن يمكن نكران ما وفق اليه بديع الزمان من نقد طائفة كبيرة من خصال اللؤم والنفاق والضعة والإسفاف، وما الى ذلك من الهنات التى يوصم بها من تساعدهم الظروف على التغلب والاستعلاء، ثم لا يكونون فى أنفسهم وفى سلوكهم إلا برهانا على فساد الحياة ونقص الأحياء .

(١) (٨٤ — ٨٨) . (٢) الذخيرة ج ١ ص ٦٦

١٧ - عبد العزيز بن يوسف

١ — كان أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف كما وصفه الثعالبي «أحد صدور المشرق، وفرسان المنطق»(١) وكان مع تقلده ديوان الرسائل لعضد الدولة طول أيامه معدودا فى وزرائه، وخواص ندمائه، وتقلد الوزارة بعـده لأبنائه(٢) . وكان الصاحب بن عباد يقول: كتاب الدنيا أربعة: الأستاذ ابن العميد وأبو القاسم عبد العزيز بن يوسف وأبو إسحاق الصابى، ولو شئت لذكرت الرابع(٣)، يعنى نفسه .

وجملة أخباره تدل على أنه كان فى زمانه من أعلام الكتاب .

٢ — ويظهر مما أثر من أخلاقه أنه كان رجلا كريم النفس . وقد شـفع لأبى إسحاق الصابى عنـد عضد الدولة فى ساعة غضب، وتفصيل ذلك أن قوما سـعوا لإخراج الصابى من السجن فقال عضد الدولة «قد سوغته نفسه : فان عمـل كتابا فى مآثرنا وتاريخنا أطلقته» فشرع الصابى فى محبسه فى تأليف كتاب فى أخبار بنى بويه، وقيل إن بعض أصدقائه دخل عليه الحبس وهو فى تبييض الكتاب وتسويده فسأله عما يعمله فقال: أباطيل أنمقها، وأكاذيب ألفقها» فخرج الرجل وأنهى ذلك الى عضد الدولة — ودسائس الأصدقاء كثيرة يعانيها الأحرار فى جميع الأزمان ! — فأمر عضد الدولة بإلقاء الصابى تحت أرجل الفيلة، فأكب أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف ونصر بن هارون على الأرض يقبلانها ويشفعون اليه فى أمره حتى أمر باستـــحيائه(٤) .

٣ — والظاهر أن صلته بالصاحب والصابى كانت صلة وداد، ورسائله الى الصاحب كثيرة، ولكن تغلب عليها صفة التودد المشوب بالتملق(٥) . أما رسائله الى الصابى فتفيض بالعطف والحنان .

---

(١) اليتيمة ج ٢ ص ٧٦ (٢) اليتيمة ج ٢ ص ٨٧ (٣) ياقوت ج ١ ص ٣٢٨ (٤) ياقوت ج ١ ص ٣٢٥ (٥) راجع هذه الرسائل فى اليتيمة ج ٢ ص ٩٢ — ٩٤

وانظر هذه الرسالة :

« وصل كتاب مولاى بما قرب الىّ جناه ، وبعد علىّ مداه ، من محاسن لفظه ونظمه ، ومباره التى ما يزال يؤثرنى فيها بالرغائب ، ويصفينى منها بالعقائل . فوقفت منه بين آعتبار واقتباس ، وآعتذار وآغتباط ، وآستبصار فى موضع الفضيلة ، وشكر لما جمع الله لى فى وده من المنح الجزيلة ، ووجدت خطابه مفتتحا بشكوى الأيام فى انحرافها ، ومكاره أحداثها ، فاستوحشت منها لاستيحاشه ، وآستعديت عليها لاستعدائه . وشايعت المهجنين لاثارها ، والزارين على أحكامها ، لاعتراضها دون آماله ، وقدحها فى أحواله ، ولم يستبق الجمال لنفسه والفضل لأهله ، دهرٌ أناخ على مولاى بصرفه ، وآختزله دون واجب حقه» (١) .

٤ — وتمتاز رسائله فى الاخوانيات بترصيعها بحبات شعره ، فقد آبتدأ إحدى رسائله الى الصاحب بهذه الأبيات :

كتابٌ لو آن الليـل يرمى بمثله ... لألقت يدا فى حجرتيـه ذُكاءُ
تهادى بأبكار المعـانى وعُونها ... وأعيانِ لفـظ ما لهن كفاء
شـــواهد لولا أنهن أوالف ... ضرائر إلا أنهن ســـواء
لبسنا بها نعمى وألبست الربا ... خمائل روض جادهن سماء
بنان آبن عباد تعلين نوءه ... وما صـــوبه إلا حَيًّا وحِباء

وثلاث (٢) كتب تناظرت فى الحسن والاحسان ، وتقابلت فى البر والإنعام ، لا زالت أياديه قلائد الأعناق ، ومراميه مضامير السباق ، ولا آنفكت عين الله حامية له ، وكافلة به (٣) .

ويظهر أن الصابى كان كذلك يرصع رسائله بالشعر بدليل قول أبى القاسم من رسالة ثانية :

«وقفت على الأبيات التى أتحفنى بها سيدى ، وتكلفت لجوابها على ظلع فى خاطرى لطول السفار ، وآتصال حالى بالحل والترحال . ومولاى يأخذ العفو و يرضى بالميسور ، و يعذر

---

(١) اليتيمة ج ٢ ص ٩٤ (٢) معطوف على (حيا وحباء) وبذلك يتبين القارئ مهارة الكاتب فى وصل الشعر بالنثر فى سياق واحد . (٣) اليتيمة ج ٢ ص ٩١

مستأنفا على التقصير فى جواب ما يأتينى من أمثاله، مادمنا فى ملكة الهواجر، وتعب البُكر والأصائل» [1].

٥ — ومن الفنون البارزة عند أبى القاسم وصف الرسائل الاخوانية؛ كقوله فى وصف رسالة للصابى :

«عرفت كيف تنتظم فرق البلاغة، وتلتقى طرف الخطابة، وتتراءى أشخاص البيان، وتمايل أعطاف الحسن والاحسان، وقرأت لفظا جليا، حوى معنى خفيا، وكلاما قريبا، رمى غرضا بعيدا، وفصولا متباينة كساها الائتلاف صور المشاكلة، ومنحها الامتزاج صيغة المضارعة، ولحمة الموافقة، فصارت لدلالة الأول منها على الثانى، وتعلق العجز فيها بالهادى، أولاد أرحام مبرورة، وذوات قربى موصولة، تتعاطف عيونها، وتتناصف أبكاها وعونها» [2].

٦ — وعند تأمل رسائله نجده يحسن الوصف . كقوله من كتاب له الى الصاحب فى فتح عمان وإبادة الزنوج بها وما وصل الى عضد الدولة من المغانم :

« ... وكانت لأولئك الكفرة عادة اشتهرت منهم فى استباحة الناس وأكل لحومهم، وبلغ من كلبهم على ذلك أنهم كانوا يتنقلون بينهم اذا شربوا بأكف الناس، وسأل مولاى عن هذا النقل الغريب فحكى لى عنهم أنه لا شىء فى الانسان ألذ من كفه وبنانه، وكان فى ذلك اليوم الذى شارف فيه طلائع العسكر المنصور باب عمان ثار من بعض المكامن طوائف من أولئك الكلاب فكبا ببعض الغلمان دابته فاختلسوه واقتسموه بينهم وأكلوه فى الوقت، وتعجب الناس من ضراوتهم وقساوتهم، وقد أبادهم الله تعالى جده، وطهر البر والبحر من عبثهم ومعرتهم، فانقاد أهل جبال عمان باخعين بالطاعة، معتصمين بذمة الجماعة، وتمت نعمة الله على مولانا فى هذا الفتح، وكملت له مغانم الأجر، ووصل أمس غنائم تلك الناحية وفيها فيل صغير بقد الفرس ما عرف ألطف ولا أظرف منه، وفى الغنائم كل ما تشتهى

(١) ص ٩٢ (٢) ص ٩٣

الأنفس وتلذ الأعين . والله تعالى يجنى مولانا ثمار الأرض برا و بحرا، وسهلا وجبلا، بمنه وكرمه . آمين".

٧ — وكانت له بحكم منصبه جولات فى الرسائل السلطانية، نذكر منها قوله من كتاب عن الطائع لله الى ركن الدولة لما ورد عضد الدولة العراق :

"فأنت وعضد الدولة — كلأ كما الله ! — يدا امير المؤمنين فيما يأخذ ويذر، وناظراه فيما يقرب ويبعد، بكما آفترش مهاد الملك بعد إقضاضه، ورفع منار الدين بعد آنخفاضه، فأبشرا من الله تعالى بالحسنى، إن الله لا يضيع أجر المحسنين"(١) .

ومن كتاب عن عضد الدولة فى عود الطائع الى بغداد والتقائه معه :

"ولما ورد أمير المؤمنين بالنهروان أنعم بالاذن لنا فى تلقيه على الماء، فامتثلناه وتقبلناه وتلقانا من عوائد كرمه، ونفحات شيمه، والمخائل الواعدة بجميل آرائه، وعواطف أنحائه، و رعاية ما كنفنا بمنه، وشايعنا عزه، الى أن وصلنا الى حضرته البهية، فى الجديدية، التى استقبلت منه بسليل الملك، وقعيد الخلافة، وسيد الأنام، والمستنزل بوجهه در الغمام، فتكفأت علينا ظلال نوره وبشره، وغزتنا جهات تفضله وفضله، وقرب علنا سنن خدمته، وأنالنا شرف القعود بين يديه، على كرسى أمر بنصبه لنا عن يمينه، وأمام دسته، وأوسعنا من جميل لقياه، وكريم نجواه، ما يسم بالعز أغفال النعم، و يضمن الشرف فى النفس والعقب، و يكفل من الفوز فى الدين والدنيا بغايات الأمل . وكان لنا فى الوصول اليه، والقعود بين يديه، فى مواقع ألحاظه، وموارد ألفاظه، مراتبُ لم يعطها أحد فيما سلف، ولم تجُد الأيام بمثلها لمن تقدّم" .

٨ — وليس بين أيدينا من أخباره ورسائله ما يعطينا صورة صحيحة من نفسه وأخلاقه، والذى يمكن الجزم به أنه كان دقيق العبارة رصين الأسلوب، والى القارئ هذه الكلمات مقتبسةً من رسائله القليلة التى أعفاها الزمان من الضياع .

---

(١) ص ٨٧ (٢) ص ٨٨

"وأجنهم الليل فادرعوه مقتادين بخزائم أنوفهم، الى مصارع حتوفهم" .

"سار الى سدّة دار الخلافة والسعود تشايعه، والميامن تواكبه، وطلائع الآمال تشرف عليه، وثغر الاسلام يبتسم اليه" .

"وقد كان الغضنفر بن حمدان حين نفضته المذاهب، ولفظته المهارب، وأقلقته عن مجاثمه المكايد والكتائب، تطوع الى بلاد الشام يتنقل بين مصارع يحسبها مراتع، ومجاهل يعدها معالم، يروم انتعاشا والجد خاذله، ويبغى انتياشا والبغى طالبه" .

"ولما ضاق عن هذا المخذول حلمنا باتساع غوايته، ووعر الطريق الى استبقائه، استخرنا الله تعالى فى استرجاع ما ألبسناه من النعم" .

" إن الله سائلك عن الخَطرة والخَطفة، واللحظة واللفظة " .

" ادّرعْ من ثوب عفافك، ما يشمل كافة أطرافك " .

" احذروا أن ينقلكم الله بأقدامكم، الى مصارع حمامكم " .

" التقوى هى العدّة الوافية ، والجُنة الواقية ، والتجارة الرابحة ، والسعادة السانحة ، والجلاء للشبهة، والضياء للغمة " .

" سيعيض الله من حَرّ الهواجر بَرد الظلال، ومن قلق الركاب، نجح الإياب " .

" أيقظوا قلوبكم من سِنة الخواطر، واحبسوا ألحاظكم عن محظور المناظر " .

الفهرس المفصل

الباب الرابع

كتاب النقـــد الأدبى

البـاب الخـامس

كتاب الآراء والمذاهب

البـاب السادس

كتاب الوسائل والعهـــود

١ – أبو الفضل بن العميد

٢ – نثر ابن العميد

٣ – أبو حفص بن برد

٤ – أبو المغيرة بن حزم

١٦ ــ نثر بديع الزمان

١٧ ــ عبد العزيز بن يوسف

فهرس الاعلام (١)

حرف الألف

(١) فى هذا الفهرس أعلام قليلة مكررة بسبب ورودها مختلفة الكنى والألقاب فى صلب الكتاب .

حرف البـاء

حرف التاء

حرف الثـاء

حرف الجيم

حرف الحـاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الذال

حرف الراء

حرف الزاى

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الضـاد

حرف الطـاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف المـيم

حرف النون

حرف الواو

حرف الهاء

حرف اليـاء

جمع مواد هذا الفهرس فضيلة الأستاذ على عبد الحميد مبارك، ورتبه حضرة سليمان فهمى مبارك افندى : فلهما من المؤلف أجزل الثناء .

المراجع

الغرض من هـذه المراجع هو تحـديد الطبعات التى اعتمدنا عليها عنـد تحرير الشواهد أو نقد بعض الآراء ليسـتطيع القارئ الرجوع اليها حين يشاء، ولم نرد آستقصاء كل ما رجعنا اليه عند تأليف هذا الكتاب وانما اكتفينا بمـا لم يكن بدّ من الاشارة اليه فى معرض البحث والتحقيــق (١) .

إحياء علوم الدين — الغزالى — القاهرة — ١٢٧٨

الأخلاق عند الغزالى — زكى مبارك — ١٩٢٤

الأدب الجاهلى — طه حسين — القاهرة ١٩٢٨

أدب الكاتب — ابن قتيبة — القاهرة ١٩٢٧

أدب الكتّاب — الصولى — القاهرة ١٣٤١

أدبيات اللغة العربية — عاطف بركات — القاهرة ١٩٠٩

إرشاد الأديب، الى معرفة الأديب (هو معجم الأدباء) .

أسواق الذهب — أحمد شوقى .

الأغانى (٢١ جزء) — الأصبهانى — طبع دار الكتب المصرية وطبع الساسى .

الأمالى — القالى — طبع بولاق ١٣٢٤

بغية الوعاة — السيوطى — القاهرة ١٣٢٦

بلاغة العرب فى الأندلس — أحمد ضيف — القاهرة ١٩٢٤

البيان والتبيين — الجاحظ — القاهرة ١٣٣٢

تاريخ الأدب العربى — أحمد الزيات — ١٩٢٠

(١) راعينا فى تواريخ الطبعات ما أثبته الناشرون، والقارئ لا يصعب عليه تمييز السنة الهجرية من السنة الميلادية .

التحفة البهية — الاستانه — ١٣٠٢

تجارب الأمم — ابن مسكويه — طبعة مرجوليوث .

التفضيل بين بلاغة العرب والعجم — أبو هلال العسكرى (ضمن مجموعة التحفة البهية) .

ثمـار القلوب — الثعالبى — القاهرة .

تهذيب الأخلاق — ابن مسكويه — ١٣٢٩

حب ابن أبى ربيعة وشعره — زكى مبارك — الطبعة الثالثة .

حكاية أبى القاسم البغدادى — أبو المطهر الأزدى — طبع هيدلبرج .

جواهر الألفاظ — قدامة بن جعفر — الطبعة الأولى . .

الحيوان — الجاحظ — القاهرة .

الخصائص — ابن جنى — الطبعة الأولى .

خطب ابن نباتة — بيروت ١٣١١

درة الغواص — الحريرى — الطبعة الأولى .

دلائل الاعجاز — عبد القاهر الجرجانى — القاهرة ١٣٣١

ديوان أبى نواس — طبعة دمشق .

ديوان الشريف الرضى — طبعة بيروت .

الذخيرة — ابن بسام — مخطوط بدار الكتب المصرية .

الرسالة الحاتمية (ضمن مجموعة التحفة البهية) .

رسائل اخوان الصفا — القاهرة ١٩٢٩

رسائل بديع الزمان — بيروت .

رسائل البلغاء — كرد على — القاهرة ١٩١٣

رسائل الجاحظ — القاهرة ١٣٢٤

رسائل الخوارزمى — القاهرة ١٢٧٩

رسائل الصابى — القاهرة

رسالة الغفران — المعرى — القاهرة ١٩٢٥

الرسالة العذراء — ابن المدبر — طبع دار الكتب المصرية ١٩٣١ (شرح زكى مبارك) .

زهر الآداب — أربعة أجزاء — الحصرى — ١٩٢٥

سحر البلاغة — الثعالبى — دمشق .

سر الفصاحة — الخفاجى — مخطوط بدار الكتب المصرية .

شرح نهج البلاغة — ابن أبى الحديد — القاهرة ١٣٢٩

الصاحبى — ابن فارس — القاهرة ١٩١٠

طبع الأعشى — القلقشندى — طبع دار الكتب المصرية .

الصداقة والصديق — التوحيدى — القاهرة ١٣٢٣

الصناعتين (فى مجلدين) — أبو هلال العسكرى — ١٣٢٠

صهاريج اللؤلؤ — توفيق البكرى — القاهرة ١٣٢٠

ضحى الاسلام — أحمد أمين — ١٩٣٣

طبقات الشعراء — ابن سلام — القاهرة ١٣٣٢

طبقات النحاة — الأنبارى — القاهرة ١٩٢٤

طوق الحمامة — ابن حزم — ليدن ١٩١٤

العقد الفريد — ابن عبد ربه — القاهرة ١٣٢١

عيون الأخبار — ابن قتيبة — طبع دار الكتب المصرية .

فحول البلاغة — توفيق البكرى — القاهرة ١٣١٣

الفرائد والقلائد — الثعالبى — ١٣١٧

فقه اللغة — الثعالبى — القاهرة ١٩٢٧

الفوز الأصغر — ابن مسكويه — الطبعة الأولى .

الفهرست — ابن النديم — طبع القاهرة .

كتاب الكتاب — ابن درستويه — بيروت ١٩٢١

كليلة ودمنة — ابن المقفع — القاهرة ١٣٢٧

كمال البلاغة — اليزدادى — القاهرة ١٣٤١

الكنايات — الثعالبي — القاهرة ١٩٠٨

المثل السائر — ابن الأثير — بولاق ١٢٨٢

محاضرات الراغب الأصفهانى — الطبعة الأولى .

مصارع العشاق — جعفر بن أحمد — القاهرة ١٩٠٧

معجم الأدباء (سبعة مجلدات) — ياقوت — طبعة مرجوليوث ١٩٢٣

معجم البلدان (ثمانية مجلدات) — ياقوت — القاهرة ١٣٢٤

المقابسات — التوحيدى — القاهرة ١٩٢٩

المكافأة — أحمد بن يوسف — القاهرة ١٩١٤

مقامات بديع الزمان — بيروت .

مقامات الحريرى — طبع الحلبي .

مقدّمة ابن خلدون — القاهرة ١٣٢٢

من غاب عنه المطرب — الثعالبى — طبع الاستانه .

مختارات المنفلوطى .

الموشح — المرزبانى — القاهرة ١٣٤٣

الموشّى — أبو إسحاق الوشاء — ليدن .

الموازنة بين الطائيين — الآمدى — بيروت .

الموازنة بين الشعراء — زكى مبارك — القاهرة ١٩٢٦

نثر النظم ، وحل العقد — الثعالبي — القاهرة ١٣١٧

المخصص — ابن سيده — الطبعة الأولى .
نشوار المحاضرة — التنوخى — طبعة مرجوليوث .
نفح الطيب — المقرى — طبع ليدن .
نقد الشعر — قدامة بن جعفر — الآستانه ١٣٠٢
نقد النثر — قدامة بن جعفر — القاهرة ١٩٣٣
نهاية الأرب — النويرى — طبع دار الكتب المصرية .
نهج البلاغة — على بن أبى طالب — ١٩٢٥
الوساطة — أبو الحسن الجرجانى — صيدا ١٣٣١
الوسيط — أحمد السكندرى ومصطفى عنانى — ١٩٢٩
وفيات الأعيان — ابن خلكان — القاهرة ١٢٩٩
يتيمة الدهر — الثعالبي — طبعة دمشق .

Encyclopédie de l'Islam

Huart. — Littérature Arabe. Paris 1923.

Marçais. — Origines de la prose littéraire arabe (Revue Africaine 1er trimestre 1927).

Mez. — La Renaissance de l'Islam (traduction inédite de M. Ruch).

— Abulkasim. (Heidelberg 1920).

Mubârak. — La Prose Arabe au IVe siècle de l'Hégire.

-- Paris 1931.

كمل طبع الجزء الثانى من كتاب "النثر الفنى فى القرن الرابع"
بمطبعة دار الكتب المصرية فى يوم الخميس ١٦ شوال سنة ١٣٥٢
(أول فبراير سنة ١٩٣٤) م   محمد نديم
ملاحظ المطبعة بدار الكتب المصرية

ديوان زكى مُبارك

مقتطفات من بعض مقالات الكتّاب والشعراء الذين نقدوا هذا الديوان

نوصى قراءنا بالاطلاع على مقدّمة هذا الديوان، بل بالامعان فيها، فقد أرّخ فيها صاحب الديوان حياته الأدبية وحياته العاطفية الشعرية بصفة خاصة، ولولا ضيق المقام لآثرنا نشرها برمتها فهى نموذج من النثر الفنى الرشيق الجميل ... الدكتور زكى مبارك شاعر غنائى بطبعه : فلفظه موسيقى كصوته المعروف لخلانه . وشعره يحوم حول العاطفة ويقتات بها . سواء أكانت عاطفة جنسية أم وطنية . ولو عبر شاعرنا عن عاطفة الوطنية نظما بدل حصرها فى نثره الفنى لكان لنا منه ذخيرة شعرية قيمة على مدى الزمن ... وشعر ديوانه صور شتى من عواطفه . وخواطره هى مرآة نفسيته ونظراته الى الحياة، وهو أمين بفطرته فى تصوير نفسيته بهذا الشعر جميعه، وكفى بهذا الصدق المطبوع فى التعبير فخرا لأى شاعر، فان هذه هى الصفة الخالدة التى لا يقال عنها أى نقد، والتى تستنكر بجانبها المقارنة والتفضيل .

مجلة أبولو الشعرية

⁂

لعل المقدّمة التى كتبها الدكتور زكى مبارك خير ما يكتب فى تحليل شعره : فقد تجرد كناقد من ذاتيته وعمد الى ما يعلمه عن نفسه فجعله أساسا لتلك النظرة النقدية التى وصف فيها شعره ونفسه . قال عن نفسه : (فان الشاعر نفسه يحدّثنا فى مواطن كثيرة من مؤلفاته الأدبية والوجدانية بأنه يجهل قلبه كل الجهل) وأشار فى الموضوع نفسه الى رسالة كان كتبها فقال : (وأعيذ عليك يا صديقى أن الأزمة الباقية هى أزمة القلب فقد فهمت كل

شىء وبقى قلبى كالغابة المجهولة فى ضمير الظلماء) وكلاهما قول شاعر ... وإنك لترحب إذ تقرا أشعار هـذه المجموعة بإشراق ديباجتها وجرسها ، والإجادة فى آختيـار ألفاظها . ومن غرر الديوان قصيدة (غريب فى باريس) .

محرر المقتطف

* * *

نقلنا من هذا الديوان صفحة يخاطب فيها المؤلف أهـل أسيوط وهى مثال حسن لسائر القصائد والمقطوعات . وأحسن ما فى الدكتور زكى مبارك أنه يذكر المدن المصرية ويصف مغانى الطبيعة على ضفاف النيل .

محرر المجلة الجديدة

* * *

لعل الكثيرين من قراء العربية لا يجهلون الأديب النابغة الدكتور زكى مبارك ، ولعـل الكثيرين يعرفون أنه جمع بين كثير من المواهب والصفات، فهو كاتب وشاعر ومن متخرجى الأزهر والجامعة، ومن أبناء سنتريس وباريس، ومن رجال التعليم والصحافة أيضا . وعلى الجملة هو من الشبان الذين اعطوا حكمة الكهول وتدقيقاتهم وتحقيقاتهم، ومن الكهول الذين لهم نشاط الشبان وثورة الشباب ... جمع فى هذا الديوان كثيرا مما فاضت به عاطفته وجادت به قريحته الخصبة من قصائد فى الحب والمجد والشباب والجمال ، وأهداه تحفة ممتعـة لقراء العربية يتصفحونها فيرون فيها نفوسهم كما يصورها الخيال الصادق والشعور الفياض والأحلام اللذيذة، ويقرأون فيها نوعا من الشعر جديدا بخياله وأفكاره وصوره، قديما بنسجه العربى ، وأسلوبه الأدبى، ونسجه المحكم الذى لم يفسده شرود عن القواعد ولا تجنّ على أصول اللغـة بدعوة الابتكار والتجديد .

محرر الهلال

* * *

ديوان زكى مبارك مجموعة من حالاته النفسية فى الفراق والبعد والشكوى والحنين وذكر الديار والأحباب . وفى شـعره الطابع العربى الصميم، وهو نتيجة حفظه ثلاثين ألف بيت فى حداثته من الشعر القديم .

محرر الحديث

* * *

أهدانا الأستاذ زكى مبارك مجموعة من شعره ، سماها بالعربية " ديوانا " و بالفرنسية " قصائد غرامية " والتسمية الثانية أحق أولى ... و إن قارئ قصائد الأستاذ مبارك ليدرك من أول وهلة أنه تأثر بالأدب الغربى الى حدّ بعيد ، و لا غرو فالأستاذ أديب فى الفرنسية كما هو أديب فى العربية .

محرر جريدة الهدى

* * *

الدكتور زكى مبارك عالم وأديب وقد طالع له القرّاء فصولا رائعة فى مختلف الصحف والمجلات . ولكن الدكتور زكى مبارك لايكتفى بمثل هذه الأبحاث العلمية المحضة، بل يعنى كذلك بأدب الخلق والابتداع والنقد وله فيه مؤلفات مشهورة ككتاب (حب آبن أبى ربيعة وشعره) وكتاب « ذكريات باريس » . وقد أخرج هذه الأيام ديوان شعر يدل أبلغ الدلالة على إحساس فياض وشعور قوى وشاعرية متقدة تنعكس فيها شتى العواطف الانسانية ويمتاز شعر الدكتور زكى مبارك بشىء من تعادل قوى العاطفة والعقل فيه فهو ليس بالشعر الجاف النابع من العقل وحده وليس بالشعر المفكك الصادر عن العاطفة المشوشة ولذلك تلمح فيه أثر الأسلوب المتين والصياغة الحلوة والنظام والتناسب والانسجام . وفى وسعنا أن نقول إن ديوانه جهد عظيم للتوفيق بين نزعات الشعر العصرى القائم على قوة الملاحظة والتحليل والشعر العربى القائم على قوة الخيال و بلاغة العبارة .

مجلة الأسبوع ابراهيم المصرى

* * *

كان همى حين تصفحت هذا الديوان أن أتحسس من روح الشعر : هل استقر فيه أو هو محوِّم عليه على قرب أو بعد، أو أنه لم يعمره أبدا ولم يطل عليه من قرب أو من بعد . وقد فرحت لصديق الوفى الدكتور زكى مبارك حين رأيت روح الشعر يتقمص ديوانه ويشيع فيه الحركة ويجيل فيه الحياة ... قرأت فى هذا الديوان قصائد قد بلغت الغاية فى حسن

النظم وقوة المعنى وجمال الأسلوب . ذلك الى إحكام فى ربط المعانى بعضها ببعض وبراعة فى حسن السياق مما لا يتهيأ ذلك كله إلا للفحول من الشعراء .

الاهرام محمد خالد

***

مزية شعر الدكتور زكى مبارك التى تبدو لى هى حسن السبك وجودة الصياغة . ولقد نسيت معانيه بعد طى الديوان ولم يعلق بنفسى منها أثر ولم يستقر فى ذاكرتى لها طيف . ولكن الدكتور زكى مبارك أديب كبير وبحاثة له آثاره المشهورة ودراساته المعروفة وعالم من كبراء العلماء، وله فى ذلك فضل غير منكور لا يزيده أن يكون شاعرا ولا ينقصه أن لا يكون.

البلاغ إبراهيم عبد القادر المازنى

***

شعر زكى مبارك يطّرد فيه الماء، ديباجة مشرقة وكلام منسجم ولفظ منضد. شعر منبجس من نبع البحرى ومنحدر من جنابه ... ثم ان هنالك ما يبعثنى على أن أوثر شعر الدكتور زكى مبارك على قصائد لبعض الشعراء المحدثين . ذلك بأنك لا ترى فى قوافيه قلقا ولا نفورا ولا عيبا ولا تراها مستكرهة على مواضعها ... وإنا لنراه يجيد الشعر حين يستلهم صبوته . والذى يؤخذ من هذا أن فى دخيلة نفس زكى مبارك ميلا شديدا الى الفتك، ولقد أطاعه قليلا فأجاد وعصاه كثيرا فكبا .

الاهرام بشر فارس

***

لقد آزدحمت مكتبات الأدباء بمؤلفات الأديب الممتاز النابغة الدكتور زكى مبادك وها هو ذا يخرج ديوانه للناس . ومهما حاول الكاتب أن يقول عن شعر زكى مبارك فحسبه أنه لا يقول شعرا لمجرد أن يملأ صفحة أو صفحتين ولكنه يقوله عند ما يمتلئ قلبه رغبة فى أن يقول الشعر، فشعر الدكتور زكى مبارك وحى هذا القلب الكبير الناضج الذى غمرته الأيام بحادثاتها

وصهرته فى أتّون تجاريبها وأخرجتـه لصاحبه قطعة من الاحساس السامى الدقيق ... تقرأ ديوان الدكتور زكى مبارك من الألف للياء فتحس له فى نفسك راحة وتستشعر بلذة وتدرك ما ذا عسى أن يريد قوله، أهو جادّ أم عابث، أهو ضاحك أم باك، أهو متحمس أم متريث، أهو عاشق أم هو مدنف ؟ أنت تقف على هـذه الخواطر وتدركها بنفسك، وأنت تنصف هذا الشاعر الذى ينشد بقلبه أغاريد سامية فى هذه الحياة . وثمة عقيدة تخامرك هى أن هذا الشاعر الفنان قد خلق ليعيش فى عزلة عن الناس وأن يحيا بعيدا عن ضوضاء الحياة ومعه من قلبه قيثارة عجيبة، وإن كان ضنينا بشعره كما تضن الحياة بالنبوغ .

الصباح محمد على غريب

* * *

كان لا بدّ من أن يصدر الدكتور زكى مبارك ديوان شعره بعد ما أتحف الأدباء بطائفة طيبة من نثره وأبحاثه وتعليقاته على الكتب الأدبية، وكان موفقا فى نظمه كما هو موفق فى نثره وخطبه، لأن الدكتور زكى مبارك استطاع أن ينشئ نفسـه نشأة أدبية ممتازة ساعده عليها استعداده الفطرى وما أحاط به من ضروب شتى . وفى الديوان مجموعة طيبة من الشعر العصرى النفيس . وهو يلبس شعره ديباجة بدوية، ورقة حضرية . وللديوان مقدّمة بديعة كتبها الشاعر بنفسه ولم يُسبق اليها فيما أعلم .

المقطم محى الدين رضا

* * *

للدكتور زكى مبارك مكانة محبوبة بين الشـباب، لأنه يكتب بروح الشـباب وينظم بعواطف الشباب، ويرى بعين آمالهم وأحلامهم . وهو فى الحياة عصامى وفى الأدب يكاد يكون عصاميا، ولذلك كان لما يكتبه وينظمه رونق ممتاز يختص به. وقد أصدر أخيرا ديوانا من الشـعر الطريف، الذى يجمع بين حسن الديباجة ومتانة الأسلوب وبين الافكار المبتكرة والخواطر الفذة والصور النفسية الجـذابة . فنهنئ الدكتور زكى بهذا الديوان، ونهنئ القرّاء بهذه الهدية التى يهديها اليهم .

المصور طاهر الطناحى

مكتبة لسان العرب

(مطبعة دار الكتب المصرية ٦١/١٩٣٢/٣٠٠٠)